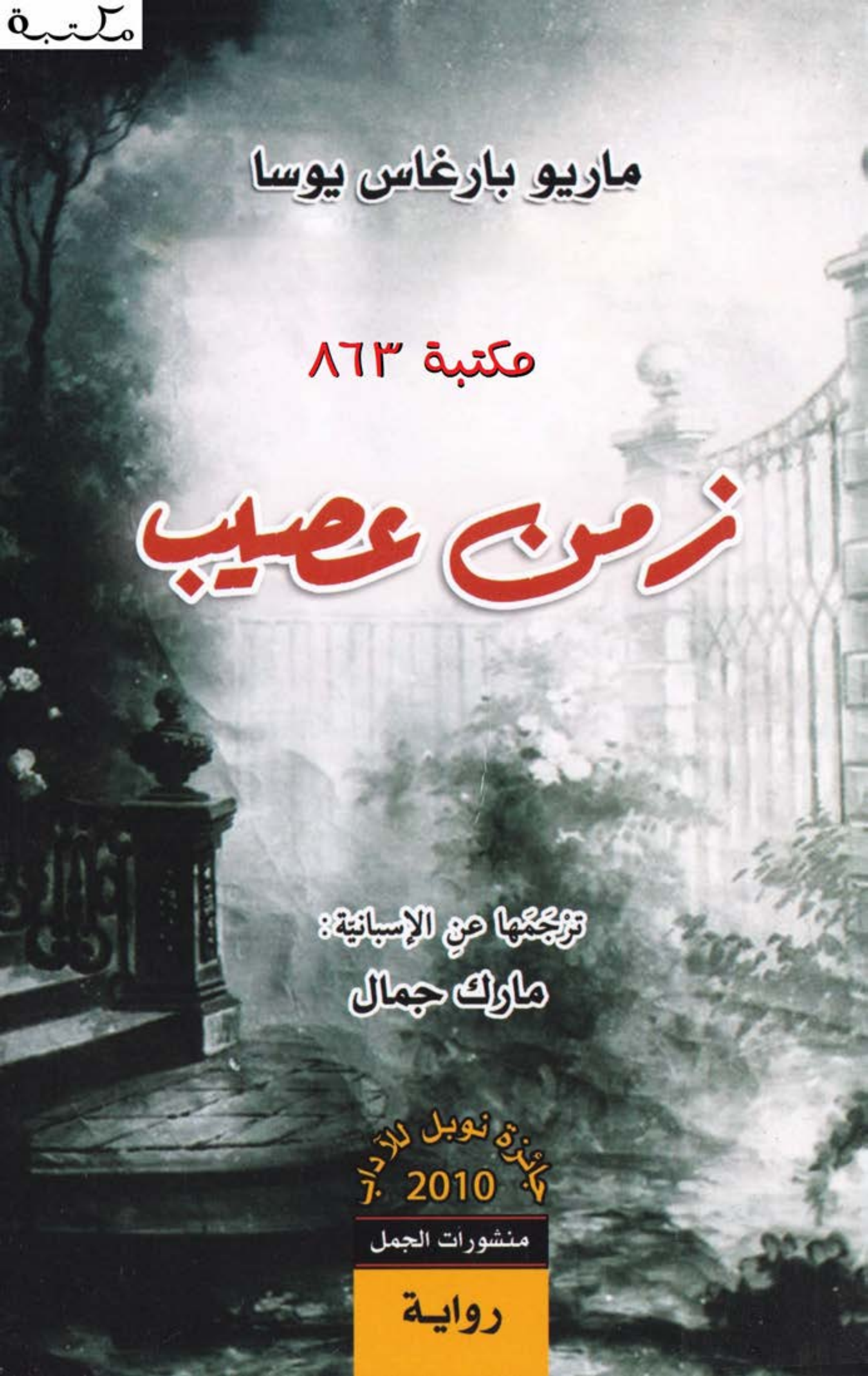

مكتبة

ماريو بارغاس يوسا

مكتبة ٨٦٣

زمن عصيب

ترجمها عن الإسبانية:

مارك جمال

جائزة نوبل للآداب 2010

منشورات الجمل

رواية

مكتبة | 863
سُر مَن قرأ

ماريو بارغاس يوسا: زمن عصيب

ماريو بارغاس يوسا

مكتبة 863
سُر مَن قرأ

زمن عصيب

رواية

ترْجَمَها عنِ الإسبانيّة:
مارك جمال

GOBIERNO DE ESPAÑA
MINISTERIO DE CULTURA Y DEPORTE
DIRECCIÓN GENERAL DEL LIBRO Y FOMENTO DE LA LECTURA

Esta obra ha sido publicada con una subvención del Ministerio de Cultura y Deporte de España.

نُشر هذا العمل بدعم من وزارة الثقافة والرياضة الإسبانية

منشورات الجمل

مكتبة ١ ٧ ٢٠٢٢
t.me/t_pdf

ماريو بارغاس يوسا: زمن عصيب، تَرْجَمَها عنِ الإسبانيّة: مارك جمال، رواية

Mario Vargas Llosa: Tiempos Recios

© Mario Vargas Llosa, 2019

الطبعة الأولى ٢٠٢١

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ٢٠٢١

© *Al-Kamel Verlag 2021*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

«كان زمنًا عصيبًا!»

سانت تريزا الأبيلاوية

إلى أصدقائي الثلاثة:

سوليداد ألباريس

توني رافول

بِرناردو بيغا

"I'd never heard of this bloody place Guatemala until I was in my seventy-ninth year". WINSTON CHURCHILL[1]

(١) «لم أكُن قد سمعتُ قطّ بذلك المكان اللعين، غواتيمالا، حتى بلغت التاسعة والسبعين من العمر». ونستون تشرشل

مكتبة
t.me/t_pdf

ما قبل

على الرغم من جهل الغالبية العظمى من الناس بأمرهما، وعلى الرغم من ظهورهما في كتب التاريخ على قدر كبير من الاستحياء، فمن المُرجَّح أن يكون الشخصان الأكثر تأثيرًا في مصير غواتيمالا، ومصير أمريكا الوسطى بأسرها في القرن العشرين، بطريقة أو بأخرى، هما إدوارد ل بيرنيز وسام زيموراي، اللذين يستحيل أن يختلف أحدهما عن الآخر أكثر مما اختلف بالفعل، في الأصل والمزاج والمهنة.

وُلِد زيموراي عامَ ١٨٧٧، في موقع لا يبعد عن البحر الأسود. ولأنه كان يهوديًا في حقبة حافلة بالمذابح المُروِّعة التي ارتُكِبَت على الأراضي الروسية، فقد ولَّى هاربًا إلى الولايات المتحدة، التي وصل إليها ممسكًا بيد خالته، قبل أن يتمّ الخامسة عشرة. لاذ كلاهما بمنزل بعض الأقرباء المقيمين في سيلما، ألاباما. كان إدوارد ل بيرنيز أيضًا ينتمي إلى عائلة من المهاجرين اليهود، ولكنها من طبقة راقية اجتماعيًا واقتصاديًا، زد على ذلك وجود شخصية لامعة بين أفراد العائلة: خاله سيغموند فرويد. اشتركا في الديانة اليهودية، وإن لم يكُن أيٌّ منهما كثير التديّن. أما في ما عدا ذلك، فقد اختلف كلٌّ منهما عن الآخر اختلافًا شديد. كان إدوارد ل بيرنيز يفتخر بأنه الأب الشرعي لـ«العلاقات العامة»، ذلك التخصص الذي لا يُعَدّ هو مبتكره، وإن كان هو الذي بلغ به أمداءً عصية على التوقع، على حساب غواتيمالا، حتى جعل منه السلاح السياسي والاجتماعي

والاقتصادي الرئيسي في القرن العشرين. تمَّ له ذلك فعلاً، وإن وقع إدوارد ل بيرنيز في مبالغات مَرَضية أحيانًا، مدفوعًا إلى ذلك بمشاعر الولع بالذات. كان أول لقاء بينهما عام ١٩٤٨، العام الذي شرعا خلاله في العمل معًا. إذ طلب سام زيموراي لقاءه، فاستقبله بيرنيز في المكتب الصغير الذي كان يملكه آنذاك في قلب مانهاتن. ومن المُرجَّح أن ذلك الرجل ضخم الجرم، ذا الثياب الرثة، والذقن غير الحليق، والمعطف الكالح، وحذاء الحقل، الذي لا يلفّ حول عنقه ربطة، لم يترك في أول الأمر سوى أثرًا واهيًا في نفس بيرنيز، صاحب البدلة الأنيقة، والحديث اللبق، وعطور ياردلي، والمسلك الأرستقراطي.

ـ حاولتُ مطالعة الكتاب الذي ألَّفتَه أنت بعنوان «بروباغاندا»، فلم أفهم منه الكثير. ـ هكذا استهلَّ زيموراي حديثه إلى أخصائي الدعاية. كان يتحدَّث الإنجليزية بمشقّة، كمن يُشكِّك في كل كلمة يقولها.

ـ ولكنه كُتِب بلغة في غاية اليسر، في متناول أي شخص أمّي. ـ سامحه بيرنيز على ما بدر منه.

ـ يُحتمَل أن يكون قصورًا من جانبي. ـ أقرَّ الرجل الضخم، وهو لا يشعر بأدنى أثر للضيق ـ الحق أنني لستُ قارئًا على الإطلاق. في طفولتي، مررتُ بالمدرسة مرورًا عابرًا، في روسيا، ولم أُتقِن الإنجليزية قطّ، كما يمكنك أن ترى بنفسك. والأمر يزداد سوءًا متى كتبتُ الرسائل، التي تأتي حافلة بالأخطاء الإملائية. تهمّني الأفعال أكثر مما تهمّني الحياة الفكرية.

ـ حسنًا. في هذه الحالة، لا أدري كيف أستطيع خدمتك يا سيد زيموراي. ـ قال بيرنيز وهو يهمّ بالنهوض.

ـ لن أهدر من وقتك الكثير. ـ قطع حديثه الآخر ـ أدير شركة تستورد الموز من أمريكا الوسطى إلى الولايات المتحدة.

- يونايتد فروت؟ - سأل بيرنيز متفاجئًا، وهو يتفحَّص الزائر صاحب الهيئة الرثة بقدر أكبر من الاهتمام.

- يبدو أن سمعتنا رديئة جدًّا في الولايات المتحدة وجميع أنحاء أمريكا الوسطى، أي البلدان التي نعمل فيها. - تابع زيموراي حديثه، وهو يهزّ كتفَيْه - ويبدو أن حضرتك الشخص القادر على إصلاح هذا الوضع. جئتُ أنصّبك مدير العلاقات العامة في الشركة. خلاصة القول: انتقي المنصب الأحبّ لنفسك. وحدِّد لنفسك الراتب الذي تراه أيضًا، اختصارًا للوقت.

وهكذا بدأت الصلة التي جمعَت بين هذين الرجلَيْن اللذين يختلف كلٌّ منهما عن الآخر: أخصائي الدعاية المرهف الذي كان يخال نفسه أكاديميًّا ومُفكِّرًا؛ وسام زيموراي الفظّ، الذي صنع نفسه بنفسه، رجل الأعمال المغامر الذي بدأ نشاطه بمُدَّخرات قدرها مئة وخمسون دولار، ثم أقام الشركة التي جعلَته مليونيرًا، وإن لم يشِ مظهره بذلك. لم يكُن هو مُبتكِر الموز، طبعًا، ولكن بفضله صار الموز يُشكِّل الآن جزءًا من النظام الغذائي لملايين الأمريكان، وإن لم يسبق لأحد أن تذوَّق تلك الفاكهة الغريبة في الولايات المتحدة سوى قلة قليلة جدًّا. بل إنها بدأت تكتسب شعبية في أوروبا ومناطق أخرى في العالَم أيضًا. كيف أفلح في ذلك؟ من الصعب الوقوف على ذلك بموضوعية، لأن حياة سام زيموراي قد اختلطَت بالخرافات والأساطير. إذ يبدو رجل الأعمال البدائي المذكور أقرب إلى كتب المغامرات منه إلى عالَم الصناعة الأمريكي، وهو الرجل الأبعد ما يكون عن الزهو، الذي لم يألف الحديث عن حياته قطّ، على عكس بيرنيز.

خلال أسفاره، اكتشف زيموراي الموز في أدغال أمريكا الوسطى. وبحدس مُوفَّق، عرف الفائدة التجارية التي يمكن أن يجنيها من تلك الفاكهة، فبدأ يحملها على متن الزوارق إلى نيو أورليانز وغيرها من

المدن الأمريكية. فلاقَت إقبالاً مشهودًا منذ البدء. حتى إن الطلب المتزايد عليها جعله مزارعًا ومُنتِجًا عالميًا للموز بعد أن كان مُجرَّد تاجر. وكانت تلك بداية يونايتد فروت، الشركة التي مدَّت شباكها عَبْر أنحاء هندوراس وغواتيمالا ونيكاراغوا وسالفادور وكوستاريكا وكولومبيا وعدد من الجزر الكاريبية في مطلع الخمسينيات، والتي كانت تدرّ من الدولارات أكثر مما تدرّه الغالبية العظمى من الشركات في أمريكا، بل وفي سائر أنحاء العالم أيضًا. مما لا شكّ فيه أن تلك الإمبراطورية كانت من صنع رجل واحد: سام زيموراي، ذلك الذي بات العديد من المئات يعتمدون عليه آنذاك.

ولذا كان يعمل من مشرق الشمس إلى مغربها، ويصل الليل بالنهار، مسافرًا عَبْر جميع أنحاء أمريكا الوسطى والكاريبي في ظلّ أوضاع تليق بالأبطال، وينازع أمثاله من المغامرين على الأراضي رميًا بالرصاص وطعنًا بالنصال، ويُضطرّ إلى النوم في عراء الحقول مئات المرات، حيث يعرِّض نفسه لوخزات البعوض الشره، ويسقط مريضًا بحمَّى الملاريا التي كانت تداهمه بين الحين والآخر، ويرشو السلطات، ويخدع المزارعين والسكان الأصليين الجهلة، ويفاوض الطغاة الفاسدين ـ مُستغِلًّا جشعهم وغباءهم ـ ، أولئك الطغاة الذين يرجع إليهم الفضل في استحواذه على أملاك صارت مساحتها الآن تربو على مساحة بلد أوروبي كبير، وهكذا وفَّر الآلاف من فرص العمل، ومدَّ السكك الحديدية، وافتتح المرافئ، وأوصل الهمجية بالحضارة. أو على الأقل، هكذا كان يزعم سام زيموراي كلّما اضطُرّ إلى الدفاع عن نفسه وصدّ الهجمات التي تلقَّتها يونايتد فروت، ـ التي اشتهرَت باسم «فروتيرا»[١] وعُرِفَت بلقب «الأخطبوط» في جميع أنحاء أمريكا الوسطى ـ لم يهاجمه الحاسدون

(١) فروتيرا («Frutera»): وتعني بالإسبانية بائعة الفاكهة أو صاحبة الفاكهة. (المترجم)

فحسب، بل وحتى الخصوم الأمريكان، الذين لم يسمح لهم يومًا بمنافسة يونايتد فروت منافسةً شريفة بحق، في منطقة احتكر فيها إنتاج الموز وتسويقه على نحو غاشم. ولهذا الغرض، سعى لضمان السيطرة المطلقة على مرفأ بارّيوس، على سبيل المثال ـ مرفأ غواتيمالا الوحيد المُطِلّ على الكاريبي ـ فضلاً عن الكهرباء والسكك الحديدية التي كانت تقطع المسافة من المحيط إلى المحيط، وتنتمي إلى شركته أيضًا.

ومع أنهما طرفا نقيض، فلقد شكّلا معًا فريقًا جيدًا. لا شك أن بيرنيز قد أسهم كثيرًا جدًا في تحسين الانطباع الذي تركَته الشركة في الولايات المتحدة، وتقديمها بصورة مقبولة لدى الأوساط السياسية العليا في واشنطن، والوصل بينها وبين أصحاب الملايين في بوسطن (ممن يتفاخرون بانتمائهم إلى الطبقة الأرستقراطية). كان قد وصل إلى الدعاية عن طريق غير مباشر، بفضل العلاقة الوثيقة التي جمعَت بينه وبين جميع أطياف الناس، ولا سيما الدبلوماسيين والساسة وأصحاب الصحف والمحطات الإذاعية والتلفزيونية ورجال الأعمال والمصرفيين الناجحين. كان رجلاً ذكيًا، ودودًا، في غاية الاجتهاد، من أولى إنجازاته تنظيم جولة المغني الإيطالي الشهير كاروسو في الولايات المتحدة. لقي قبول الناس بأسلوبه المنفتح المرهف، وسلوكه الدمث، وثقافته. وكان يبثّ في النفس شعورًا بأن له من الأهمية والنفوذ أعظم مما يتمتّع به حقًا، مع الأخذ في الحسبان أن وجود الدعاية والعلاقات العامة قد سبق ميلاده، بطبيعة الحال. ولكن بيرنيز ارتقى بتلك المهمة التي كانت تستعين بها جميع الشركات، وإن اعتبرَتها أقل شأنًا، حتى صارَت عملية فكرية رفيعة المستوى، تمثّل شقًا من علم النفس والاقتصاد والسياسة. كان يلقي المحاضرات والدروس في جامعات مرموقة، وينشر المقالات والكتب، مُقدِّمًا مهنته على أنها الأكثر تمثيلاً للقرن العشرين، ومرادف الحداثة والتقدّم. في كتابه «بروباغاندا» (الصادر عام ١٩٢٨)، سطر الجملة

التنبّؤية الآتية، تلك التي خلَّدَت ذكره لدى الأجيال التالية، بطريقة أو بأخرى: «يُعتبَر التلاعب الواعي الذكي بالعادات المُنظَّمة وآراء الجموع ركنًا مُهمًّا من أركان المجتمع الديمقراطي. وأولئك اللذين يتلاعبون بتلك الآلية المجهولة من آليات المجتمع يؤلِّفون حكومة خفية عن الأعين، تمثِّل السلطة الحقيقية في بلدنا... إن الأقلية الذكية في حاجة إلى استخدام «البروباغاندا» على نحو مُستمِرّ ومنهجي».

وتلك هي الفرضية التي اعتبرها نفرٌ من النقَّاد إنكارًا للديمقراطية في حدّ ذاتها، ثم وجد بيرنيز فرصة سانحة لتطبيقها بقدر كبير من الفعالية في حالة غواتيمالا، بعد الشروع في العمل مستشارًا دعائيًّا لدى يونايتد فروت بعقد من الزمان.

أسهمَت مشورته كثيرًا في تحسين صورة الشركة وضمنَت لها الدعم والنفوذ في عالم السياسية. لم تنشغل شركة «الأخطبوط» يومًا بتقديم عملها البارز في مجالَي الصناعة والتجارة باعتباره شيئًا يعود بالنفع على المجتمع بوجه العموم، ولا سيما في «البلدان الهمجية» حيث تزاول أنشطتها، تلك البلدان التي ساعدَتها الشركة على الخروج من الهمجية - على حدّ قول بيرنيز - عن طريق توفير فرص العمل من أجل آلاف المواطنين، فرفعَت بذلك مستوى معيشتهم، وارتقَت بهم إلى الحداثة، والتقدّم، والقرن العشرين، والحضارة. تمكَّن بيرنيز من إقناع زيموراي بأن تقيم الشركة بعض المدارس على أراضيها، وتستجلب الكهنة الكاثوليك والرعاة البروتستانت إلى مزارعها، وتنشئ عيادات الإسعافات الأولية، وتساهم بأعمال أخرى من هذا القبيل، وتُقدِّم منح الدراسة والسفر للطلَّاب والأساتذة، وهي الأمور التي كان يعلن عنها باعتبارها دليلًا دامغًا على العمل الذي تنجزه الشركة من أجل بلوغ الحداثة. وفي غضون ذلك سعى إلى الترويج لاستهلاك الموز على الفطور وفي كل ساعة من ساعات اليوم، على اعتباره مُكوِّنًا غذائيًّا لا غنى عنه للصحة،

من أجل بناء مواطنين أصحاء رياضيين، وذلك عن طريق مُخطَّط دقيق وضعه بمساعدة العلماء والفنيين. كان هو الذي أحضر المُغنِّية والراقصة البرازيلية كارمِن ميراندا إلى الولايات المتحدة (سنيوريتا تشيكيتا بانانا، صاحبة الاستعراضات والأفلام)، التي لقيت نجاحًا مبهرًا بقبعاتها المُؤلَّفة من سباطات الموز، وروَّجَت لتلك الفاكهة في أغنياتها بفعالية استثنائية، الفاكهة التي صارَت تشكِّل جزءًا من غذاء البيوت الأمريكية، بفضل تلك الجهود الدعائية.

كما أفلح بيرنيز في تقريب يونايتد فروت من عالَم بوسطن الأرستقراطي وأوساط السلطة السياسية، الأمر الذي لم يسبق وخطر على بال سام زيموراي حتى ذلك الوقت. لم تكُن السطوة والنقود هي كل ما يملكه أثرى أثرياء بوسطن، إذ كانت لهم أحكامهم المسبقة أيضًا، أضف إلى ذلك أنهم من المعادين للسامية بوجه العموم. وهكذا لم يسهل على بيرنيز إقناع هنري كابوت لودج بقبول الانضمام إلى مجلس إدارة يونايتد فروت، على سبيل المثال. كما لم يسهل عليه إقناع الأخوَيْن چون فوستر دالاس وألن دالاس بالموافقة على الانضمام إلى وكلاء الشركة، وهما العضوان في شركة المحاماة المرموقة بنيويورك، سوليڤان وكرومويل. كان بيرنيز يعرف أن المال يفتح كل الأبواب. حتى الأحكام المسبقة العنصرية لا تصمد أمام المال. وهكذا أفلح في توطيد هذه العلاقة الصعبة، عقب ما عُرِف باسم ثورة أكتوبر التي اندلعَت في غواتيمالا عام ١٩٤٤، حين بدأت يونايتد فروت تشعر بالخطر يحدق بها. في وقت لاحق، ثبتَت الفائدة الكبرى لأفكار بيرنيز لدى الإطاحة بـ«حكومة غواتيمالا الشيوعية» المزعومة، واستبدال حكومة ديمقراطية بها، أي حكومة أكثر وداعةً ومراعاةً لمصالح الشركة.

بدأت تدقّ نواقيس الخطر إبان حكم خوان خوسيه أريبالو (١٩٤٥ ـ ١٩٥٠). ليس لأن البروفسور أريبالو ـ الذي دافع عن مذهب «اشتراكي

روحاني» مبهم في مثاليته ـ قد تعدَّى على مصالح يونايتد فروت، بل لأنه سمح بتمرير قانون العمل الذي أتاح للعمال والمزارعين إنشاء النقابات والانضمام إليها، الشيء الذي لم يُسمَح به على أراضي الشركة حتى ذلك الوقت. لذلك بدأ زيموراي وغيره من أعضاء مجلس الإدارة يتوجَّسون خيفة. وفي اجتماع مجلس الإدارة المحتدم الذي عُقِد في بوسطن، جرى الاتفاق على سفر إدوارد ل بيرنيز إلى غواتيمالا، لتقييم الوضع والفرص المستقبلية، والوقوف على مدى الخطورة التي تمثِّلها الحوادث الجارية على الشركة، في عهد أول حكومة تصل إلى الحكم عن طريق انتخابات حرة بحق في تاريخ ذلك البلد.

أمضى ل بيرنيز أسبوعَيْن في غواتيمالا، حيث نزل بفندق باناميريكان، في وسط المدينة، على بعد خطى قليلة من قصر الحكم. وبالاستعانة بالمترجمين، نظرًا لجهله باللغة الإسبانية، التقى بمُلّاك أراضٍ وعسكريين ومصرفيين ونوّاب في المجلس ورجال شرطة وأجانب استقرّ بهم المقام في البلد منذ أعوام وقادة نقابيين وصحافيين. وبطبيعة الحال، التقى بموظفي سفارة الولايات المتحدة ومديري شركة يونايتد فروت. وعلى الرغم من المعاناة الشديدة التي تجشَّمها تحت وطأة القيظ ولدغات البعوض، أنجز مهمته على ما يُرام.

وخلال اجتماع جديد، عقده مجلس الإدارة في بوسطن، قدَّم بيرنيز انطباعه الشخصي مستعرضًا مجريات الأحداث في غواتيمالا من وجهة نظره. وبالاستناد إلى ملاحظاته، أعدَّ التقرير بسلاسة تليق بمحترف بارع، بلا أدنى أثر للرياء:

«إن اتجاه غواتيمالا نحو الشيوعية، وتحوّلها إلى مهبط يتسلَّل الاتحاد السوفييتي من خلاله إلى أمريكا الوسطى ويهدِّد قناة بنما، لا يعدو أن يكون خطرًا بعيدًا، بل ويسعني القول إنه خطر معدوم في الوقت الراهن»، هكذا قال مُؤكِّدًا. «إن قلة قليلة جدًا في غواتيمالا تعلم ما

الماركسية وما الشيوعية. حتى تلك الثلة من الناس الذين يطلقون على أنفسهم شيوعيين، مُؤسِّسو مدرسة كلاريداد الساعية إلى نشر الأفكار الثورية، لا يعلمون ما ذاك. إن هذا الخطر يفتقر إلى الواقعية. وعلى الرغم من ذلك، فالاعتقاد بوجوده يصبّ في مصلحتنا، ولا سيما في الولايات المتحدة. أما الخطر الحقيقي، فله طبيعة أخرى. لقد تحدَّثتُ إلى الرئيس أريبالو شخصيًا، وإلى أقرب معاونيه. إن أريبالو يعادي الشيوعية بقدر ما تفعلون، وبقدر ما أعاديها أنا نفسي، والدليل إصرار الرئيس وأنصاره على حظر وجود الأحزاب السياسية التي تجمعها صلات دولية بجهات في الخارج بمقتضى دستور غواتيمالا الجديد. أضف إلى ذلك التصريح الذي أدلوا به في عدة مناسبات ومفاده أن «الشيوعية كبرى الأخطار التي تواجهها الأنظمة الديمقراطية». فضلاً عن إقفال أبواب مدرسة كلاريداد، ونفي مُؤسِّسيها. ولكن حبهم المفرط للديمقراطية يُمثِّل تهديدًا جادًّا ليونايتد فروت، مهما بدا الأمر لكم من التناقض. وذلك شيء يُستحسَن الإلمام به أيها السادة، لا الإفصاح عنه».

ثم ابتسم ورشق جميع أعضاء مجلس الإدارة بنظرة مسرحية، فابتسم بعضهم ابتسامة مهذبة. وبعد هنيهة من السكوت، استطرد بيرنيز قائلاً: «يودّ أريبالو لو جعل من غواتيمالا ديمقراطية، كالولايات المتحدة، البلد الذي يشعر نحوه بالإعجاب ويُعِدّه نموذجًا يُحتذَى به. غير أن الحالمين يُمثِّلون خطورة، كالعادة، ودكتور أريبالو يُمثِّل خطورة بهذا المعنى. لا توجد أدنى إمكانية لتحقيق مشروعه. كيف يمكن تحويل بلد كهذا إلى ديمقراطية حديثة؟ بلد يبلغ تعداد سكانه ثلاثة ملايين نسمة، سبعون بالمئة منهم هنود أمّيون تركوا الوثنية منذ عهد قريب، أو ما زالوا يعتنقونها، حيث يُوجَد ثلاثة أو أربعة من كهنة التشامان[1] عن كل

(١) التشامانية: معتقدات وممارسات تقليدية مقترنة بعالَم الأرواح. (المترجم)

طبيب. بينما الأقلية البيضاء، المُؤلَّفة من الإقطاعيين العنصريين الاستغلاليين، تزدري الهنود وتعاملهم كالعبيد. حتى العسكريون الذين تحدَّثتُ إليهم يبدو وكأنهم يعيشون في أوج القرن التاسع عشر، وربما انقلبوا على النظام الحاكم في أي لحظة. لقد تعرَّض الرئيس أريبالو لعدَّة تمرّدات عسكرية، بَيْد أنه تمكَّن من سحقها. ومع أن الجهود التي يبذلها في سبيل تحويل بلده إلى ديمقراطية حديثة تبدو لي غير مجدية، فكل تقدّم يحرزه في تلك الساحة قد يكبِّدنا خسائر فادحة، دعونا لا نخدع أنفسنا».

«لعلّكم لاحظتم، أليس كذلك؟»، استطرد بعد الصمت الطويل الذي اغتنمه حتى يرشف بضع رشفات من الماء. «إليكم بعض الأمثلة، لقد مرَّر أريبالو قانون عمل يسمح بإنشاء النقابات في الشركات والمزارع، ويُصرِّح للعمَّال والمزارعين بالانضمام إليها. كما استكتب قانونًا لمنع الاحتكار، هو نسخة طبق الأصل من القانون المعمول به في الولايات المتحدة. لكم أن تتخيَّلوا ما قد يعنيه ليونايتد فروت تطبيق إجراءات من هذا القبيل لضمان المنافسة الحرة: إن لم يكُن الإفلاس، فهو الهبوط الحاد في الأرباح، تلك التي لا نجنيها بمُجرَّد الكفاءة التي نعمل بها، والمساعي التي نبذلها، والنفقات التي نتكبَّدها لمكافحة الأوبئة، وتطهير الأراضي التي نكتسبها في الأدغال بهدف انتاج الموز، بل ونحقِّقها أيضًا بفضل الاحتكار الذي يُبقِي المنافسين المحتملين بعيدًا عن أراضينا، وبفضل الأوضاع الزاخرة بالامتيازات الحقيقية التي نعمل في ظلّها، إذ نُعفَى من الضرائب، ونعمل في غياب النقابات والمجازفات والأخطار التي قد يجرّها كل هذا. المشكلة لا تقتصر على غواتيمالا، فهي تُمثِّل جزءًا صغيرًا من العالَم الذي نزاول فيه عملنا. بل إن المشكلة تكمن في انتقال العدوى إلى باقي بلدان أمريكا الوسطى وكولومبيا، لو أثبتَت فكرة التحوّل إلى «ديمقراطيات حديثة» جدواها في هذه البلدان. وعندئذ،

تُضطَرّ يونايتد فروت إلى الوقوف في مواجهة النقابات، والمنافسة على مستوى دولي، وسداد الضرائب، وتوفير التأمين الصحي، ومعاشات التقاعد للعمّال وذويهم، أضف إلى ذلك أن الشركة سوف تغدو هدفًا للكراهية والحسد الذي يحوم حول الشركات الناجحة الفعّالة في البلدان الفقيرة دائمًا، دع عنك شركات الولايات المتحدة. إن الخطر، أيها السادة، يكمن في القدوة السيئة. لا في الشيوعية، وإنما في تحوّل غواتيمالا إلى الديمقراطية. الأمر الذي يُرجَّح ألاّ يتحقَّق، غير أن كل خطوة في هذا الاتجاه تعني تراجعًا نتكبَّده وخسائر نُمنَى بها».

سكت وجعل يتفحَّص نظرات أعضاء مجلس الإدارة الحائرة أو المستفهمة. أما سام زيموراي، الوحيد الذي لم يلفّ حول عنقه ربطة، وانفرد بمظهر يفتقر إلى الرسمية دونًا عن باقي السادة المُتأنِّقين الذين جلسوا معه إلى الطاولة المُمتدَّة نفسها، فقال:

ـ حسنًا، ذلك هو التشخيص. ولكن ما العلاج الذي فيه شفاء المرض؟

ـ وددتُ لو أسمح لكم بالتقاط أنفاسكم قبل متابعة الحديث. ـ قال بيرنيز مازحًا، وهو يرشف رشفة أخرى من الماء ـ الآن أنتقل إلى شقِّ العلاج يا سام. سيكون طويل الأمد، مُعقَّدًا، باهظ التكلفة. ولكن من شأنه أن يجتثّ الشر من الجذور. وربما أعطى يونايتد فروت خمسين عامًا أخرى من التوسّع والأرباح والهدوء.

كان إدوارد ل بيرنيز يعرف ما هو قائل. فالعلاج يكمن في التأثير على الحكومة والرأي العام في الولايات المتحدة بالتزامن. فلا الحكومة ولا الرأي العام يملكان أدنى فكرة عن وجود غواتيمالا، دع عنك معرفتهما بأن هذا البلد يُمثِّل مشكلة. الأمر الذي يُعَدّ إيجابيًا، من حيث المبدأ. «نحن الذين يجدر بنا تنبيه الحكومة والرأي العام إلى أمر غواتيمالا، على

نحو كفيل بإقناعهما بأن المشكلة تبلغ من الجدية والخطورة حدًّا يستوجب القضاء عليها فورًا. كيف؟ عن طريق العمل بخفَّة وتحيّن الفرص السانحة وترتيب الأمور لدفع الرأي العام ـ الذي يُعَدّ حاسمًا في الأنظمة الديمقراطية ـ إلى الضغط على الحكومة للتحرّك ودرء ذلك التهديد الخطير. أي تهديد؟ التهديد الذي أوضحتُ لكم أنه لا يكمن في غواتيمالا: حصان طروادة الذي يتسلَّل من خلاله الاتحاد السوفييتي إلى باحة الولايات المتحدة الخلفية. كيف السبيل إلى إقناع الرأي العام بأن غواتيمالا آخذة في التحوّل إلى بلد تُعَدّ الشيوعية فيه أمر واقع، وربما صار أول تابع للاتحاد السوفييتي في العالَم الجديد، ما لم تتحرَّك واشنطن بهمَّة؟ عن طريق الصحافة والإذاعة والتلفزيون، مصدر المعلومات والتوجيهات الرئيسي لدى المواطنين، في بلد حرّ كانوا أم في بلد مُستعبَد. لا بدّ لنا من فتح عيون الصحافة على الخطر القائم على مسافة يمكن قطعها في ما يقلّ عن الساعتَيْن جوًّا من الولايات المتحدة، وعلى بعد خطوة واحدة من قناة بنما.

من مصلحتنا أن يجري كل شيء بعفوية، لا بتخطيط ولا بإرشاد من أحد، دع عنك أن يكون بتخطيط وبإرشاد منا، ونحن أصحاب المصلحة. لا يجب أن تكون الصحافة الجمهورية اليمينية في الولايات المتحدة هي مصدر الفكرة الزاعمة بأن غواتيمالا على وشك السقوط بين أيدي السوفييت، وإنما بالأحرى الصحافة التقدّمية، تلك التي يطالعها وينصت إليها الديمقراطيون، أي الوسط واليسار. فتلك هي التي تصل إلى الغالبية العظمى. ولإضفاء قدر أكبر من المصداقية، يجب أن يكون الأمر برمّته من صنع الصحافة الليبرالية».

قاطعه سام زيموراي سائلاً:

ـ وماذا نحن فاعلون لإقناع تلك الصحافة الليبرالية، وهي محض خراء؟

ابتسم بيرنيز وسكَت مُجدَّدًا. وكالمُمثِّل المُتمرِّس، أجال عينَيْه في جميع أعضاء مجلس الإدارة بنظرة مهيبة:

ـ من أجل هذا الغرض وُجِد مَلِك العلاقات العامة، أعني أنا شخصيًّا! ـ قال مازحًا، بلا أدنى أثر للتواضع، وكأنه يهدر وقته بتذكير ذلك الجمع من السادة بأن الأرض كروية ـ أيها السادة، من أجل هذا الغرض لديَّ الكثير من الصداقات التي تجمعني بأصحاب الصحف والمحطات الإذاعية والتلفزيونية ورؤسائها في الولايات المتحدة. تقتضي الحاجة منا العمل بسرية ومهارة لئلاَّ تشعر وسائل الإعلام بأنها عرضة للاستغلال. يجب أن يجري كل شيء بالتلقائية التي تصنع بها الطبيعة تحوّلاتها المدهشة، ويجب أن يبدو الأمر وكأنه «سبق صحافي» كشفَته الصحافة الحرة التقدّمية وأماطَت عنه اللثام أمام العالَم. لا بد من مداعبة غرور الصحافيين بحنان، ذلك الغرور المُتضخِّم عادةً.

فرغ بيرنيز مما يقول، فعاد سام زيموراي إلى طلب الإذن بالكلام:

ـ أرجوك، لا تقُل لنا كم سيكلِّفنا الأمر الذي وصفته بكل هذا التفصيل، وإلاَّ كانت الصدمات أكثر مما يحتمله يوم واحد.

ـ لن أقول شيئًا بهذا الشأن في الوقت الراهن. ـ أومأ بيرنيز ـ ولكن ما يهمّ أن تذكروا أمرًا واحدًا: لسوف تربح الشركة أكثر كثيرًا من كل ما يمكن إنفاقه على هذه العملية لو استطعنا الحيلولة دون تحوّل غواتيمالا إلى الديمقراطية الحديثة التي يحلم بها الرئيس أريبالو طوال نصف قرن آخر من الزمان.

وهكذا نُفِّذ بالحرف الواحد كل ما أدلى به إدوارد ل بيرنيز في تلك الجلسة المشهودة التي حضرها أعضاء مجلس إدارة يونايتد فروت في بوسطن. ولأن الشيء بالشيء يُذكَر، فلقد أكَّد ذلك على الفرضية التي طرحها بيرنيز، والتي مفادها أن القرن العشرين سوف يكون هو القرن

الذي تتجلّى فيه الدعاية بوصفها أداة أساسية من أدوات السلطة والتلاعب بالرأي العام في المجتمعات الديمقراطية والاستبدادية على حدٍّ سواء.

رويدًا رويدًا ـ في الفترة الأخيرة من عهد حكومة خوان خوسيه أريبالو، ولا سيما في عهد حكومة الكولونيل خاكوبو أربينس غوسمان ـ بدأت غواتيمالا تظهر في صحف الولايات المتحدة على غير العادة، في تقارير منشورة على صفحات نيويورك تايمز أو واشنطن بوست أو التايم الأسبوعي، حيث كان يُشار إلى الخطر المتنامي الذي يواجه العالَم الحرّ، والمُتمثِّل في النفوذ الذي يكتسبه الاتحاد السوفييتي في البلد من خلال تلك الحكومة التي أرادت أن تبدو بمظهر ديمقراطي، وإن كانت في حقيقة الأمر مُختَرَقة من جانب الشيوعيين، رفاق السفر[1]، الحمقى النافعين، أولئك الذين اتَّخذوا إجراءات تخالف الشرعية ورابطة الدول الأمريكية والملكية الخاصة والسوق الحرة، وتحرِّض على صراع الطبقات وكراهية التقسيم الاجتماعي ومعاداة الشركات الخاصة.

وبفضل مساعي بيرنيز الحثيثة وعلاقاته، بدأت صحف ومجلات من الولايات المتحدة في إيفاد المراسلين إلى غواتيمالا، وإن لم يسبق لها قطّ أن اهتمَّت بغواتيمالا ولا بأمريكا الوسطى ولا حتى بأمريكا اللاتينية. كان المراسلون ينزلون بفندق باناميريكان، الذي كادَت حانته تغدو مركزًا صحافيًّا عالميًّا، حيث تلقّوا ملفات مُوثَّقة بعناية، بما ورد فيها من وقائع تُؤكِّد على تلك المُؤشِّرات ـ تشكيل النقابات باعتباره سلاحًا للمواجهة، وتخريب الشركات الخاصة بالتدريج ـ ، وهناك استطاع المراسلون إجراء مقابلات رتَّبها بيرنيز من أجلهم أو أشار عليهم بها، مقابلات جمعَتهم

(١) رفاق السفر أو رفاق الدرب: لقب أُطلِق على أولئك الذين يبدون ميلاً أو تعاطفًا نحو منظمة بعينها، من دون الانتساب إليها، ولا سيما في معرض الحديث عن الشيوعية. (المترجم)

بمُلاَّك أراضٍ ورجال أعمال وكهنة (من ضمنهم رئيس الأساقفة) وصحافيين وقيادات سياسية من المعارضة ورعاة ومحترفين أكَّدوا بمعلومات مسهبة على تلك المخاوف الزاعمة بتحوّل البلد إلى تابع سوفييتي رويدًا رويدًا، تابع تسعى الشيوعية الدولية من خلاله إلى الحدّ من نفوذ الولايات المتحدة وتعطيل مصالحها في كل أرجاء أمريكا اللاتينية.

وابتداءً من لحظة بعينها ـ لمَّا شرعَت حكومة خاكوبو أربينس في تنفيذ الإصلاح الزراعي في البلد على وجه التحديد ـ لم تعُد الحاجة تدعو إلى سعي بيرنيز لدى أصحاب الصحف والمجلات ورؤساء تحريرها: إذ عمّ حينذاك شعور حقيقي بالقلق في الأوساط السياسية والتجارية والثقافية بالولايات المتحدة ـ مع الأخذ في الاعتبار أنها كانت حقبة الحرب الباردة ـ وحتى وسائل الإعلام عجَّلَت بإيفاد المراسلين للتحقّق من وضع تلك الأمة الصغيرة التي اخترقَتها الشيوعية على أرض الواقع. وكان أوضح تجليات ما يجري هو المنشور الذي أصدره أحد مكاتب يونايتد پرِس بقلم الصحافي البريطاني كينيث دي كورسي، معلنًا أن الاتحاد السوفييتي قد وطَّن النية على بناء قاعدة غواصات في غواتيمالا. حتى لايف ماغازين، وهيرالد تريبيون، وإيڤنينغ ستاندارد اللندنية، وهارپرز ماغازين، وشيكاغو تريبيون، ومجلة بيسيون الصادرة باللغة الإسبانية، وكريستشان ساينس مونيتور وغيرها من الإصدارات، كلها أفرد صفحات كثيرة ليثبت من خلال الوقائع والشهادات المُحدَّدة أن غواتيمالا في سبيلها إلى الرضوخ للشيوعية والاتحاد السوفييتي بالتدريج. لم تكُن مؤامرة: بل إن «البروباغاندا» فرضَت على الواقع خيالاً شيّقًا، فاستند الصحافيون الأمريكان غير المُؤهَّلين إلى ذلك الخيال في كتابة تقاريرهم، من دون أن تدرك الغالبية العظمى منهم أنهم مُجرَّد دمى يتلاعب بها مُحرِّك عرائس عبقري. وهكذا يمكن تفسير ما أقدمَت عليه

شخصية مرموقة من اليسار الليبرالي مثل فلورا لويس عندما أفردَت مديحًا مبالغًا فيه لسفير الولايات المتحدة لدى غواتيمالا، چون إميل پيوريفوي. ومما ساهم في تحقيق الخيال المذكور أنها كانت أسوأ سنوات المكارثية[١] والحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي.

مات سام زيموراي في نوفمبر من عام ١٩٦١ وهو على مشارف الرابعة والثمانين من العمر، بعد أن اعتزل العمل، واستقرّ به المقام في لويزيانا، مُثقلاً بالملايين. مات وهو لم يستوعب بعد أن المُخطَّط الذي رسمه إدوارد ل بيرنيز في اجتماع مجلس إدارة يونايتد فروت، الذي عُقِد في بوسطن قديمًا، قد نُفِّذ بهذا القدر من الدقة. ولم يرتَب حتى في أن شركة «فروتيرا»، على الرغم من انتصارها في تلك الحرب، قد بدأت في التفكّك، وأن رئيسها سوف ينتحر بعد مضي أعوام قلائل، وأن الشركة سوف تختفي، ولن يبقى منها إلاَّ ذكريات أليمة مُروِّعة.

مكتبة
t.me/t_pdf

(١) المكارثية: الاتهام بالتخريب والخيانة من دون مراعاة تقديم الأدلَّة. وسُمِّيَت بهذا الاسم نسبةً إلى عضو الكونجرس الأمريكي جوزيف ريموند مكارثي (١٩٠٨ ـ ١٩٥٨). (المترجم)

١

كانت والدة «ميس غواتيمالا» تنتمي إلى عائلة من المهاجرين الإيطاليين لقبها پارَّاڤيتشيني، ولكن الاسم اجتُزئ وأُضفِي عليه الطابع الإسباني بعد جيلَيْن. ولمَّا تقدَّم الفقيه القانوني وأستاذ القانون والمحامي أرتورو بورّيرو لاماس لخطبة الشابة مارتا پارَّا، سرَت الشائعات وسط مجتمع غواتيمالا، فمن الجليّ أن ابنة مُعتِّقي النبيذ والخبازين وصنَّاع الحلوى الإيطاليين الأصل ما كانت ترقى إلى المستوى الاجتماعي لذلك النبيل الوسيم، مطمع الفتيات اللاتي بلغن عمر الزواج في المجتمع الراقي، بالنظر إلى كل ما له من سعة الثراء وعراقة النسب ووجاهة المهنة. وأخيرًا، انقطعَت النميمة ولقي الزفاف إقبالاً مشهودًا، من المدعوين والمُتلصِّصين معًا، الزفاف الذي عُقِد في الكاتدرائية على يد رئيس أساقفة المدينة. كما حضر الرئيس الأبدي، الجنرال خورخي أوبيكو كاستانييدا، وقد شبك ذراعه بذراع زوجته الودود، وارتدى الزيّ الرسمي الأنيق المُرصَّع بالنياشين، كما التُقِطَت صور الرئيس وحرمه برفقة العروسَيْن في صحن الكنيسة وسط تصفيق الجموع.

لم يهنأ الزوجان بنسلهما. فعلى الرغم من حبل مارتا پارَّا الذي تكرَّر كل عام، وعنايتها الشديدة بنفسها، كانت تضع ذكورًا عجافًا على مشارف الموت، يقضون نحبهم بعد أيام قليلة، أو بعد أسابيع، على الرغم من جهود القابلات وأطباء النساء، وحتى سحرة المدينة

وساحراتها. وبعد خمسة أعوام من الإخفاقات المتواصلة، جاءت مارتيتا بورّيرو پارّا[1] إلى الدنيا، تلك التي لُقِّبَت بـ«ميس غواتيمالا»[2] منذ المهد، نظرًا لما تميَّزَت به من جمال وبهجة وحيوية. على عكس إخوتها، نجَت مارتيتا. وأي نجاة!

وُلِدَت مهزولة، لحمًا على عظم. ومنذ تلك الأيام التي كان يطلب الناس فيها رفع القداسات الإلهية كيلا تلحق الصغيرة بإخوتها، استرعَت الانتباه نعومة بشرتها، وقسماتها المرهفة، وعيناها النجلاوان، ونظرتها الهادئة الثابتة الثاقبة، التي تجثم على الأشياء والأشخاص وكأنما رغبةً في تسجيلهم بالذاكرة إلى الأبد. كانت نظرة تبثّ الخوف والحيرة في النفوس. أما سيمولا، مربيتها التي كانت هجينًا من المايا والكيتشا[3]، فتنبَّأت لها قائلة: «لسوف تملك هذه الطفلة قدرات خاصة!».

لم يتسنَّ لمارتا پارّا دي بورّيرو، أمّ «ميس غواتيمالا»، أن تهنأ بابنتها الوحيدة الناجية طويلاً. ليس لأن الأمّ قد ماتت ـ إذ عاشَت حتى أتمَّت التسعين من العمر، ثم قضَت نحبها في دار مُسنِّين وهي لا تعرف عما يجري من حولها الكثير ـ بل لأنها، بعد ميلاد الصغيرة، أصيبَت بالوهن والخرس والاكتئاب والمسّ (على نحو ما كان يُقال آنذاك على المجانين تخفيفًا لوقع الكلمة). فصارَت تمضي أيامًا كاملة في بيتها، بلا حراك، من دون أن تنبس بكلمة واحدة، بينما الخادمتان پاتروسينيو وخوانا

---

(١) روعي الحفاظ على تصغير الأسماء كما جاء في النص الأصلي. ولصيغة التصغير باللغة الإسبانية أكثر من دلالة، من بينها إظهار المودَّة أو الألفة. وتكون بإضافة مقطع «يتو» (للمذكَّر) أو «يتا» (للمؤنَّث)، مع حذف الآخر ما لم يكُن حرفًا ساكنًا. مثال «مارتيتا»، الذي يُعَدُّ تصغير اسم «مارتا». (المترجم)

(٢) ميس: لقب ملكة الجمال. (المترجم)

(٣) المايا («Maya») والكيتشا («Quiché»): من الشعوب الأصلية التي سكنَت أمريكا الوسطى. (المترجم)

تلقِّمانها الطعامَ في فمها، وتمسِّدان جسدها لئلاَّ تصاب ساقاها بالضمور. ما عادَت تخرج من خرسها الغريب إلاَّ بنوبات من النحيب تُغرِقها في خمول ذاهل. وحدها سيمولا تمكَّنَت من التفاهم وإياها، عن طريق الإشارات. أو لعلّ الخادمة كانت قادرة على التكهّن بأهوائها. أما دكتور بورّيرو، فنسي أن له زوجة شيئًا فشيئًا. صار يمضي أيامًا، ثم أسابيع، لا يدلف خلالها إلى مخدع زوجته حتى يطبع قبلة على جبينها، بل إنه بات يكرِّس كل وقته لمارتيتا ـ ما لم يكُن منصرفًا إلى العمل في المكتب، أو الترافع في المحكمة، أو إلقاء الدروس في جامعة سان كارلوس ـ ، مارتيتا التي دلَّلها وهام بها منذ اليوم الذي وُلِدَت فيه. شبَّت الصغيرة مُتعلِّقة بوالدها كثيرًا. كان البيت المُشيَّد على الطراز الاستعماري يزدحم في العطلات الأسبوعية بأصدقاء دكتور بورّيرو من السادة المُوقَّرين، القضاة وأصحاب الأراضي والساسة والدبلوماسيين، أولئك الذين كانوا يحضرون إلى البيت للمشاركة في لعبة الروكامبور التي عفا عليها الزمن، بينما كان الأب يسمح لمارتيتا بالتنقّل وسط الزائرين، ويتسلّى برؤيتها تنظر إلى أصدقائه بعينَيْها النجلاوَيْن الخضراوَيْن المائلتَيْن إلى اللون الرمادي، وكأنها ترغب في انتزاع أسرارهم. كانت تسمح للجميع بمداعبتها، وإن أعرضَت بشدة عن تقبيل الآخرين أو إبداء مظاهر الحنان لهم، باستثناء والدها.

بعد مضي أعوام طوال، وفيما هي تستحضر العهد الأول من حياتها، سوف تذكر مارتيتا الزخم السياسي الشديد كألسنة اللهب التي تشتعل ثم تخبو، ذلك الزخم الذي بدأ يخيِّم فجأة على أحاديث السادة الذين كانوا يحضرون خلال العطلات الأسبوعية للمشاركة في لعبة ورق من زمن غير الزمن. قرب العام ١٩٤٤، كانت تنصت إليهم في حيرة بينما هم يقرّون بأن الجنرال خورخي أوبيكو كاستانييدا، ذلك الفارس المُرصَّع صدره بالنياشين والأشرطة، قد تدنَّت شعبيته إلى الحدّ الذي أثار الحركات

العسكرية والمدنية وإضرابات الطلاّب التي انطلقَت في محاولة للإطاحة به. حتى سقط الجنرال في ثورة أكتوبر الشهيرة التي اندلعَت في العام نفسه، والتي انبثق منها مجلسٌ عسكري بزعامة الجنرال فيدريكو پونسي بايديس، فأطاح المتظاهرون بذلك المجلس أيضًا. وأخيرًا عُقِدَت الانتخابات. فاستحوذ الخوف الشديد على سادة الروكامبور خشية أن يفوز البروفسور خوان خوسيه أريبالو، ذلك الذي عاد من منفاه بالأرجنتين منذ عهد قريب، زاعمين بأن «اشتراكيته الروحانية» (وماذا عساها تعني؟) سوف تجرّ المصائب على غواتيمالا، فيرفع الهنود رؤوسهم ويشرعون في قتل المحترمين من الناس، وينتزع الشيوعيون الأراضي من أصحابها، ويرسلون أبناء الأسر العريقة إلى روسيا لبيعهم كالعبيد. أما مارتيتا، فكانت كلّما تردَّدَت تلك الأقاويل تنتظر ردَّ فعل واحد من أولئك السادة الذين يحضرون في العطلات الأسبوعية للمشاركة في لعبة الروكامبور والنميمة السياسية، وهو دكتور إفرين غارسيا أرديليس، الرجل الوسيم ذو العينَيْن الصافيتَيْن والشعر المُرسَل الذي كان من عادته الاستغراق في الضحك ونعت الضيوف بـ«ساكني الكهوف» المهووسين، لأنه يرى البروفسور أريبالو أشدّ معاداةً للشيوعية منهم جميعًا، مع الأخذ في الاعتبار أن «اشتراكية أريبالو الروحانية» لا تعدو أن تكون عبارة رمزية يُقصَد بها رغبته في تحويل غواتيمالا إلى بلد ديمقراطي حديث، وانتشاله من الفقر والبدائية الإقطاعية التي عاش فيها. كانت مارتيتا تذكر المناقشات المحتدمة: حيث يهاجم السادةُ دكتور غارسيا أرديليس وينعتونه بالأحمر[١] الأناركي الشيوعي. وبسؤال والدها عن السبب الذي يدفع ذلك الرجل إلى مجادلة الجميع طوال الوقت، كان يجيبها قائلاً: «إفرين طبيب ماهر وصديق رائع. من المُؤسِف أن

(١) أحمر: لقب شاع استخدامه للإشارة إلى اليساريين والشيوعيين. (المترجم)

يكون يساريًا مخبولاً إلى هذا الحد!». شعرَت مارتيتا بالفضول واتَّخذَت قرارها بأن تطلب من دكتور إفرين غارسيا أرديليس أن يفسّر لها ما اليسار وما الشيوعية.

عندئذ، كانت قد التحقَت بالمدرسة البلجيكية الغواتيمالية (أخوية العائلة المقدسة بهلمت)، التابعة للراهبات الفلمنكيات، حيث تدرس بنات العائلات الكريمة جميعًا، وبدأت في حصد جوائز التميّز والحصول على تقديرات ممتازة في الاختبارات. الأمر الذي لم يشقّ عليها كثيرًا، إذ كان يكفيها التركيز قليلاً، بذكائها الطبيعي الثاقب، علمًا منها أن والدها سوف يُسرّ كثيرًا بالتقديرات الممتازة في شهادتها. كم كان دكتور بورّيرو لاماس يشعر بالسعادة في يوم ختام الفصل الدراسي، حين تصعد ابنته إلى المنصة لاستلام الشهادة مكافأة لها على الاجتهاد في الدراسة والسلوك الحسن الذي لا يعيبه شيء! وأي تصفيق حار هو ذلك الذي كانت تلقاه الصغيرة من الراهبات والحضور!

هل عاشَت مارتيتا طفولة سعيدة؟ لسوف تطرح على نفسها السؤال نفسه مرارًا وتكرارًا في الأعوام التالية، السؤال الذي كانت تجيب عنه بالإيجاب، ما دامت تلك الكلمة تعني حياة هادئة مُرتَّبة خالية من الأوجال، حياة طفلة يحميها والدها ويسعى إلى راحتها، وتحيط بها الخادمات. وإن شعرَت بالحزن لأنها لم تنعم بحنان الأمّ قطّ. كانت تزور تلك السيدة مرة واحدة يوميًا ـ في لحظة هي الأصعب على مدار اليوم ـ ، تلك السيدة الراقدة على الفراش دومًا، التي لم تلقِ إليها بالاً قطّ، مع أنها أمها. كانت سيمولا تمضي بمارتا لتقبّل أمها قبل النوم، الزيارة التي لم ترُق لها يومًا، لأن تلك السيدة بدَت أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. كانت ترمقها بلا اكتراث، وتتلقّى القبلة من دون أن تردّ لفتة الحنان بمثلها، بينما هي تتثاءب في بعض الأحيان. لم تكُن تتسلّى كثيرًا برفقة صديقاتها، ولا في حفلات أعياد الميلاد التي تحضرها بصحبة

سيمولا، ولا حتى حفلات الرقص الأولى، بعد أن التحقَت بالمرحلة الإعدادية، حين بدأ الفتيان في التودّد إلى الفتيات، وتقديم الرسائل، والدخول في علاقات غرامية. بل وجدَت مارتيتا قدرًا أكبر من التسلية في السهرات المُمتدَّة خلال العطلات الأسبوعية بحضور سادة الروكامبور. ولا سيما الأحاديث الجانبية التي جمعَتها بدكتور إفرين غارسيا أرديليس، الذي كانت تُمطِره بالأسئلة في السياسة، فيخبرها بأن خوان خوسيه أريبالو يبلي بلاء حسنًا ـ على الرغم من شكاوى السادة ـ ويسعى إلى إقامة شيء من العدل أخيرًا في هذا البلد، ولا سيما لصالح الهنود، الغالبية العظمى من تعداد غواتيمالا الذي يُقدَّر بثلاثة ملايين نسمة. وقال إن الفضل يرجع إلى الرئيس أريبالو في تحوّل غواتيمالا إلى ديمقراطية أخيرًا.

يومَ أتمَّت مارتيتا عامها الخامس عشر، في أواخر ١٩٤٩، انقلبَت حياتها رأسًا على عقب. يومذاك، عاش حي سان سباستيان العتيق بأسره ذلك الاحتفال، بطريقة أو بأخرى، الحي الذي كان يقع فيه بيتها. أقام لها والدها ذلك الاحتفال الذي درجَت أسر غواتيمالا الكريمة على إقامته متى بلغَت بناتهم الخامسة عشرة من العمر، والذي كان يُعَدّ بوابة عبور يدخلن منها إلى المجتمع. طلب والدها تزيين البيت بالأزهار والأكاليل وملأه بالأنوار، البيت ذي الردهة الواسعة والنوافذ المُسيَّجة والحديقة الوارفة الذي يقع في قلب الحي المُشيَّد على الطراز الاستعماري. كما رفع القداسَ الإلهي رئيسُ الأساقفة شخصيًا، في الكاتدرائية، فحضرَت مارتيتا بثوب أبيض مُزيَّن بالكثير من الدانتيلا، وقد حملَت بيدها باقة من زهور البرتقال، كما حضر جميع أفراد العائلة، حتى الأعمام والعمَّات وأبناء وبنات العمومة الذين رأتهم لأول مرة يومذاك. انطلقَت الألعاب النارية في الشارع، كما وُضِع وعاء ضخم مُترَع بالحلوى والفاكهة المُحلاَّة بالسكر التي تنازع عليها شباب المدعوين في جذل. بينما راح

الخدم يؤدّون عملهم بالثياب التقليدية، فارتدَت النساء أقمصة الويپيل[1] المُلوَّنة المُزيَّنة بالأشكال الهندسية والتنانير الفضفاضة والزنانير الداكنة، في حين ارتدى الرجال السراويل البيض والأقمصة المُلوَّنة واعتمروا قبعات القش. عُهِد إلى نادي إيپيكو بإقامة المأدبة، كما كُلِّفَت بإحياء الحفل اثنتان من فرق الأوركسترا: الأولى شعبية، تضمّ تسعة من عازفي الماريمبا؛ والثانية حديثة، وتضم اثني عشر أستاذًا يعزفون ألحان الرقصات الرائجة آنذاك، البامبا والفالس والبلوز والتانغو والكورّيدا والغواراتشا والرومبا والبوليرو. وإذا بمارتيتا ـ صاحبة الحفل التي كانت تراقص ابن سفير الولايات المتحدة، ريتشارد پاترسون چونيور ـ تسقط مغشيًا عليها، والرقص في أوجه. فحُمِلَت إلى المخدع، وهناك فحصها دكتور غالبان، الذي حضر الحفل برفقة ابنته الصغيرة دولوريس، زميلة مارتيتا. قاس الدكتور ضغطها ودرجة حرارتها بالترمومتر، ومسح عليها بالكحول. سرعان ما استردَّت مارتيتا الوعي. لم يكُن شيئًا ذا بال، كما أوضح الدكتور العجوز، فما هو إلاَّ انخفاض محدود في الضغط بسبب المشاعر الجارفة التي استحوذَت عليها يومذاك. استقرَّت حالة مارتيتا وعادت إلى الرقص. بَيْد أنها أمضَت البقية الباقية من الليلة محزونة، كالساهمة.

عندما رحل المدعوون كافة، في ساعة مُتأخِّرة من الليل، اقتربَت سيمولا من دكتور بورّيرو، وغمغمَت قائلة إنها تودّ الحديث إليه على انفراد، فمضى بها إلى المكتبة. «دكتور غالبان مخطئ»، قالَت المُربِّية. «أي انخفاض في الضغط هذا! وأي هزل! آسفة يا دكتور، ولكن الأفضل أن أخبرك دفعةً واحدة: الصغيرة حبلى». والآن، حان دور مالك البيت

---

(١) ويپيل: من الثياب التقليدية ذات الألوان الزاهية في أمريكا الوسطى والمكسيك. (المترجم)

في السقوط فاقد الوعي. لا بد أنه ترك جسده يتهاوى على الكرسي، وإذا العالَم والخزانات الزاخرة بالكتب تدور من حوله كلعبة الخيل الدوارة.

على الرغم من توسّلات أبيها وتضرّعاته وتهديداته بأن يُنزِل بالصغيرة شرّ صنوف العقاب، أبَت مارتيتا على نحو قاطع، ورفضَت الكشف عن والد الجنين الذي يتكوَّن في بطنها، مُظهرةً بذلك شخصيتها الرهيبة والمدى البعيد الذي سوف تصل إليه في هذه الحياة. كاد دكتور بورّيرو لاماس يفقد صوابه. كان كاثوليكيًا شديد التديّن، محافظًا بحق. وعلى الرغم من ذلك، بلغَت به الحال درجةً جعلَته يأخذ الإجهاض بعين الاعتبار عندما أخبرَته سيمولا بقدرتها على المضي بالصغيرة إلى سيدة مُتخصِّصة في «إرسال الأجنَّة إلى الليمبو[1]»، لمَّا رأته وقد تملَّكه كل هذا اليأس. ولكنه بعد أن قلَّب الأمر في رأسه، ولا سيما بعد أن طلب مشورة أب الاعتراف والصديق الكاهن اليسوعي أويّوا، قرَّر ألاَّ يزجَّ بابنته في مجازفة ضخمة إلى هذا الحدّ، وألاَّ يذهب إلى الجحيم عن تلك الخطيئة المميتة. انفطر قلبه علمًا منه أن مارتيتا قد خرَّبَت حياتها. ثم اضطُرّ إلى إخراجها من المدرسة البلجيكية الغواتيمالية لأن الصغيرة كانت تصاب بنوبات القيء والإغماء في كل حين، ولو استمرَّت في المدرسة لاكتشفَت الراهبات حالتها، ودوَّت الفضيحة المُرتقَبة. كثيرًا ما شعر المحامي بالألم لأن ابنته لن تنعم بزيجة سعيدة بسبب تلك الفعلة المجنونة. فأي شاب جادّ، سليل أسرة كريمة، ينتظره مستقبل مضمون، قد يخلع على تلك الفتاة الضالة اسمَه؟ وهكذا نذر كل ليلة وكل نهار للوقوف على هوية الأب، منذ عرف بحمل قرّة عينه. وفي سبيل ذلك، أهمل الدراسة والمحاضرات. لم يسبق أن تقدَّم خطَّاب لمارتيتا. حتى هي

---

(١) الليمبو: حيث تذهب أرواح الأطفال غير المُعمَّدين بعد موتهم، وفقًا لبعض العقائد المسيحية. (المترجم)

لم تبدُ مهتمة بالتودّد إلى الشباب، على غير عادة أترابها من الفتيات، وإنما انصرفَت إلى دراستها. ألم يكُن ذلك أمرًا في منتهى الغرابة؟ لم يسبق لمارتيتا أن عرفَت حبيبًا قطّ. كان يراقب تحرّكاتها كلما خرجَت، باستثناء مواعيد الدراسة. مَن تركها حبلى؟ وكيف؟ وأين؟ وإذا الشيء الذي بدا له في البدء ضربًا من المحال، يشقّ طريقًا في رأس دكتور بورّيرو، فقرَّر أن يواجه الأمر على كل حال، وهو بين مُصدِّق ومُكذِّب. وضع خمس رصاصات في المسدس العتيق من طراز سميث أند ويسون، ذلك الذي قلّما كان يستخدمه في نادي الصيد والرماية، أو في بعض رحلات الصيد التي يقتاده إليها أصدقاؤه من هواة الصيد، والتي تصيبه بضجر شديد.

وعلى حين غرّة، ذهب إلى البيت الذي يسكنه دكتور إفرين غارسيا أرديليس مع أمه العجوز في حي سان فرانسيسكو المجاور. فما لبث أن استقبله صديقه القديم، الذي عاد لتوّه من العيادة حيث يقضي المساء، بعد أن يفرغ من العمل في مستشفى سان خوان دي ديوس العمومي نهارًا. مضى به صديقه إلى صالة صغيرة حوَت رفوفًا تراصَّت فوقها الكتب، والقطع الأثرية التي تنتمي إلى حضارتَي المايا والكيتشا، والأقنعة، وجرار رماد الموتى.

ـ إفرين، أجبني عن سؤال واحد. ـ أخذ دكتور بورّيرو لاماس يتكلَّم ببطء شديد، وكأنه يُضطَرّ إلى انتزاع الكلمات من فمه انتزاعًا ـ لقد ذهبنا معًا إلى مدرسة الأخوية المريمية، وعلى الرغم من شطط أفكارك السياسة، فأنتَ عندي بمنزلة أعزّ الأصدقاء. آمل ألاَّ تكذبني القول، باسم هذه الصداقة الطويلة. هل أنت الذي تركتَ ابنتي حبلى؟

رأى دكتور إفرين غارسيا أرديليس يمتقع حتى صار بلون الورقة البيضاء، ويفتح فمه ثم يطبقه عدة مرات قبل أن يحير جوابًا. وأخيرًا أجاب، متلعثمًا، ويداه ترتجفان:

ـ أرتورو، ما كنتُ أعرف أنها حبلى. أجل، أنا الذي فعلتُها. وذلك أسوأ ما فعلتُ مدى الحياة. وشعوري بالندم لن ينتهي ما حييت، أقسم لك.

ـ جئتُ أقتلك، يا ابن العاهرة، ولكنك تثير نفوري إلى الحدّ الذي يمنعني حتى من قتلك.

وإذا هو يجهش بالبكاء ويستغرق في نشيج أغرق وجهه بالدموع وأثار رجفة في صدره. مكثا معًا قرابة ساعة. وعند الوداع، بينما هما على أعتاب الباب المفضي إلى الشارع، لا شدّ أحدهما على يد الآخر ولا ربَّت على ظهره كما هو دأبهما.

وصل دكتور بورّيرو لاماس إلى بيته، فتوجَّه مباشرةً إلى حجرة النوم الموصدة بالمفتاح، تلك التي لزمَتها ابنته منذ اليوم الذي فقدَت فيه الوعي.

حدَّثها والدها من دون أن يجلس، بل إنه ظلَّ واقفًا طوال الوقت، على أعتاب الحجرة، وبنبرة لا تقبل ردًا قال:

ـ لقد تحدَّثتُ إلى إفرين، واتفقنا على أن يتزَّوج منك حتى يحمل ذلك الطفل اسمًا، كيلا يُولَد في الشارع مثل جراء الكلاب، وعلى أن يُقام الزفاف في مزرعة تشيتشيكاستينانغو. سأتحدَّث إلى الأب الكاهن أويّوا حتى يعقد الزواج، بلا مدعوين. سوف يُعلَن الخبر في الصحف. وحتى ذلك الوقت، نستمرّ في التظاهر بأننا أسرة مترابطة، ثم لا أعود إلى رؤياك ولا الاهتمام بأمرك بعد أن تتزوَّجي من إفرين. وسأبحث عن الطريقة التي أحرمكِ بها من الميراث. وفي تلك الأثناء، لن تضعي في الشارع قدمًا، بل إنكِ سوف تبقين حبيسة هذه الحجرة.

وقد كان. أما تلك الزيجة المفاجئة التي جمعَت دكتور إفرين غارسيا أرديليس بفتاة في الخامسة عشرة من العمر، تصغره بثمانية وعشرين

عامًا، فلقد أثارت الشائعات والأقاويل التي ملأت الأسماع حتى سهرَت عليها مدينة غواتيمالا. عرف الجميع أن مارتيتا بورّيرو بارًّا في سبيلها إلى الزواج بتلك الطريقة لأن الدكتور قد تركها حبلى، الأمر الذي لم يفاجأ به أحد، مع الأخذ في الحسبان أنه رجل له ما له من الأفكار الثورية. شعر الجميع بالشفقة على دكتور بورّيرو لاماس، الذي لم يرَه أحد يعاود الابتسام أو يتردَّد إلى الحفلات أو يلعب الروكامبور منذ ذلك الحين.

عُقِد الزواج في مزرعة قهوة صغيرة نائية في ضواحي تشيتشيكاستينانغو، كان يملكها والد العروس الذي شهد بنفسه على الزواج ومعه نفر من العاملين بالمزرعة، اضطُرّوا إلى التوقيع بالخطوط المستقيمة ورموز الـ X، نظرًا لجهلهم بالقراءة والكتابة، ثم تلقّوا عددًا من قطع الكيتسال[1] مكافأة لهم عن ذلك. لم يشرب أحدٌ نخب سعادة العروسَيْن، ولا حتى كأس نبيذ واحدة.

عاد الزوجان إلى مدينة غواتيمالا، فاتَّجها إلى بيت إفرين وأمه مباشرةً. وهكذا عرفَت العائلات الكريمة جميعًا أن دكتور بورّيرو لن يعود إلى رؤية ابنته أبدًا، وفاءً بالعهد الذي قطعه.

في منتصف عام ١٩٥٠، ولدَت مارتيتا صغيرًا في الشهر السابع من الحمل، من الناحية الرسمية على الأقل.

(١) كيتسال: عملة معدنية من غواتيمالا، واسم طائر مُلوَّن قدَّسَته حضارة المايا. (المترجم)

٢

ـ لا بد للمرء من السيطرة على أعصابه، بطريقة أو بأخرى. ـ قال إنريكي، وهو يفرك يدَيْه ـ أشعر بالتوتّر قبل تنفيذ تلك المهمات. ولكن، متى حانَت اللحظة، هدأت أعصابي ونفَّذتُ المهمة كما ينبغي. هل يحدث لك الشيء نفسه؟

ـ أنا على النقيض منك. ـ قال الدومينيكاني، نافيًا برأسه ـ أستيقظ وأنام وأقوم في غاية التوتّر. ومتى حانت ساعة التحرّك يبلغ مني التوتّر مبلغه. التوتّر حالتي الطبيعية.

كانا في مكتب إدارة الأمن العام التي تشغل ناصية قصر الحكم، ومن نوافذ المكتب تراءى منتزه سنترال بما حوى من أشجار وارفة، فضلاً عن واجهة كاتدرائية مدينة غواتيمالا. كان يومًا صحوًا، لا يزال خاليًا من السحب، ولكن المطر آتٍ في المساء، والأرجح أنه سوف يواصل ملء الشوارع بالسيول الصغيرة والبرك الضحلة مدى الليل، كما جرى طوال الأسبوع.

ـ لقد اتُّخِذ القرار، ورُسِم المُخطَّط على أكمل وجه، وتعهَّد أصحاب الأدوار المهمة في العملية بالالتزام، والآن صارَت التصاريح والتراخيص اللازمة في جيبك، لك أنت و«الدونيا»[١] معًا. فلماذا قد يخيب شيء؟ ـ

---

(١) دونيا («Doña»): لقب يُستخدَم في البلدان الناطقة بالإسبانية ويُراد به «سيدة» أو=

قال الآخر وقد خفض الآن صوته كثيرًا. ثم بدَّل دفة الحديث مبتسمًا، وإن خلا حديثه من أدنى أثر للمزاح ـ: أتدري ما الشيء المفيد لتهدئة الأعصاب؟

ـ كأس شهية من شراب الرمّ الخالص. ـ ابتسم الدومينيكاني ـ ولكن لا بد من تناولها في الماخور، لا في هذا المكتب الذي يخيِّم عليه الحزن الشديد، حيث تحيط بنا «الآذان المصغية»، كما يُطلَق على الوشاة هنا، في بلدك. «الآذان»! لها وقع حسن. الأفضل لنا أن نذهب إلى حيّ خيرونا، إلى تلك الأجنبية صاحبة الشعر المصبوغ.

نظر إنريكي إلى ساعته:

ـ الساعة لا تتجاوز الرابعة مساء. ـ خيَّم عليه الحزن ـ لا بد أنه مُقفَل، فالوقت لا يزال مبكرًا جدًا.

ـ لو دعَت الحاجة لفتحناه ركلًا بالأقدام. ـ قال الدومينيكاني مُؤكِّدًا، وهو ينهض ـ لم يعُد أمامنا ما يمكن عمله. والبقية رهن بالحظ. دعنا نشرب كأسًا شهية ريثما يمرّ الوقت. سأدعوك.

خرجا، وفيما هما يقطعان القاعة الحافلة بالمكاتب هبَّ الحضور وقوفًا لتحية إنريكي، واحدًا تلو الآخر، المدنيون منهم والعسكريون. لم يتوقَّف إنريكي، وإنما راح يودِّعهم بإيماءة من رأسه فحسب، لأنه يرتدي ثيابًا مدنية. وفي الشارع، كانت السيارة تنتظرهما أمام واحد من أبواب البناء الجانبية، وقد جلس خلف المقود سائق هو الأشدّ قبحًا في العالَم بأسره. سرعان ما أقلّهما إلى المكان المنشود. وبالفعل، كان ماخور

=شيء من هذا القبيل. ولقد فضّلنا الاحتفاظ باللقب كما جاء في الأصل مع الأخذ في الاعتبار أن الكاتب يخصّ به شخصية بعينها في أكثر من مناسبة، وذلك حتى لا يخلط القارئ بين السيدة المقصودة في هذا السياق وغيرها من السيدات الوارد ذكرهن في الرواية. (المترجم)

الأجنبية موصدًا لم يزَل. عند ذاك أخبرهما كنّاس أعرج وحيد بأن المكان لا يفتح أبوابه إلاّ «متى أقبل الظلام وتساقطَت الأمطار». غير أنهما طرقا الباب على كل حال، مرة تلو أخرى، واستمرَّا في الطرق بصخب متزايد إلى أن تناهى إليهما رنين مفاتيح وسلاسل، ثم انفرج الباب نصف انفراجة.

ـ في مثل هذه الساعة، يا سيدَي؟ ـ قالَت المرأة ذات الشعر البلاتيني الذي تناثر الآن وهي تتعرَّف عليهما، في دهشة. كانت تُدعَى ميريام ريتشر، وتتصنَّع الحديث بلهجة غريبة كي تبدو أجنبية ـ ما زالت الصبايا نائمات، أو إنهن يتناولن الفطور.

ـ لم نأتِ من أجل الصبايا، وإنما جئنا لتناول كأس من الشراب يا ميريام. ـ قاطعها إنريكي بجفاء ـ هل لنا بالدخول؟ نعم أم لا؟

ـ من أجلكما، الإجابة «نعم» دائمًا. ـ هزَّت الأجنبية كتفَيْها، مُسلِّمة أمرها. ثم فتحَت الباب على مصراعَيْه، وأفسحَت لهما الطريق حتى يتمكَّنا من الدخول وهي تحني رأسها بإجلال ـ تفضَّلا يا سيدَي.

في تلك الساعة، والمكان خالٍ من الإضاءة والزبائن، بدَت الحانة أتعس وأحزن مما تكون عليه والأنوار مضاءة، وزبائن المكان الصاخبون حضور، والموسيقى تدوِّي بأعلى صوت. بدلاً من اللوحات، تراءت على الجدران ملصقات دعائية تعلن عن المشروبات وعن قطار الساحل. جلس الصديقان على مقعدَيْن مرتفعَيْن أمام البار. ثم أشعل كلٌّ منهما سيجارة وراح يدخِّن.

ـ الطلب المعتاد؟ ـ سألت المرأة. كانت ترتدي روب البيت وتنتعل خفًّا منزليًّا، فبدَت وكأنها عجوز مئوية وهي على تلك الحال، رثة الهيئة، بلا زينة.

ـ قدِّمي لنا الطلب المعتاد... ـ قال الدومينيكاني مازحًا ـ ومعه فرجًا شهيًا حتى ألتهمه بلساني، لو أمكن!

ـ تعرف تمام المعرفة أنني لا أحبّ البذاءة. ـ تبرَّمَت المالكة، وهي تصبّ لهما كأسي الشراب.

ـ ولا أنا. ـ قال إنريكي لصديقه ـ ولذا فعليك أن تتحلَّى بالمزيد من الاحترام متى فتحت فمك.

أطرقا لحظةً، وإذا بإنريكي يسأله فجأة:

ـ وكيف تكون من معتنقي الصليب الوردي؟ أي ديانة هي تلك التي تسمح لك بالتفوّه بمثل هذه البذاءة أمام السيدات؟

ـ «السيدات»... يروقني هذا كثيرًا. ـ قالت المرأة التي مضَت في سبيلها، من دون أن تلتفت إليهما. ثم اختفَت عن الأنظار خلف أحد الأبواب.

فكَّر الدومينيكاني قليلاً ثم هزَّ كتفَيْه:

ـ لستُ مُتأكِّدًا حتى من كونها ديانة. فربما كانت مُجرَّد فلسفة. بعد أن وصلت إلى المكسيك بزمن قصير، تعرَّفت بحكيم قيل عنه إنه من معتنقي الصليب الوردي: الأخ كريستوبال. كان يبثّ في النفس سلامًا لم أعاود الشعور به مدى الحياة، ويتحدَّث بهدوء كبير، وببطء شديد. كان يبدو وكأنه يتلقَّى الإلهام من الملائكة.

ـ الإلهام؟ كيف؟ ـ سأل إنريكي ـ أتعني أنه واحد من أولئك الزاهدين المخابيل الذين يجوبون الشوارع وهم يُكلِّمون أنفسهم؟

ـ كان حكيمًا، لا مجنونًا. ـ قال الدومينيكاني مُؤكِّدًا ـ لم يقُل الصليب الوردي قطّ، وإنما كان يدعوها «أخوية الصليب الوردي القديمة السرية»، الأمر الذي كان يضفي عليها قدرًا عظيمًا من المهابة. ولقد نشأت تلك العقيدة في مصر القديمة، في عهد الفراعنة، باعتبارها أخوية

سرية معتزلة، واستمرَّت على قيد الحياة بعيدًا عن أعين السواد الأعظم من الناس على مدى قرون. يبدو أنها واسعة الانتشار في الشرق وفي أوروبا. ولكن أحدًا لا يدري ما هي، لا هنا ولا في جمهورية الدومينيكان.

ـ إذن، فكيف لك أن تكون من معتنقي الصليب الوردي؟

ـ لستُ أدري حتى إن كنت من معتنقيها. ـ قال الدومينيكاني آسفًا ـ لم أجد مُتَّسعًا من الوقت كي أتعلَّم. ولم أرَ الأخ كريستوبال إلاَّ بضع مرات. غير أنه ترك في نفسي أثرًا قويًّا. وتراءى لي أن تلك الديانة أو الفلسفة هي الأنسب لي، بالحكم على ما سمعتُ عنها، لأنها تبثّ في النفس سلامًا عظيمًا، ولا تقتحم الحياة الشخصية على الإطلاق. كان الأخ كريستوبال يُدخِل على النفس شعورًا بالهدوء متى تكلَّم.

ـ الحق أنك غريب الأطوار قليلاً. ـ أطلق إنريكي حكمه ـ ولستُ أقولها بالحكم على آفاتك وحسب.

ـ أعترف بذلك، في ما يتعلَّق بالدين والروح على الأقل. ـ قال الدومينيكاني ـ أنا رجل مختلف عن سائر الناس. هكذا أنا، ولي جزيل الشرف.

٣

«أنا في حاجة إلى كأس من الشراب»، مضى يفكِّر. وفيما هو يتملَّص من الأحضان، وسمعه يتعذَّب تحت وطأة الهتافات بحياته، ومُكبِّرات الصوت تُردِّد اسمه، همس لماريا بيلانوبا قائلًا: «يجب عليَّ الذهاب إلى دورة المياه»، ثم انسلَّ عائدًا من الشرفة إلى داخل القصر وهو يكاد يشقّ طريقه دفعًا. هرع إلى المكتب وأقفل بابه على نفسه، المكتب الذي كان له طوال الفترة التي شغل خلالها منصب وزير الدفاع في عهد أريبالو. دلف إلى المكتب، ثم أوصد الباب من الداخل، وعجَّل بفتح الخزانة المقفلة بالمفتاح دائمًا خلف مكتبه. هناك استقرَّت قنينة الويسكي، التي فتحها بيد كادت لا تطاوعه، وملأ منها الكأس حتى نصفها. أخذ جسده ينتفض، ولا سيما يداه. اضطُرّ إلى الإمساك بالكأس بأصابعه العشر لئلاَّ ينسكب الشراب ويُبلِّل سرواله. «لقد صرتَ مدمن كحول»، فكَّر مذعورًا. «أنت في سبيلك إلى قتل نفسك، ولسوف تنتهي بك الحال كما انتهَت بأبيك. غير معقول!».

في رأي خاكوبو أربينس غوسمان، كان انتحار والده سرًّا لا يُسبَر له غور، والده الصيدلاني السويدي الذي استقرَّ به المقام في كيتيسالتنانغو، تلك المنطقة الجبلية الواقعة في مرتفعات ألتيپلانو الغربية بغواتيمالا، هناك حيث وُلِد خاكوبو في الرابع عشر من سبتمبر عام ١٩١٣. لماذا فعل ما فعل؟ هل كانت أمور الصيدلية تسير على غير ما يُرام؟ هل كان

مدينًا؟ مفلسًا؟ كان والده مهاجرًا استقرّ في تلك المنطقة المرتفعة المُتشبِّعة بإرث حضارة المايا، هناك حيث تزوَّج مُعلِّمة من أهل البلدة، السيدة أوكتابيا غوسمان كاباييِّروس، التي طالما أخفَت عن ابنها السبب الذي دفع زوجها إلى الانتحار (لعلَّها لم تكُن تعلم هي الأخرى). لم يكتشف أربينس إلاَّ بعد مضي سنوات أن والده، ذلك الرجل المستغلق، قد أصيب بقرحة في الاثني عشر، وكان يحقن نفسه بالمورفين لمغالبة الألم.

لماذا لا يشرب كأس الويسكي، تلك التي حلم بها طويلاً، وضمَّها الآن بكلتا يدَيْه؟ روَّعه أن يكون هاجس الكأس قد استحوذ عليه طوال الوقت الذي استغرقَته المظاهرة المقامة احتفالاً بانتصاره. تساءل مُجدَّدًا: «هل صرت مدمن كحول؟». على الرغم من المهمة الضخمة الماثلة أمامه! على الرغم من الآمال التي علَّقَتها عليه تلك الأعداد الغفيرة من أهل غواتيمالا! أيخدعهم من أجل ولعه التعيس بمعاقرة الشراب؟ لم تواتِه الشجاعة على التخلّص من كأس الويسكي في الحوض، تلك الكأس التي راح يهزّها بخفَّة بين يدَيْه. ولم تواتِه الشجاعة على تناولها أيضًا.

عاش خاكوبو طفولته ومراهقته على تلك الأراضي المرتفعة، حيث تذوي جموع الهنود تحت وطأة الفقر ويستغلّهم أصحاب المزارع بلا رحمة. وهكذا عرف منذ عمر مُبكِّر بوجود مشكلة اجتماعية حقيقية في غواتيمالا، مشكلة تكمن في عدم المساواة والاستغلال والبؤس، وإن زعم البعض لاحقًا أن زوجته، السالفادورية ماريا كريستينا بيلانوبا، هي صاحبة الفضل الوحيد في تحوّله إلى اليسار.

شغف بالرياضة منذ عمر مُبكِّر جدًا، فكان يمارس ألعاب القوى والسباحة وكرة القدم والفروسية. من المُرجَّح أن يكون ذلك هو السبب الذي دفعه إلى اختيار العسكرية. ولا بد أن الوضع الاقتصادي العصيب

الذي آلَت إليه أسرته بعد موت أبيه المأساوي قد لعب دورًا مُهمًّا في ذلك أيضًا.

برز منذ طفولته المُبكِّرة بما له من وسامة ونبوغ أكاديمي وإنجازات رياضية. زد على ذلك فترات الصمت الطويلة التي كان يستغرق فيها، وشخصيته قليلة التواصل، المتقشِّفة، الزاهدة في المعاشرة، تلك التي ورثها عن أبيه. التحق بمدرسة غواتيمالا الفنية العسكرية، في أواسط عام ١٩٣٢، فحصل على المركز الأول، وجرى الحديث عنه باعتباره شابًا ينتظره مستقبل واعد. طوال أعوام الدراسة، كان طلَّاب المدرسة يحصلون على الرتب العسكرية، فنال أربينس أعلى رتبة في تاريخ المدرسة العسكرية: رقيب أول. كما نُصِّب حامل لواء فرقة الكاديت[١] وفاز ببطولة الملاكمة.

هل ولع بمعاقرة الشراب آنذاك؟ تذكَّر أن معاقرة الشراب كانت هي التسلية الأوسع انتشارًا بين طلَّاب المدرسة العسكرية وضبَّاط الصفّ والضبَّاط. بل إن الشيء الأكثر مدعاة لفخر الطلَّاب وسط زملائهم ورؤسائهم لم تكُن الدرجات الممتازة ولا شهادة حسن السير والسلوك المُشرِّفة، وإنما القدرة على تحمّل الشراب. «حمقى»، دار في خلده.

تعرَّف بماريا كريستينا بيلانوبا الجميلة الذكية وهو لا يزال برتبة كاديت. كانت قد حضرَت إلى غواتيمالا زائرةً، فقُدِّم أحدهما إلى الآخر خلال حفل أقيم في الحادي عشر من نوفمبر تكريمًا للديكتاتور الحاكم، الجنرال خورخي أوبيكو كاستانييدا. يومئذ بدا الشاب في غاية الشحوب، إذ كان قد خرج لتوّه من المستشفى عقب إصابته في حادث بالدراجة البخارية. نشأ بينهما انجذاب، ثم تبادلا رسائل حبٍّ محمومة بعد أن

---

(١) كاديت: طالب عسكرية، وهي أولى الرُّتَب وأدناها منزلةً. ولقد راوحنا بين «كاديت» و«طالب عسكرية» في ترجمة المصطلح بما يلائم السياق. (المترجم)

رجعَت الفتاة إلى سان سالفادور. في سيرتها الذاتية الوجيزة، تحكي أنهما، في فترة العلاقة الغرامية التي جمعَت بينهما، كانا يتجاذبان أطراف الأحاديث الرومانسية والأحاديث الجادة أيضًا، «في الفيزياء والكيمياء» على سبيل المثال. كانت ماريا كريستينا، التي وُلِدَت عام ١٩١٥، سليلة واحدة من تلك العائلات التي أُطلِق عليها «عائلات سالفادور الأربعة عشر»، ودرسَت في الولايات المتحدة، بمدرسة نوتر دام دي نامور، في بيلمونت، كاليفورنيا، وأتقنَت الحديث بالإنجليزية والفرنسية، بل إنها كانت على أهبة الالتحاق بالجامعة لو أتيحَت لها الفرصة، ولكن حيل دونها ودون ذلك، لأن الفتاة الوقور لا تقترف مثل هذه الأشياء، طبقًا لأحكام العصر. فحلَّت القراءة والشغف بالأدب والسياسة والفنون محلَّ تلك الدراسات. كانت شابة لا يهدأ لها بال، ذات أفكار مُتقدِّمة، يشغلها الوضع الاقتصادي والاجتماعي في أمريكا الوسطى، وتنفق ساعات الفراغ في الرسم. وعلى الرغم من الممانعة التي أبدَتها أسرة ماريا كريستينا، اتَّخذ الشابان قرارهما بعقد الزواج. وبالفعل، ما كاد أربينس ينال رتبة ملازم حتى عقدا زواجهما بالكنيسة في مارس من عام ١٩٣٩، الأمر الذي أرغمه على الاعتراف والمناولة الأولى، إذ نشأ خاكوبو أربينس نشأة علمانية حتى ذلك الوقت. تلقَّى الزوجان من أسرة ماريا عزبةً في غواتيمالا تُدعَى الكاخون، تقع في مقاطعة سانتا لوسيا كوتوسمالغوابا، في إسكوينتلا، على سبيل الهدية. وبطبيعة الحال، كانت ماريا بيلانوبا هي أول من لفت نظره إلى أن ما بدأ هوايةً يكاد يغدو آفةً. كم مرة سمع زوجته وهي تقول: «حسبك يا خاكوبو، لسانك يتعثَّر في الحديث، لا تشرب أكثر مما شربت!». فيمتثل هو لكلامها في كل مرة.

كانت زيجة سعيدة. ولقد تركَت ماريا كريستينا في الضابط الشاب أثرًا قويًا جدًّا بما لها من ثقافة ورهافة. كما وصلَت بينه وبين المُثقَّفين والكُتَّاب والصحافيين والفنانين في غواتيمالا وسائر أنحاء أمريكا

الوسطى، أشخاص ما كان ليجتمع بهم لولاها، كثُر بينهم أولئك الذين كانوا ينعتون أنفسهم بالاشتراكيين والراديكاليين، ممن ينتقدون الديكتاتوريات العسكرية المُتفشِّية في بلدان أمريكا الوسطى (على غرار ديكتاتورية الجنرال أوبيكو)، ويرغبون في الديمقراطية والانتخابات الحرة وحرية الصحافة والأحزاب السياسية والإصلاحات التي من شأنها السماح للهنود بالتحرّر من تلك الأوضاع الدنيئة التي خضعوا لها منذ العهد الاستعماري. ولكن مشكلة أولئك الفنانين والمُثقَّفين، وفق ما دار في خلده، أن الشراب يروق لهم جميعًا بقدر ما يروق له. وهكذا كانت تلك اللقاءات التي جمعَته بهم، حيث تعلَّم الكثير والكثير، تنتهي بالسُكْر في أغلب المرات. ظلَّ ينظر مفتونًا إلى السائل الضارب إلى الصفرة قليلاً بين يدَيْه.

تعرَّضَت ماريا كريستينا لانتقادات كثيرة في المستقبل لأنها اجتمعَت بأجنبيتَيْن اشتهرتا بانتمائهما إلى التيار الشيوعي لدى حضورهما إلى غواتيمالا: التشيلية بيرخينيا برابو ليتيليير، التي سوف تغدو سكرتيرتها في وقت لاحق، والسالفادورية ماتيلدي إلينا لوبيس. ولكن زوجته لم تخشَ الانتقادات، بل فعلَت ما بدا لها حسنًا، ولم تُلقِ لما قد يقوله الآخرون بالاً. وكانت تلك الشخصية التي تميَّزَت بها أحبّ سماتها لنفس خاكوبو أربينس. ما زال لم يتخلَّص من الويسكي في الحوض، ولم يشربه أيضًا. جعل يفكِّر في أمور أخرى، بَيْد أنه لم يحوِّل بصره عن الكأس. وفي الخارج، في منتزه سنترال، ظلَّت الهتافات تدوِّي، وظلَّ اسمه يتردَّد عَبْر مُكبِّرات الصوت.

أنجب خاكوبو أربينس وماريا بيلانوبا ابنتَيْن وابنًا واحدًا: أرابيلا المولودة عام ١٩٤٠، وماريا ليونورا المولودة عام ١٩٤٢، وخوان خاكوبو المولود عام ١٩٤٦. وطوال مسيرته العسكرية، رافقَت ماريا بيلانوبا زوجها إلى المواقع التي خدم فيها، مثل سان خوان ساكاتيبيكيس وحصن سان

خوسيه، على مدى تلك الأعوام التي راح يكتسب فيها مزيدًا من الوجاهة ومكانةً أبرز في القيادة وسط رفاق السلاح. زادَت سعادة ماريا كريستينا لمَّا بُعِث زوجها إلى العاصمة، إلى المدرسة الفنية العسكرية العريقة المئوية، بصفته كابتن فرقة الكاديت، ثم أستاذ العلوم والتاريخ.

عاشوا في البنسيونات طويلاً، لأن دخله المتواضع (الذي كان يُقدَّر بستين دولار في الشهر) لم يكفِ لاستئجار شقة، حتى سمحَت لهم العلاوات أخيرًا بالانتقال إلى بيت في پومونا، عند مفرق جادة ريفورما وشارع مونتوفار، ملحق بحديقة فسيحة تطوِّقها الأشجار السامقة التي تُدخِل على أهل البيت شعورًا بسكنى الريف. وهناك ظلاّ يجتمعان بأولئك المُثقَّفين والفنانين، الذين تجشَّم الكثيرون منهم الملاحقة، بل والسجن والمنفى أيضًا، بسبب أفكارهم السياسية، من أمثال: كارلوس مانويل پييسير، الذي التحق بالمدرسة العسكرية ثم زُجّ به في السجن ونُفِي إلى المكسيك لأنه عارض حكومة أوبيكو؛ وخوسيه مانويل فورتوني، الأستاذ بمدرسة المُعلِّمين والصحافي والسياسي الذي تولَّى رئاسة الحركة الديمقراطية اليسارية المعروفة باسم حزب العمل الثوري (PAR)، وبعد ذلك ساهم في تأسيس الحزب العمالي الغواتيمالي (الشيوعي).

«ولكني لم أسكر يومًا، ولا أفرغتُ ما في جوفي، ولا اقترفتُ تلك الفضائح التي يقترفها الكثيرون من الرفاق التعساء متى أفرطوا في معاقرة الشراب»، جعل يفكِّر. وعلى كل حال، لم يبدُ عليه السكر قطّ. بل إنه كان يداريه بإتقان شديد. ويمسك عن الشرب متى أحسَّ بتلك الدغدغة في رأسه، وأدرك أنه صار عاجزًا عن الحديث، وإلاَّ أسقط بعض الحروف الساكنة أو تلعثم في بعض الحروف المُتحرِّكة. عندئذ كان يصمت ويترقَّب في هدوء، فلا يحرِّك ساكنًا ولا يشارك في الأحاديث ولا المناقشات ريثما تزول عنه تلك الدغدغة الدخيلة.

استمرَّ الجنرال خورخي أوبيكو كاستانييدا ثلاثة عشر عامًا في السلطة، حتى عام ١٩٤٤. ولقد أبدى تعاطفًا جليًا نحو هتلر والنازية، قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية. كما اعترف بحكومة فرانثيسكو فرانكو والحرب الأهلية الإسبانية في أوجها، بل إنه حضر بعض المظاهرات التي كانت تنظِّمها جماعات الفلانخي[١] بالثياب الزرق، مُلوِّحين بالتحية الفاشية، أمام سفارة إسبانيا في غواتيمالا. ولكن خورخي أوبيكو كان في طليعة مَن قطعوا علاقتهم بألمانيا عقب اندلاع الحرب العالمية، ثم أعلن الحرب عليها حتى يكسب الولايات المتحدة في صفّه، وهو الرجل الحَذِر الذي يتحيَّن الفرص المناسبة.

في عام ١٩٤٤، بدأت المظاهرات المناهضة للديكتاتورية في غواتيمالا. فخرج أول مَن خرج طلَّابُ جامعة سان كارلوس الموغلة في العراقة، فما لبث الرأي العام أن حذا حذوهم، موُظَّفين وعمَّالاً، وشبابًا على وجه الأخص. أما خاكوبو أربينس غوسمان، الذي شغل رتبة كابتن آنذاك، فكان واحدًا من العسكريين الأكثر مساهمة في إقناع الجيش بمطالبة الديكتاتور بالتنحّي عن الحكم، فتنحَّى أوبيكو تاركًا الحكومة بين يدَي عسكري آخر هو الجنرال فيديريكو پونسي بايديس، الذي توعَّد بالسير على خطاه، والتمرّد على مثل هذا التسلّط. ولكن بعد خروج مظاهرتَيْن حاشدتَيْن رفضًا لذلك الشكل من أشكال الاستمرارية، وبعد أن شارك الجيش بإصرار في دعم الثورة ضدّ الديكتاتورية بتحريض اثنين من رجال العسكرية هما الرائد فرانسيسكو خابيير أرانا والكابتن خاكوبو أربينس، تنحَّى پونسي بايديس عن الحكم. عند ذاك تولَّى شؤون البلد مجلس مُؤلَّف من هذين العسكريَّيْن، أربينس وأرانا، فضلاً عن رجل مدني هو رجل الأعمال خورخي توريبو.

(١) الفلانخي أو الكتائب الإسبانية: حزب سياسي فاشي تأسَّس عام ١٩٣٣. (المترجم)

دعا المجلس المذكور إلى تشكيل لجنة دستورية وإجراء الانتخابات الرئاسية والنيابية بموجب الاتفاق المُبرَم. كانت تلك هي أول انتخابات ديمقراطية بحقّ في تاريخ غواتيمالا. أما الحركة الشعبية التي جعلَت الانتخابات الديمقراطية أمرًا ممكنًا، فصارَت تُعرَف بوصفها «ثورة أكتوبر» في المستقبل، الثورة التي دشَّنَت عهدًا جديدًا في البلد. فاز بتلك الانتخابات أستاذ ومُفكّر بارز (على الرغم من خيلائه)، هو خوان خوسيه أريبالو، الذي سبق له العيش في المنفى بالأرجنتين، ثم عاد إلى غواتيمالا في الثالث من سبتمبر عام ١٩٤٤ بهدف الترشّح إلى الانتخابات، فكان في انتظاره استقبال حاشد. فاز أريبالو على الجنرال فيديريكو پونسي بايديس فوزًا كاسحًا: وحصد ٨٥٪ من أصوات الناخبين.

أما خاكوبو أربينس، الذي دعم ترشيح أريبالو بحماس، فنُصِّب وزيرًا للدفاع ورُقِّي إلى رتبة رائد. لعب دورًا حاسمًا في تمكين أريبالو من إتمام فترته الرئاسية التي بلغت أربعة أعوام، وإدخال الإصلاحات السياسية والاجتماعية التي وضعها نصب عينَيْه. ويُقال إنه اضطُرّ إلى مواجهة نحو ثلاثين محاولة انقلاب، وتمكَّن من السيطرة عليها في الوقت المناسب أو دحرها عسكريًا، وأغلب الفضل في ذلك يرجع إلى نشاط أربينس ونفوذه على رفاق السلاح. قاد عددًا من محاولات الانقلاب ضابطٌ مغمور يُلقَّب بـ«وجه الفأس»، وهو المُقدِّم كارلوس كاستيّو أرماس، الذي كان من جيل أربينس. لم يذكره أربينس إلاَّ بمشقّة، بوصفه شخصًا باهتًا، مرَّ بالمدرسة العسكرية من دون أن يحقِّق فيها مجدًا ولا نبوغًا. وعلى الرغم من تفاهته، سوف يصبح ذلك الغريم العنيد هو عدوّه اللدود.

كم دقيقة مضَت منذ أوصد على نفسه باب مكتبه في قصر الحكم؟ ما لا يقلّ عن عشر دقائق. بينما هو لا يزال ممسكًا بكأس الويسكي الذي

أخذ يهزّه بين يدَيْه ببطء. تفصَّد عرقه غزيرًا. وكما هو دأبه في كل مرة، قبل الشرب وبعده، شعر بالندم والنفور معًا. والآن خيَّم عليه ذلك الشعور، مع أنه لم يشرب، وبات يشكّ في إقدامه على الشرب.

كالمُتوقَّع، ظلَّ التعاون بين ماريا كريستينا بيلانوبا وزوجها وثيقًا جدًّا طوال الأعوام التي أمضاها في منصب وزير الدفاع إبان عهد أريبالو. لم تكُن زوجته «قطعة زينة» بأي شكل، وهي الحال التي أُرغِمَت على الركون إليها زوجات الرؤساء والوزراء بمقتضى الأعراف والقوانين المعمول بها حتى ذلك الوقت. بل إنها كانت هي المستشارة الأساسية لزوجها وصاحبة الرأي المسموع الذي كثيرًا ما طغى على آراء باقي مستشاري الرئيس، طبقًا لشهادة أربينس نفسه، وشهادات أولئك الذين كانوا يجتمعون بهما.

وهكذا نشأت في عهد أريبالو منافسة جادة، بين خاكوبو أربينس والكولونيل فرانسيسكو خابيير أرانا، قائد القوات المُسلَّحة، الذي كان يطمح إلى تولِّي منصب الرئيس خلفًا لأريبالو. كان أرانا رجلًا ذكيًا ودودًا، جاء من خلفية شعبية، والتحق بالجيش جنديًا، ثم وصل إلى رتبة ضابط من دون الالتحاق بالمدرسة العسكرية. هو أيضًا لعب دورًا حاسمًا في إسقاط الديكتاتور أوبيكو. ولهذا تلقَّى وعدًا بدعم ترشحه للرئاسة في انتخابات ١٩٥٠ من الحزبَيْن السياسيَّيْن الداعمَيْن لحكومة أريبالو، جبهة التحرير الشعبية وحزب التجديد القومي، اللذين اندمجا لاحقًا في حزب العمل الثوري. منذ تولَّى خوان خوسيه أريبالو الرئاسة، سعى أرانا إلى التخفيف من إصلاحات اجتماعية بعينها وإبقاء السياسة الاقتصادية للنظام الديمقراطي في إطار المعقول، وكبح الإجراءات التي أثارت الجدل. طبقًا للشائعات التي روَّجها منافسوه واستنكرها أنصاره، شرع الكولونيل أرانا في التآمر على الحكومة والإعداد لانقلاب عسكري كان من شأنه أن يجعل خوان خوسيه أريبالو قطعة زينة، ويجرِّده من

السلطة الحقيقية، حتى وإن لم يسمح ذلك الانقلاب لأرانا بأن يحلّ محله. تلقَّت الحكومة تحذيرات من عسكريين أوفياء مؤداها أن الكولونيل أرانا ينصِّب أنصاره في مواقع قيادية في الجيش، مثل «وجه الفأس»، قائد المنطقة العسكرية الرابعة. وخلال اجتماع مجلس الوزراء، الذي عُقِد بحضور رئيس مجلس النواب، الكاتب ماريو مونتيفورتي توليدو، تقرَّر وضعه رهن الاعتقال.

وفي الثامن عشر من يوليو عام ١٩٤٩، مَثَل أرانا في قصر الحكم، حيث طلب من الرئيس خوان خوسيه أريبالو أن يسلِّم الجيش شحنة السلاح التي ردّها إلى الحكومةِ فيلقُ الكاريبي ـ المُؤلَّف من أولئك المُتطوِّعين الذين حملوا خوسيه فيغيريس إلى سدة الحكم في كوستا ريكا، ثم حاولوا إنزال قواتهم لمواجهة رافاييل ليونيداس تروخيّو في جمهورية الدومينيكان، ولكن سدى ـ ، شحنة السلاح التي لم يكُن أريبالو قد وضعها تحت تصرّف القوات المُسلَّحة بعد. زعمَت الشائعات التي روَّجَتها الصحافة المعادية للحكومة أن أريبالو في سبيله إلى تسليم السلاح المذكور للميليشيات الشعبية المزعومة. بينما صرَّح الرئيس لأرانا بأن السلاح قد أودِع في دار تابعة للحكومة تُعرَف باسم المورلون، كان أوبيكو يتَّخذها مقرًّا لقضاء العطلات فيما مضى، ثم تحوَّلَت إلى نادي ضبَّاط الجيش في الوقت الراهن، وتقع بالقرب من بحيرة أماتيتلان، على بعد ثلاثين كيلومتر من مدينة غواتيمالا. غادر الكولونيل أرانا قصر الحكم في معية رئيس أركان الحرب، الذي كلَّفه الرئيس أريبالو بوضع السلاح المذكور تحت تصرّف الجيش. ثم ذهب في أثره فريق من رجال الشرطة والجنود، يرأسهم الرائد إنريكي بلانكو، من الإدارة الفرعية للحرس المدني، مع أمر بإيقاف الكولونيل أرانا لدى عودته بعد تسليم السلاح.

وهكذا جرى الإيقاع بقائد الجيش عند مفرق صغير على جسر

غلوريا، فوق نهر ميتشاتويا، حيث تبادل الفريقان إطلاق النار، وسقط في المواجهة كلٌّ من الكولونيل أرانا والرائد بلانكو. فكان أن ألصقَت المعارضةُ السياسية تهمة الاغتيال بالكولونيل أربينس، الذي ربما شاهد تلك الواقعة من قمة إحدى الربى، من مشرف بمنتزه ناسيونيس أونيداس، عَبْر المنظار. ما زال المُؤرِّخون يتجادلون بشأن حقيقة الواقعة التي اعتُبِرَت سرًّا آخر من الأسرار التي حفل بها تاريخ غواتيمالا السياسي. وهكذا بات ذلك الاغتيال ـ حادثًا كان أم مُتعمَّدًا ـ وصمة عار في الحياة العامة للكولونيل أربينس على مدى الأعوام التالية، إذ وجَّه إليه منافسوه أصابع الاتهام زاعمين بأنه قد دبَّر عملية الاغتيال حتى يتخلَّص من أحد منافسيه، ألا وهي الحجة الأساسية التي تذرَّع بها الكولونيل كاستيّو أرماس، الذي اعتبر نفسه تلميذ أرانا، حتى يستأنف تمرّده على حكومة أريبالو مُتَّهِمًا إياه بتنفيذ أجنده سرية شيوعية.

والحقّ أنه في ليلة الثامن عشر من يوليو عام ١٩٤٩، يوم اغتيل أرانا، اندلع تمرّد عسكري بثّ الرعدة في أوصال حكومة أريبالو، وكان على وشك الإطاحة به طوال ساعات، إذ احتشدَت أفواج حرس الشرف والطيران العسكري والمنطقة الرابعة بقيادة الكولونيل كاستيّو أرماس، وهاجمَت منشآت الحكومة الرئيسية، وإن ظلَّت ثكنات وقوات عسكرية أخرى مواليةً لوزير الدفاع، خاكوبو أربينس، الذي قاد المقاومة ضدّ محاولة الانشقاق. تبادل الطرفان إطلاق النيران، وسقط القتلى. وطوال جزء من الليل، ظلَّت نتيجة المعركة غير مُؤكَّدة. أما كارلوس مانويل پيّيسير، الذي أُسنِدَت إليه رئاسة المهمات الثقافية المُتنقِّلة في حكومة أريبالو، فتولّى تنظيم فرق من المدنيين دعمَت رجال العسكرية في التصدِّي لتمرّد أنصار أرانا، بقيادة ماريو مينديس مونتينيغرو. بحلول مطلع الفجر، استسلمَت القوات المُتمرِّدة وتقدَّم قادتهم بطلب اللجوء لدى سفارات أجنبية، وأُحبِطَت محاولة الانقلاب.

وبانتهاء كل شيء، أوصد خاكوبو الباب على نفسه وراح يشرب وحيدًا، شأنه الآن، في المكتب نفسه. تذكَّر الإجهاد الذي تملَّكه آنذاك: لمَّا طفق يحتسي كأسًا تلو أخرى حتى أحسَّ بتلك الدغدغة في رأسه، أشدّ من المعهود. وفي لحظة بعينها، أحسَّ بجسده ينتفض رغبة في إفراغ ما في جوفه، فهرول إلى دورة المياه مُضطرًا حتى يتقيَّأ. الآن رفع الكأس إلى فمه، وابتلَّت شفتاه، بَيْد أنه لم يرتشف قطرة واحدة في هذه المرة، بل أحسّ تجاه نفسه باشمئزاز دفين.

طوال السنوات التي أمضاها أريبالو في الحكم، توطَّد التعاون بين أربينس والمحامي خوسيه مانويل فورتوني، الذي عمل على إسقاط أوبيكو منذ كان طالبًا، باذلاً في سبيل ذلك جهودًا كبيرة (زعيم حزب العمل الثوري الذي أوصل أربينس إلى الرئاسة). في وقت لاحق، بات خوسيه مانويل فورتوني واحدًا من مستشاريه الأقوى تأثيرًا. بحلول ذلك الوقت، كان فورتوني قد نأى بنفسه عن حزب العمل الثوري وصبَّ تركيزه على الحزب العمالي الغواتيمالي، الذي لم يتوسَّع كثيرًا ولم يثبت تلقِّيه الدعم أو التمويل من الاتحاد السوفييتي، وإن كانت تلك هي الحجة الأكثر شيوعًا بين كل الحجج التي دفعَت بها الصحافة المحلية والأجنبية للبرهنة على ميول أربينس الشيوعية. والحقّ أن تلك الميول لم يثبت وجودها قطّ. بل إن فورتوني شخصيًا، في المُذكِّرات التي أملاها بعد مضي أعوام، يحكي أن زعماء الحزب العمالي الغواتيمالي في تلك الحقبة لم يعرفوا عن الماركسية إلاَّ قليلاً، ومنهم هو نفسه. على الرغم من الاختلافات السياسية العارضة بينهما، تعاون أربينس وفورتوني خلال رئاسة الأول، ولا سيما على وضع قانون الإصلاح الزراعي (مرسوم ٩٠٠). كما يحكي فورتوني أنه كتب جميع خطابات أربينس الرئاسية، وحتى خطاب تنحّيه عن الحكم، مع أن الأخير محلّ جدال. ولقد اتُّهِم الرئيس بتعيين كارلوس مانويل پيّيسير وبيكتور مانويل غوتييرّيس

مستشارَيْن للرئاسة، وإن اشتهر كلاهما بالميول الثورية بسبب جهودهما المبذولة في تنظيم النقابات واتحادات العمال والفلاحين.

بانقضاء رئاسة خوان خوسيه أريبالو، عام ١٩٥٠، حظي خاكوبو أربينس بمساندة جميع الأحزاب والتكتّلات الاجتماعية التي أيَّدَت حكومة أريبالو، حتى يصل إلى منصب الرئيس خلفًا له، وفاز في الانتخابات فوزًا لا يدع مجالاً للشكّ: فمن بين المُرشَّحين التسعة، حصد أربينس ٦٥٪ من أصوات الناخبين. كان برنامجه الانتخابي يتألَّف من خمسة نقاط: الطريق الذي يمتدّ إلى الأطلنطي؛ ومرفأ سانتو توماس المُطِلّ على الكاريبي؛ ومحطة خورون ـ مارينالا للطاقة الكهرومائية؛ ومحطة تكرير النفط الخام وارد الخارج؛ وفوق كل شيء: الإصلاح الزراعي.

كان اليوم هو الخامس عشر من مارس عام ١٩٥١، وما زال أربينس ممسكًا بكأس الويسكي في يده. أما في الخارج، في منتزه سنترال، فما برح الآلاف من أهل غواتيمالا يحتفلون بانتصاره. وهو لن يخدعهم. هبَّ واقفًا، وذهب إلى دورة المياه، وهناك سكب كأس الويسكي في المرحاض وجذب ذراع الطرد. قرَّر أربينس ألاَّ يشرب قطرة أخرى من الكحول ما دام هو رأس دولة غواتيمالا، وقد وفى بذلك العهد الذي قطعه بإخلاص حتى اليوم الذي تنحَّى فيه عن الحكم.

٤

ـ الشيء الذي أعجز عن فهمه عنادك. ـ قال إنريكي ـ ما رغبتك في انتشال «الدونيا» من ذلك المأزق والمضي بها إلى سان سالفادور؟

لم يصلهما أدنى صخب من الشارع، إما لخلوّ الطريق من السيارات العابرة وإما لخمود أصوات المُحرِّكات وآلات التنبيه على وقع موسيقى البوليرو.

ـ عندي أسبابي. ـ أجاب الدومينيكاني، بجفاء ـ فاحترمها!

ـ أحترمها ولكني أعجز عن فهمها، مع أني نفَّذتُ كل ما طلبتَ مني. ـ ذكَّره إنريكي ـ على سبيل المثال، صرفتُ الحراسة عن بيتها الليلة، بدءًا من السابعة. حاولْ أن تتفهَّم. سيكون من المفيد توريطها هي الأخرى، إذ يلائمنا الإمعان في تعقيد الوضع قليلاً. أما في ما عدا ذلك، فلا تخدع نفسك: لأن مجتمع غواتيمالا كاملاً يؤيِّد سنيورا پالومو، لا «الدونيا»، في هذه الحرب الأهلية الصغيرة التي اندلعَت بسبب علاقة الرئيس بعشيقته. جميعنا كاثوليكيون مُتديِّنون هنا، ولسنا كأهل بلدك، حيث يستطيع تروخيّو أن يأخذ من تحلو له إلى الفراش بلا أي عواقب.

أخذ كلاهما يُدخِّن بلا هوادة، ومنفضة السجائر أمامهما طافحة بالأعقاب، وسحابة من الدخان تخيِّم فوق رأسَيْهما.

ـ أعرف تمام المعرفة. ـ قال الدومينيكاني ـ فالناس هنا لا يروقهم أن

يتَّخذ الرئيس عشيقة لنفسه، ولا سيما الزوجات الصالحات. ألهذا السبب تفتقر نساء غواتيمالا إلى المهارة في الفراش؟

ـ دع عنك الحماقات وأجبني، لماذا تريد أن تأخذها؟ ـ أصرَّ إنريكي سائلاً ـ يلائمنا توريطها في تلك الفوضى، وزيادة الارتباك الذي من شأنه أن يندلع متى ذاع الخبر على الملأ. لا تنسَ أنك راحل، أما أنا فباقٍ هنا. يجب عليَّ اتّخاذ الاحتياطات اللازمة.

تناول كلاهما كأسَيْن من الرمّ، وما زال الماخور حزينًا خاويًا. أما ميريام، السيدة ذات الشعر البلاتيني الغزير، فقد اختفَت عن الأنظار، بينما أخذ هنديٌّ هزيل صموت يكنس نشارة الخشب المتناثرة على أرضية المكان، ويلملمها بيدَيْه ثم يضعها في كيس من البلاستيك. كان في غاية النحول والهزال، ولم يلتفت إليهما مرة واحدة. كان حافي القدمَيْن، يرتدي قميصًا من القطن مُمزَّقًا، مرتوقًا، يشفُّ عن مواضع من بشرته الداكنة. كانت مالكة الدار قد وضعَت في المُشغِّل كومة من أسطوانات أغاني البوليرو بصوت ليو ماريني.

ـ كل شيء مرسوم على أكمل وجه، ولا ينقصك شيء لتعقيد المسألة أكثر مما هي مُعقَّدة. تعرف جيدًا الفضيحة التي سوف تدوّي متى ذاع الخبر. ـ قال الدومينيكاني مُؤكِّدًا ـ لماذا تصرّ على الزجّ بتلك الفتاة المسكينة أيضًا في هذه الفوضى؟

ـ الفتاة المسكينة؟ ـ انطلق إنريكي مقهقهًا ـ أنت مخدوع بشدة. تلك التي تراها بسحنتها الصغيرة البريئة ما هي إلاّ حية، مشعوذة. تلك «الدونيا» قادرة على ارتكاب أفظع الأمور، وإن لم يبدُ ذلك ممكنًا. وإلاّ ما وصلَت إلى هذا المكان الذي تشغله الآن.

ـ لن تقنعني أبدًا. ـ قال الدومينيكاني ـ حديثك بلا جدوى. المُخطَّط هو المُخطَّط. لا بد من تنفيذ الاتفاق. لا تنسَ أن الكثيرين قد تورَّطوا في الأمر.

ـ سوف تكون مهمتي أسهل كثيرًا يا رفيق. ـ أصرّ الآخر، وكأنه لم يسمعه ـ إنها مسألة في غاية الجدية، ولهذا السبب تحديدًا، لا غنى عن إثارة فوضى عارمة متى حانَت ساعة البحث عن المُذنبين. نحن في حاجة إلى زرع كل صنوف الأدلة التي لا تفضي إلى أي شيء، لمُجرَّد إيقاع الناس في البلبلة. أعد التفكير في الأمر.

ـ لقد فكَّرتُ كثيرًا، ولا يمكنني النزول عند رغبتك في هذا الأمر. ـ قال الدومينيكاني ـ «لا» تعني «لا» يا رفيق.

ـ هل لي بمعرفة السبب؟

ـ نعم. ـ قال الدومينيكاني بعد لحظة، وقد تملَّكه الضيق. ثم إنه سكت هنيهة، وأعطى نفسه دفعة ليفصح عما بخاطره ـ: لأني أشعر برغبة في ذلك الفرج منذ أمد بعيد. منذ وقع بصري عليها لأول مرة. أيبدو لك هذا سببًا كافيًا، أم أنك ترغب في سبب آخر؟

أما إنريكي، الذي استغرق في النظر إليه وقد اعترَته المفاجأة، فبدلاً من الردّ عليه، انطلق مقهقهًا مرة أخرى. وبعد أن كفّ عن الضحك، قال مُعقِّبًا:

ـ الحقّ أنني لم أتوقَّع ذلك. ـ هزَّ كتفَيْه وختم الحديث مُؤكِّدًا ـ: الآفات شيء، والواجب شيء آخر. لا يُستحسَن المزج بين العمل واللذة.

٥

مكتبة
t.me/t_pdf

عرف الكولونيل كارلوس كاستيّو أرماس، الذي أطلق عليه المُقرَّبون لقب «وجه الفأس»، أن مرتزقة جيش التحرير بدأوا في التوافد إلى تيغوسيغالبا عن طريق الصخب الذي أثاروه في المواخير والحانات وصالات القمار والدخَّان بالمدينة. بل إن أخبار الفضائح التي تسبَّب فيها أولئك الآتون من كوبا وسالفادور وغواتيمالا ونيكاراغوا وكولومبيا وبعض «الهسبان» القادمين من الولايات المتحدة كانت تُنشَر في الصحف وتُذاع في راديو عاصمة هندوراس، واعتُبِرَت ورقة اعتماد في غاية السوء للقوات التي تدَّعي الرغبة في تخليص غواتيمالا من نظام خاكوبو أربينس الشيوعي. حين انتهره على تلك الفضائح هوارد هانْت، الذي كان همزة الوصل بينه وبين فلوريدا، طلب منه كاستيّو أرماس أن يذهب إلى ميامي لمقابلة رجال السي آي إيه (CIA) في مدينة أوپا لوكا، لأنهم هم الذين استعانوا بأولئك «الجنود» من دون التحرِّي عن سجلاَّتهم بدقة، ولكن هانْت، الغامض المراوغ أبدًا، زعم بأنه من غير الملائم أن يُشاهَد في تلك الأنحاء. وهكذا طفق الكولونيل كاستيّو أرماس يكيل السباب المقذع لكل من يجده في طريقه، تنفيسًا عن مزاجه العكر، في البيت القائم على مشارف عاصمة هندوراس، حيث يباشر مركز القيادة مهماته. لطالما كان الكولونيل عكر المزاج. ومنذ عهد الشباب، حين بدأ زملاؤه في المدرسة العسكرية يطلقون عليه لقب «كاكا»، المُؤلَّف من حروف اسمه الأولى،

دَرَج على ابتكار الألقاب المبهرجة اللاذعة (المسيئة عادةً)، التي كان ينعت بها مَن يغضبونه في سرّه. وهكذا استقرّ على تسمية أولئك المرتزقة الفاضحين «حاملي البراغيث». ما لبث أن أصدر تعليماته لثلَّة العسكريين الغواتيماليين الذين انشقّوا عن الجيش لدعمه بتغريم المُتسبِّبين في الفوضى وإلغاء عقودهم لو ثبتَت فداحة أفعالهم. ولكن أوامره لم تُنفَّذ إلاَّ قليلاً، لأن السي آي إيه ـ «زوجة الأب» ـ كانت هي المنوطة بدفع أجور الجنود الذين التحقوا بجيش التحرير. كانت مصيبة حقيقية أن يقع ما وقع في الوقت الراهن، الآن وقد اتَّخذَت الولايات المتحدة قرار الإطاحة بأربينس أخيرًا ـ بعد انتخاب أيزنهاور رئيسًا في يناير من عام ١٩٥٣ ـ لا عن طريق المؤامرات السياسية، وإنما بالسلاح، كما طالب «وجه الفأس». خلال حكم ترومان، كان من المستحيل إقناع الغرينغو[1] بأن التدخّل العسكري هو السبيل الوحيد للقضاء على النفوذ الشيوعي المتزايد في غواتيمالا (كذلك التدخّل العسكري الذي نفَّذَته السي آي إيه منذ عهد غير بعيد في إيران لتصفية نظام رئيس الوزراء محمد مصدق). أخيرًا قرَّر الأمريكان دعم الغزو المُسلَّح ـ ولا سيما بفضل وزير الخارجية الجديد، چون فوستر دالاس، وشقيقه ألن دالاس، رئيس السي آي إيه الجديد، وكيلَي شركة يونايتد فروت سابقًا ـ ألا وهو الشيء الذي طالب به كاستيّو أرماس منذ ولَّى هاربًا من سجن غواتيمالا العتيق الكئيب وتمكَّن من الرحيل إلى منفاه في هندوراس. كلَّفَت السي آي إيه («زوجة الأب») إدوارد هانْت وآخرين بتقديم الدعم على الأرض «للعملية نصر» ـ أو «PBSuccess» ـ وهي العملية التي رعَتها الوكالة منذ البدء. عند ذاك،

---

(١) غرينغو: لفظ شائع يُستخدَم للإشارة إلى الأمريكيين، وينطوي على شيء من الاستخفاف. ولقد فضّلنا نقله كما هو في حالتَي الجمع والمفرد على حدٍّ سواء. (المترجم)

وفي أثناء تشكيل جيش التحرير، أقبل المرتزقة لإثارة الفوضى في هندوراس، حيث أبدى الرئيس خوان مانويل غالبيس (المُقزِّز) عزوفًا شديدًا عن دعم تلك المخططات، ولم يقبل إلاَّ رضوخًا للضغوط الشديدة التي مارستها عليه حكومة الولايات المتحدة وشركة يونايتد فروت، التي كانت في هندوراس أوسع نفوذًا منها في غواتيمالا. أيقن كاستيّو أرماس أن الوضع سوف ينفرج حالما يتوصَّل الغرينغو إلى اتّفاق مع الرئيس أناستاسيو سوموسا للبدء في تدريب المرتزقة على أراضي نيكاراغوا. ولكن، أي سبب لعين جعل المفاوضات تستغرق كل هذا الوقت؟ سبق أن تحدَّث إلى سوموسا، وتثبَّت من مساعي الجنرال الحسنة الرامية إلى دعم الغزو.

«كل شيء يسير ببطء شديد بسبب الغرينغو»، دار في خلده. ومن مكتبه، استطاع أن يرى رقعة من الحقول بما حوَت من أشجار ومراع، ورأى خيال إحدى الربى البنيّة المحيطة بتيغوسيغالبا. وبعيدًا، رأى الفلاحين وقد انحنوا على الأراضي المزروعة بقبعاتهم المصنوعة من القشّ. لم يسعه التبرّم بذلك البيت حيث أنزلَته شركة يونايتد فروت التي دفعَت أجور المُوظَّفين والطاهية وتكفَّلَت بالنفقات، بما في ذلك أجر السائق والبستاني. من المناسب أن يكون الغرينغو قد اتَّخذوا قرارهم بالتحرّك، شريطة ألاَّ يتولّوا عمل كل شيء بأنفسهم ويتركوه مُهمَّشًا، وهو الذي راح يندِّد بالاختراق الشيوعي في غواتيمالا، مجازفًا بحياته، منذ اغتيل الكولونيل فرانسيسكو خابيير أرانا، وعلى مدى ثلاثة أعوام قضاها أربينس في الحكم. سبق وأعرب الكولونيل عن شكواه لإدارة يونايتد فروت، غير أنهم حاولوا إقناعه: فمن الأفضل أن يحافظ على مسافة بينه وبين حكومة الولايات المتحدة، وإلاَّ اتَّهمَته الصحافة الموالية لأربينس بأنه مُجرَّد أداة بين يدَي «زوجة الأب». غير أن تلك الحجة لم تقنعه، لأن تهميشه إلى تلك الدرجة وإقصائه عن القرارات المهمة حمله

على الشعور بأنه مُجرَّد دمية تلهو بها واشنطن والسي آي إيه. «يا أبناء العاهرة!»، جعل يفكِّر. «أيها المُتزمِّتين!». أغمض عينَيْه، وتنفَّس عميقًا، محاولاً تلطيف مزاجه العكر، وفكَّر أنه سرعان ما يهزم خاكوبو أربينس («الأخرس»)، بل وربما أرداه قتيلاً. شعر نحوه بالكراهية منذ كانا طالبَيْن في المدرسة الفنية العسكرية، الشعور الذي تملَّكه لأسباب شخصية آنذاك: لأن أربينس أبيض، وسيم، ناجح. أما كاستيّو أرماس، فرقيق الحال، لقيط، فقير، هندي القسمات. وفي وقت لاحق، شعر نحوه بالكراهية لأن أربينس تزوَّج من ماريا بيلانوبا، السالفادورية الجميلة، الثرية. في حين تزوَّج هو من أوديليا پالومو، المُعلِّمة التي تفتقر إلى الجمال، المُعسِرة مثله. بَيْد أنه كره أربينس لأسباب سياسية فوق كل اعتبار.

كان يشعر بالسخط لعجزه عن الاتصال المباشر بالسي آي إيه، واختفاء الوسيط هوارد هانْت لفترات طويلة من دون أن يخبره بأي شيء عن مكانه ـ الوسيط الذي انقطعَت أخباره منذ شهور ـ، إلى جانب عجزه عن الاتصال برجال الخارجية الذين يشرفون على كل إعدادات الغزو. ولذا شعر بأنه يتعرَّض للمهانة والإساءة والتجاهل في مسائل حيوية تخصّ بلده. لزمن طويل، وقبل ظهور هوارد هانْت، لم يكُن له وسيط إلاَّ كيڤين ل سميث، مدير يونايتد فروت في هندوراس، الذي أخبره بـ«أنهم» قد اختاروه أخيرًا لقيادة جيش التحرير، وأقلّه على متن طائرته الخاصة إلى فلوريدا، حيث أُقيمَت قاعدة أوپا لوكا لقيادة «العملية نصر»، في ميناء جوِّي قديم تابع للطيران البحري، على بعد تسعة عشر كيلومترًا شمالي ميامي. وهناك تعرَّف الكولونيل بفرانك ويزنر، نائب مدير التخطيط في السي آي إيه ـ الذي كلَّفه ألن دالاس بقيادة مشروع الإطاحة بأربينس ـ ورئيس هوارد هانْت المباشر، على حدّ فهم كاستيّو أرماس. أكَّد له ويزنر أنهم قد تخيَّروه لقيادة الحراك العسكري من أجل

تحرير غواتيمالا، وآثروه على الجنرال ميغيل إديغوراس فوينتيس (العالة)، وعلى المحامي صاحب مزارع القهوة خوان كوردوبا سيرنا. ولكنه لم يخبره بالحجج التي لجأ إليها هوارد هانْت في الدفاع عن ترشيحه: «لأن قسمات مستر "كاكا" تميل إلى الهندية بعض الشيء، ولا تنسوا أن غالب أهل غواتيمالا من الهنود، ولسوف يفرحون به!».

أما السعادة الغامرة التي شعر بها لاختياره، فسرعان ما أخمدَتها الإجراءات الاحترازية اللامتناهية التي كان الغرينغو يتَّخذونها قبل كل خطوة، رغبةً منهم في الحفاظ على المظاهر، لئلَّا تُتَّهم الولايات المتحدة أمام منظمة الأمم المتحدة بأنها هي التي شنَّت تلك الحرب المستقبلية حقًّا (بل وموَّلَتها أيضًا)، حرب تحرير أول جمهورية شيوعية تضع نفسها في خدمة موسكو داخل أمريكا اللاتينية. وكأن في وسعهم إخفاء الشمس بإصبع واحدة! أعزى كاستيّو أرماس كل هذا الحرج من جانب الغرينغو إلى التزمّت الديني، وكثيرًا ما قالها لضبَّاطه، في كل الاجتماعات التي عُقِدَت في هذا المكتب: «إن الغرينغو يُجمّدون كل شيء ويخطون بأقدام ثقيلة كالرصاص بسبب تزمّتهم اللعين». لم يدرِ جيدًا ما الذي يعنيه بذلك، وإن كان يشعر بالرضا عن نفسه متى قالها: إذ بدَت له مسبَّة عميقة وفلسفية.

أما شعوره بالامتنان لرئيس نيكاراغوا، أناستاسيو سوموسا، فما كان يحدّه شيء، لأن سوموسا حليف سخيّ ويدرك حجم المجازفة بحقّ: وافق على تدريب قوات التحرير في بلده ـ وقدَّم له مزرعة من أملاكه تُدعَى تاماريندو، وجزيرة موموتومبيتو الواقعة في بحيرة ماناغوا، بهدف مباشرة التدريبات ـ كما صرَّح بإقلاع طائرات السي آي إيه من مطارات نيكاراغوا لإلقاء المنشورات على مدن غواتيمالا وقصف الأهداف الاستراتيجية فور انطلاق العمليات العسكرية. وصرَّح لقيادة الحملة العسكرية بمباشرة أعمالها من ماناغوا، عاصمة نيكاراغوا، هناك حيث

أنزلَت السي آي إيه الطيَّارين والعسكريين الوافدين من الولايات المتحدة، أولئك الذين سوف يتوَّلون قيادة الغزو استراتيجيًا. ولقد نصَّب سوموسا ابنه تاتشيتو همزةَ وصل بين حكومته والمسؤولين الأمريكان المُكلَّفين بتخطيط أعمال التخريب والمعارك. ولكن كاستيّو أرماس لم يثق بالجنرال الأعلى تروخيّو (العنكبوت)، مع أن الأخير قد أغدق عليه المال والسلاح بسخاء. لأن في الزعيم الدومينيكاني، صاحب السطوة والخيلاء، شيئًا يبثّ في نفسه الريب، والخوف أيضًا. عرف بحاسة الشمّ أنه لو أفرط في الاعتماد على تروخيّو في حرب التحرير، فلربما كلَّفَته تلك المساعدة ثمنًا فادحًا متى وصل إلى السلطة (حتى ذلك الوقت، كان تروخيّو قد سلَّمه ستين ألف دولار يدًا بيد، فضلاً عن دفعتَيْن أخريين من المال والسلاح أرسلهما إليه عَبْر وسطاء). خلال اللقاء الوحيد الذي جمع بينهما في مدينة تروخيّو، لم يرُق له مطلقًا أن يتَّخذ الجنرال الأعلى طريقة ملتوية حتى يضع شروطًا واجبة النفاذ بعد أن يتحقَّق النصر. فضلاً عما تقدَّم، كان كاستيّو أرماس يعرف أن مُرشَّح الجنرال الأعلى لقيادة مصير غواتيمالا في المستقبل هو صديقه ورفيقه الجنرال ميغيل إديغوراس فوينتيس (العالة).

ومع أن الأمر برمّته بات قيد التنفيذ، لم يكُن «وجه الفأس» على اطلاع بالكثير. وحدَّثه شعور مقيت بأن الغرينغو يتعمَّدون إخفاء مخططاتهم عنه ارتيابًا، أو ببساطة ازدراءً. أما فرانك ويزنر، فسوَّلَت له نفسه تعنيف كاستيّو أرماس لأنه قد هوَّل أعداد المُتطوِّعين الذين جنَّدهم في غواتيمالا بهدف الالتحاق بجيش التحرير: مُؤكِّدًا أنه قد جنَّد خمسمئة فرد، مع أنه لم يجنِّد إلاّ ما يربو على المئتي فرد قليلاً. ولهذا شرعَت السي آي إيه في تجنيد «حاملي البراغيث» من شتّى بلدان أمريكا الوسطى، أولئك الذين أثاروا الفوضى في تيغوسيغالپا، حتى بات من الأفضل إرسالهم إلى نويبا أكوتيپيكي فورًا، لحين بدء التدريبات في

نيكاراغوا. اتَّصل بالكولونيل برودفروست، من جيش الولايات المتحدة الأمريكية، مساعد فرانك ويزنر وهمزة الوصل الجديدة في ماناغوا، فأكَّد له برودفروست أن التدريبات سوف تبدأ يوم الإثنين في مزرعة سوموسا وجزيرته الصغيرة، وأن ترحيل الجنود التابعين لجيش التحرير إلى نيكاراغوا سوف يبدأ مساء ذلك اليوم. كما أكَّد له أنه لن يرى هوارد هانْت مُجدَّدًا في تلك الأنحاء، لأن السي آي إيه قد أرسلَته إلى الخارج في مهمة جديدة، وأبلغه بأنه سوف يكون مُحدِّثه الوحيد من الآن فصاعدًا، حتى لا يسبّب المزيد من الإزعاج لويزنر.

كانت محطة الإذاعة السرية التي سُمِّيَت راديو التحرير تُمثِّل مشكلة أخرى كبيرة. اشترى الغرينغو جهاز إرسال قويًا يصل مداه إلى جميع أرجاء غواتيمالا، مع أن برامج الإذاعة تُبَثّ من نويبا أوكوتيپيكي، المدينة التي لا تبعد عن حدود هندوراس. ولمَّا سعى كاستيّو أرماس إلى تنصيب مدير الإذاعة، أبلغه برودفروست بأن السي آي إيه قد عيَّنَت غرينغو يُدعَى ديفيد أتلي فيليپس (الخفي) لإدارة الإذاعة. لم يفلح كاستيّو أرماس في الحديث إلى ذلك السيد قطّ، على الرغم من ضرورة التنسيق بين إذاعة راديو التحرير وبين جيش التحرير، الذي كان هو المُتحدِّث باسمه. ظهرَت المشكلات منذ أول بثٍّ سري، يوم السبت الأول من مايو عام ١٩٥٤. كان الكولونيل قد طلب تسجيل البرامج في غواتيمالا، غير أنه تلقَّى خبرًا يفيد بتسجيل البرامج في قناة بنما، بما يخالف رأيه، حيث أنشأت وكالة المخابرات «مركزًا لوجيستيًا» في ميناء فرانس الجوِّي، في المنشآت العسكرية التابعة للولايات المتحدة، وكلَّفَت المركز المذكور بمباشرة غزو غواتيمالا حصريًا، كما أرسلَت منه الأسلحة والأشرطة المُسجَّلة في وقت لاحق. أُرسِلَت الأشرطة إلى نويبا أكوتيپيكي مباشرةً، بموافقة ديفيد أتلي فيليپس (الخفي). وحين أصغى الكولونيل إلى البرنامج الأول، هاله ما سمع. لم يكُن بين مُقدِّمي

البرنامج إلاَّ واحد فقط يتحدَّث باللكنة الغواتيمالية. أما باقي المُقدِّمين (الذين انضمَّت إليهم مذيعة واحدة)، فكانوا من نيكاراغوا وبنما، الأمر الذي وشَت به النبرة والكلمات المُستخدَمة في الحديث. وصلَت احتجاجات كاستيّو أرماس إلى القيادة المركزية. وعلى الرغم من ذلك، لم تُصحَّح الأوضاع إلاَّ في اليوم الرابع أو الخامس. وهكذا عرف الكثيرون من غواتيمالا وحكومة أربينس منذ الوهلة الأولى أن إذاعة راديو التحرير لا تُبَثّ من «موقع ما» في أدغال غواتيمالا، على نحو ما زعمَت الإذاعة، بل من الخارج، وبأيدٍ أجنبية. ومن يكون خلف الأمر برمّته سوى الأمريكان أنفسهم؟

أما الشيء الذي سار على خير ما يُرام فهو الحملة الدعائية التي انطلقَت عَبْر الصحف ومحطات الإذاعة، تلك التي اتَّهمَت حكومة أربينس بأنها قد حوَّلَت غواتيمالا إلى مهبط يتسلَّل منه الاتحاد السوفييتي، وبأنها تخطِّط للاستيلاء على قناة بنما. ولكن الحملة المشار إليها لم تكُن من صنع حكومة الولايات المتحدة ولا السي آي إيه، بل شركة يونايتد فروت وعبقري الدعاية السيد إدوارد ل بيرنيز، الذي فغر كاستيّو أرماس فمه منصتًا إليه وهو يوضح كيف يمكن أن يتشبّع المجتمع بالأفكار ذات التوجّه المختلف، أو بالمخاوف، أو بالآمال، عن طريق الدعاية. الأمر الذي سار على أكمل وجه في تلك الحالة. لقد أفلح السيد بيرنيز، بالاستعانة بأموال يونايتد فروت، في إقناع مجتمع الولايات المتحدة وحكومة واشنطن نفسها بأن غواتيمالا وقعَت أسيرة الشيوعية، وبأن أربينس هو الذي يقود تلك المناورة شخصيًا. ولذا فكَّر الكولونيل كاستيّو أرماس أنه لو كان الأمر رهنًا بيونايتد فروت وحدها، لسار على نحو أفضل كثيرًا. ولكن، آهٍ، لا مفر من الاستعانة بـ«زوجة الأب»، وبواشنطن، كما أخبره الجنرال الأعلى تروخيّو في تلك المرة. يا للأسف!

لم يجد كاستيّو أرماس طائلاً يُرتجَى من كل الإجراءات الاحترازية التي اتَّخذَتها السي آي إيه والخارجية الأمريكية لئلاَّ يتمكَّن أحد من اتهام الولايات المتحدة بدعم الغزو الذي كان قيد الإعداد. ولكن أربينس ووزير خارجيته غييرمو توريّو سوف يوجِّهان أصابع الاتهام أمام الأمم المتحدة على كل حال، بأدلة أو من دون أدلة. فما الدافع إلى إهدار كل هذا الوقت على الإجراءات الاحترازية التي أبطأت الإعدادات، والسماح بأخطاء كذلك الخطأ الذي ارتُكِب في إذاعة راديو التحرير؟ كان إرسال الأشرطة المُسجَّلة من بنما إلى نويبا أكوتيبيكي يستغرق أيامًا كاملة. وإذا برئيس هندوراس، خوان مانويل غالبيس، يقول فجأةً إن الإذاعة قد افتضح أمرها، وبات من الضروري إقفالها أو نقلها خارج البلد. فقرَّرَت السي آي إيه نقل مقرّ الإذاعة إلى ماناغوا، حيث لم يُبدِ سوموسا اعتراضًا، بل إنه رتَّب موقعًا لذلك الغرض. وبعد فترة من الزمن، قرَّرَت السي آي إيه نقل راديو التحرير مُجدَّدًا، من دون أن تدلي بتفسير واحد إلى «وجه الفأس»، وهكذا بدأت الإذاعة في البثّ السري إلى غواتيمالا من كي ويست، في فلوريدا.

حتى سلاح جيش التحرير كان يُرسَل عبر طرق ملتوية وصولاً إلى أراضي هندوراس، من حيث يجب أن تنطلق عملية الغزو. إذ كان يُجمَع السلاح في القاعدة العسكرية التابعة للولايات المتحدة في بنما، ومن ثم يُنقَل على متن الطائرات التي اقتنَتها السي آي إيه من أجل جيش التحرير، وصولاً إلى مختلف الأمكنة الواقعة على حدود هندوراس، التي سوف تنطلق منها قوى الحملة. في حين أُسقِط بعض الأسلحة والمُتفجِّرات بالمظلَّات على قرى غواتيمالا الحدودية، هناك حيث شُكِّلَت جماعات سرية بهدف التخريب والتدمير، نظريًا أكثر منه عمليًا. كما طرأت مشكلات كثيرة مُتعلِّقة بطيران الجيش التحرير. فلطالما دار في مخيلة كاستيّو أرماس أن تلك الطائرات سوف تكون تابعة لسلاح

غواتيمالا الجوي، وأنها سوف تهرب من قاعدة آرورا بهدف الانضمام إليه. ولكن برودفروست، في بهجة غامرة، أبلغه ذات يوم بأن ألن دالاس قد صرَّح بشراء ثلاث طائرات دوغلاس C-124C من السوق العالمية من أجل «العملية نصر»، وذلك بموافقه أخيه چون فوستر دالاس، بل وبموافقة الرئيس أيزنهاور شخصيًا. كان الغرض من تلك الطائرات إلقاء منشورات الدعاية وتجهيز الشعب المدني ترقّبًا للغزو، علاوة على نقل الأسلحة والمؤن والأدوية، وتسليمها إلى قوات التحرير، ثم قصف العدو متى انطلقَت عملية الغزو. وكما هو الحال في كل الاستعدادات، لم يسمح الغرينغو لكاستيّو أرماس بضمّ أي من طياريه إلى الفريق الذي أتمَّ صفقات الشراء، دع عنك السماح له بالمشاركة في عملية البحث عن طواقم الطيران. ثم تجرَّع الكولونيل مذاق السخط مُجدَّدًا لمَّا عرف أن واحدًا من الطيارين المُكلَّفين بقيادة طائرات جيش التحرير هو المغامر السيكوباتي چيري فرِد ديلارم (المجنون)، الذي برع في الطيران، وإن اشتهر في جميع أنحاء أمريكا الوسطى بأنه مُهرِّب يتعمَّد لفت الأنظار، من عادته التبجّح تحت تأثير الشراب، والتباهي برحلات الطيران المحظورة التي قطعها، صارخًا بأعلى صوت، مؤكدًا قدرته على الإقلاع والهبوط حيثما يحلو له، مهما كانت صرامة البلدان في تشديد الرقابة لحماية مجالها الجوي.

لم تكُن فظاظة الغرينغو مصدر إزعاج لـ«مستر كاكا» وحده، بل انزعجَت معه تلك الفرقة الصغيرة من الضبّاط الهاربين من صفوف جيش غواتيمالا، أولئك الذين صاروا يشكّلون هيئة الأركان العسكرية في جيش الكولونيل، إما بدافع الصداقة التي جمعَتهم به وإما ضيقًا بالإصلاحات التي أدخلها أربينس. كان يوضح لهم، وأمعاؤه تتلوَّى في جوفه، أن تباطؤ «الغرينغو المُتزمّتين» يُعزَى إلى المأزق الدبلوماسي الحرج الذي قد تقع فيه حكومة واشنطن لو اتُّهِمَت أمام الأمم المتحدة، بأدلة تفضح

تورّطها، في غزو بلد صغير مثل غواتيمالا والإطاحة بحكومة منتخبة عن طريق انتخابات سليمة. زد على ذلك أن الغرينغو أجلاف، كما يُعرَف بالفعل. وقال لهم ألاً ينسوا، فوق كل اعتبار، أن أولئك «الأجلاف» هم الذين يزوِّدونهم بالسلاح والطائرات والنقود التي لولاها لأصبح الغزو ضربًا من المحال. وعلى الرغم من تلك الأمور التي أفضى بها إليهم من دون أن يصدِّقها هو نفسه، كان كاستيّو أرماس يشاطر ضبَّاطه الارتياب والإحباط.

وما زاد الطين بلة أن صداع الكولونيل قد اشتدّ كثيرًا في أعقاب الشهادة التي أدلى بها الكولونيل رودولفو ميندوسا أسورديا، قائد الطيران الحربي، وآخر المُنضمّين إلى جيش التحرير من الضبّاط أصحاب المكانة الرفيعة والرتبة المهمة في حكومة أربينس. استقبله كاستيّو أرماس بنفسه وعانقه في مطار تيغوسيغالپا حين علم بالحيل المُعقَّدة التي لجأ الكولونيل ميندوسا إليها حتى يهرب من غواتيمالا وينضمّ إلى قوات الحرية، وهو الذي شغل منصب نائب وزير الدفاع في حكومة أربينس حتى الأمس.

درس ميندوسا أسورديا وكاستيّو أرماس معًا في المدرسة العسكرية، وإن لم تجمعهما الصداقة آنذاك. أُرسِل كلٌ منهما إلى حامية، فلم يلتقيا إلاّ لمامًا، وتابع كلاهما مسيرته في طريق مختلفة. لم يرضخ ميندوسا لمحاولتي التمرّد اللتين شنّهما «وجه الفأس» ضد حكومة أريبالو وحكومة أربينس. ولذا، فوجئ كاستيّو أرماس بالمبعوث السرّي الذي أرسله إليه قائد سلاح الطيران الغواتيمالي بالغ الصغر ليخطره برغبة ميندوسا ـ المُقرَّب إلى أربينس ـ في التخلي عن الحكومة والهرب من غواتيمالا، وليطرح عليه السؤال الآتي: أيُقابَل بالترحاب في صفوف جيش التحرير؟ فأجابه كاستيّو أرماس بأنهم يترقَّبونه بأذرع مفتوحة. وفي مطار تيغوسيغالپا، أمام الصحافيين، استقبل كاستيو أرماس الكولونيل ميندوسا أسورديا بالتهنئة على ما أظهر من شجاعة ووطنية. أما الهجمات التي

تلقّاها من صحافة النظام، فلسوف تكون خير أوراق اعتماد له في غواتيمالا الغد، حسبما أخبره كاستيّو أرماس.

ولكن حين شرع الكولونيل ميندوسا يكشف خبايا حكومة أربينس أمام كاستيّو أرماس وأركانه العسكرية، اقشعرّ بدن الأخير. في هذه المرة، انهالت عليه الطعنات من أولئك الأبعد عن التوقّع! من سفير الولايات المتحدة الجديد في غواتيمالا، چون إميل پيوريفوي («الكاوبوي»)، الذي احتفى الكولونيل بتنصيبه لأن السي آي إيه أخطرَته بأن چون فوستر دالاس قد اختاره علمًا أنه رجل «قوي»، قدَّم خدمات ممتازة في اليونان، حيث أسهم بطريقة حاسمة في دعم العسكريين أنصار الملكية على سحق التمرّد الذي أعلنَته جماعات حرب العصابات الشيوعية، واكتسب لقب «جزَّار اليونان» للسبب نفسه. بل وزاد احتفاء كاستيّو أرماس به حين علم أن پيوريفوي، بعد أن قدَّم أوراق اعتماده للرئيس أربينس، سلَّمه قائمة تضمّ أربعين شيوعيًّا يشغلون مناصب في إدارة غواتيمالا العامة، مُطالِبًا بتنحيتهم عن مناصبهم وسجنهم أو إعدامهم رميًا بالرصاص. الأمر الذي أسفر عن مأزق دبلوماسي، على ما يبدو. وابتداءً من ذلك الحين، أخذَت جميع صحف اليسار في غواتيمالا تهاجم السفير پيوريفوي، الذي أطلقوا عليه «نائب الملك» و«الوالي». ولم يدرِ أحد أن قائد جيش التحرير، في قرارة نفسه، كان يُلقِّبه بـ«الكاوبوي».

شعر كاستيّو أرماس بالقلق العارم لأن پيوريفوي ما لبث أن شرع في التآمر هو وضباط الجيش، من أولئك الذين كان يدعوهم إلى سفارة الولايات المتحدة، أو يلتقي بهم في النادي العسكري ونادي الفروسية وفي البيوت الخاصة، طبقًا لما زعم الكولونيل ميندوسا. كان يحرِّضهم على تنفيذ «انقلاب مُؤسَّسي»، وخلع أربينس، أو مطالبته بالتنحّي ثم سجن جميع الشيوعيين الذين كانوا بصدد تحويل البلد إلى تابع

سوفييتي، كما جرى في اليونان، لا أكثر ولا أقل. طبقًا لما أخبره به ميندوسا أسورديا، لم يكُن السفير بيوريفوي مؤمنًا بالغزو الذي يعدّه كاستيّو أرماس، ظنًّا منه بأن الحرب الأهلية قد تجرّ عواقب وخيمة، مع الأخذ في الاعتبار أن انتصار جيش التحرير فور انطلاق العمليات العسكرية لم يكُن بالأمر الجليّ. زد على ذلك أن الوضع يتخلّله عدد كبير من العوامل العصية على التقييم، طبقًا لمزاعم بيوريفوي، وقد يُمنَى الغزو بالفشل. ولذا تراءى له أن السعي لدى الجيش وتحريضه على تنفيذ الانقلاب أوفر حظًّا من الأمان. في آخر لقاء جمع بين السفير الغرينغو وقيادات غواتيمالا العسكرية، أخبره قائد الجيش، الكولونيل كارلوس إنريكي دياس (الخنجر)، بأنهم يقبلون بفكرة «الانقلاب المُؤسَّسي» مبدئيًا، بشرطَيْن اثنين: أن يستسلم كاستيّو أرماس ويضع حدًّا للتجهيزات العسكرية الجارية أولاً؛ وأن يتعهَّد بالامتناع عن شغل أي منصب في الحكومة التي سوف تتولّى مقاليد الأمور خلفًا لحكومة أربينس ثانيًا. ويبدو أن السفير بيوريفوي قد وافق على ذلك المُخطَّط، وأرسل تلغرافات مُشفَّرة مسهبة إلى السيد ألن دالاس ووزير الخارجية چون فوستر دالاس يحثهما فيه على القبول باستراتيجيته. شعر كارلوس كاستيّو أرماس بأن شيئًا يتهدَّم، شيئًا تكبَّد الألم في سبيل بنائه على مدى كل هذه الأعوام. لو فرض السفير مُخطَّطه، لتحوَّل كاستيّو أرماس إلى طرف زائد عن الحاجة. وعند ذاك، بدأ يكره «الكاوبوي» بقدر ما كره «الأخرس» تقريبًا.

وبينما هو يشعر بالكدر، تحت وطأة الأخبار الأخيرة، رفعَت السي آي إيه من روحه المعنوية، وأبلغَته عن طريق الكولونيل برودفروست بأن عملية الغزو سوف تعبر حدود غواتيمالا، وبأن التحرّكات العسكرية ضد أربينس سوف تنطلق فجرَ الثامن عشر من يونيو عام ١٩٥٤.

٦

ـ في النهاية، يتكلَّم الجميع. ـ قال الدومينيكاني ـ لو أخفقَت مهمة الليلة، وأُلقِي القبض علينا، لتكلَّمنا أنا وأنت مثل ببغاوَيْن.

ـ أنا لن أتكلَّم. ـ قال إنريكي مُؤكِّدًا، بثبات شديد، ضاربًا على البار بيده ضربة خفيفة ـ أتدري لماذا؟ لأن الكلام لا يجدي نفعًا. ولسوف نُقتَل على كل حال. في تلك الحالة، يُستحسَن إنكار الأمر برمّته أو التزام الصمت حتى النهاية. وذلك أهون الشرور.

ـ ليس الأمر أنني أملك من الخبرة بقدر ما تملك أنت... ـ قال الدومينيكاني، بعد هنيهة من الصمت ـ ولكني عندما كنت في المكسيك، أشارك في الدورات التدريبية البوليسية التي أخبرتُك بشأنها، تلقَّيتُ كتابًا على سبيل الهدية. أتدري ما عنوانه؟

عاود إنريكي النظر إليه وراح يترقَّب، من دون أن ينبس بشيء.

ـ «صنوف التعذيب الصيني». ـ قال الدومينيكاني ـ يشتهر الصينيون بالتجارة وبناء سور الصين العظيم. ولكن عبقريتهم الحقيقية تكمن في التعذيب، لأن أحدًا لم يبتكر وسائل تعذيب بقدر ما ابتكروا، ولا بالبشاعة نفسها. حين قلتُ لك إن الكل يعترف في النهاية، كنتُ أفكِّر في كتاب الصينيين.

انتهَت أغاني البوليرو بصوت ليو ماريني، كما فرغ الهندي الهزيل من

كنس نشارة الخشب المتناثرة على الأرضية في ماخور ميريام الأجنبية، ثم تلاشى عن الأنظار من دون أن يلقي عليهما نظرة واحدة، وإذا هما مالكا المكان. الآن وقد سكتَت الموسيقى، بات صوت السيارات العابرة يصلهما من بعيد، بين الحين والآخر. فكَّر الدومينيكاني، مُرجِّحًا أن تكون الأمطار قد بدأت في التساقط. ما كان يستهويه المطر، على عكس قوس قزح الذي يملأ سماء غواتيمالا بالألوان بعد سقوط وابل المطر.

ـ في صحتك. ـ قال إنريكي ـ فلنشرب نخب الصينيين.

ـ في صحتك. ـ قال الدومينيكاني ـ فلنشرب نخب التعذيب الذي يرغم المرء على الكلام.

شرب كلاهما رشفة من الرمّ، ثم تذكَّر إنريكي:

ـ رأيتُ مِن الناس مَن قاوموا شرّ صنوف التعذيب، مُفضِّلين الموت على البوح بالأسماء أو العناوين أو اتهام شركائهم. صحيح أن بعضهم كانِ يفقد رشده قبل الموت، ولكني أقول ما أقول عن علم.

ـ ليس الأمر أنني لا أصدِّقك. ـ أجابه الدومينيكاني ـ ولكني أؤكِّد لك أنه لو كان كتاب «صنوف التعذيب الصيني» في حوزتك آنذاك، لتكلَّم أولئك الأبطال الصامتون، وأفضوا بما يعرفون، وبما لا يعرفون أيضًا، هذا كل ما في الأمر.

ـ تتحدَّث عن الأمور نفسها دائمًا... ـ ضحك إنريكي ـ عن التعذيب، وعن فروج النساء التي التهمتَها أو كنتَ تتمنَّى لو أنك التهمتَها، وعن معتنقي الصليب الوردي الذين لا يعرف أحد لهم كنهًا. أتدري ما أنت؟ مهووس، حتى لا أنعتك بالمُنحلّ.

ـ ربما. ـ هزَّ الدومينيكاني كتفَيْه وهو يومئ برأسه ـ هل أحكي لك شيئًا؟ كلما اضطُرِرتُ إلى إرغام أحدهم على الحديث باستخدام العقاب، شعرتُ برغبة في الغناء. أو تلاوة أشعار أمادو نيربو، التي كانت تروق

لأمي كثيرًا. وتلك أمور لا أفعلها عادة... الغناء، وتلاوة الشعر. بل إنها لا تخطر لي على بال قطّ. ما لم أُضطَرّ إلى تعذيب أحدهم حتى أرغمه على الكلام. لا أدري كم من الوقت سحرني ذلك الكتاب، «صنوف التعذيب الصيني». كنتُ أقرأه وأعاود قراءته، وأحلم به، بل إنني أذكر الرسوم الواردة فيه بوضوح. وأستطيع نسخها من الذاكرة. ولذا أؤكِّد لك أنه لو كان في حوزتك كتابي لما بقي واحد من أولئك الأبطال صامتًا.

ـ في المرة القادمة، أستعيره منك. ـ ابتسم إنريكي، ناظرًا إلى ساعته. ثم قال مُعقِّبًا ـ: ما دمتَ تنتظر أن يمرّ الوقت، فلن يمرّ.

ـ تناول كأسًا أخرى ولا تعاود النظر إلى الساعة. ـ قال الدومينيكاني، وهو يمسك بكأسه ويرفعها ـ ما زال أمامنا وقت طويل.

ـ في صحة التعذيب الصيني. ـ رفع إنريكي الكأس بدوره، خامد الهمة، من دون أن يحوِّل ناظرَيْه عن ساعته.

٧

نظر الجنرال الأعلى تروخيّو إلى ساعته: التي أشارت إلى السادسة إلاَّ أربع دقائق صباحًا. في السادسة تمامًا، سوف يمثل أمامه چوني أبيس غارسيا، في الموعد الذي حدَّده. يُرجَّح أنه يترقَّب جالسًا في قاعة الانتظار منذ وقت طويل. أيطلب منه الدخول فورًا؟ كلاَّ، يُستحسَن أن ينتظر حتى السادسة تمامًا. لم يكُن الجنرال الأعلى رافاييل ليونيداس تروخيّو مهووسًا بالدقة في المواعيد وحسب، بل وبالتناسق أيضًا: فالسادسة تعني السادسة، لا السادسة إلاَّ أربعًا.

هل أصاب حين أعطى ذلك الصحافي منحةً للمشاركة في تلك الدورات التدريبية البوليسية الغريبة في المكسيك؟ ذلك الصحافي المُتخصِّص في تغطية أخبار الفروسية، بلحمه الرخو، وبطنه البارز، وبصره الحسير، ومشيته التي تليق بالجمل. تحرَّى عن بعض الأمور بشأنه أولاً: كان أبوه محاسبًا شريفًا. أما هو، فصحافي كغيره، على قدر من البوهيمية، مُتخصِّص في أخبار الفروسية، له في الإذاعة برنامج صغير عن الفروسية. كان يجتمع بالشعراء والكتاب المغمورين والفنانين والبوهيميين (ممن يُرجَّح أنهم يعارضون تروخيّو)، في صيدلية غوميس، الواقعة بشارع الكوندي، في المنطقة المُشيَّدة على الطراز الاستعماري من مدينة تروخيّو. أحيانًا، كان يُسمَع مزهوًا باعتناقه الصليب الوردي، ويُرَى بين الحين والآخر في المواخير، طالبًا أسعارًا مُخفَّضة من

العاهرات حتى يسمحن له بفعل ما يحلو له من البذاءات، ويتردَّد إلى مضمار بيرلا أنتيَّانا في الأيام التي يُقام خلالها سباق الخيل. تلقَّى الجنرال الأعلى رسالة منه يطلب فيها المساعدة حتى يسافر إلى المكسيك ويشارك في تلك الدورات التدريبية البوليسية، فحدَّثه قلبه بشعور خفيّ. ثم كان أن استدعاه، ورآه، وأصغى إليه، واتَّخذ قراره بأن يمدّ له يد العون، بلا مقدمات، وشعور مبهم يُحدِّثه بأن في ذلك القبح البشري المكتنز شخصًا ـ أو شيئًا ـ يمكن استغلاله. وقد أصاب. من خلال السفارة، أخذ يمرِّر له راتبًا شهريًا لتغطية نفقات الطعام والمبيت والمشاركة في الدورات التدريبية البوليسية. وفي الوقت نفسه، عهد إليه بإعداد تقارير عن الدومينيكان المغتربين في المكسيك. فأدَّى أبيس غارسيا مهمته بكفاءة مدهشة، وتحرَّى عن أعمالهم والأمكنة التي يجتمعون فيها ومدى الخطورة التي يُمثِّلها كل فرد منهم. بل إنه صادقهم، وسكر معهم أيضًا، حتى يتمكَّن من خيانتهم على نحو أفضل. ثم اتَّصل أبيس غارسيا برجلَيْن من كوبا، كلاهما خارج على القانون، كانا يمدّان له يد العون متى قرَّر الجنرال الأعلى أن يتعرَّض أولئك الخطرون حقًّا لحادث مفتعل أو اعتداء مزعوم يودي بحياتهم: أولهما كارلوس غاسيل كاسترو ـ «الرجل الأشدّ قبحًا في العالَم يُحيِّيكم»، كما دَرَج على تقديم نفسه ـ وثانيهما ريكاردو بوناتشيا ليون. وهكذا تعاون أبيس غارسيا وغاسيل وبوناتشيا على نحو مثالي، وراحوا يبلغون بالعناوين ويقدِّمون النصائح والمساعدات بغرض اختيار الأمكنة والمواعيد المناسبة لافتعال حوادث المرور، أو نصب الشراك، لتصفية المغتربين الذين يُمثِّلون خطورة، بكل بساطة. أما المهمة الجديدة التي يعتزم الجنرال الأعلى تكليف الصحافي السابق بها، فأشدّ خطورة. تراه يكون على مستوى المهمة؟

كان مُجرَّد التفكير غير المباشر في الكولونيل كارلوس كاستيّو

أرماس، رئيس غواتيمالا، كافيًا حتى يشعر الجنرال الأعلى بالدم يغلي في عروقه وبالزبد يملأ فمه. منذ عهد الشباب، كان ريقه يسيل ويتراكم بفعل الغضب، ما يضطرّه إلى البصاق. بَيْد أنه لم يجد موضعًا يصلح لذلك هنا، فازدرد ريقه. «يجب عليَّ أن أطلب واحدة من تلك المباصق»، قال في نفسه. كان الجنرال الأعلى قد عرض على كاستيّو أرماس أن يحتفلا معًا بنصر جيش التحرير في إستاد غواتيمالا الوطني، الذي شيَّده الرئيس السابق خوان خوسيه أريبالو في ما يُطلَق عليه المدينة الأوليمبية. ولكن الأحمق التعيس أبى، مُتذرِّعًا بأن «الوقت الراهن ليس مواتيًا لإقامة استعراض من هذا القبيل». ثم أرسل وزير خارجيته سكينر كلي، ورئيس إدارة المراسم، حتى يشرحا لتروخيّو السبب الذي يجعل حفلًا كهذا غير ملائم. ولكنه لم يسمح لهما حتى بالحديث، وأمهلهما أربعًا وعشرين ساعة لمغادرة جمهورية الدومينيكان. ولهذا لا يكاد الجنرال الأعلى يذكر جبن كاستيّو أرماس حتى يحسّ بأمعائه تتلوّى في جوفه.

ـ صباح الخير يا صاحب الفخامة. ـ قال الكولونيل الهزيل الذي وقف في وضع الانتباه ضاربًا كعب حذائه، رافعًا يده إلى رأسه في تحية عسكرية، على الرغم من ثيابه المدنية. كان من الجليّ أن الواصل حديثًا يشعر بالضيق.

ـ صباح الخير، كولونيل. ـ مدَّ الجنرال الأعلى يده، مشيرًا إلى مقعد ـ تفضَّل بالجلوس، الأفضل أن نتجاذب أطراف الحديث هنا. وقبل كل شيء، مرحبًا بك في جمهورية الدومينيكان.

لقد أخطأ الجنرال الأعلى في تقدير المُهرِّج كاستيّو أرماس، بما لا يدع أدنى مجال للشكّ، لأن كاستيّو أرماس لم يفِ ولو بواحد من الأمور الثلاثة التي طلبها منه، بل إن ذلك الكولونيل الهزيل النحيل

الأشبه بمرضى السلّ، صاحب الشارب «الهتلري» الرفيع، والرأس شبه الحليق، لم يكتفِ برفض مقترحات الجنرال الأعلى، وإنما بات الآن يجترئ على اغتياب أسرته، كما جاء في التقرير المستفيض الواضح الذي أعدّه سفير الدومينيكان لدى غواتيمالا، الطبيب النفسي خيلبِرتو موريّو سوتو: «لقد سوَّلَت للرئيس كاستيّو أرماس نفسُه إضحاكَ الحضور بالسخرية من ابنكم، الجنرال رامفيس، بينما هو واقع تحت تأثير الشراب، وقال بالحرف الواحد (أرجو من فخامتكم أن تغفر لي هذه الوقاحة): «أي فضل له في النوم مع الممثلتَيْن زازا غابور أو كيم نوڤاك ما دام يهديهما سيارة كاديلاك وسوارًا من الماس ومعطفًا من الفراء؟ هكذا يمكن لأي شخص أن يغوي امرأة!». أما أنا، فبدلاً من الانسحاب أمام تلك الإهانة، بقيت لمُجرَّد التحقّق من استمراره في السخرية من أسرتكم الكريمة. وبالفعل، يا صاحب الفخامة، استمرَّ الرئيس في السخرية طوال البقية الباقية من السهرة».

شعر الجنرال الأعلى بواحدة من نوبات الغضب التي تداهمه كلّما عرف أن هناك من يغتاب أبناءه أو أشقاءه أو زوجته، دع عنك أن يغتاب أحدهم والدته. فالأسرة عنده مُقدَّسة، من أساء إليها دفع الثمن. «ولسوف تدفع الثمن يا ابن العاهرة...»، راح الجنرال الأعلى يفكِّر. «ثم يحلّ الجنرال ميغيل إديغوراس فوينتيس محلّك».

ـ جئتُ أطلب مساعدة فخامتكم. ـ جاء صوت الكولونيل كاستيّو أرماس رفيعًا، مُتذبذبًا. كان نحيفًا، هزيلاً، طويلاً، مُشوَّهًا بعض الشيء، أي إنه نقيض الهيئة العسكرية اللائقة ـ أملك الرجال، وأحظى بدعم الولايات المتحدة وأبناء غواتيمالا المغتربين. أما الجيش فيترقَّب إعلاني عن التمرُّد حتى ينضمّ إلى حركة التحرير، طبعًا.

ـ لا تنسَ دعم يونايتد فروت وسوموسا، لأن دعمهما أيضًا يُحسَب له

حساب. ـ ذكَّره الجنرال الأعلى باسمًا ـ ولكن، فيمَ حاجتك إلى دعمي أنا أيضًا؟

ـ لأن سيادتك الضمان الأهمّ لدى السي آي إيه ووزارة الخارجية الأمريكية، يا صاحب الفخامة. ـ أجابه الكولونيل من فوره، مداهنًا ـ حتى إنهم قالوا لي بأنفسهم: «اذهب وقابل تروخيّو، فهو عدو الشيوعية الأول في أمريكا اللاتيني. إن فزت بدعمه، فزت بدعمنا نحن أيضًا».

ـ لقد طلبوا مني ذلك عدة مرات. ـ ابتسم الجنرال الأعلى مرة أخرى وهو يومئ برأسه. ولكنه ما لبث أن تحلّى بالجدية ـ سوف أساعدك، بالطبع. لا بد من القضاء على أربينس الشيوعي بأسرع ما يمكن. كنتُ أفضِّل القضاء على سلفه المدعو أريبالو، النابغة، ذلك الشيوعي الآخر. ولقد حذَّرتُ الغرينغو، فلم يصدِّقوني. السذاجة دأبهم، بل والحماقة أحيانًا، ولكن ما البديل! نحن في حاجة إليهم. لعلَّهم قد ندموا على ما بدر منهم، هكذا يُخيَّل إليّ.

الآن أشارت عقارب الساعة إلى السادسة تمامًا. وفي اللحظة نفسها، طرقَت مفاصل الأصابع بابَ المكتب في احترام. ثم أطلّ أحد مساعديه، ويُدعَى كريسوستومو، برأسه الأشيب وابتسامته الخدوم.

ـ أبيس غارسيا؟ ـ سأل الجنرال الأعلى ـ اسمح له بالدخول يا كريسوستومو.

وبعد هنيهة، دلف أبيس غارسيا إلى المكتب بتلك المشية الغريبة المُفكَّكة التي تجعله يبدو وكأنه على وشك الانهيار مع كل خطوة. كان يرتدي سترة مُربَّعة الخطوط، وربطة عنق حمراء تبدو على قدر من السخف، وحذاء بني اللون. لا بد من تعليم ذلك الرجل كيف يُحسِن اختيار ثيابه.

ـ صباح الخير يا صاحب الفخامة.

ـ تفضَّل بالجلوس. ـ أمره تروخيّو ودخل إلى صلب الموضوع مباشرة ـ استدعيتُك لأني سوف آتمنك على مهمة في غاية الأهمية.

ـ تحت أمر فخامتكم دائمًا. ـ كان صوت أبيس غارسيا رقيقًا، مفرط المثالية. أيكون السبب ماضيه في الاشتغال بالإذاعة؟ يُرجِّح ذلك. كان الجنرال الأعلى يعرف أنه قد عمل مذيعًا ومُعلِّقًا إخباريًا في محطة إذاعية تعيسة لبعض الوقت. أيعتنق الصليب الوردي حقًّا؟ وما الذي يعنيه اعتناق الصليب الوردي؟ يبدو أن ذلك المنديل الأحمر الذي يمسح به أنفه رمز من رموز تلك الديانة.

ـ لقد أحرزنا تقدّمًا كبيرًا يا صاحب الفخامة. ـ قال الكولونيل كاستيّو أرماس ـ ولا تنقصنا إلاَّ تعليمات واشنطن للانطلاق. لقد جنَّدتُ عددًا كبيرًا من الرجال. وسوف نتدرَّب في جزيرة صغيرة ومزرعة من أملاك الرئيس سوموسا، في نيكاراغوا. وهندوراس أيضًا. كُنَّا نودّ لو فعلنا الشيء نفسه في سالفادور، ولكن الرئيس أوسكار أوسوريو مُتردِّد، ولم يسمح لنا بعد. الغرينغو يمارسون عليه الضغوط. ولكن الشيء الذي ينقصنا هو «الكاش». فأولئك الغرينغو المُتزمِّتون بخلاء قليلاً، متى كان الأمر مُتعلِّقًا بالنقود.

ضحك تروخيّو، ورأى الغواتيمالي يضحك بلا صوت، ويضمّ فمه قليلاً، كاشفًا عن أسنانه، والضوء الخافت يلتمع في عينَيْه الخليقتَيْن بفأر.

ـ الأمر يتعلَّق بابن العاهرة المدعو كاستيّو أرماس. ـ قال تروخيّو، بنظرته التي تكسوها الثلوج كلَّما ذكر واحدًا من أعدائه ـ مرَّ عليه أكثر من عامَيْن في الحكم بفضلي أنا. ومع ذلك، لم يفِ ولو بشيء واحد مما وعدني.

ـ لفخامتكم الأمر، وعليَّ الطاعة. ـ قال أبيس غارسيا، وهو يحني رأسه ـ سأمتثل لأوامركم، مهما تكُن. أتعهَّد بذلك.

ـ أنت ذاهب إلى غواتيمالا، بصفتك ملحقًا عسكريًا. ـ قال تروخيّو، ناظرًا إلى عينَيْه.

ـ ملحق عسكري؟ ـ اندهش أبيس غارسيا ـ ولكني لستُ عسكريًّا يا صاحب الفخامة.

ـ بل إنك عسكري منذ مطلع العام. ـ قال تروخيّو ـ لقد ألحقتُك بالجيش، برتبة مُقدِّم. إليك أوراقك. سفيرنا موريّو سوتو على اطلاع بما يجري. وهو في انتظارك.

رأي المفاجأة في عينَي أبيس غارسيا وهي تستحيل بهجةً، ورضا، ودهشة. وإذا هي مشاعر امتنان خليقة بالكلاب.

الأدهى من كل ما سبق أن جورب التعيس كان أزرق اللون! تراه رمزًا آخر من رموز الصليب الوردي؟ مزج ألوان قوس قزح كلها في الثياب؟

ـ لك أن تأخذ من السلاح بقدر ما احتجت إليه. ـ قال تروخيّو للغواتيمالي، وكأن الأمر بلا أهمية تُذكَر ـ و«الكاش» اللازم أيضًا. لقد أعددتُ لك في هذه الحقيبة مُقدَّمًا صغيرًا، وقدره ستون ألف دولار، لأني كنتُ على اطلاع بالأمر. ولسوف أسدي إليك نصيحة أيها الكولونيل.

ـ أجل، أجل، طبعًا. أنا مصغٍ إلى فخامتكم.

ـ دع عنك خصام الجنرال إديغوراس فوينتيس. يجب عليكما التفاهم، فأنتما في فريق واحد، لا تنسَ.

ـ ليس عندي ما أقوله يا صاحب الفخامة. ـ غمغم الكولونيل كاستيّو أرماس، مندهشًا من سير كل شيء بهذه سلاسة. ظنَّ أنه سوف يُضطَرّ إلى المداهنة والمفاوضة والشحاذة وبذل جهد كبير مع تروخيّو. ما لبث كاستيّو أرماس أن وسمه بلقب «العنكبوت» ـ أعرف أنكما صديقان. غير

أن الجنرال إديغوراس لا يلعب معي لعبًا نظيفًا طوال الوقت، وتلك هي المشكلة. ولكننا سوف نتفاهم في النهاية، أؤكِّد لك.

جعل الجنرال الأعلى يبتسم، راضيًا عن الأثر الذي تركه في نفس العسكري الغواتيمالي.

ـ لن أطلب منك إلاَّ ثلاثة أمور، واجبة النفاذ فور تولّيك مقاليد الحكم. ـ أردف، وهو يلاحظ كم تبدو الثياب المدنية مُتهدِّلة على الكولونيل.

ـ اعتبرها قد نُفِّذَت يا صاحب الفخامة. ـ قاطعه كاستيّو أرماس، مُلوِّحًا، كمن يلقي خطابًا ـ باسم غواتيمالا وباسم حملة التحرير، أعرب لك عن امتناني لهذا السخاء، من كل قلبي.

ـ سوف أجهِّز الحقائب فور خروجي من هنا. ـ قال أبيس غارسيا ـ كنتُ في غواتيمالا، ولي هناك بعض المعارف. من بينهم كارلوس غاسيل، ذلك الكوبي الذي كثيرًا ما ساعدنا في المكسيك. أتذكر يا صاحب الفخامة؟

ـ حاول أن تصل إلى الرئيس، وأبلغه تحياتي. الأمثل أن توثِّق صداقتك بكاستيّو أرماس. ولا أنسب لهذا الغرض من الزوجة. أما العشيقة، فأفضل وأفضل. ـ قال الجنرال الأعلى ـ وصلَتني المعلومات التي يرسلها موريّو. لا أدري ما إذا كان دبلوماسيًّا جيدًا، ولكنه مخبر من الدرجة الأولى. يبدو أن الرئيس قد ارتبط بعشيقة في ريعان الشباب، تُدعَى مارتا بوريّرو. جميلة، وجريئة، حسبما يُقال عنها. ويبدو أن أنصار الرئيس قد انقسموا بسبب مارتيتا. حتى كادَت تندلع حرب مدنية بين أنصار الزوجة الرسمية، أوديليا پالومو، وأنصار العشيقة، «ميس غواتيمالا»، كما يُطلَق عليها. حاول أن تصل إليها. عادةً ما يكون للعشيقات نفوذ أكبر مما للزوجات الرسميات.

ضحك الجنرال الأعلى، وضحك چوني أبيس غارسيا أيضًا. كان قد بدأ يكتب الملاحظات في دفتر صغير، فلاحظ تروخيّو أن للمُقدِّم حديث العهد في صفوف الجيش الدومينيكاني أصابع معقوفة ـ شأنها شأن جسده ووجهه ـ كما لو كانت أصابع شيخ، غليظة، بارزة المفاصل. مع أنه رجل غير مُسِنّ، لا بد أنه لم يبلغ الأربعين بعد.

ـ الطلب الأول أن تسجن الجنرال ميغيل أنخيل راميريس ألكانتارا. ـ قال تروخيّو ـ أظنُّك تعرفه، قائد فيلق الكاريبي الذي سعى إلى غزو جمهورية الدومينيكان. كان ابن العاهرة خوان خوسيه أريبالو هو الذي أرسل إلينا ذلك الفيلق. لم يكتفِ بقطع العلاقات بإسبانيا فرانكو، ونيكاراغوا سوموسا، وبيرو مانويل أودريا، وفنزويلا پيريس خيمينيث، وبي أنا الآخر، بل إنه سعى إلى غزو أراضينا أيضًا. قتلنا عددًا لا بأس به من الغزاة، ولكن راميريس ألكانتارا ولّى هاربًا. وهو الآن هناك، في غواتيمالا، تحت حماية الرئيس أربينس.

ـ طبعًا يا صاحب الفخامة. أعرفه تمام المعرفة. وتلك أول مهمة أتولاّها متى وصلت إلى الحكم، قطعًا. سوف أرسله إليك هنا، مُغلَّفًا بورق السلوفان.

لم يضحك تروخيّو، وإنما أغمض عينَيْه نصف إغماضة وراح ينظر إلى شيء في الخواء، بينما جعل يتحدَّث وكأنه يناجي نفسه:

ـ وها هو الآن في غواتيمالا، حرٌّ، طليق، يتبجَّح ببطولاته... ـ أخذ يردِّد، في غضب بارد ـ ولا سيما برغبته في الإطاحة بي، عن طريق ذلك الغزو الذي مُني بالفشل حين أرغمنا الكثيرين من أولئك الحثالة على دفع الثمن غاليًا، وأرديناهم قتلى. أما وقد ولّى الجنرال راميريس ألكانتارا هاربًا، فلا بد أن يدفع ثمن الذنوب التي اقترفها. ألا ترى ذلك؟

ـ طبعًا يا صاحب الفخامة. ـ قال كاستيّو أرماس مُؤكِّدًا وهو يومئ

برأسه ـ أعرف تمام المعرفة من يكون الجنرال راميريس ألكانتارا. اعتبرْ الأمر مفروغًا منه. ولا تقلق بشأنه.

ـ أريده حيًا. ـ قاطعه تروخيّو ـ لا يمسس أحد شعرة واحدة من رأسه. أريده حيًا يُرزَق. أنت مسؤول أمامي عن حياته.

ـ طبعًا يا صاحب الفخامة، فللعشيقات فائدة كبيرة دائمًا. ـ ضحك أبيس غارسيا مرة ثانية، ضحكة مفتعلة ـ ذلك شيء تعلَّمتُه خلال الدورات التدريبية البوليسية التي التحقتُ بها في المكسيك، والتي كثيرًا ما تسخر منها يا صاحب الفخامة.

ـ سوف أرسله إليكم سليمًا معافى، بكل سرور. ـ أردف كاستيّو أرماس ـ وما الشرطان الآخران يا صاحب الفخامة؟

ـ ليسا شرطَيْن، وإنما طلبَيْن. ـ أوضح له تروخيّو، مُقطِّبًا حاجبَيْه ـ لا شروط بين الأصدقاء. إن هي إلاَّ خدمات تُطلَب وتُقدَّم. أنا وأنت صديقان، أليس كذلك أيها الكولونيل؟

ـ طبعًا، طبعًا. ـ عجَّل الزائر بالرد، وراح يردِّد صدى صوت الجنرال الأعلى.

ـ طلبتُ منه أن يسلِّمني راميريس ألكانتارا. ـ أردف تروخيّو، في ضيق ـ وعندما اعتقله، بعد انتصار ثورة التحرير، خلتُه سوف يُسلِّمه إليّ. ولكن ابن العاهرة كاستيّو أرماس راح يسوِّفني ويماطلني. وفوق ذلك، ها هو الآن يطلق سراحه، يطلق سراح قائد فيلق الكاريبي شخصيًا! حتى إنه صار من رجال نظام كاستيّو أرماس. ذلك الكلب الذي حاول أن يطيح بي أنا! أرأيتَ خيانة أعظم من هذه في حياتك؟

ـ أخبرني، ما الطلبان الآخران؟ ـ رسم الكولونيل كاستيّو أرماس على وجهه أمارات التوسّل التي ضحك منها الجنرال الأعلى ـ سيكون إرضاؤك أول مهمة أتولاَّها يا صاحب الفخامة. لك مني كلمة شرف.

ـ دعوة رسمية، فور استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدَيْن. ـ قال تروخيّو، برقَّة ـ لا تنسَ أن حكومة أريبالو هي التي قطعَتها. لم أزُر غواتيمالا قطّ. ولسوف تكون سعادتي جارفة لو تعرَّفت ببلدك. كما أودُّ لو كُرِّمتُ بقلادة كيتسال، إن أمكن. ألم يُكرَّم سوموسا بها؟

ـ لستَ في حاجة إلى طلب هذه الأمور يا صاحب الفخامة. ـ قال الكولونيل كاستيّو أرماس مُؤكِّدًا ـ ذلك أول ما كنتُ سأفعله، على كل حال: استئناف العلاقات التي قطعها الشيوعيون؛ ودعوتك إلى زيارة بلدنا؛ وتكريمك بقلادة كيتسال من أرفع درجة. وأي مجد تناله غواتيمالا متى استقبلتك بكل التشريفات الممكنة!

ـ غير أنه لم يفِ بأي من هذه الأمور الثلاثة. ـ غمغم الجنرال الألمتاحةا منها الجنرال الأعلى ـ ستح بسخاءعلى، وهو يتمطَّق بلسانه ـ عندما حالفه النصر، اقترحتُ عليه أن نقيم احتفالاً ضخمًا، في إستاد غواتيمالا الوطني، أنا وهو معًا، احتفاءً بنصره. ولكنه اختلق أعذارًا غبية للرفض.

ـ إنه يشعر بالغيرة منك يا صاحب الفخامة. ـ خلص أبيس غارسيا إلى النتيجة المذكورة ـ وذلك هو التفسير لما جرى. يبدو أنه جاحد، وغد.

راح الجنرال الأعلى يرمقه بتلك الطريقة المُستفهِمة التي تبثُّ الضيق في مُحدِّثيه دائمًا. ومرة أخرى، جعل ينظر إليه من قمة رأسه حتى قدمَيْه.

ـ يجب عليك أن تُفصِّل بعض الثياب الرسمية... ـ قال أخيرًا ـ مبدئيًّا بدلتَيْن: واحدة للاستخدام اليومي وأخرى للمناسبات. سأعطيك عنوان الخيَّاط الخاص بي، دون أتاناسيو كابريرا، في المنطقة المُشيَّدة على الطراز الاستعماري. سيفصِّلها من أجلك في يومَيْن لو قلتَ له إن الأمر عاجل جدًّا. قل له إنك موفد من قبلي أنا، واطلب منه أن يُرسِل الحساب إلى قصر الحكم.

ـ وفي ما يتعلَّق بالسلاح، يا صاحب الفخامة... ـ ألمح الغواتيمالي ـ هل لنا بالحديث عن المسألة الآن؟

ـ سوف أرسل إليك سفينة مُحمَّلة بكل ما تحتاج إليه من السلاح. ـ أجاب الجنرال الأعلى ـ مدافع رشاشة، وبنادق، ومسدسات، وقنابل يدوية، وبازوكا، وأسلحة ثقيلة. بل وسأرسل إليك رجالاً أيضًا، لو دعت الحاجة. كل ما عليك أن تخبرني بمرفأ آمن حيث يمكن الرسو في هندوراس. الآن، متى خرجت من هنا، وجدت في انتظارك عسكريَّيْن محل ثقة، لك أن تخبرهما بطلباتك من السلاح.

لم تفارق الدهشة كولونيل كاستيّو أرماس. بل إنه فغر فمه، وضيَّق عينَيْه اللتين لمع فيهما السرور والامتنان.

ـ أنا مندهش من السخاء والكفاءة يا صاحب الفخامة. ـ غمغم قائلاً ـ والحقّ أن الكلمات لا تسعفني للإعراب عن امتناني لكل ما تفعله من أجلنا. أقصد، من أجل شعب غواتيمالا.

شعر تروخيّو بالرضا، الآن وقد صار ذلك الرجل الهزيل ملكًا له.

ـ والأدهى من ذلك أن الخائن كاستيّو أرماس يغتاب أسرتي وهو تحت تأثير الشراب. ـ تعجَّب مرة أخرى، حانقًا ـ أرأيت؟ كان مُجرَّد نكرة، وبفضلي أنا والغرينغو صار الآن يمسك بمقاليد الحكم. واستحوذَت عليه الخيلاء. بل وسوَّلَت له نفسه الترفيه عن الحضور بالسخرية من أسرتي، ولا سيما من رامفيس. ذلك شيء لا يمكن السماح به.

ـ بالتأكيد يا صاحب الفخامة. ـ قال أبيس غارسيا وهو ينهض.

ابتسم تروخيّو بينما جعل يتفحَّصه: أجل، المُقدِّم حديث العهد في صفوف الجيش الدومينيكاني يفتقر تمامًا إلى الهيئة العسكرية اللائقة، بما

لا يدع أدنى مجال للشك، وهو الشيء الذي يتشابه فيه كلٌّ من أبيس غارسيا وكاستيّو أرماس.

ـ قيل لي إنك تعتنق الصليب الوردي. ـ قال الجنرال الأعلى ـ صحيح؟

ـ حسنًا... أجل يا صاحب الفخامة، صحيح. ـ أومأ أبيس غارسيا، شاعرًا بالضيق ـ ما زلتُ لا أدري الكثير، ولكن حال معتنقي الصليب الوردي يروقني. ربما كان القول بأنه يلائمني أفضل. لأنها فلسفة حياة أكثر منها ديانة. عرّفني بها حكيم، في المكسيك.

ـ سوف توضح لي هذا الأمر في مناسبة أخرى، متى سمح الوقت. ـ قاطعه تروخيّو وهو يشير إلى الباب ـ أما أنا فسوف ألقّنك درسًا وأعلّمك كيف ترتدي الثياب بطريقة أقل ابتذالاً.

ـ حفظك الرب وأنعم عليك بالصحة والعافية يا صاحب الفخامة. ـ ودّعه الكولونيل كاستيّو أرماس، مؤدّيًا التحية العسكرية مرة أخرى وهو على أعتاب المكتب.

٨

ـ الساعة قاربَت السادسة. ـ قال الدومينيكاني ـ لقد وضعتُ حقائبي في السيارة لأني تركتُ نزل سان فرانسيسكو، هل لي بقضاء بعض الوقت في بيتك؟

ـ في بيتي؟ لا أراها فكرة صائبة يا رفيق. ـ هزَّ إنريكي رأسه رافضًا ـ ذلك شيء في غاية التهوّر. كان الأفضل أن تحتفظ بحجرتك في الفندق حتى الليل.

ـ لا تقلق. ـ هدَّأه الآخر ـ سأذهب في جولة لتمضية بعض الوقت بوسط المدينة، الشيء الوحيد الجميل في هذه المدينة شديدة القبح. هلاَّ راجعنا أجندة الهدف مرة أخرى؟

ـ لا داعي لذلك. ـ قال إنريكي مُؤكِّدًا. وعلى الرغم من ذلك، أخذ يراجع الأجندة مغمض العينَيْن، وكأنه يتلو شعرًا ـ: صبيحة اليوم، التزم الرئيس بالبرنامج كما ينبغي. اجتمع بسفير الولايات المتحدة وتلقَّى وفدًا من السكان الأصليين، من منطقة بيتين. ثم أملى الرسائل وألقى خطابًا في سفارة المكسيك وتناول الغداء في بيت «الدونيا». وفي المساء، لديه اجتماع برجال الأعمال في قصر الحكم بهدف تشجيعهم على جلب النقود التي أرسلوها إلى الخارج إبان حكم أربينس، واستثمارها في البلد.

ـ وحفل عيد ميلاد شقيقك، وزير الدفاع... ـ بدأ الدومينيكاني في الحديث.

ـ ما زال الحفل قائمًا، وسوف ينشغل به مجلس الوزراء كاملًا، لا تقلق بهذا الشأن. ـ قاطعه الآخر ـ سوف يسير كل شيء على أكمل وجه. إلاَّ إذا...

ـ إلاَّ إذا...؟ ـ انتبه الدومينيكاني.

ـ إلاَّ إذا حدثَت معجزة. ـ ضحك إنريكي، ضحكة مقتضبة مفتعلة.

ـ حسنًا، من حسن الحظ أنني لا أؤمن بالمعجزات. ـ تنفَّس الدومينيكاني الصعداء.

ـ ولا أنا. ـ قال إنريكي ـ لم أقُلها سوى لاستفزازك وتهدئة أعصابي التي احترقَت.

ـ إذن، فلنذهب أخيرًا.

ترك الدومينيكاني بضع أوراق مالية قرب قنينة الرمّ التي كادا يأتيان عليها كاملة خلال الساعات التي أمضياها هناك. بينما ظلَّ الماخور حزينًا خاويًا. أما الأجنبية ميريام، فلم تعاود الظهور، ومن المُؤكَّد أنها ما زالت تضع زينتها ببطء حتى تبدو أقل استهلاكًا في الليل، متى حفل المكان بالصخب والموسيقى والروّاد.

خرجا إلى الشارع ـ والرذاذ الخفي يتساقط، والسماء تبدو مُلبَّدة بالغيوم، والرعد يُدوّي في الأعالي، فوق سلسلة الجبال ـ، عند ذاك وقع بصرهما على سيارتَيْن في انتظارهما، وقد جلس كلٌّ من السائقَيْن خلف مقوده. كان قائد السيارة الذي حضر للقاء الرجل الأشدّ قبحًا في العالَم من كوبا أيضًا، ويُدعَى ريكاردو بوناتشيا ليون، ولقد جاء من المكسيك منذ أمد غير بعيد، حيث أبلى بلاء حسنًا في مساعدة

الدومينيكاني، وصار يعمل لحساب أمن الدولة الغواتيمالي، مثله كمثل الآخر.

تبادل إنريكي والدومينيكاني تحية الوداع بإيماءة، من دون أن يشدّ أحدهما على يد الآخر.

استقلَّ إنريكي السيارة التي يقودها السائق الأشدّ قبحًا في العالَم، بينما استقلَّ الدومينيكاني السيارة الأخرى، ثم أمر الواصل حديثًا بقوله:

ـ ريكارديتو، اذهب في جولة إلى وسط المدينة، ولا تمرّ بالطريق نفسه مرتَيْن. يجب أن أكون على أعتاب الكاتدرائية في السابعة تمامًا.

٩

بعد مضي زمن طويل، وبينما هو في منفاه الجوَّال، يستحضر ذكرى الثلاثة أعوام والنصف التي لم يقضِ سواها في السلطة، تذكَّر خاكوبو أربينس غوسمان أهمّ تجربة مرَّت بها حكومته على مدى تلك الأسابيع، في شهري إبريل ومايو من عام ١٩٥٢، حين عرض مسودة مشروع الإصلاح الزراعي على مجلس الوزراء لتقديمه في وقت لاحق إلى مجلس نواب الجمهورية. كان يعرف تمام المعرفة مدى الأهمية ـ والخطورة ـ التي يمثِّلها لمستقبل غواتيمالا، وأراد من أنصاره ومعارضيه تناول المشروع بالتحليل في الاجتماعات العمومية قبل الانتهاء من ذلك الإجراء. ولقد أسهبَت الصحافة في تغطية تلك الاجتماعات التي عُقِدَت في قصر الحكم، كما تابع المستمعون تلك المناقشات عَبْر الإذاعة في كل أرجاء البلد.

شغف بالمسألة الأصدقاء والأعداء معًا، كما شغف بها هو نفسه، من دون شك. ولقد صبَّ الشطر الأكبر من تركيزه على ذلك الموضوع، ودَرَسه أكثر من كل ما عداه، وبذل فيه من الجهود ما لم يبذله في سواه، من أجل صياغته في «قانون سلس، مثالي، لا مجال فيه للتضارب ولا الجدال»، على حد قوله. كيف يُخيَّل إليه أن ذلك القانون سوف يؤدِّي إلى سقوط حكومته، ومقتل مئات الغواتيماليين، وسجن ونفي الآخرين! كيف يُخيَّل إليه أنه سوف يُضطَرّ وأفراد أسرته إلى الاغتراب والعيش في أوضاع مزرية منذ ذلك الحين!

عُقِدَت ثلاثة اجتماعات عمومية، استمرّ كل واحد منها ساعات طوال، بل إن ثالث الاجتماعات امتدَّ حتى تجاوز منتصف الليل. كان المشاركون يحصلون على راحة قصيرة عند منتصف النهار، لتناول رقائق التورتيَّا أو الشطائر مع المشروبات الخالية من الكحول، ثم يستأنفون الاجتماع لحين الانتهاء من أجندة اليوم. لم يقتصر الحضور على الأنصار، بل كان المعارضون هم الأبرز حضورًا. ذلك أن الرئيس كان حاسمًا في قوله: «فليحضر الجميع. بداء بمحاميي يونايتد فروت وقادة الاتحاد العام للمزارعين (AGA) ومُمثِّلي أصحاب الأراضي والاتحاد القومي للفلاحين، بطبيعة الحال. وليحضر معهم المشتغلون بالصحافة المكتوبة والمُذاعَة، والمراسلون الأجانب». الجميع. هكذا طلب من أنصاره، الذين فضَّل بعضهم ألاَّ يخضع القانون لكل هذا الجدال ـ من أمثال بيكتور مانويل غوتييرّيس، الأمين العام لاتحاد نقابات العمال والفلاحين ـ خشية أن يستغلَّ أعداء الحكومة تلك المناقشات لنسف مسودة القانون. ولكن أربينس لم ينثنِ: «يجب علينا أن نصغي لكل الآراء، المُؤيِّدة والمعارضة معًا. فمن شأن النقد أن يساعدنا على تحسين المشروع».

مارس النقد الذاتي، ولم يألف اختلاق الأعذار لأخطائه، بل إنه كان على استعداد لتصويب الأخطاء ما اقتنع بأنه قد وقع فيها. ولطالما حسب نفسه يتصرَّف بطريقة تمنع مواطن قصوره من الانعكاس على تصرَّفاته بوصفه حاكمًا. ولكنه اعترف بالأخطاء التي ارتكبها في العديد من الأمور، بالنظر إليها عن بعد. وعلى الرغم من ذلك، كان مزهوًا بسلوكه في تلك المناقشات، وطريقته في الدفاع عن كل بنود المشروع والردّ على الاعتراضات. أما الخبراء والتقنيّون المزعومون، فلقد سعوا إلى إفساد طبيعة القانون وتمييعه بحالات الاستثناء والإقصاء والمآزق التي كان من شأنها أن تبقي ملكية الأراضي كما هي عليه في غواتيمالا منذ

قرون خلَت. بَيْد أنه لم يسمح بذلك. ولكن، من المؤسف أن ثباته على موقفه لم ينفعه بشيء، وإنما أثار الحنق في نفوس أعدائه.

أيقن أربينس أن الإصلاح الزراعي سوف يُحدِث تغييرًا جذريًا في الوضع الاقتصادي والاجتماعي في غواتيمالا، ويرسي دعائم مجتمع جديد من شأنه الوصول إلى العدالة والحداثة عن طريق الرأسمالية والديمقراطية. «سوف تُتاح الفرص لجميع أهل غواتيمالا، ولن تقتصر على أقلية ضئيلة كما هو الحال الآن»، هكذا ردَّد كثيرًا في تلك المناقشات. وكانت تلك واحدة من المرات القليلة التي هنَّأته فيها زوجته ماريا أيضًا، وقد تأثَّرت، وفاضَت من عينَيْها الدموع، وشدَّت على ذراعه قائلة: «خاكوبو، أحسنتَ كثيرًا»، مع أنها صارمة في انتقاد جميع ما يصدر عنه فعلاً وقولاً. كما وافقها جميع الوزراء والأصدقاء من أعضاء مجلس النواب: إذ لم يُرَ أربينس يومًا أكثر بلاغة مما كان في تلك المناقشات. ولكن معارضيه لم يقتنعوا: بل إن مقاومة أصحاب الأراضي صارَت أشد حدَّة وعنادًا منذ ذلك الحين.

في شبابه، نادرًا ما فكَّر أربينس في مشكلات بلده الاجتماعية: مثل وضع الهنود، والأقلية الثرية، والأغلبية الكاسحة الفقيرة، والحياة المُهمَّشة التعيسة التي يعيشها ثلاثة أرباع الشعب، والمسافة الفلكية التي تفصل بين حياة السكان الأصليين والموسرين من أصحاب المهن والأملاك والمتاجر والشركات. ولقد استغرق طويلاً حتى فهم أن قلة قليلة من مواطنيه يتمتَّعون بامتيازات الحضارة، وأدرك ضرورة الوصول إلى جذور المشكلة الاجتماعية لتغيير ذلك الوضع وتعميم الامتيازات التي تنعم بها الأقلية على جميع أهل غواتيمالا. وكان الإصلاح الزراعي هو المفتاح.

لم يخجل من التصريح بأنه قد أدرك أخيرًا في أي بلد يعيش ـ بلد

رائع الجمال، له تاريخ في غاية الثراء، على ما فيه من ظلم رهيب ـ والفضل يرجع إلى ماريا بيلانوبا، تلك المرأة التي ما كاد يراها لأول مرة حتى أُغرَم بها لجمالها وأناقتها. ولكنه زاد بها غرامًا حين اكتشف مدى الرهافة والذكاء اللذين تتَّسم بهما تلك الشابة ذات العينَيْن المفعمتَيْن بالحيوية والقوام الممشوق والأنف المستقيم، التي أدركَت مدى تأخُّر بلدان أمريكا الوسطى منذ الصغر، وانتبهَت إلى الغشاوة التي حجبَت عنه وعن الكثيرين تلك المشكلة الاجتماعية، مع أنها سليلة أسرة سالفادورية غنية.

جعلَته ماريا بيلانوبا يكتشف كل ما لم يعرفه، قبل حتى أن يبلغ رتبة ملازم في المدرسة العسكرية، وهو الذي بقي حتى ذلك الوقت حبيسَ عالَم من الأسلحة والأوامر والاستراتيجيات والشفرات والمعارك والأبطال الذين تُسمَّى الأمكنة تيمّنًا بهم، شأنه في ذلك شأن زملائه، في أقصى هامش المجتمع المُحمَّل بالأحكام العنصرية المسبقة، ذلك المجتمع الذي لم يكتفِ بتجاهل ملايين الهنود ممن يعيشون في معزل عن الحضارة، وإنما قابلهم بالاحتقار أيضًا.

وبفضل ماريا بيلانوبا، انفتح أمامه عالَم لم يعرفه من قبل، حافل بالظلم الذي امتدّ قرونًا، والأحكام المسبقة، والعمى، والعنصرية، وإن كان عالَمًا تسكنه قوة خفية، لو استيقظَت واحتشدَت، لتمكَّنَت من إحداث ثورة في غواتيمالا وسالفادور وجميع أنحاء أمريكا الوسطى. حكَت له ماريا بيلانوبا كيف اكتشفَت خلال دراستها في الولايات المتحدة مدى التأخّر الذي تعاني منه بلدان أمريكا اللاتينية، والتفاوتات الاجتماعية والاقتصادية الهائلة التي تفصل بين الطبقات الاجتماعية، وفرص الفقراء الشحيحة ـ حتى لا نقول المعدومة ـ في تجاوز خط الفقر والحصول على تعليم يتيح لهم المضي قدمًا في الحياة. كان ذلك هو الاختلاف العظيم الذي ميَّز الديمقراطيات الحديثة، كالولايات المتحدة

على سبيل المثال. وبفضل ماريا بيلانوبا، تمكَّن أربينس من تجاوز تلك الأحكام الأصولية المسبقة التي من شأنها تطبيع السلوكيات والصلات الاجتماعية في غواتيمالا، هناك حيث ينظر البيض - أو الذين يخالون أنفسهم من البيض - إلى الهنود وكأنهم من الحيوانات. منذ ذلك الحين، وبينما كان هو وماريا لا يزالان عاشقَيْن، حاول أن يتخلَّص من الجهل، وينفض عن نفسه المُبتذَل من الأفكار، وبدأ يدرس علم الاجتماع والنظريات السياسية والاقتصاد ويسهر مُفكِّرًا في ما يمكن عمله لانتشال بلده - وأمريكا الوسطى - من تلك البئر التي غاص فيها، حتى يتحوَّل ويصبح مثل تلك الديمقراطية يومًا، مثل الولايات المتحدة التي فتحَت عينَي ماريا كريستينا وخلَّصَتها من أفكارها المسبقة.

ومنذ سنواته الأولى ضابطًا في الجيش، خلص خاكوبو أربينس إلى النتيجة التي توصَّلَت إليها ماريا كريستينا ومعها الأصدقاء المدنيين الذين تعرَّف بهم أربينس عن طريقها: النتيجة التي مفادها أن الإصلاح الزراعي هو مفتاح التغيير والأداة التي لا غنى عنها للبدء في تطوير مجتمع غواتيمالا. كان لا بد من تغيير تلك البنية الإقطاعية التي طغَت على الأرياف، حيث الأغلبية الساحقة من أهل غواتيمالا، أي الفلاحين، لا يملكون الأراضي، ولا يعملون سوى لحساب أصحاب الأملاك اللادينو[1] أو البيض، مقابل أجور تعيسة، بينما يعيش كبار أصحاب الأراضي كما عاش مراقبي المستعمرات الأمريكية قديمًا، منتفعين بكل مزايا الحداثة.

ولكن ما العمل في يونايتد فروت، «فروتيرا»، «الأخطبوط» الشهير؟ تلك الشركة العملاقة التي حصلَت على عقود مُجحِفة، ما كانت لتقبل

(١) لادينو: في غواتيمالا على وجه التحديد، تُعتبَر اللادينو من المجموعات العرقية ذات الأصول الهسبانية التي اختلطَت بالسكان الأصليين. (المترجم)

بها ديمقراطية حديثة واحدة، بطبيعة الحال، والفضل يرجع إلى حكومات غواتيمالا، ولاسيما الديكتاتورية منها. وهكذا أعفيت الشركة من الضرائب، على سبيل المثال.

كان خاكوبو أربينس على قناعة بأنه لا يجب طرد شركة «الأخطبوط» من غواتيمالا، بأي حال من الأحوال، بخلاف ما ذهب إليه عدد كبير من أصدقائه المُتطرِّفين، وإنما يجب وضعها في إطار قانوني، وإرغامها على سداد الضرائب واحترام العمال والموافقة على تشكيل النقابات، ومن ثم تحويلها إلى نموذج يُراد به اجتذاب شركات أخرى من الولايات المتحدة وأوروبا، تلك الشركات التي لا غنى عنها لتطوير الصناعة في البلاد.

ولطالما تذكَّر أربينس المناقشات اللانهائية التي دارَت بينه وبين أولئك الذين توثَّقَت صداقته بهم عن طريق ماريا بيلانوبا. كانوا يجتمعون ما لا يقلّ عن مرة واحدة أو مرتَيْن أسبوعيًا، أيام السبت بوجه العموم، في بيت خاكوبو وماريا أو النزل حيث كانا يقيمان في ما سبق، فيتناقشون وينصتون إلى الأحاديث، ويعلِّقون على الكتب أو الأحداث السياسية، بينما هم يتناولون الطعام أو يعاقرون الشراب. كانوا يعملون في مهن شتّى، فمنهم الصحافيون والفنانون والأساتذة والسياسيون الذين لم تجمعهم بأربينس أي صلة من قبل. ولقد أماطوا له اللثام عن جوانب كان يجهلها من الحياة في البلد: المشكلات الاجتماعية والسياسية، والآثار الفظيعة التي تركَتها الحروب الأهلية والديكتاتوريات ـ مثل ديكتاتورية الجنرال خورخي أوبيكو كاستانييدا الحالية ـ ، وكشفوا له عن فكرة الديمقراطية، والانتخابات الحرة، والصحافة المستقلة الناقدة، والاشتراكية. أما هو فكان يجادلهم بضراوة، معترضًا على الشيوعية، مدافعًا عن الديمقراطية الرأسمالية، «على غرار الولايات المتحدة»، كما دَرَج على القول. «ذلك ما نحن في حاجة إليه هنا».

أما الرسامون والموسيقيون والشعراء رقاق الحال الذين يعيشون حياة بوهيمية، أولئك الذين كانت ماريا تشعر نحوهم بالضعف، فلم يهتمّ بهم أربينس بالقدر نفسه، وإنما بقدر أقل مما اهتمّ بالصحافيين والأساتذة الذين كان يناقشهم في السياسة، على سبيل المثال. ومن بينهم كارلوس مانويل پيّيسير وخوسيه مانويل فورتوني، اللذين توطَّدَت صداقته بهما، لو أن خاكوبو أربينس قد عرف الأصدقاء المُقرَّبين يومًا، بشخصيته مفرطة التحفّظ وصمته العنيد.

شعر بالألفة نحو فورتوني وپيّيسير، وشاطرهما المشاغل، وأحبَّ صراحتهما، وزهدهما في الماديات، وكذلك الإهمال والفوضى التي دَرَج كلاهما على العيش فيها («صحيح أن الأضداد تتجاذب»، كما خطر على باله مرات كثيرة). لم يعتبر أربينس نفسه اشتراكيًا في أي وقت، ولطالما سخر من إصرار فورتوني على تكوين ذاته فكريًا بقراءة المُفكِّرين الماركسيين (تلك الكتب التي لم يكُن يعثر عليها في غواتيمالا قطّ، ما يضطرّه إلى طلبها من المكسيك، وإنفاق المال الذي يكاد لا يغطِّي كلفة الطعام)، وسخر من إصراره على إنشاء حزب شيوعي في غواتيمالا ذات يوم. وعلى الرغم من الاختلاف القائم بينهما، فالحق أن نصائح فورتوني، وأفكاره، ولا سيما ثقافته السياسية التي كانت أوسع من ثقافة أربينس، كلها أمور أفادته كثيرًا عند تولّيه السلطة.

تعرَّف بفورتوني، الذي يصغره قليلاً، إبان ثورة أكتوبر ١٩٤٤، عندما كان الأخير في الخامسة والعشرين تقريبًا. عند ذاك، كان فورتوني يشتهر بالبوهيمية والنشاط المفرط والذكاء والإقدام، ويعمل مراسلاً في دياريو دِل آيريه، ذلك البرنامج الإذاعي الذي أخرجه الكاتب ميغيل أنخِل أستورياس. ويظهر أنه التحق بمدرسة نورمال المرموقة في الثانية عشرة من العمر، غير أنه لم يستمرّ في مشروع الاشتغال بالتدريس، كما لم ينتهِ من دراسة القانون في كلية الحقوق بجامعة سان كارلوس، وإنما تخلَّى

عنها من أجل الصحافة، لأنها أقرب إلى طبيعته المنغمسة في الملذات. كتب لعدد من الصحف والمجلات، وجرَّت عليه الأنشطة السياسية المُعارِضة لديكتاتورية أوبيكو مشكلات مع النظام، فاضطُرّ إلى المنفى اضطرارًا، وذهب إلى سان سالفادور المجاورة حينًا. وهناك، استمرّ في مزاولة الصحافة.

أما بيّيسير، الذي كان تلميذه في المدرسة العسكرية، فقد اغترب إلى المكسيك. وبعودته إلى غواتيمالا، عكف على تشكيل النقابات والجمعيات التعاونية، كما عاون حكومة خوان خوسيه أريبالو كثيرًا، وتولّى برامج ثقافية في مناطق ريفية. كان يعرف المشكلة الزراعية معرفة وثيقة، وساعد أربينس على الإلمام بها. (وإن صار يعادي الشيوعية بشراسة بعد أعوام، بل وذهب إلى حدّ العمل في خدمة الديكتاتوريات العسكرية).

وفيما هو ينصت إلى هذين الصديقَيْن، كان خاكوبو أربينس يكتشف كل ما يجهله. آمن فورتوني وبيّيسير مثله بأن الإصلاح الزراعي خطوة أولى، لا غنى عنها، في سبيل انتشال غواتيمالا من الجمود وتحويلها إلى مجتمع ديمقراطي، والقضاء على التمييز والعنف. فعن طريق الإصلاح الزراعي، سوف تنتشر المدارس في الأرياف، ويتعلّم أبناء السكان الأصليين وبناتهم القراءة، وتتوافر لهم المياه الجارية، والإضاءة الكهربائية، والطرقات، ويتحسَّن مأكلهم وملبسهم بفضل الأعمال الشريفة والأجور الكريمة. هل كان حلمه ضربًا من المحال؟ كلا، كلا، قال لنفسه في مطلع حكمه: بل إنه شيء يمكن تحقيقه على أكمل وجه، بالمثابرة، والعمل، والإرادة. بعد مضي عامَيْن، بدأ يتساءل عما إذا كان قد أفرط في التفاؤل.

أحبَّ أربينس في خوسيه مانويل فورتوني تلك السمات التي كان يفتقر إليها هو نفسه: روحه البوهيمية غير المنضبطة، ونبوغه، وتنقّله

الدائم كالفراشة بين أوجه الثقافة كافة، وشغفه الهائم بالكُتّاب والمُفكِّرين والأفلام والمُغنِّيين، وكذلك بهجته وشهيته المفتوحة للشراب. كان بالنسبة إليه وكأنه «الأنا الآخر»، علمًا أنه مفرط التنظيم والدقة والانضباط والصرامة. خاضا مناقشات مُطوَّلة، كثيرًا ما تدخَّلَت فيها ماريا للتهدئة، ولا سيما إذا احتدّ الكلام بينهما. كثيرًا ما كانا يختلفان، وخاصة متى تحدَّث فورتوني عن الاشتراكية وقال إنه لو اضطُرّ إلى الاختيار بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي لوقع اختياره على الأخير، في حين يختار خاكوبو وماريا الولايات المتحدة، لأنه بلد حر مزدهر، على الرغم من كل عيوبه، طبقًا لما ذهبا إليه. أما الاتحاد السوفييتي، فنظام ديكتاتوري، وإن اصطفّ إلى جانب الحلفاء في الحرب على نازية هتلر.

باندلاع ثورة أكتوبر، وسقوط أوبيكو والجنرال الذي أراد أن يتركه خلفًا له، فيدريكو پونسي بايديس، ثم وصول خوان خوسيه أريبالو إلى سدة الحكم، وتولِّي أربينس منصب وزير الدفاع في حكومته، اضطُرّ خاكوبو إلى تعليق دراسة الاقتصاد ـ ولا سيما الدراسة المُتعلِّقة بالإصلاح الزراعي ـ لأن المنصب شغل وقته كاملاً. كان عمله الأساسي يتمثَّل في الحيلولة دون انشقاق الجيش لأسباب سياسية وانضمامه إلى المتآمرين: إنها القصة الأبدية لأمريكا الوسطى. كان يجتمع برفاقه العسكريين، ويزور الثكنات، ويوضح لهم الأهمية الجوهرية التي تمثِّلها إجراءات الرئيس أريبالو وإصلاحاته، وينحِّي الضباط الذين تظهر عليهم أعراض التمرّد عن المناصب القيادية في الجيش. وحتى في تلك الأعوام ظلَّ فورتوني وپيّسير يمدّان له يد العون من موقعهما في مجلس النواب، إذ انتُخِب كلاهما نائبًا. كان يتبادل وإياهما الأفكار على انفراد، ولو لوقت قصير. كما راسل فورتوني، الذي قدَّم له المشورة في كل الأمور الحرجة. كان فورتوني يتولَّى قيادة الحزبَيْن الداعمَيْن لأريبالو، جبهة التحرير الشعبية والتجديد القومي، عندما تقرَّر دمجهما في حزب العمل الثوري.

وطوال فترة الجدال المحتدم الذي تسبَّب فيه الإصلاح الزراعي، تأكَّد لأربينس أن فورتوني شخص واقعي وعملي، على الرغم من ميوله الشيوعية، إذ قدَّم له الصحافي دعمًا فكريًا راسخًا، لا في مواجهة محامِي اتحاد المزارعين العام المسعورين فحسب، بل وكذلك في مواجهة مُتطرِّفي اليسار الذين أرادوا تأميم جميع الأراضي، وانتزاع ملكيتها من أصحابها قسرًا، ثم توزيعها على شكل مزارع مملوكة للدولة كما سبق وفعل الاتحاد السوفييتي. اتَّفق فورتوني وأربينس على أن ذلك ضرب من الشطط، قد يثير معارضة هائلة في الداخل والخارج، ولا سيما في الولايات المتحدة. بل إن الأمر لم يكُن مُؤكَّد النجاح. وبخلاف ذلك، عكف كلاهما على دراسة الإصلاح الزراعي الذي طبَّقه الرئيس باس إستينسورو في بوليفيا، ذلك الإصلاح الذي انتقده أربينس بشدة، تحديدًا لأنه يميل إلى إسناد دور البطولة إلى الدولة، لا إلى الفلاحين، على ما يبدو. في حين أبدى أربينس اهتمامًا كبيرًا بالإجراء الذي اتَّخذَته تايوان لحل مشكلة الأراضي، حيث عمد النظام إلى تسليم حصص صغيرة من الأراضي بمبادرة من شيانغ كاي شيك، مع مراعاة النظام الرأسمالي الذي أراد أربينس تعميمه على فلاحي غواتيمالا أيضًا.

لم يُكثِر أربينس من الحديث يومًا بقدر ما فعل خلال تلك المناقشات العمومية بقصر الحكم، في إبريل من عام ١٩٥٢. أما أولئك الذين عرفوه عن كثب وعرفوا شخصيته مفرطة التحفُّظ، وصمته المعهود، فقد اندهشوا لرؤيته يدافع عن مشروعه بكل هذه الحماسة، ويوضح أن الأراضي البور المملوكة لكبار المزارعين هي التي سوف تُصادَر دون غيرها، ومن ثم يُمنَح الفلاحون حق الانتفاع بها، لا ملكيتها، لئلَّا يتسنَّى لهم بيعها إلى أصحاب المزارع. وبخلاف تسليم الأراضي، من المُزمَع أن تقدِّم الدولة مساعدة تقنية ومالية للفلاحين بهدف تمكينهم من اقتناء الآلات اللازمة والشروع في الإنتاج الزراعي. أما الأراضي المنزوعة

ملكيتها، فلسوف يُعوَّض مالكوها بمقتضى التقديرات الواردة في الإقرارات الضريبية التي قدَّموها بأنفسهم.

كثيرًا ما ساعده فورتوني في مجلس النواب خلال مناقشة القانون الذي تمَّ اقراره أخيرًا مع إدخال بعض التعديلات في السابع عشر من يونيو عام ١٩٥٢. يومذاك أُقيمَت احتفالات كبرى في جميع أرجاء البلد، ولكن أربينس لم يحنث بالعهد الذي قطعه على نفسه، حين تعهَّد بألاَّ يشرب قطرة واحدة من الكحول ما بقي في السلطة، واحتفل بالماء وعصائر الفاكهة، رغم المحاولات التي بذلها أصدقاؤه لإقناعه بأن يشرب نخب الحدث.

أما الجانب السلبي، الذي لم يضعه خاكوبو أربينس في الاعتبار، فهو ما اقتُرِف بعد ذلك من أعمال الاستيلاء على الأراضي، واحتلال المزارع والحقول، ولا سيما التعدِّي على الأملاك المعفاة من المصادرة بمقتضى القانون، نظرًا لأن مُلاَّك تلك الأراضي قد أحسنوا استغلالها. وهكذا ندَّدَت كل صحف المعارضة تقريبًا، ولا سيما صحيفتي الساعة والمحايد، بحوادث التعدّي على نحو فاضح، وهوَّلَت وقائع العنف المعهودة، واتَّهمَت الحكومة ـ كما فعلَت صحافة الولايات المتحدة أيضًا ـ بأنها تقتدي بنموذج الاتحاد السوفييتي وتنصاع لأوامره. لجأ المُتضرِّرون إلى القضاء، الذي كثيرًا ما أصدر حكمه ضد الحكومة وطالبها بإجلاء مُحتلِّي الأراضي بالقوة وتعويض المُتضرِّرين ماديًا. في بعض الحالات، تسبَّب عنف المداهمات غير الشرعية في سقوط القتلى والجرحى. أما بيكتور مانويل غوتييرّيس، الأمين العام لاتحاد نقابات العمال والفلاحين، فأكَّد له أنه لا هو ولا أحد سواه في مجلس إدارة المُؤسَّسة قد شجَّع على مثل هذا الاحتلال، في حين أكَّدَت تقارير أخرى صادرة عن الشرطة والمخابرات العسكرية أن قادة مُنظَّمات حقوق الفلاحين هم الذين حرَّضوا الهنود على اجتياح المزارع ـ ولا سيما في المناطق شديدة

الكثافة السكانية، حيث تندر الأراضي البور ويكثر الفلاحون العاطلون الفقراء ـ كما زوَّدوهم بالعصي والرماح والأسلحة النارية أيضًا. ولذا أثارت الصحف اليومية والمحطات الإذاعية فضيحة كبرى، وضخَّمَت الوقائع، وقدَّمَتها باعتبارها أدلة دامغة على الطابع الشيوعي لقانون الإصلاح الزراعي الذي تسبَّب في عنف اجتماعي قد يفضي إلى مذابح يُقتَل فيها مُلَّاك الأراضي وتختفي الملكية الخاصة. تحدَّث أربينس مرات كثيرة عَبْر الإذاعة وفي شتّى أنحاء البلد مُندِّدًا بالاستحواذ على الأراضي، كما أوضح أنه تصرّف ينطوي على استهتار بالمسؤولية، من شأنه أن يؤدِّي إلى عكس النتيجة المرجوة، وقال بضرورة تنفيذ الإصلاح في إطار الشرعية، من دون الإضرار بأولئك الملتزمين بالقانون، وأوضح أن جميع المُتورِّطين في الاستحواذ على الأراضي سوف يُقدَّمون إلى العدالة، حيث يحكم القضاة في حقهم بالعقوبات. ولكن الأمور لم تسِر هكذا في كل مرة، بل كانت أحسن النيات تصطدم بواقع أشد تعقيدًا في بعض الأحيان.

ولطالما ذكر أربينس الذهول الذي اعتراه في مايو من عام ١٩٥١، عندما استطاعَت المعارضة أن تحشد نحو ثمانين ألف شخص في مظاهرة خرجَت احتجاجًا لأن حكومة أربينس قرَّرَت أن يحلَّ الأخصائيون الاجتماعيون والمُعلِّمات محلَّ «راهبات الإحسان» اللاتي كُنَّ يخدمن في دار الأيتام القومية. في البدء أثارت حنقه تلك الاتهامات الزاعمة بأن حكومته تسجن المعارضين بلا أمر قضائي، وتضرب السجناء، وتخضعهم للتعذيب أيضًا. كان قد أصدر تعليمات في غاية الدقة إلى الرائد خايمي روسيمبرغ، قائد الشرطة القضائية، وإلى روخيليو كروس وير، قائد الحرس المدني، بالامتناع نهائيًا عن افتعال حوادث المرور واستخدام العنف ضد السجناء. وعلى الرغم من ذلك، استمرَّت تلك الممارسات. وفي وقت لاحق، عندما تبدَّى في الأفق تهديد كاستيّو أرماس بالغزو،

بدعم من الولايات المتحدة، تراجعَت حقوق الإنسان وحرية التعبير والنقد في وعيه حتى صارت تمثِّل مشاغل أقل أهمية من نجاة حكومته.

ذات ليلة، جعل خاكوبو وماريا بيلانوبا يتجاذبان أطراف الحديث في العتمة، بعد أن استلقى كلٌّ منهما على الفراش. وإذا هو يسمع زوجته تقول فجأة: «متى تدحرجَت كرة صغيرة من فوق الجبل، بات وقوع الانهيار واردًا».

أجل، هكذا كان الحال في واقع الأمر. لقد استيقظ الهنود أخيرًا، غير أنهم يفتقرون إلى الصبر، ويريدون تنفيذ جميع الإصلاحات في الحال. ولكن، هل كان الهنود ـ أي كتلة المزارعين ـ هم الذين اجتاحوا الأراضي حقًّا، أم فرق صغيرة من مثيري الشغب؟ أم أن القائمين على شركة الفاكهة وأصحاب المزارع هم الذين وقفوا خلف تلك التعدّيات حتى يتسنَّى لهم اتهام الحكومة بالتطرّف لاحقًا؟

هنَّأه أصدقاؤه على الطريقة التي دافع بها عن مشروعه في تلك الجلسات الثلاث. بل وحتى صحافة المعارضة أقرَّت بما أظهره من جسارة وجدية في الردّ على المناوئين. وعلى الرغم من ذلك، ما برحَت المحايد والساعة وغيرهما من الصحف تؤكِّد أن القانون المذكور يُمثِّل بداية الثورة الشيوعية في غواتيمالا.

ربما كانت أكبر المفاجآت التي لقيها أربينس في تلك الأيام الحافلة هي الهجمات التي شنَّتها الصحافة الأجنبية، ولا سيما في الولايات المتحدة، عقب إقرار مشروع القانون في مجلس النواب مع إدخال تعديلات طفيفة، والبدء في تنفيذ ما عُرِف شعبيًا «بالمرسوم ٩٠٠»، إذ اتَّهمَت الصحافةُ الأجنبية حكومته بالإذعان للاتحاد السوفييتي، والتآمر معه بهدف إنشاء طابور خامس في أمريكا الوسطى، من حيث يمكن للاتحاد السوفييتي تهديد قناة بنما، ذلك المركز الاستراتيجي للملاحة والتجارة الحرة في القارة الأمريكية.

كانت مفاجأة حافلة بالأسئلة التي لا إجابة لها: كيف يمكن ذلك؟ ألم تكن صحافة هذا البلد حرة؟ إذن، فكيف لجميع وسائل الإعلام أن تتَّفق على تلك الرؤية المُشوَّهة الهزلية لأداء حكومة أربينس؟ ألم يكُن نموذج الولايات المتحدة الديمقراطي هو الذي يسعى إلى تطبيقه؟ أيكون للإقطاع وجود في الولايات المتحدة؟ ألم يكُن قانون الإصلاح الزراعي يهدف إلى تحفيز روح التجارة والمنافسة الحرة والملكية الخاصة؟ وهو الغرير الذي طالما اعتقد بأنه سوف يلقى من الولايات المتحدة خير دعم لسياسته الرامية إلى تطوير غواتيمالا وانتشالها من الكهوف!

ولمَّا اقتنع بأنه لم يعُد هناك ما يمكن عمله، وبأنه لا نفع يُرتجَى من التفنيد والتصريحات التي كان يدلي بها الرئيس ووزراؤه، وبأن تلك الحملة الدعائية الكاذبة قد فرضَت نفسها على الواقع، بدأت مشكلةٌ أخرى تشغل بال أربينس: الجيش. فلا بد أن تلك «البروباغاندا» تساعد أعداء الثورة في الداخل على البدء في تقديم المغريات للجيش، وتقويض وفائه تجاه الحكومة، والتآمر بهدف تنفيذ انقلاب عسكري. أيقود الانقلاب «وجه الفأس» التعيس؟ ذلك ضرب من المحال. فلا أحد يحترمه في القوات المُسلَّحة، ولطالما كان ضابطًا مغمورًا، بلا وجاهة ولا ملكة قيادة، مخبولاً، مُتطرِّفًا، يستغلّه أصحاب المزارع وشركة «الأخطبوط» سلاحًا ضد نظام أربينس. أما الكولونيل كارلوس إنريكي دياس، قائد القوات المُسلَّحة، وصديقه الذي يطمئنّ إليه، فأكَّد له أن الجيش ما زال على وفائه. غير أن الأمور بدأت في التبدّل بين رفاقه العسكريين حين وصل سفير الولايات المتحدة الجديد إلى غواتيمالا مثل الإعصار الكاسح ليحلَّ محلَّ مستر پاترسون الليِّن المُهذَّب، ومستر رودولف أ شونفيلد. كان السفير الجديد يُدعَى چون إميل پيوريفوي، وقد جاء ليقضي على التهديد الشيوعي الذي تُمثِّله حكومة خاكوبو أربينس للأمريكتَيْن، كما صرَّح بنفسه، بلا أدنى قدر من الحرج.

١٠

مكتبة
t.me/t_pdf

في السابعة إلاَّ ربعًا، تركه ريكاردو بوناتشيا ليون على أعتاب الكاتدرائية. بدأ الظلَّام يخيِّم. وفي منتزه سنترال، أضيئَت مصابيح أعمدة الإنارة الباهتة لتوّها. قلَّ الحضور تحت الأشجار السامقة، أشجار المانجو والچكرندا والنخيل. في حين بدأ ماسحو الأحذية وباعة الأطعمة والزينة الجائلين في مغادرة المكان.

خطر للدومينيكاني أنه لم يذهب إلى كاتدرائية غواتيمالا قطّ. ولمَّا وجد أبوابها مشرعة، قرَّر أن يغتنم الربع ساعة التي ما زالَت أمامه حتى يزورها. كانت هائلة، تفتقر إلى الشخصية، تفوق كاتدرائية مدينة تروخيّو حجمًا، ولكنها أقل دفئًا وحميميّة. أضيئَت مذابح الكاتدرائية الكثيرة بمصابيح أفضل من تلك التي أضاءت منتزه سنترال. وفي مقصورة صغيرة، رأى نسخة من لوحة مسيح إسكيبولاس الأسود، تلك النسخة التي أمر بصنعها رئيس الأساقفة ماريانو روسيل إي أريَّانو ـ لأن الطلب الذي قدَّمه باستعارة اللوحة الأصلية قُوبِل بالرفض ـ ثم طاف بها في جميع أرجاء البلد، في إطار حملة صليبية مناهضة للشيوعية شنّها ضد حكومة أربينس. كان رئيس الأساقفة المذكور رجلاً ذا جلال، فاز فوزًا مُستحَقًّا بالوسام العام الذي قلَّده إياه الرئيس كاستيّو أرماس. هل حقًّا أن الرئيس قد نصَّب مسيح إسكيبولاس الأسود «جنرالاً في جيش التحرير

الوطني»، وخلع عليه الزي العسكري بتلك المناسبة؟ كثيرًا ما وقعَت أمور عجيبة في هذا البلد.

قلَّ المُصلّون على مقاعد الكاتدرائية. كم تحمَّلَت هذه الكنيسة من الهزَّات الأرضية؟ الكثير، من دون شك، لأن غواتيمالا تهدر بما فيها من براكين وزلازل وهزَّات أرضية. تذكَّر أنه قد أحسَّ بهزَّة أرضية بعد مجيئه بزمن قصير، خلال زيارته إلى تلك الدرّة المُشيَّدة على الطراز الاستعماري، مدينة أنتيغوا، التي كانت أول عاصمة في تاريخ البلد، ثم نُقِلَت العاصمة بسبب أحد الزلازل. تذكَّر الشعور المفاجئ بانعدام الأمان الذي استحوذ عليه حين أدرك أن قدمَيْه تنزلقان، وأن الأرض تتحرَّك، وسمع ذلك الهدير القوي المُنذِر المتصاعد من جوف الأرض، والناس من حوله ماضون في حديثهم وسيرهم وكأن شيئًا لم يكُن. وبالفعل، لم تستمرّ الهزة الأرضية إلاَّ قليلاً جدًّا، وما لبث أن أحسَّ بالأرض ثابتة تحت قدمَيْه، فراح يتنفَّس بقدر أكبر من الهدوء، بعد أن تملَّكه ذعر شديد، ظنًّا منه بأنه سوف يعيش زلزالاً كذلك الذي دمَّر جزءًا من مدينة تروخيّو عام ١٩٤٦، وتسبَّب في موجة عاتية تركَت عشرين ألفًا من الدومينيكان بلا مأوى. أتسير عملية الليلة على ما يُرام؟ أجل. لقد وُضِع المُخطَّط بإتقان كبير، ولسوف يسير كل شيء على أكمل وجه. كان يشعر بالهدوء. ولم يدرك أنه قد بال رغمًا عنه وبلَّل سرواله إلاَّ بعد مضي وقت طويل، عندما انتهي الأمر برمّته.

مرَّ بكل المقصورات، فوجد في المقصورة الأخيرة جمعًا من الساجدين الذين رفعوا أصواتهم بالابتهال، برؤوس محنية ووجوه محزونة. تضوَّعَت رائحة البخور. لا شك أن غواتيمالا بلد قاتم إلى حدٍّ كبير، بالقياس إلى جمهورية الدومينيكان.

حين عاد إلى مدخل الكاتدرائية، كان إنريكي في انتظاره هناك، بالزي الرسمي.

ـ طاب مساؤك سيدي المُقدِّم. ـ ألقى عليه التحية هازئًا، رافعًا يمينه إلى القبعة ذات الحافة الناتئة.

من دون أن يتبادلا كلمة واحدة، عبرا منتزه سنترال الذي خلا الآن من الجميع، وقصر الحكم الشاهق يرتفع أمامهما، ذلك الذي أمر خورخي أوبيكو بتشييده في واحدة من أشدّ نوبات جنون العظمة التي استحوذَت عليه. كانت للقصر أعمدة ثقيلة، ومئات المصابيح، ومساقط مياه، وجدارية مُكرَّسة للراهب بارتولومي دي لاس كاساس. ومع أن القصر المذكور يضمّ جميع مقرّات الوزارات وإدارة الأمن العامة، فما زالَت فيه مساحة ضخمة شاغرة.

ـ لا أظنّنا سوف ندخل من الباب الرئيسي. ـ حاول الدومينيكاني أن يقول على سبيل الدعابة، تنفيسًا عن التوتّر الذي استحوذ عليهما.

مضيا قدمًا، ثم انعطفا يسارًا ليتَّخذا الجادة السادسة، الموازية للقصر، على مبعدة أمتار من سفارة المكسيك التي تقوم على الجانب الأيسر، في منزل كبير على الطراز الاستعماري، خيَّم عليه الظلام الآن. فوجئ كلاهما بخلوّ المداخل من الجنود والحراس. وعلى الرغم من ذلك، تابعا سيرهما مطرقَيْن، في ظلمة تكاد تكون مطبقة، حتى بلغا الناصية التي تفضي إلى مدخل البيت الرئاسي، إلى مقر كاستيّو أرماس ـ إذا انعطف السائر يمينًا ـ على مقربة من دار العبادة الإنجيلية العتيقة. وهناك، توقَّف إنريكي مشيرًا إلى الدومينيكاني حتى يتوقَّف هو الآخر، ثم أبرز من جيبه مفتاحًا. رأى الدومينيكاني رفيقَه يتحسَّس الجدار بيده، باحثًا عن باب صغير مُموَّه بطلاء الجدار الضارب إلى الخضرة. أخذ يحاول تحديد موضع ثقب المفتاح، وهو يتحسَّس على عمى طوال الوقت. ولمَّا عثر عليه، هزّ المفتاح في الثقب قليلاً، فانفتح الباب، وإذا هما في مرأب سيارات. أوصد إنريكي الباب مرة أخرى بالمفتاح، ثم أشار إلى الآخر رافعًا يده حتى يمضي في أثره.

«ها نحن في الداخل»، فكَّر الدومينيكاني. «والآن لم يعُد التراجع ممكنًا». كان مُتحمِّسًا، مُتوتِّرًا، كما شعر في مواقف أخرى شديدة الصعوبة، فأخذ يربِّت على مقبض المسدَّس المُثبَّت في حزامه حتى يشعر بقدر أكبر من الأمان.

أرشده إنريكي عَبْر أروقة خاوية غارقة في الغبش. ومعًا، قطعا باحة صغيرة خلَت إلاَّ من شجرة سنط، وبجوارها شجرة چكرندا صغيرة. لم يعثرا على وردية حراسة واحدة. إذن، فلقد نُفِّذَت الأوامر. وفجأة، توقَّف إنريكي ومدَّ ذراعه حتى يقف الدومينيكاني هو الآخر.

ـ لا بد أن الجندي المسكين هنا. ـ قال مغمغمًا.

ولكن كلمة «المسكين» بدَت للدومينيكاني مزحة تفتقر إلى الذائقة.

١١

خرجَت في الخفاء، من دون أن يحسَّ بها الخدم، وقد تلفَّعَت بالوشاح الذي أحاط بها وأضفى عليها هيئةً مُشوَّهة. بطبيعة الحال، خرجَت وهي لا تحمل إبرة واحدة من البيت الذي ولَّت هاربةً منه وأقسمَت ألاَّ تعود إليه. شعرَت بشيء من وخز الضمير إذ هجرَت الطفل على تلك الحال، ولكنها عقدَت العزم، وحاولَت ألاَّ تُفكِّر في الأمر. لاحقًا تجد من الوقت مُتَّسعًا لذلك.

كانت ليلة مدلهمة، تساقط خلالها الرذاذ خفيفًا، خفيًّا، وإن كان مُتَّصلاً، فكادَت شوارع وسط مدينة غواتيمالا تخلو من الجميع. كانت تعلم تمام العلم إلى أين تريد الذهاب.

لا يفصل بين حي سان سباستيان وحي سان فرانسيسكو أكثر من اثني عشر مربعًا سكنيًّا. قطعَتها في عجلة بالغة، وقد تلفَّعَت بذلك الوشاح الذي جعلها تبدو شبحًا من تلك الأشباح التي تسكُن ليالي غواتيمالا في حكايا المجتمعات الهندية. لم يتعرَّض لها المارة القلائل الذين التقَت بهم في طريقها، بل إن تلك الظلال أو الخيالات كانت تبتعد عن طريقها مذعورة. لم يعترض سبيلها إلاَّ كلب شارد كشَّر لها عن أنيابه على الرصيف، وإن لم يصدر عنه نباح.

حين وصلَت إلى الباب ذي المسامير، باب البيت المُشيَّد على الطراز الاستعماري الذي لا جرس له، طرقَته بالمقرعة البرونزية مرتين، ثم

ثلاثًا، بقوة. تأخَّر الرد، وإن ابتسم لها الحظ، لأن سيمولا هي التي فتحَت لها الباب. ما لبثَت مُربِّيتها القديمة أن تعرَّفَت عليها، وسمحَت لها بالدخول إلى البهو الفسيح ذي الأحجار العتيقة والسقف الغائر، ذلك البهو الحافل بالأصداء. ومن دون أن تنبس بكلمة واحدة، عانقتها وقبَّلتها. أحسَّت مارتيتا بدموع المُربِّية تُبلِّل وجهها. وبينما جعلَت سيمولا تُربِّت عليها في ضياء البهو الخافت، قالت لها مارتا، وهي تغصّ بالأسى:

ـ هل بابا هنا؟ أودّ رؤيته. أخبريه بأنني سوف أطلب منه الصفح جاثية على ركبتَي، وأمتثل لأوامره ما رغب في ذلك. اطلبي منه أن ينصت إليَّ رحمةً بي وشفقةً عليَّ، استحلفيه بجميع القديسين، قولي له إنني أتوسَّل إليه.

جعلَت سيمولا تهزّ رأسها، وتحاول إقناعها بالعدول عن رغبتها. غير أنها، لمَّا رأت مارتيتا في غاية اليأس، تحلَّت بالجدية الشديدة، وأخذَت ترسم علامة الصليب.

ـ حسنًا يا صغيرتي، أنا ذاهبة لأنبِّهه. اجلسي هنا. عسى أن يصنع الرَّب ومسيح إسكيبولاس الأسود وعذراء غوادالوبي هذه المعجزة.

جلسَت مارتا على المصطبة التي تطوِّق البهو، وراحت تنتظر محمومةً، ريثما تعود سيمولا. تذكَّرَت أنها قد هجرَت ابنها نائمًا، ابنها الذي يُرجَّح ألاَّ تعود لرؤياه أبدًا. ماذا يكون من أمره في المستقبل؟ أي حظ ينتظره؟ شعرَت بالقشعريرة تسري إلى كل موضع في جسدها، ولكن أوان الندم قد فات. لمحَت حديقة بيتها القديم غارقةً في الظلال، بما حوَت من تماثيل وأشجار سنط وچكرندا وشجرة مانجو ضخمة. وفي ما وراء حجرات الخدم، تبيَّنَت المطبخ والمغسل والخزانة الملأى بالمؤن وقفص الكلب الذي لا بد أنه قد أُغلِق عليه.

أيصفح عنها أبوها؟ أتعود للعيش هنا؟ انقبض قلبها حزنًا.

وأخيرًا عادت سيمولا. بالحكم على صمتها، وعينَيْها الباكيتَيْن، ووجهها الواجم، عرفَت مارتيتا أن ردّ دكتور أرتورو بورّيرو لاماس على توسلاتها قد جاء بالنفي.

ـ طلب مني أن أقول لكِ إنه لم تعُد له بنات. ـ تلعثمَت، بصوت أجشّ ـ وإن الابنة التي أنجبها قد ماتت ودُفِنَت مع إخوتها. وإنه سوف يأمر الخدم بأن يطردوكِ ضربًا بالعصي ما لم تذهبي سريعًا. عسى أن يحرسك جميع القديسين يا صغيرتي مارتا!

نشجَت سيمولا ورسمَت علامة الصليب. ثم أخذَت بذراعها ومضَت بها إلى الباب المفضي إلى الشارع. وفيما هي تفتح البوابة العتيقة، تلعثمَت قائلة:

ـ اذهبي يا صغيرتي. عسى أن يحرسكِ المسيح أنتِ وابنك، ذلك الطفل المسكين. أعدكِ بأن أذهب لرؤيته بين الحين والآخر.

عاودَت رسم الصليب على جبينها وعلى جبين «ميس غواتيمالا».

وحين أُوصِد الباب خلفها، أحسَّت مارتا بالمطر يهطل أشدَّ كثافة. تساقطَت القطرات الثخينة على وجهها، ودوَّى هزيم الرعد بعيدًا، فوق سلسلة الجبال. ظلَّت جامدة، تبلِّلها قطرات المطر، وهي لا تدري ما العمل، ولا إلى أين الذهاب. أتعود إلى بيت زوجها؟ كلاَّ، أبدًا: لم يكُن لديها أدنى شك في ذلك. أتنهي حياتها؟ ولا هذا أيضًا، فهي لن تشعر بالهزيمة أبدًا. أحكمَت قبضتَيْها. لم يعُد التراجع ممكنًا. انطلقَت في السير مدفوعة بنزوة مفاجئة. بلَّلها الماء تمامًا، ولكنها قد عقدَت العزم.

بعد مضي خمسة عشر دقيقة، مرَّت أمام القصر الوطني الهائل، ومضَت بحذائه مُتَّجهة إلى البيت الرئاسي عَبْر الجادة السادسة. غرقَت في المياه من قمة رأسها حتى أخمص قدمَيْها. وفي أثناء مرورها بالكنيسة

الإنجيلية، أخذَت ترتجف. ولكنها حين بلغَت الموضع المنشود، استردَّت السكينة. ومن دون تردّد، اقتربَت من مقصورة جنود الحراسة عند مدخل المسكن المترامي الأطراف، المحاط بسياج ترتفع خلفه واجهة شاهقة حافلة بالنوافذ الغارقة في الظلال. وقفَت أمام ثلة الجنود الذين حدَّقوا إليها جميعًا:

ـ مَن قائدكم؟

نظر الجنود بعضهم إلى بعض، وراحوا يتفحَّصونها من قمة رأسها حتى قدمَيْها.

ـ ما طلباتك؟ ـ سأل واحد منهم أخيرًا، بحدة ـ ألا تدرين أن الوقوف هنا ممنوع؟

ـ أنا في حاجة إلى التحدث مع رئيس الجمهورية. ـ أجابت بصوت عالٍ. وإذا تسمع ضحكات مقتضبة. أما الجندي الذي خاطبها من قبل، فاقترب منها خطوة.

ـ اذهبي إلى حال سبيلك يا فتاة. ـ جاء صوته الآن مُتوعِّدًا ـ اذهبي إلى الفراش، وإلاَّ أصبتِ بالبرد تحت هذه الأمطار.

ـ أنا ابنة دكتور أرتورو بورّيرو لاماس وزوجة دكتور إفرين غارسيا أرديليس، وكلاهما من أصدقاء الرئيس. اذهب وقُل له إنني أودُّ التحدّث إليه. ولا ترفع الكلفة في حديثك معي ثانية وإلاَّ فربما دفعَت الثمن غاليًا.

تلاشَت الضحكات تمامًا. والآن اتَّسعَت عيون الجنود قلقًا ومفاجأةً، تحت ما يشبه الغبش الذي خيَّم عليهم. لعلَّهم يتساءلون الآن عما إذا كانت هي الشخص الذي تزعم، أم أنها تعاني جنونًا مطبقًا.

ـ انتظري هنا يا سيدتي. ـ أخيرًا قال الجندي الذي سبق ورفع الكلفة في حديثه إليها ـ سوف أتَّصل بقائد الحراسة.

مرَّ زمن بلا نهاية، وجنود مقصورة الحراس يتفرَّسون فيها طوال

الوقت، بعضهم على استحياء، وبعضهم بوقاحة. انهمر المطر أشدّ غزارة. ومن آن إلى آخر، كان يتناهى إليهم هدير بعض السيارات العتيقة التي تمرّ بمفرق الطرقات مضاءة المصابيح. وأخيرًا عاد الجندي برفقة رجل آخر. لا بد أنه ضابط، بالنظر إلى الزي المختلف الذي يرتديه.

ـ مساء الخير. ـ حيّاها مقتربًا، رافعًا يده إلى القبعة ـ ما طلباتك؟

ـ التحدّث إلى الرئيس. ـ قالت بصوت ينمّ عن الثقة التي كانت تفتقر إليها ـ قُل له إنني مارتا بورّيرو پارّا، ابنة أرتورو بورّيرو لاماس وزوجة صديقه إفرين غارسيا أرديليس. أعرف أن الوقت قد تأخّر. ولكني لن أزعجه في مثل هذه الساعة ما لم تكُن مسألة عاجلة جدًّا.

ظلَّ الضابط صامتًا لبعض الوقت، وراح يتفحَّصها.

ـ الرئيس لا يتلقَّى أحدًا في أي وقت إلاَّ بموعد سابق. ـ تمتم في النهاية ـ ولكن، حسنًا، دعينا نرَ. سوف أسأل. انتظري هنا.

مرّ على مارتا وقت بلغ من الطول حدًّا جعلها تفكِّر أن الضابط لن يعود أبدًا. كانت المياه قد أغرقَت الوشاح الذي يلفّها تمامًا، فأحسَّت بالقشعريرة.

حين عاد الضابط أخيرًا، أشار إليها بأن تتبعه. فتنفَّسَت مارتيتا الصعداء.

دلفا إلى رواق غير مُضاء إلاَّ بمصابيح خافتة. وفي إحدى الحجرات، كان رجل في ثياب مدنية يدخِّن. نظر إليها من قمة رأسها حتى قدمَيْها، بينما أوضح لها الضابط قائلاً:

ـ معذرة، يجب عليَّ التأكّد من عدم حيازتك سلاح.

فأومأت برأسها. مرَّ الضابط بيدَيْه على كل موضع في جسدها، وجعل يتحسَّسها طويلاً. أما الرجل الذي راح يُدخِّن، صاحب الثياب المدنية والقسمات الأقرب إلى الهندية منها إلى اللادينو، فترك السيجارة

في فمه بينما هو يمتصّ الدخان ثم ينفثه، وقد أطلّت من عينَيْه ابتسامة هازئة مفعمة بالإثارة.

ـ تعالي معي. ـ قال الضابط.

قطعا مسيرة أخرى عَبْر قاعات خاوية، وفناء صغير يحوي أصصًا ونباتات مُتسلِّقة، رأت فيه قطًّا يتسلَّل. وهناك أدركَت أن المطر قد انقطع فجأة. فتح الضابط بابًا يفضي إلى حجرة مفعمة بالضوء، عند ذاك تبيَّنَت الكولونيل كارلوس كاستيّو أرماس جالسًا إلى مكتبه. رآها تدلف إلى المكان فنهض وذهب للقائها. لم يبدُ رجلاً فارع الطول. كان له شعر قصير جدًا، وأذنان كبيرتان مُدبَّبتان، وعينان دقيقتان تليقان بفأر، وشارب رفيع يبدو على قدر من السخف، وقد بلغ من الهزال حدًّا جعل بشرته تشفّ عن عظام الوجه والذراعَيْن. كان يرتدي سروالاً كاكي وقميصًا بلا أكمام، مبديًا ذراعَيْه اللتين خلَتا من الشعر. أحسَّت مارتا بنظرته المُتقلِّبة تتفحَّصها، وتتمهَّل عند الوشاح الذي تلفَّعَت به لحظةً.

ـ هل أنتِ ابنة أرتورو وزوجة إفرين حقًّا؟ ـ سألها، واقفًا على بعد متر واحد منها.

أومأت مارتيتا، وأردفَت كمن يجيب سؤالاً سريًا، وهي تُظهِر له الخاتم الذي تضعه حول إصبعها الوسطى:

ـ تزوَّجنا منذ حوالي خمسة أعوام.

ـ هل لي أن أعرف ماذا تفعلين هنا، في مثل هذه الساعة من الليل، ومن دون سابق موعد؟

ـ لم أدرِ إلى أين الذهاب. ـ اعترفَت له «ميس غواتيمالا». أحسَّت بالدموع تكاد تسيل من عينَيْها، وإن قالت لنفسها: «لن أبكي». لم تُرِد أن تقدِّم استعراض المرأة الضعيفة المهجورة على مرأى منه. ولم تفعل. تكلَّمَت بصوت مُتردِّد في بادئ الأمر، ثم بحزم، وقد استقرَّت على أن

تحكي له كل شيء ـ ولَّيتُ هاربة من بيت إفرين، الذي زوَّجني أبي منه قسرًا، لأنه قد تركني حبلى. ما عدتُ أحتمل العيش معه. رحلتُ من دون أن يراني أحد. ثم ذهبتُ إلى بيت أبي، ولكنه رفضني. أرسل إليَّ الخادمة لتقول إن ابنته الوحيدة قد ماتت، وإنه سوف يأمر الخدم بطردي ضربًا بالعصي ما لم أذهب. لم أدرِ إلى أين الذهاب، ولا وجدتُ مكانًا أذهب إليه. عندئذ، خطر لي أن آتي إلى هنا، وأحكي لك قصتي.

ظلَّ الكولونيل كاستيّو أرماس ينظر إليها طويلاً بعينَيْه المُتقلِّبتَيْن الخليقتَيْن بفأر. بدا مُتحيِّرًا، مرتابًا، ولم يدرِ إذا كان قد سمعها جيدًا. وأخيرًا، اقترب منها خطوة وأخذ بذراعها:

ـ اجلسي، لعلَّكِ متعبة. ـ قال، بنبرة أكثر مودة، وقد تحلَّى بشيء من العذوبة. هل صدَّقها في كل ما أفضَت به إليه؟ ـ تعالي هنا.

أشار إلى الأريكة، فتركَت مارتيتا نفسها تسقط على الوسائد. عند ذاك وحسب، أدركَت أنها خائرة القوى، وأنها لو استمرَّت واقفة على قدمَيْها لسقطَت أرضًا. بين الحين والآخر، كانت تسري إليها القشعريرة من شدّة البرد. جلس كاستيّو أرماس بجوارها. هل كان يرتدي ثيابًا مدنية أم عسكرية؟ بدا السروال الكاكي والبوط الأسود وكأنهما جزء من زي الخدمة، على عكس القميص البني الذي لا أكمام له. بفضول، راح يتفحَّصها بعينَيْن ضاربتَيْن إلى اللون الرمادي، لا تهدآن.

ـ ما زلتِ لم تخبريني لماذا جئتِ إلى هنا، ولماذا جئتِ إليَّ أنا. اسمكِ مارتا، أليس كذلك؟

ـ حتى أنا لا أدري ماذا أنا فاعلة هنا. ـ اعترفَت له، ولاحظَت أنها تتلعثم في الحديث ـ حسبتُ أن والدي سوف يغفر لي. ولكن العالَم تهدَّم فوق رأسي حين أرسل أحدهم يخبرني بأني عنده في عداد الأموات. لن أعود إلى بيت إفرين، فزواجنا أكذوبة لا غرض منها إلاَّ مرضاة أبي

والمحافظة على المظاهر. زواجنا كابوس عشتُه على مدى خمسة أعوام. لم أدرِ إلى أين الذهاب. وفجأة، خطر لي المجيء لرؤيتك. كثيرًا ما سمعتُ أنك وإفرين كنتما صديقَيْن.

أومأ الرئيس.

ـ كنا نلعب كرة القدم في طفولتنا. ـ قال بصوت حادّ، زاعق بعض الشيء ـ على ما أذكر، لم يكُن إفرين شيوعيًا آنذاك، بل كاثوليكيًا مُتديِّنًا. مثل أبيك. احكي لي الأمر برمّته، منذ البداية. ذلك أفضل شيء.

وهكذا فعلَت مارتيتا، فراحت تحكي طويلاً، وتفرك ذراعَيْها كلما أحسَّت بقشعريرة، من دون أن تكفَّ عن الحديث. حكَت له كيف بدأت تتوثَّق صلتها بذلك الطبيب شديد الجدية، دكتور إفرين غارسيا أرديليس، في جلسات لعبة الروكامبور التي كان يسمح لها والدها بحضورها، في العطلات الأسبوعية، عندما فوجئت بالعداوة التي تثيرها المعتقدات السياسية لذلك الطبيب، فراحت تسأله في السياسة، ولاحظت كيف بدأ ينظر إليها فجأة صديق والدها، صاحب الأفكار «صعبة المراس» (على حد قول دكتور بورّيرو)، وكيف يرمقها خلسة لئلاَّ ينتبه إليه غيره من سادة الروكامبور، وكيف لم يعُد ينظر إليها على أنها طفلة فضولية، بل امرأة شابة في طور التفتّح. كما حكت لكاستيّو أرماس عن ملابسات الحبل أيضًا.

ـ مارتيتا، بما أن بالكِ لا يهدأ مطلقًا، وتشعرين بفضول جارف نحو السياسة، إن شئتِ يمكنكِ الحضور إلى بيتي بين الحين والآخر، في موعد الخروج من المدرسة على سبيل المثال. هناك أفضل من هنا، وفي وسعي أن أخبركِ بكل ما تريدين معرفته. لقد لاحظتُ أنكِ في غاية الفضول.

ـ ولكن بابا لن يسمح لي بالذهاب إلى بيتك أبدًا يا دكتور.

ـ لا يجب عليكِ أن تخبريه. ـ خفض إفرين صوته حتى بلغ حد الهمس، وهو يختلس النظر حوله، مضطربًا ـ يمكنكِ الحضور بعد المدرسة. قولي لأرتورو إنكِ ذاهبة للدراسة وإنجاز الواجبات المدرسية في بيت واحدة من زميلاتك، على سبيل المثال. ما رأيكِ؟

وافقت على تلك اللعبة الصغيرة، وإن لم تكُن مدفوعة بالفضول السياسي، بقدر ما مضَت مدفوعة بالمخاطرة التي جرفَتها، بالشيء الذي راق لها أكثر من السياسة، الشيء الذي بات هو شعار حياتها لاحقًا، وإن لم تعلم ذلك في حينه: المخاطرة.

هكذا فعلَت. حكت لكاستيّو أرماس الأكذوبة التي أخبرَت بها والدها، حين ادَّعَت أنها ذاهبة إلى بيت صديقتها دوروتيا سيفوينتيس لإنجاز الواجبات المدرسية التي كلَّفَتها بها راهبات المدرسة البلجيكية الغواتيمالية، وإن كانت تذهب إلى بيت دكتور إفرين غارسيا أرديليس في حقيقة الأمر. أخبرَته كيف سمح لها إفرين بالدخول إلى عيادته، فرأت وهجًا استثنائيًا يشتعل في عينَي الكولونيل الضيقتَيْن، وابتسامة طفيفة مفعمة بالفضول، وكأن قصتها قد أيقظَت فيه رغبة جارفة لمعرفة المزيد، والوقوف على تفاصيل كل شيء.

ـ مارتيتا، ارفعي الكلفة في حديثكِ إليَّ. ـ قال لها إفرين في واحدة من تلك الأمسيات ـ أم أنكِ ترينني عجوزًا إلى هذه الدرجة؟

كانا في مكتب الطبيب، ذلك المكتب الصغير الزاخر بالكتب والمجلات، بعد أن تناولا الوجبة الخفيفة المُؤلَّفة من الكعك وفنجانَي الشكولاتة بوقت قصير. على البساط، استقرَّت أحجار صغيرة مُلوَّنة، فأوضح لها غارسيا أرديليس أنه قد استخرجها من الأرض بنفسه منذ أعوام، خلال حملة أثرية في أدغال بيتين، وأنه لم يحتفظ بها لأسباب تاريخية بقدر ما فعل لأسباب جمالية.

ـ كلا يا دكتور، على الإطلاق. ولكني أخجل. ما زلتُ لا أجرؤ على رفع الكلفة بيننا.

ـ كم أنتِ غريرة يا «ميس غواتيمالا»! ـ أجابها دكتور إفرين وهو يربّت على وجهها، ويرمقها بنظرة زئبقية ـ أتدرين ما الشيء الذي يروقني فيكِ أكثر من كل ما عداه؟ تلك النظرة الثابتة العميقة التي تبدو وكأنها تنقّب في حميمية المرء وتنزع منه أسراره.

وفي لحظة بعينها من اعترافها المسهب، انتبهَت مارتيتا إلى أن كاستيّو أرماس يبتسم لها بعطف، وبمودة أيضًا. وفي لحظة أخرى، وضع يده على ركبتها، كمن لا يقصد شيئًا، وبدأ يتلمّسها ببطء. عند ذاك أدركَت مارتيتا أن الرهان الطائش الذي لجأت إليه عندما حضرَت إلى المقرّ الرسمي لرأس الدولة، وتجرَّأت على مخاطبة حراس البوابة وطلب الإذن في التحدّث مع الرئيس، كان رهانًا فائزًا.

١٢

وسط الظلال المُخيِّمة على الرواق، جاء صوت مصدره شخص ينزل على الدَّرَج، فجأة. كان جنديًا، يحمل بندقية.

خرج إنريكي للقائه، وحين رآه الجندي يحمل شارات مُقدِّم، وقف في وضع انتباه، وأدَّى التحية العسكرية، بينما استحوذَت عليه مفاجأة شديدة.

ـ من أنت؟ ـ استجوبه إنريكي، مفعمًا بالطاقة.

ـ الجندي روميو باسكيس سانتشيس، في خدمتك ـ ضرب الفتى كعب حذائه، ووقف بثبات شديد، ناظرًا إلى الأمام.

ومن مكانه وسط الظلال، تأكَّد الدومينيكاني أنه شاب في مقتبل العمر، مراهق، لا بد أنه بلغ سنَّ التجنيد منذ عهد قريب جدًّا.

ـ نُصّبتُ حارسًا بالأعلى، في الشرفة يا سيدي المُقدِّم. ـ قال في رهبة، وإن صار الآن أكثر هدوءًا. تعرَّف بصاحب الرتبة الأعلى منه، فأوضح له قائلًا ـ: نزلتُ أتحقّق من وصول باقي الجنود. إلاَّ أنهم لم يصلوا بعد. شيء غريب يا سيدي، لأن موعد تبديل الحراسة كان في السابعة، كالمعتاد. ولكنهم لم يصلوا، بل جئتُ أنا وحدي، ولا أحد سواي في المقر. أعني، باستثناء الطاهية والخادمات. وحراس البوابة، في الشارع.

ـ أجل، غريب جدًا، سأذهب للتحقّق مما وقع فورًا. ـ أومأ إنريكي ـ لا يمكن أن يبقى البيت الرئاسي بلا حراسة دقيقة واحدة.

ـ لم يسبق أن حدث شيء كهذا قطّ يا سيدي. ـ أردف الجندي، محافظًا على وضع الانتباه طوال الوقت ـ ولذا نزلتُ أتحقَّق مما يجري.

ـ سأهتمُّ بالأمر. ـ قال إنريكي ـ عُد إلى موقعك ولا تتحرَّك من هناك. أنت في الشرفة العلوية، صحيح؟

ـ أجل، سيدي. ـ ثم كرَّر في حيرة ـ: حتى الآن، لم يسبق أن حدث شيء كهذا قطّ يا سيدي المُقدِّم.

أدَّى التحية ثم دار على عقبَيْه وشرع في صعود الدَّرَج. مضى إنريكي في أثره. لبث الدومينيكاني مختبئًا وسط ظلال الرواق. وأرهف أذنَيْه جاهدًا حتى يسمع ما يجري بالأعلى، ولكنه لم يسمع شيئًا عدا صوت ارتطام مكتوم تناهى إلى سمعه بعد حين، وكأن أحدهم سقط على الأرض، جاء متبوعًا بصمت طويل، أحسّ الدومينيكاني خلاله وكأنه يسمع خفقات قلبه. وأخيرًا، رأى إنريكي ينزل الدَّرَج وبندقية الجندي بين يدَيْه.

ـ قضي الأمر. ـ سمعه يقول وهو يمدّ له السلاح ـ لم ينتبه حتى لما جرى.

ـ لم أسمع دويَّ الرصاصة. ـ همس الدومينيكاني.

ـ مسدسي مُزوَّد بكاتم صوت. ـ قال الآخر شارحًا. ثم أضرم القدَّاحة ليتحقَّق من الساعة ـ لا أظنّهما سوف يتأخَّران كثيرًا.

وبهدوء، رآه الدومينيكاني يشعل سيجارة وينفث الهواء على شكل حلقات. بدا في غاية الهدوء.

١٣

«لم يقتصر الجنون على غواتيمالا»، فكَّر دكتور إفرين غارسيا أرديليس. «لم يقتصر الجنون عليَّ أنا وجميع أبناء وطني. بل إن العالَم بأسره قد جُنَّ جنونه. ولا سيما الولايات المتحدة». أطفأ الراديو. كان الموكب قد انتهى منذ قليل، وطبقًا لما أعلن المذيع، هتف آلاف الأمريكان للكولونيل كارلوس كاستيّو أرماس، الذي أعرب عن امتنانه مُتأثِّرًا بوريقات الزينة المُلوَّنة التي نُثِرَت عليه في نيويورك، في حين مضى هو واقفًا في سيارته المكشوفة مع زوجته المحترمة، الراقية، السيدة أوديليا پالومو دي كاستيّو أرماس...

كان ذلك في مطلع نوفمبر من عام ١٩٥٥، الفترة التي تخلَّلَتها البرودة ليلًا. كانت الريح تهبُّ في بعض الأمسيات، فتطرد الطيور التي تهبط لتنهل من الغدران والبرك في مدينة غواتيمالا العتيقة. بَيْد أنها لم تكُن قسوة الطقس هي التي تركَت دكتور غارسيا أرديليس في تلك الحالة من القنوط، ولا وضعه العائلي، ولا هجران زوجته منذ ثمانية أشهر، زوجته التي صارت الآن عشيقة الرئيس كاستيّو أرماس. ولا حتى بكاء الطفل في الحجرة المجاورة، ذلك الطفل الذي لا يتجاوز عمره الخمسة أعوام، ويحمل اسمه ولقبه، ويُعَدّ هو ابنه طبقًا لجميع المُؤشِّرات. ولا كان السبب في حالته المكتبة التي سلبه مُحقِّقو محاكم التفتيش الجديدة عددًا كبيرًا من محتوياتها. إذ جاء ثلاثة من رجال الشرطة ليُطهِّروا

المكتبة، اثنان منهم بالثياب المدنية وواحد بالزي الرسمي. أوضحوا له أن اسمه مُدرَج في إحدى «القوائم السود»، وأن لديهم أوامر بتفتيش البيت. كانت الكتب التي أخذوها مزيجًا عبثيًا يفضح جهل أولئك المساكين وغباء رؤسائهم.

ولكن الشيء الذي ثبَّط همته هو النجاح الكبير الذي لاقته جولة الرئيس كاستيّو أرماس في الولايات المتحدة، طبقًا لما سمع من فوره عَبْر الإذاعة.

عندما انتصرَت ثورة التحرير، في أواخر ١٩٥٤، سُجِن دكتور غارسيا أرديليس خمسة عشر يومًا في ثكنة عسكرية، وقبل ذلك يومَيْن في مركز تدريب حيث أُعفِي بمحض معجزة (أو بأوامر كاستيّو أرماس نفسه؟) من الركلات والصعقات الكهربائية التي كانت تلجأ إليها قوات التحرير في التعذيب حتى تعلو صرخات القادة النقابيين والفلاحين الأمّيين من فرط الألم، وهم لا يفهمون مما يجري شيئًا. لم يكُن المُعتقلون يخضعون للتعذيب في حصن سان خوسيه دي بوينا بيستا، وإنما اقتصر الأمر على الإعدام رميًا بالرصاص. وهكذا أحصى إفرين ما لا يقلّ عن نصف دزينة من أحكام الإعدام التي نُفِّذَت على مدى الأسبوعَيْن اللذين أمضاهما هناك. أو لعلّهم كانوا يتظاهرون بذلك لبثّ الرعب في نفوس السجناء السياسيين؟ لدى عودته إلى البيت، حيَّته زوجته مارتا على مضض. هل كانت بالفعل تخطِّط للهروب الذي نفَّذَته بعد شهور؟

بدَّلَت غواتيمالا جلدها في أسبوعَيْن وحسب، فبدا وكأن كل أثر لنظام خاكوبو أربينس قد انمحى، وانبثق مكانه بلد محموم، يخيِّم عليه الهوس القومي بصيد الشيوعيين، الحقيقيين منهم والمزعومين. كم شخصًا تقدَّم بطلب اللجوء إلى سفارات أمريكا اللاتينية؟ المئات، بل

وربما الآلاف. وطوال ما يقرب من ثلاثة أشهر، رفضَت الحكومة أن تمنح اللاجئين إذنًا بالمرور، زاعمةً بأنها فعلَت ما فعلَت نزولاً عند طلب السي آي إيه، مُتذرِّعة بحجة مؤدّاها أنهم «قتلة وعملاء شيوعيين قد يحملون معهم وثائق حساسة من شأنها إثبات نية الاتحاد السوفييتي في تحويل غواتيمالا إلى تابع له». يومًا بعد يوم، أسبوعًا تلو آخر، كانت بائعات السوق يتظاهرن أمام سفارات المكسيك وتشيلي والبرازيل - مطالبات بتسليم مئات اللاجئين إلى الشرطة لمحاكمتهم على ما اقترفوا من جرائم في غواتيمالا - بقيادة كونتشا إستيبيس، التي كانت من أنصار أربينس في ما مضى، وصارت الآن من أنصار كاستيّو أرماس المُتشدِّدين. كما أفادت سفارة الفاتيكان بأنها سوف تُسلِّم اللاجئين لديها، ولكن يبدو أنها تخلَّت عن موقفها استجابةً لتنديد سفراء المكسيك والبرازيل وتشيلي أوروغواي. قيل إن المئات أو الآلاف من الأشخاص قد لاذوا بالهرب في شتّى أنحاء البلد أو تواروا عن العيون في بيوت الأصدقاء أو الجبال، حيث مكثوا يترقَّبون ريثما تهدأ الهيستيريا. في الرابع والعشرين من يونيو، نشرَت صحيفة الدياريو دي سنتروأميريكا خبر اغتيال عدد من أعضاء اللجان الزراعية في تشيكيمولا وساكابا وإيسابال. وفي أواخر عام ١٩٥٤، نشرَت لجنة الدفاع الوطنية المناهضة للشيوعية قائمةً تضمّ اثنين وسبعين ألف شخص، وأكَّدَت أنهم يعملون لصالح الاتحاد السوفييتي في غواتيمالا، كما أعلنَت أن القائمة قد تطول حتى يصل عدد الأسماء إلى مئتي ألف على وجه التقريب. أما سفير المكسيك، پريمو بيًّا ميتشيل، فقد رفع احتجاجًا رسميًا، اعتراضًا منه على الردّ الصفيق الذي تلقَّاه من خورخي دِل بايّيه ماتيو، وزير التعليم الجديد في حكومة الكولونيل كاستيّو أرماس، إذ توجَّه السفير إليه كي يتوسَّط لبعض اللاجئين، فأجابه الوزير قائلاً: «نحن ديكتاتورية ونفعل ما يحلو لنا».

سرَت الشائعات بصنوفها كافة، شائعات لا يمكن التحقّق من

صحتها، مثل شروع الحكومة في توزيع المدافع الرشاشة على أصحاب المزارع حتى يقيموا العدل بأيديهم لو استمرَّ الفلاحون في الاستحواذ على أراضي الإصلاح الزراعي، على الرغم من إبطال جميع أحكام نزع الملكية وتوزيع الأراضي. ماذا فعل الآلاف من أهل غواتيمالا، أولئك الذين حفل بهم منتزه سنترال منذ ما لا يزيد على أسابيع قليلة، حيث طفقوا يهتفون باسم خاكوبو أربينس وثورة أكتوبر؟ كيف يمكن أن تتبدَّل مشاعر شعب كامل بتلك الطريقة؟ ذلك شيء عجز غارسيا أرديليس عن فهمه.

بعد وصول الكولونيل كاستيّو أرماس إلى سدة الحكم بزمن يسير، عمد إلى تشكيل لجنة الدفاع الوطنية المناهضة للشيوعية، واختار لإدارة اللجنة خوسيه برنابيه ليناريس، ذلك الشخص الذي يكفي ذكر اسمه لإثارة القشعريرة في أبدان الغواتيماليين من فئة عمرية بعينها، القاتل الجلَّاد الذي أدار الشرطة السرية على مدى ثلاثة عشر عامًا هي عمر ديكتاتورية الجنرال خورخي أوبيكو كاستانييدا. كانت اللجنة آنفة الذكر هي التي بدأت محارق الكتب على قارعة الطريق، العادة التي استشرَت في جميع أنحاء البلد مثلما يستشري الوباء، حتى بدا وكأن عهد الاستعمار قد بُعِث من جديد، لمَّا كانت محاكم التفتيش تذود عن صحيح الدين بالنار والدماء. وهكذا طُهِّرَت جميع المكتبات العامة وبعض المكتبات الخاصة، شأن مكتبته، من الأعمال الإرشادية الماركسية، والأعمال المعادية للكاثوليكية، والكتب الإباحية (في حالته، صُودِرَت جميع الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية على سبيل الاحتياط) فضلًا عن أشعار روبِن داريو وقصص ميغيل أنخِل أستورياس وبارغاس بيلا. في حصن سان خوسيه دي بوينا بيستا، خضع غارسيا أرديليس للتحقيق ليل نهار على أيدي الضبَّاط الشباب الذين سعوا إلى التثبّت من اتصاله بروسيا والشيوعية الملحدة. «لم أتعرَّف بشيوعي واحد مدى

الحياة»، هكذا راح يردِّد عشرات المرات طوال الأسبوعَيْن اللذين أمضاهما في ذلك المكان. «ولم أتعرَّف بروسي واحد، حسبما أذكر على الأقل». وأخيرًا، صدَّقه المُحقِّقون. أو لعلَّهم لم يصدِّقوه، ولكنهم أخلوا سبيله على كل حال. ربما أطلقوا سراحه تلبيةً لأوامر عليا. هل أصدرها كاستيّو أرماس نفسه، رفيقه القديم في رياضة كرة القدم؟ بدَت معاداة الشيوعية التي استحوذَت على البلد وكأنها موجة من موجات الطاعون التي كانت تضرب المدن الأوروبية في العصور الوسطى، وتدفعها إلى الجنون من فرط الذعر. بل إنها، بإخلاء سبيل إفرين من الثكنة، كانت قد زادَت حدة.

أعادت الحكومة الجديدة ليونايتد فروت جميع الأراضي البور التي أُمِّمَت بمقتضى قانون الإصلاح الزراعي في عهد حكومة أربينس، وأبطلَت الضرائب على أملاك الإقطاعيين، أبناء البلد منهم والأجانب على حدٍّ سواء. واستعادت قوات الشرطة والجيش تلك المزارع التي سبق أن سلَّمَتها لنصف مليون من الفلاحين، باستخدام القوة كلّما دعَت الحاجة. كما حُلَّت الجمعيات التعاونية الزراعية، واتحادات الفلاحين. والشيء العبثي أن عددًا كبيرًا من الجمعيات الدينية التي أُنشِئَت في الأعوام العشرة الأخيرة، والتي تولَّت العناية برفات شفعاء القرى من القديسين، قد حُلَّ أيضًا.

كُرِّم رئيس الأساقفة ماريانو روسيل إي أريَّانو عن الدعم الذي قدَّمه لثورة التحرير، كما نُصِّب مسيح إسكيبولاس «جنرالاً في جيش التحرير الوطني»، وخُلِعَت عليه جميع أوسمة الرتبة العسكرية. في غواتيمالا، عاد التاريخ إلى الوراء بأقصى سرعة، ماضيًا في سبيله إلى النظام القبلي والهزلي. «أترجع العبودية قريبًا؟»، تساءل دكتور إفرين غارسيا أرديليس. ولكن الدعابة لم تبدُ له على أدنى قدر من الطرافة.

استمرَّت الملاحقة بكل قوة، ملاحقة أولئك الذين قدَّموا العون

لحكومتَي خوان خوسيه أريبالو وخاكوبو أربينس، بطريقة أو بأخرى، وإن راح الأول ينأى بنفسه عن الثاني على مدى الشهور التالية، بهدوء. وفي الخارج، احتدمَت ملاحقة الغواتيماليين المغتربين، ابتداءً بالرئيس السابق خاكوبو أربينس، نزولاً عند تعليمات الولايات المُتَّحدة. بل إن حكومات كثيرة رفضَت السماح للمغتربين منهم بالعمل، في حين ضاعفَت حكومة كاستيّو أرماس طلبات إعادة المغتربين الذين اتَّهمَتهم باقتراف الجرائم وارتكاب السرقات.

خسر دكتور غارسيا أرديليس منصبه في مستشفى سان خوان دي ديوس، وخلَت عيادته الخاصة من المرضى. قبل ذاك، كانت الشبهات تحوم حوله بسبب أفكاره. ثم دُمِّرَت سمعته تمامًا عقب الزجّ به في السجن. لم يعُد مدعوًا إلى بيوت الأسر الكريمة في غواتيمالا. أو لعلَّ زواجه في السرّ وباستعجال من مارتا، ابنة دكتور بورّيرو لاماس الصغيرة، هو الشيء الذي جعله منبوذًا. لا شكّ أن كلا الأمرَيْن سبب في نبذه.

سعى إلى العمل في مستشفى روزفلت الجديد، ولكن سدى. مرَّ عليه عام وهو لا يزاول مهنة الطب إلاّ بالمجان، لصالح الفقراء والمعسرين. عاش على المدخرات. وشيئًا فشيئًا، مضى يبيع المقتنيات القيِّمة القليلة المُتبقِّية في بيته. من حسن الحظ أن والدته كانت في حالة ذهنية لا تسمح لها بإدراك شيء مما يدور حولها.

في شبابه، كان إفرين غارسيا أرديليس كاثوليكيًّا ملتزمًا. واختلى بنفسه عدة مرات في معهد اللاهوت التابع للأخوية المريمية. بَيْد أنه منذ عام وبضعة أشهر، أي منذ الثامن عشر من يونيو عام ١٩٥٤ على وجه التحديد ـ اليوم الذي عبرَت فيه قوات جيش التحرير حدودَ هندوراس بقيادة كاستيّو أرماس، ثم اجتاحت غواتيمالا، وانقضَّت على الحاميات الشرقية الصغيرة، بينما راحت طائرات التحرير المُلقَّبة بـ«السلفات»،

الآتية من نيكاراغوا، تقصف قوات النظام ومدينة غواتيمالا ـ امتنع إفرين عن الاعتراف والتناول في الكنيسة. بل إنه فقد الإيمان بالرَّب منذ هجرَته زوجته الشابة. شعر بنفور من الشراسة والوحشية اللتين أظهرَتهما الكنيسة الكاثوليكية ـ ولا سيما رئيس الأساقفة ماريانو روسيل إي أريَّانو ـ في دعم تلك الحملة على صفحات منشورات الكنيسة ومن خلال العظات الدينية في جميع الأبرشيات. وروَّعه ما فعل رئيس الأساقفة بمسيح إسكيپولاس الأسود. بطبيعة الحال، احتفَت الكنيسة بإقفال أبواب المحفل الماسوني الكبير في غواتيمالا، في مداهمة عسكرية ضخمة شنَّتها حكومة كاستيّو أرماس. والآن، لم يعُد إفرين يعرف ما إذا كان يؤمن أم لا يؤمن بشيء. في ساعات الفراغ، بدلاً من قراءة القديس أوغسطينوس والقديس توماس الأكويني، كما في سابق عهده، بات ينغمس في نيتشه، واحد من الكُتَّاب الذين نجَت أعمالهم من المحرقة على نحو غامض. «لقد جُنّ جنوننا جميعًا»، مضى يكرِّر بين الحين والآخر. كيف يمكن لحكومتي خوان خوسيه أريبالو وخاكوبو أربينس غوسمان، بإصرارهما على وضع نهاية الإقطاعية في غواتيمالا وتحويل البلد إلى ديمقراطية ليبرالية رأسمالية، أن تثيرا مثل هذه الهيستيريا في الولايات المتحدة ويونايتد فروت؟ له أن يتفهَّم السخط الذي اندلع بين أصحاب المزارع الغواتيماليين، لأنهم مُجمَّدون في عصور ماضية. وطبعًا، له أن يتفهَّم موقف شركة «فروتيرا»، تلك التي لم يسبق لها سداد الضرائب قطّ. ولكن، ماذا عن واشنطن! أتلك هي الديمقراطية التي يريدها الغرينغو لأمريكا اللاتينية؟ أتلك هي الديمقراطية التي بشَّر بها روزفلت في خطاباته عن «حسن الجوار» بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية؟ ديكتاتورية عسكرية في خدمة ثلة من الإقطاعيين الجشعين العنصريين وشركة أمريكية كبرى؟ أمن أجل هذا قصفَت طائرات «السلفات» مدينة غواتيمالا، وقتلَت وجرحَت العشرات من الأبرياء؟

الأمر برمّته حطَّم حياته، وتركها شظايا، واجتاح آماله وإيمانه. أو ترى هذه الحال قد بدأت قبل ذاك، بسبب مغامرته التعيسة مع ابنة رفيق دراسته وصديقه الحميم؟ أجل، كانت تلك هي بداية النهاية. هل يقع الذنب على عاتقه هو، أم أنه بالأحرى ضحية الشهوة اللاشعورية لتلك الصغيرة التي استفزَّته؟ هل كانت «ميس غواتيمالا» طفلة بريئة أم كائنًا جهنميًّا؟ كان يشعر بالخزي من نفسه في بعض الأحيان، لأنه يفتِّش عن الأعذار لما لا يعدو أن يكون مُجرَّد صدمة تعرَّضَت لها طفلة صغيرة على يدَي رجل شهواني في سنّ النضج، وعند ذاك يحسّ بالندم يأكله. لم يعاود رؤية دكتور بورّيرو لاماس منذ تمثيلية الزواج الذي عُقِد في مزرعة تشيتشيكاستينانغو. ولكنه علم أن صديقه السابق قد أوصد الباب على نفسه بالضبة والمفتاح، بل إنه أقفل مكتب المحاماة الخاص به أيضًا، واكتفى بالاستمرار في إلقاء محاضرات القانون بجامعة سان كارلوس. ما عاد يُشاهَد في اللقاءات الاجتماعية إلاَّ في ما ندر. وبطبيعة الحال، أمسك عن ترتيب لقاءات الروكامبور التي كانت تملأ البيت بالأصدقاء مساء السبت. كان إفرين وزوجته ينامان في حجرتَيْن منفصلتَيْن، حتى ولَّت مارتا هاربة وهجرَته هو والطفل معًا. بل إنه لم يطارح زوجته الغرام مرة واحدة منذ عقد زواجهما الكاهن أويّوا. هل كان هذا زواجًا؟

في الأيام الأخيرة، تعمَّقَت حالة المزاج العكر وخمود الهمة بسبب الزيارة الرسمية التي يجريها في هذه اللحظة رئيس الجمهورية، كولونيل كارلوس كاستيّو أرماس، إلى الولايات المتحدة. غطَّت وسائل الإعلام والإذاعة المحلية تلك الجولة ليل نهار، كما لو كانت حدثًا عالميًّا. ألهذا السبب استغرق في اليأس؟ ولمَ؟ أي عصب لمسته في روحه تلك الواقعة على وجه التحديد؟ ألم تكُن في العالم حوادث أخطر منها بألف مرة؟ تابع ذلك الاستقبال الاستثنائي الذي قُوبِل به الرئيس عَبْر الصحافة

والإذاعة. لم يقتصر الجنون على غواتيمالا، وإنما امتدّ إلى الولايات المتحدة أيضًا. أو تراه هو الذي فقد عقله وحده، ولم يعُد يفهم شيئًا مما يجري، شأن نصف مليون من الهنود، منحهم أربينس الأراضي الزراعية التي صارَت تُنتزَع منهم الآن رميًا بالرصاص؟

كان الرئيس أيزنهاور محتجزًا في المستشفى إثر الأزمة القلبية التي تعرَّض لها، فذهب نائب الرئيس ريتشارد نيكسون لاستقبال كاستيّو أرماس وزوجته في مطار واشنطن، وقد أحاط به لفيف من أصحاب المقام الرفيع في حكومة الولايات المتحدة. انطلقَت واحد وعشرون طلقة مدفع احتفاءً بوصول رئيس غواتيمالا، وأقيم موكب عسكري مشهود. في الخطابات والصحف ـ وحتى في نيويورك تايمز! ـ دار الحديث عن كاستيّو أرماس بوصفه البطل، مُخلِّص الحرية في أمريكا الوسطى، النموذج الذي يجب على العالَم أن يقتدي به. هكذا جاء في كل الخطابات التي ألقِيَت ترحيبًا به في البلد الشمالي العظيم. كان كاستيّو أرماس يخرج إلى الشارع فيُقابَل بالتصفيق، ويُطلَب منه توقيعه، وتُلتقَط الصور معه، ويعرب له الناس العاديون عن امتنانهم لأنه قد حرَّر وطنه. ممَّ حرَّر وطنه؟ وممَّن؟ اضطُرّ دكتور غارسيا أرديليس إلى إغماض عينَيْه مُتأثِّرًا بضرب من الدوار. كيف يمكن لذلك الرجل الهزيل التافه، صاحب ثورة التحرير المزعومة، أن يترك أثرًا كبيرًا كهذا في الولايات المتحدة؟ لم يقتصر الأمر على الحكومة، بل إنه قد نال الدكتوراه الفخرية من جامعات مرموقة مثل فوردهام وكولومبيا. وخلال الأسبوعَيْن اللذين استغرقَتهما الزيارة الرسمية، تلقَّى دعوة إلى كولورادو حتى يعانقه الرئيس أيزنهاور شخصيًا في مستشفى فيتزسيمونز العسكري، ويهنّئه لأنه قد انتزع غواتيمالا من بين مخالب الدبّ الروسي. كم شيوعيًا كان في غواتيمالا بخلاف تلك الحفنة من أنصار الحزب العمالي الغواتيمالي في المجلس الذي كان يضمّ ستين عضوًا ثم حُلَّ بعد انتصار الثورة المضادة؟ قلة

قليلة. لم يعرف لهم عددًا. ولكن، لا بدّ أنهم أقلية بلا أدنى أهمية. قطع دكتور غارسيا أرديليس الخطاب الذي أُلقِي على العشاء الرسمي، وحيًا فيه ريتشارد نيكسون ذلك «الجندي الباسل الذي قاد ثورة بلاده على الديكتاتورية الشيوعية المُزوِّرة الفاسدة». أي ثورة؟ أي شعب هو ذلك الذي ثار؟ استُقبِل كاستيّو أرماس في الكونغرس بواشنطن، حيث قابله أعضاء مجلس الشيوخ والنواب الأمريكان في جلسة مشتركة بالتصفيق المُدوِّي.

هل يكمن التاريخ في تشويه الواقع؟ هل يكمن التاريخ في تحويل الوقائع المُحدَّدة إلى أساطير وخيالات؟ أيكون ذلك هو التاريخ الذي نقرأه وندرسه؟ الأبطال الذين نعجب بهم؟ ذلك المزيج من الأكاذيب التي صارت حقائق بفعل مؤامرات عملاقة حاكها أصحاب السطوة ضد التعساء من أمثاله وأمثال «وجه الفأس»؟ أيكون أولئك المُهرِّجون هم الأبطال الذين تمجِّدهم الشعوب؟ أحسَّ بضرب من الدوار، في حين بدا رأسه وكأنه على وشك الانفجار. «ربما كنتَ مجحفًا بحق كاستيّو أرماس»، أعاد النظر، وسط الضباب. «ما دام هو الذي أنقذ حياتك بنفسه وأخرجك من تلك الثكنة حيث كان من المُحتمَل أن يرقد جثمانك، فأنت جاحد. تكيل السباب لرفيق كرة القدم القديم، الذي كان يشاركك اللعب أيام السبت، ثأرًا لفشلك في الحياة وإخفاقاتك المهنية والعائلية. تراك تشعر نحوه بالحسد؟». كلَّا، لم يكُن ذلك شعورًا الحسد. لأن الشعور بالحسد نحو الآخرين على انتصاراتهم لم يكُن واحدًا من آفاته، الكثيرة من دون شك.

ومرة أخرى، تناهى إلى سمع دكتور إفرين غارسيا أرديليس بكاء ذلك الطفل الذي يحمل اسمه، آتيًا من الحجرة المجاورة. أيكون ابنه؟ رسميًا، هو ابنه، بالنظر إلى لقب العائلة، ولأنه ابن مارتيتا بورّيرو بارا أيضًا، التي صارت تحمل لقب عائلته وتُدعَى مارتا دي غارسيا أرديليس،

تلك الصغيرة التي ما كان يجدر به أن يشاركها الفراش ويرتكب الفعلة الوحشية التي تأكَّد له أنه سوف يدفع ثمن عواقبها مدى الحياة. ولكن، هل كان هو المذنب حقًّا؟ ها هو ذا يعود إلى تلك الطريقة اللعينة في اختلاق الأعذار، وتحميل الصغيرة المسكينة وزر أخطائه. لقد اعترف بالطفل لأنه رجل شهم. وإن كان ما اقترفه حين ترك فتاةً حبلى، وهي لا تزال في الخامسة عشرة من العمر، يشهد له بغير ذلك ويُظهِره أمام العالم كائنًا مؤذيًا وشريرًا ونذلاً يستغلّ الأطفال جنسيًا. هل كان كل شيء في حياته مهزلة تشبه مهزلة كاستيّو أرماس؟ شعر برغبة في البكاء، شأن ذلك الطفل الذي تحاول الخادمة إسكاته في الحجرة المجاورة. كان طفلاً طبيعيًا إلى حدٍّ كبير، يحصل على تقديرات جيدة في روضة الأطفال، ويتسلّى باللعب وحيدًا، ولا سيما بلعبة الكرات والدمى وبترقيص النحلة الدوّارة. قريبًا يتمّ السادسة من العمر. غير أنه لم ينَل المعمودية. سُجِّل في البلدية باسم إفرين. ولكن سيمولا، التي تحضر لرؤيته بين الحين والآخر، تناديه بلقب «ترينسيتو»[1] طوال الوقت.

على الرغم من حملة التطهير التي شنّها أنصار حركة التحرير، فما زال المكتب الصغير الذي يطيل المكوث فيه كل يوم زاخرًا بالكتب، في الطب، والفلسفة أيضًا، شغفه الموازي الذي ولع به منذ سنوات الدراسة. بَيْد أنه لم يعُد قادرًا على القراءة إلاّ بمشقّة. كان يحاول، فلا يجد التركيز الكافي ولا آمال الماضي، عندما كان يؤمن بأن مطالعة الجيد من الكتب سوف تثري معارفه وترهف حساسيته وتجعله رجلًا أقرب إلى الكمال، وترفّه عن نفسه أيضًا. أما زيارة كاستيّو أرماس إلى الولايات المتحدة، فلقد أغرقَته أكثر وأكثر في اختلال الأعصاب الذي انجرفَت إليه حياته منذ بدأ يجيب عن الأسئلة التي كانت «ميس غواتيمالا» الجميلة

(١) ترينسيتو («Trencito»): تعني القطار الصغير باللغة الإسبانية. (المترجم)

تطرحها في السياسة خلال جلسات لعبة الروكامبور في العطلات الأسبوعية ببيت صديقه السابق أرتورو، من سوء حظه.

لم يكترث بهجرانها. فهو لم يحبّها يومًا. «ولا هي أحبَّتني»، فكَّر. ولكن ما جرى هو بداية الانهيار والسقوط في تلك الهاوية التي لن يخرج منها أبدًا، كما أيقن إفرين غارسيا، وقع الذنب على عاتقه أو لم يقع.

لا بد أنه في عمر كارلوس كاستيّو أرماس، أو من الجيل نفسه. تعرَّف به إفرين وهما لا يزالان طالبَيْن، وإن لم يلتحقا بالمدرسة نفسها، ذلك أنه وأرتورو ذهبا إلى مدرسة الأخوية المريمية، سان خوسيه دي لوس إنفانتِس، التي لم تكُن تقبل الأطفال المولودين خارج إطار الزواج، أي اللقطاء ـ كذلك الفتى الهزيل النحيل الحزين الذي يحوم حول ملعب الكرة الخاص بالأخوية المريمية أيام السبت والأحد ـ شأنها في ذلك شأن جميع المدارس الكاثوليكية التي يلتحق بها أبناء الأسر الكريمة في غواتيمالا.

حكى له كارلوس حكايته بنفسه، وأخبره بأن والده لم يتزوَّج من أمه، إذ كانت له أسرة أخرى، أسرة بحقّ. أما إفرين وأمه، فكانا يعيشان «في حمايته»، لا أكثر. حاول والده أن يلحقه بمدرسة الأخوية المريمية، فقُوبِل الالتماس بالرفض نظرًا لأنه ابن الخطيئة. ولهذا التحق بمدرسة حكومية. أفضى إليه بكل شيء في عفوية، من دون ضغائن ولا عُقَد. فشعر نحوه إفرين بمودة، وأقنع رفاقه بالسماح له بلعب كرة القدم معهم في تلك العطلات الأسبوعية التي كانوا ينفقونها في ممارسة الرياضة. «لعلّني ما زلتُ على قيد الحياة بفضل ذلك العمل الصالح»، دار في خلده. «هوذا الدليل. إذن، فأنت لم تكُن وغدًا كما ظنّك الآخرون، ولا سيما أرتورو».

كان كارلوس يبدو شخصًا طيبًا آنذاك، حسبما ذكر إفرين، الذي شعر بالأسى لرؤيته يتجشَّم اضطهاد مجتمع مجحف، ويُضطَرّ إلى العيش

مواطنًا من الدرجة الثانية طوال الوقت، مُهمَّشًا، محرومًا من وراثة أراضي العائلة، التي آلَت بالكامل إلى أشقائه الشرعيين، عقابًا له على الإثم الذي اقترفه والداه («ومَن هذا الذي يتحدَّث عن الإثم يا إفرين!»). كان كارلوس هزيلاً، يفتقر إلى اللياقة، فبدا غير مُؤهَّل للعسكرية. أما إفرين، الذي كان يلتقي به في الشارع - ثم يتردَّد معه إلى سينما لوكس أو كاپيتول أو باريداديس لمشاهدة أفلام رعاة البقر المكسيكية، أو أفلام ماريا فيليكس أو إلسا أغيرّي أو ليبِرتاد لاماركي، وحضور مباريات بطولة كرة القدم القومية - فلقد تملَّكَته المفاجأة حين أخبره كارلوس بأنه سوف يتقدَّم للالتحاق بالمدرسة الفنية العسكرية. أيحصل على رتبة كاديت، هو؟ لعلَّه اتَّخذ قراره لأسباب عملية. ذلك أنه ما كان ليتمكَّن من شقّ طريقه وتحقيق النجاح يومًا في مجتمع غواتيمالا المُتزمِّت المُثقَل بالأحكام المسبقة، وهو الذي تكبَّد التهميش على أيدي جميع العائلات الثرية لمُجرَّد أنه ابن غير شرعي، وسُدَّت في وجهه كل السبل.

في المدرسة العسكرية، زامل خاكوبو أربينس، الذي بات رئيسًا، ثم أطاح به كاستيّو أرماس، وجرَّعه المذلة المُتمثِّلة في تعريته بالمطار وتصويره على تلك الحال، بينما كان أربينس في سبيله إلى المنفى - بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر أمضاها لاجئًا في سفارة المكسيك - «للتأكّد من عدم حيازته أي مقتنيات ذات قيمة»، كما زعمَت الصحافة المُتحدِّثة باسم النظام، التي صارت هي الصحافة المُتحدِّثة باسم البلد بأسره. ثم أمر كاستيّو أرماس بمصادرة جميع ممتلكات خاكوبو أربينس، بما فيها مزرعة الكاخون، وحتى حسابات الادخار الخاصة به.

قلّما التقى كارلوس بإفرين، عندما كان أولهما طالبًا في المدرسة العسكرية. بين الحين والآخر، في الأيام التي يُسمَح له بالخروج خلالها، كان يتَّصل بإفرين، الذي انشغل كثيرًا بدراسة الطب، فيتقابلان لتناول قدح من البيرة وتجاذب أطراف الحديث في حانة غرانادا ما توافرت

لديهما النقود، وإلاً ففي حانة صغيرة بجوار سوق سنترال. حافظا على صداقة عرضية متباعدة. عرف إفرين أن مسيرة كارلوس في الجيش كانت أقرب إلى الضحالة. وتلقّى منه دعوة لحضور حفل التخرّج، فتعرَّف يومذاك بأم كارلوس، خوسيفينا كاستيّو، المرأة البسيطة التي كانت ترتدي ثوب ويپيل تقليديًا مُوشًى برسم يصوِّر طائر الكيتسال وتنورة طويلة مشدودة بزنار قروي، تلك المرأة التي أجهشَت بالبكاء حين تسلَّم ابنها سيف الملازم الثاني. أما والده، فلم يحضر الحفل، طبعًا.

لم يعُد أحدهما يلتقي بالآخر. وبعد مضي زمن طويل، عرف إفرين أن كارلوس أمضى ثمانية أشهر بالولايات المتحدة، في كلية القيادة والأركان العامة للجيش الأمريكي، في فورت ليڤنوورث، كانساس، حيث درس تكتيكات مكافحة التمرّد إبان الحقبة التي اندلعَت خلالها ثورة أكتوبر عام ١٩٤٤، الثورة التي يرجع إليها الفضل في عقد أول انتخابات حرة في غواتيمالا، عندما وصل الأستاذ خوان خوسيه أريبالو إلى سدة الحكم. ثم التقى به إفرين مرة أخرى بعد أن رجع إلى غواتيمالا بوقت طويل، ونُصِّب مدير المدرسة الفنية العسكرية. ومنذ ذلك الحين، صارا يلتقيان من آن إلى آخر في المناسبات الاجتماعية، فيتبادلان التحية ويتحدَّثان عن حياتهما سريعًا، ويلقيان بضع دعابات، ثم يتّفقان على الاتصال، وإن لم يتَّصل أحدهما بالآخر قطّ. حين تزوَّج كارلوس من أوديليا، تلقَّى إفرين دعوة إلى حفل الزفاف، فأرسل إليهما هدية جميلة. كيف كانت مسيرة كارلوس في الجيش؟ كانت مغمورة إلى حد كبير، إذ راح يبدِّل ثكنة بأخرى، في جميع أرجاء البلد، ويترقَّى ببطء عن المدة التي قضاها في الخدمة، من دون أن يبدي من التألّق الكثير. بخلاف مسيرة زملائه في الدفعة، من أمثال خاكوبو أربينس أو فرانسيسكو خابيير أرانا اللذين دار الحديث عنهما آنذاك باعتبارهما من قادة المُؤسَّسة الوارد ترشّحهم للرئاسة في المستقبل.

سمع إفرين عن كارلوس مرة أخرى حين اشتعل الخلاف بين أربينس وأرانا، فانحاز كارلوس علانيةً إلى أرانا، الذي سبق أن شمله بحمايته في الجيش. وعندما اغتيل الكولونيل فرانسيسكو خابيير أرانا، في تلك المناوشة الغريبة التي اندلعَت في الثامن عشر من يوليو عام ١٩٤٩ فوق جسر غلوريا، عمد كارلوس كاستيّو، المُقدِّمُ قائد حامية ماساتينانغو آنذاك، إلى اتهام الحكومة، ولا سيما خاكوبو أربينس، بالتواطؤ والقتل. بعد حين، سطع نجمه سطوعًا خاطفًا لمَّا قاد هجومًا على حامية آورورا، في الخامس من نوفمبر عام ١٩٥٠، مع أن الهجوم قد مُنِي بالإخفاق، وخلَّف عددًا من القتلى، كما أصيب قائده إصابة غائرة. نجا من الدفن حيًّا بمعجزة. فبعد أن حسبه الجنود جثةً هامدة، وكادوا يطرحونه في مقبرة ملأى بالقتلى، انطلق في الأنين كاشفًا لهم أنه ما زال على قيد الحياة. («ليتهم دفنوه!»، فكَّر دكتور غارسيا أرديليس. ولكنه ما لبث أن تراجع عن فكرته: «لو دُفِن هو لكنتَ الآن ميتًا أو بقيتَ في السجن زمنًا لا يعلم إلاَّ الرَّب مداه»). أنقذوه، بَيْد أن حكومة خوان خوسيه أريبالو سرَّحَته من الجيش، وحكم عليه القضاة بالإعدام، الحكم الذي تأجَّل مرارًا، حتى ذاع صيته في جميع أرجاء البلد بسبب هروبه من السجن في الحادي عشر من يونيو عام ١٩٥١. كانت لقصة هروبه نسختان. فزعم أنصاره أن كاستيّو أرماس ورفاقه عاشوا مغامرة أشبه بتلك التي خاضها كونت دي مونت كريستو، وشقّوا نفقًا سريًّا طويلاً قادهم إلى الحرية، في حين زعم أعداؤه أن الهاربين قد اشتروا السجانين بالنقود، ثم خرجوا من أبواب السجن وهم بمأمن من كل خطر. لجأ إلى كولومبيا، ثم هندوراس، حيث نذر نفسه جسدًا وروحًا للتآمر على حكومة خاكوبو أربينس. وهناك أسَّس ما يُسمَّى بـ«حركة التحرير الوطنية»، وعقد معاهدة ثلاثية مع الجنرال إديغوراس فوينتيس ورجل آخر مدني هو الدكتور النابغة كوردوبا سيرنا، محامي شركة «فروتيرا» القديم الذي عاون حكومة

أريبالو وشغل فيها منصب وزير، والذي قيل عنه إنه قد بدَّل أيديولوجية بأخرى تحت وطأة الألم الذي تركه في نفسه موت ابنه الأليم في مظاهرة سياسية نظَّمَتها المعارضة. ويبدو أن اختيار الولايات المتحدة ـ أو بالأحرى اختيار جون فوستر دالاس، وزير خارجية الرئيس أيزنهاور، وشقيقه ألن، رئيس السي آي إيه ـ قد وقع على كاستيّو أرماس لقيادة الثورة المضادة لأنه لم يكُن من الطبقة الأرستقراطية مثل إديغوراس فوينتيس، ولأن كوردوبا سيرنا، رجل الذكاء والوجاهة والأفكار، قد شُخِّصَت حالته في تلك الأيام على أنها إصابة بسرطان في الحلق. زِد على ذلك أن كاستيّو أرماس ربما كان يُعتبَر هو الأكثر وداعة والأسلس قيادًا بين أفراد الثلاثي، علاوة على لون بشرته وقسمات وجهه التي جعلَته يبدو أقرب إلى الهندية منه إلى اللادينو. أتلك هي المؤهلات التي جعلَته رئيس جمهورية غواتيمالا وبطل العالَم الحر؟ وجعلَته يذهب الآن إلى الولايات المُتَّحدة، حيث نال التكريم والتصفيق وقالت عنه الصحف الأوفر حظًّا من الوجاهة إنه نموذج يجدر بسائر بلدان أمريكا اللاتينية أن تحذو حذوه؟

هدأ الطفل أخيرًا. والآن، خيَّم سلام غير معهود على ذلك البيت القاتم، الذي يقع في حيِّ سان فرانسيسكو، حيث راح دكتور إفرين غارسيا أرديليس يجترّ التشاؤم واختلال الأعصاب. التقط معطفه ومظلته، ثم خرج في جولة بوسط المدينة، سيعود منها متعبًا، غارقًا في المياه، ولعلَّه يعود أكثر هدوءًا.

١٤

ظلَّ الرواق معتمًا خاليًا إلاَّ من ذلك الضوء الخافت الآتي من الخلفية، هناك حيث يقوم المطبخ وقاعة الطعام، بحسب ما أوضحه إنريكي للدومينيكاني.

ـ لقد تأخَّرا قليلاً. ـ قال إنريكي، وهو ينظر إلى ساعته مرة أخرى مستعينًا بالقداحة.

لم يحِر الدومينيكاني جوابًا. أخذ يتفصَّد عرقًا، وإن لم يكُن القيظ شديدًا. لم تستحوذ عليه مثل هذه الحالة من الغليان والترقّب وتلف الأعصاب منذ سنوات المكسيك، عندما كان يُضطَرّ إلى المشاركة في عدد من تلك الحوادث المفتعلة المفضية إلى القتل، بأمر من الجنرال الأعلى تروخيّو. على الرغم من يقينه المطلق بأن ما يجري أكثر أهمية بكثير من كل ما فعله حتى الآن لمرضاة الزعيم. من حسن الحظ أن العون الذي قدَّمه له إنريكي لعب دورًا حاسمًا. أتسير الأمور كما يحلم به إنريكي؟ كان هائل الطموح، يحسب أن حلمه بالوصول إلى رئاسة الجمهورية سوف يتحقَّق وسط الفراغ الناشئ عن الأحداث. أما هو فكانت لديه شكوكه، التي شاطره إياها مايك لاپورتا. ولكن لا مستحيل في هذه الحياة. هل حقًّا أطلق الرئيس كاستيّو أرماس على إنريكي ذلك اللقب البشع: «الحثالة»؟

ـ ها هما. ـ سمع إنريكي يهمس.

وبالفعل، كان أحد الأبواب قد انفتح عن يمينه للتوّ، وإذا بخيط من الضياء يغمر الحديقة الصغيرة التي حوَت شجرة سنط وحيدة، ثم خرج الزوجان من الباب ومضيا صوبهما بمشية وئيدة. ما دام الزوجان في سبيلهما إلى قاعة الطعام، فلا بد أن يمرّا من أمامهما، حتى يكادا يلامسانهما.

ـ ناولني البندقية. ـ سمع إنريكي يقول.

ـ أنا الذي سأفعلها. ـ أجاب الدومينيكاني من فوره، وهو يفكِّر أنه بذلك ينفِّذ أوامر الجنرال الأعلى بصورة أفضل. ثم كرَّر، وكأنه يتزوَّد بالشجاعة ـ: أنا.

ـ ارفع صمام الأمان إذن. ـ قال إنريكي، وهو يميل كي يرفع صمام الأمان بنفسه ـ ها هو ذا.

والآن مضى الزوجان في سبيلهما عَبْر الحديقة المتناهية الصغر، بينما سمع الدومينيكاني الزوجة تصيح في مفاجأة مشوبة بالسخط:

ـ لماذا لم تُضاء الأنوار؟ وأين الخدم؟

ـ والحرس؟ ـ صاح هو.

توقَّفا بحدة، وجعلا ينظران في كل اتجاه. ثم دار هو على عقبَيْه وبدا أنه يهمّ بالانطلاق عائدًا إلى داخل البيت الذي خرجا منه. ومن العتمة، صوَّب الدومينيكاني بندقيته نحوه، ثم أطلق النار، فدوَّت الرصاصة عاليًا وتردَّد صداها في الرواق. أطلق النار ثانية، وما لبث أن تعالى صراخ المرأة وبكاؤها الهيستيري، وخرَّت على الأرض قرب الرجل المُمدَّد.

ـ هيا بنا، هيا بنا، بسرعة. ـ قال إنريكي وهو يأخذ بذراع رفيقه ويسحبه خلفه. في حين ترك الدومينيكاني بندقيته على الأرض وسلَّم قياده إلى إنريكي. بخطى حثيثة جدًا، وفي ما يشبه العدو، عادا أدراجهما عَبْر الطريق الذي قطعاه داخل البيت الرئاسي. وعندما فتح إنريكي الباب

الصغير المُموَّه في الجدار، عند مفرق الجادة السادسة، وجدا هناك السيارة السوداء التي يقودها الكوبي ريكاردو بوناتشيا ليون.

ـ ها هي ذي سيارتك. ـ قال إنريكي ـ سأمهلك ساعة حتى تُخرِج «الدونيا»، لن أزيد عليها دقيقة واحدة. بعد ساعة بالتمام، أُصدرُ أمرًا بإلقاء القبض عليها.

مكتبة
t.me/t_pdf

١٥

وصل الملحق العسكري الدومينيكاني لدى غواتيمالا، الكولونيل حديث العهد چوني أبيس غارسيا، في ما يشبه السرّية. لم يخطر السفيرَ بوصوله. وإنما استقلَّ سيارة أجرة من مطار آورورا وأمر السائق بأن يقلّه إلى الجادة السادسة، إلى نزل سان فرانسيسكو، ذلك النزل الصغير الرثّ الذي لن يلبث أن يتّخذ منه مركز العمليات الخاص به. سأل موظفَ الاستقبال عما إذا كانت المدينة تضمّ معبدًا تابعًا لجماعة الصليب الوردي. ولمّا راح الموظف يرمقه حائرًا، عاجزًا عن الفهم، قال له: «لا تشغل بالك، انسَ الأمر».

بعد أن أخرج الثياب القليلة التي كان يحملها في حقيبته، وعلّقها في خزانة حجرته العتيقة، اتّصل بكارلوس غاسيل كاسترو عَبْر الهاتف، وهو يخشى ألاّ يجد هناك الشخص الوحيد الذي يعرفه في البلد. ولكن الحظ ابتسم له، فأجاب كارلوس بنفسه. كانت مفاجأته شديدة بوجود أبيس غارسيا في غواتيمالا، ولكنه ما لبث أن قبل دعوته إلى العشاء. واتّفقا على أن يمرَّ به في نزل سان فرانسيسكو في الثامنة ليلاً.

لم يكُن كارلوس غاسيل كاسترو غواتيماليًا، وإنما كوبيًا. تعرَّف به أبيس غارسيا في المكسيك، عندما التحق بتلك الدورات البوليسية، بمنحة من تروخيّو، وانخرط في التجسّس على الدومينيكان المغتربين المقيمين في المكسيك لصالح الجنرال الأعلى، أولئك الذين كان يعرفهم غاسيل كاسترو ويلتقي بهم، وهو المغترب أيضًا.

كان كارلوس غاسيل يتبجَّح بأنه الرجل الأشدّ قبحًا في العالَم، ولذا شعر أبيس غارسيا نحوه بالمودة منذ اليوم الأول: فأي شخص يبدو حسن المظهر مقارنةً بذلك المسخ، حتى أبيس غارسيا نفسه. كان غاسيل فارع القوام، متين البنيان، أبيض البشرة، ضخم الأذنين والأنف والفم، له وجه كبير غير متناسق تنتشر عليه آثار الجدري، ويدان ضخمتان كأنهما يدا إنسان الغاب: كلّها سمات إن زيدَت عليها ثيابه الاستوائية اللافتة للأنظار جعلَته يبدو بمظهر صارخ مُنفِّر. كانت عيناه المُثلَّجتان الضاربتان إلى الصفرة أسوأ ما في مظهره، عيناه اللتان تحملقان بوقاحة عدوانية إلى الناس، ولا سيما النساء. كان يمشي مثل «البلطجية»، مبديًا قوته البدنية، ويرتدي السراويل الضيقة التي تُبرِز مؤخرته. في الماضي، كان رجل عصابات في هافانا. ثم اضطُرّ إلى الهرب من البلد حتى لا يُزَجّ به مرة أخرى في السجن، هناك حيث أمضى بضعة أشهر لأنه قد لوَّث يدَيْه بالدماء. ولكن أبيس غارسيا لم يرِد أن يعرف أكثر كثيرًا مما عرف حين قابله في المكسيك وبدأ يستعين به. كان دائم الوقوع في الضائقات المالية، وهكذا نجح في الحصول على راتب شهري صغير، رصده له تروخيّو، فضلاً عن هدية خاصة يتلقّاها كلّما شارك في عملية عنيفة ضد أحد المغتربين من دون أن يترك أدنى أثر، إلى جانب مهمات التخابر. وفي وقت لاحق، اضطُرّ إلى الهرب من المكسيك أيضًا، لأن الحكومة كانت على وشك ترحيله إلى كوبا، حيث طالبَت العدالة بتسليمه. ولذا كان چوني أبيس يعرف رقم هاتفه. حصل غاسيل على وظيفة بسيطة هنا، إذ عمل «بلطجيًا» ومخبرًا لدى جهاز أمن الدولة بإدارة المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا.

مرَّ به غاسيل في الثامنة تمامًا، وذهبا لتناول العشاء في مطعم صغير، حيث شربا عددًا من قوارير البيرة قبل أن يتناولا رقائق التورتيًا والدجاج بالفلفل المُحمَّر في الفرن. علم الكوبي أن صديقه بات مُقدِّمًا في

الجيش، وأصبح في سبيله إلى شغل منصب الملحق العسكري لدى سفارة دولته في غواتيمالا، فتوهَّجَت عيناه، وعانقه مُهنِّئًا.

ـ أنا رهن أوامرك يا فتى، ما دمتُ قادرًا على خدمتك في أي شيء. ـ قال له.

ـ أنت قادر على ذلك طبعًا. ـ أجابه چوني أبيس ـ سوف أرصد لك مئتي دولار شهريًّا، بخلاف المهمات المُحدَّدة، التي سأدفع لك عنها المزيد. والآن، هيا بنا نذهب إلى أنسب مكان لجسّ نبض البلدان.

ـ لم تتخلَّ عن عادتك يا رفيق. ـ أجابه غاسيل ـ ولكن لا تعلِّق آمالاً كبرى. فبيوت الدعارة هنا أشبه بالمآتم.

كانت المواخير نقطة الضعف الكبرى لدى الصحافي الذي تخصَّص في تغطية أخبار الفروسية سابقًا، إذ كان يكثر من التردّد إلى بيوت الدعارة، حيث يجمع قدرًا كبيرًا من المعلومات، ويكوِّن فكرة عن سير الأمور في المدينة. كان يشعر بالسرور والراحة واللذة في تلك الأوكار المُعبَّأة بالدخان التي تفوح منها رائحة الكحول والعرق، وسط أشباه السكارى من الرجال العدوانيين، والنساء اللاتي لا يُضطَرّ إلى التظاهر أمامهن بشيء، بل إنه يأمر الواحدة منهم بقوله: «افتحي ساقَيْك، وأعيريني فتحتكِ، واتركيني أنهل من اللذة أيتها العاهرة الصغيرة». ما كان يسهل عليه إقناع البغايا بمداعبة قضيبه بالفم، بل إنه كان يُضطَرّ إلى مساومتهن على ذلك في كل مرة، فيقابلن طلبه بالرفض في أحيان كثيرة. وعلى الرغم من ذلك، لم تكُن أي منهن تُبدي اشمئزازًا لو عرض عليها أن يلتهم فرجها بلسانه، تلك الآفة التي ولع بها، الآفة الخطيرة طبعًا، كما حذَّروه كثيرًا: «ربما أصبتَ بالزهري أو انتقلَت إليك عدوى أخرى، فالغالبية العظمى من أولئك العاهرات مصابات بالأمراض». بَيْد أنه لم يلقِ إلى الأمر بالاً. كان يحبّ الخطر بصنوفه كافة، ولا سيما ذلك الخطر الذي يجد فيه لذَّة.

كان غاسيل يعرف مواخير مدينة غواتيمالا، التي ينتشر أغلبها في حي خيرونا الحافل بالمجون، كما يعرف راحة يده. لم تكن مفعمة بالحيوية والعنف شأن مواخير المكسيك، وكانت تبدو مُتأخِّرة بسنوات ضوئية عن مواخير مدينة تروخيّو التي تميَّزَت بألحان الميرينغي المبهجة، والموسيقى الصاخبة، والألسنة السليطة الجريئة الضاحكة للعاهرات الدومينيكانيات. أما هنا، فالعاهرات أشدّ غلظة وفتورًا. بعضهن من الهنديات اللاتي يتحدَّثن بلهجاتهن، ويرطنّ بلغة إسبانية ركيكة. مضى به غاسيل إلى بار وماخور يقع في زقاق خيرونا، تديره سيدة تُدعَى ميريام، تصبغ شعرها المُرسَل بالأحمر أو الأشقر البلاتيني، بما يلائم المناسبة. وهناك ذهب إلى الفراش مع امرأة سوداء من بليز، تخلط الإسبانية بلكنة إنجليزية ثقيلة جدًّا. فتحَت له ساقَيْها بسرور جارف، وسمحَت له بدسّ لسانه في تلك الفوهة المحمرة الرطبة التي فاحَت منها رائحة في غاية اللذة.

ولمَّا تركه غاسيل في نزل سان فرانسيسكو فجرًا، كان أبيس غارسيا قد تعلَّم أمرَيْن بشأن غواتيمالا: أولاً، الكل يذكر الرئيس كاستيّو أرماس بالسوء. كما بلغه في ما بلغه من الشائعات السياسية الكثيرة الرائجة أن أحدًا لا يراهن على حياة الرئيس بكيتسال واحد. وثانيًا، عرف أن رمّ ساكاپا شهي بقدر الرمّ الدومينيكاني، وإن كانت العاهرات الغواتيماليات دون المستوى المنشود.

استغرق يومَيْن آخرَيْن قبل أن يقدِّم نفسه لسفارته. غير أنه لم يهدر وقتًا في الساعات الثمانية والأربعين السابقة على ذلك. إذ شرع في العمل وجسّ نبض تلك المدينة المجهولة وأهلها. قرأ جميع الصحف من الألف إلى الياء، بدءًا بالمحايد، مرورًا بالصحافة الحرة والساعة، وصولاً إلى صحيفة أمريكا الوسطى. أخذ يستمع إلى الإذاعة القومية وإذاعة TGW وإذاعة مورس، كما طفق يتمشَّى بلا انقطاع في الشوارع والميادين والمنتزهات، ويغوص من آن إلى آخر في المقاهي والحانات التي يجدها

في طريقه، ويجاذب الناس أطراف الحديث، ويستقي منهم بعض المعلومات، على الرغم من صعوبة ذلك، إذ راح الكثيرون يرمقونه بارتياب لدى سماع لكنته الأجنبية. ثم كان يعود إلى الفندق ليلاً وقد خارَت قواه من فرط التعب.

اقتنع بالأمر الذي انتبه إليه منذ الليلة الأولى، خلال الأحاديث التي جمعَته بكارلوس غاسيل كاسترو: لم يكُن هناك من يحبّ كاستيّو أرماس، بل إن الكثيرين وجدوه رجلاً واهنًا عديم الشخصية والسطوة، على قدر شديد من الضحالة، ولم يحترمه إلاَّ ثلة من المُقرَّبين، أغلبهم من الانتهازيين ولاعقي الأحذية. حتى قناعاته المناهضة للشيوعية لم تكُن شديدة الرسوخ، بل إنه بات الآن يتحدَّث عن ردّ بعض الأراضي المُنتَزعة من الهنود. لم يفعلها بعد، ولكن الشائعة آخذة في الانتشار، بترويج من أعدائه بلا أدنى شك. يزعم الجميع أنه وقع أسير عشيقته، وأن مارتا هي التي تحلّ وتربط، حتى في قرارات الحكومة السيادية. شتان بينه وبين الجنرال الأعلى تروخيّو! مَن في جمهورية الدومينيكان يجرؤ على ذكره بالسوء كما يذكر الناس كاستيّو أرماس هنا، حتى في الحانات! لهذا خيَّمَت على مدينة غواتيمالا تلك الفوضى العارمة، وذلك الريب الشديد، لهذا لم يبدُ أن هناك من يعتقد بإمكانية استمرار الوضع على ما هو عليه إلى أجل غير مُسمًّى.

في اليوم الثالث قدَّم نفسه لدى سفارة الدومينيكان. وإذا الجميع يفاجأ بحضوره، بدءًا بالسفير خيلبِرتو موريّو سوتو، الطبيب النفسي ذائع الصيت في بلده، الذي كان يعرف بتنصيب أبيس غارسيا بالفعل، وراح يترقَّب وصوله، استعدادًا لاستقباله في المطار، لو علم بموعد وصوله.

ـ لا تشغل بالك يا سعادة السفير. ـ أجابه أبيس غارسيا ـ وددتُ لو ألقي نظرة على المدينة وأجري بعض الاتصالات قبل الشروع في العمل.

أطلعه موريّو سوتو على المكتب الذي أعِدّه من أجله في مقرّ السفارة، فأعرب له عن امتنانه. وفي الوقت نفسه، لفت نظر السفير إلى أنه لن يكثر من الحضور، لأن المهمة التي عُهِد بها إليه تلزمه بقضاء وقت طويل في الشارع، أو السفر إلى المناطق الداخلية من البلد. ما لبث أبيس غارسيا أن طلب تحديد لقاء مع اثنين من كبار المسؤولين في حكومة غواتيمالا، رغبةً منه في تحيتهما بصفة شخصية، وهما: كارلوس ليموس، القائد المدني لجهاز الأمن العام، والمُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا، المسؤول عن جميع الأجهزة العمومية وأمن النظام.

ما كاد يبلغهما الطلب حتى وافق المسؤولان على اللقاء. ومع أن لقاءه بكارلوس ليموس قد أورثه شعورًا بالإحباط ـ إذ بدا له بيروقراطيًا عاجزًا عن التفكير بنفسه، يبلغ من الحذر درجة تمنعه من الإدلاء برأيه الشخصي حول أي شيء، وتحمله على الاكتفاء بالإجابة عن الأسئلة بمعلومات شائعة وكلمات مبهمة ـ، سعد أبيس غارسيا سعادة جارفة باللقاء الذي جمعه بالمُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا، الذي كان رجلًا نحيل القامة، طويلها، تميل بشرته إلى الدكنة، وله فم ضخم يليق بتمساح، سرعان ما يتعرَّف المرء فيه على رجل أفعال، حازم، طموح، يجيب عن الأسئلة بوضوح، وله أفكاره الخاصة، ويجترئ على المجازفة والحديث بلا مداراة، شأنه في ذلك شأن أبيس غارسيا نفسه.

مضى إليه بقنينة من الرمّ الدومينيكاني ـ «لترى بنفسك أنه شهي بقدر أفضل صنوف رَم ساكاپا يا سيدي المُقدِّم» ـ فبادر بفتح القنينة من فوره. ومع أن النهار لم يكُن قد انتصف بعد، تناول كل منهما كأسَيْن أو ثلاثًا خلال الحديث. ثم دعاه ترينيداد أوليبا إلى الغداء في لاغار، المطعم الذي يُقدِّم أطباقًا تقليدية من غواتيمالا.

كان ترينيداد أوليبا من كبار المعجبين بالجنرال الأعلى تروخيّو. ولقد زار جمهورية الدومينيكان، فأقرَّ للجنرال الأعلى بأنه جعل منها بلدًا

عصريًا مزدهرًا، بقواته المُسلَّحة التي تُعَدّ هي الأفضل في الكاريبي بأسره. «لأن زعيمكم رجل قوي الشكيمة. ـ قال مُؤكِّدًا ـ رجل وطني عظيم، له قلب أسد». سكت برهة، ثم أردف خافضًا صوته: «ذلك شيء نفتقر إليه هنا». ضحك أبيس غارسيا وترينيداد أوليبا. ومن تلك اللحظة فصاعدًا، جمعَت بينهما الصداقة بوضوح، أو ربما التواطؤ.

التقيا بعد أسبوع، ثم في الأسبوع التالي، وسرعان ما اشتركا في التردّد إلى العاهرات، كما اشتركا في معاقرة الشراب وتناول الطعام والذهاب إلى مواخير أفضل من تلك التي يرتادها كارلوس غاسيل كاسترو. وبعد كل هذه المرات التي خرجا فيها معًا، خلص أبيس غارسيا إلى بعض النتائج التي أخطر بها الجنرال الأعلى في تقارير مسهبة: المُقدِّم ترينيداد أوليبا رجل طموح، يشعر بأن الحكومة تعطِّل مسيرته تعسّفًا. سبق أن سُجِن في عهد خاكوبو أربينس بتهمة التآمر على النظام، غير أنه لا يشعر بأدنى قدر من التعاطف نحو كاستيّو أرماس، ولذا فربما لعب دورًا رئيسيًا في المشروع. ومن جهة أخرى، فمن الصعب معرفة مدى النفوذ الذي يحظى به داخل القوات المُسلَّحة، تلك المُؤسَّسة التي تبدو صفوفها منقسمة بشدة إلى جماعات يتآمر بعضها على بعض. الأمر الذي جعل حكومة كاستيّو أرماس غير مُستقِرَّة، مُعلَّقة بخيوط رفيعة، آيلة للسقوط في أي لحظة، بتدخّل من الخارج أو خلل في الداخل. زد على ذلك معلومة أخرى مهمة مفادها أن مارتا بورّيرو پارًا، عشيقة كاستيّو أرماس، هي الشخص الذي يملك نفوذًا عظيمًا عليه. وهي امرأة شابة رائعة الجمال، تُعرَف بلقب «ميس غواتيمالا». يبدو أنها قد أوقعَت الرئيس في سحرها، فأقام لها بيتًا. ويُقال إنه يطلب مشورتها في كل شيء، حتى شؤون الحكومة. ولذا ينوي أبيس غارسيا السعي إلى التعرّف بها قريبًا، ومدّ أواصر الصداقة بما يصبّ في مصلحة المهمة الدبلوماسية التي عُهِد إليه بتنفيذها في غواتيمالا. وجدير بالذكر أن الانقسام الرئيسي

في الحكومة يقع بين أنصار الزوجة الشرعية، السيدة أوديليا پالومو، وبين أنصار العشيقة، شيء مذهل! ربما وفَّرَت تلك المنافسة أجواء ملائمة لتنفيذ المهمة. كان چوني أبيس غارسيا يرسلْ جميع التقارير إلى الجنرال الأعلى في رسائل مُشفَّرة.

خلال روحاته وغدواته في المدينة، وبحثه الدائم عن المعلومات، اكتشف المُقدِّم أن الجدال بشأن فتح الكازينوهات الذي أعلنَت عنه الحكومة يُمثِّل موضوعًا آخر من مواضيع الساعة. إذ تذرَّعَت الحكومة بحجة تنشيط السياحة، فاتَّخذَت الكنيسة الكاثوليكية موقفًا معارضًا. حتى إن ماريانو روسيل إي أريَّانو، رئيس الأساقفة شخصيًّا، صرَّح بمعارضته تلك الممارسة التي قد تنشر الفساد والرذيلة والجريمة، حسب قوله، وربما اجتذبَت رجال العصابات والمافيا إلى غواتيمالا، كما حدث في هافانا. مع الأخذ في الاعتبار أن كوبا الشقيقة أصبحَت ماخورًا كبيرًا وملاذًا للخارجين على القانون والمجرمين الأمريكان منذ أُنشِئَت فيها الكازينوهات.

كان أبيس غارسيا منهمكًا في تلك الأمور حين أخبره غاسيل كاسترو بأن الكوبي ريكاردو بوناتشيا ليون قد وصل إلى غواتيمالا، هاربًا من المكسيك، وبأنه في حاجة إلى المساعدة، لأنه قد تسلَّل إلى البلد خلسة. كان بوناتشيا ليون رجل سلاح يعيش مغتربًا في المكسيك، حيث سبق أن قدَّم العون لكل من أبيس غارسيا وغاسيل كاسترو، عن طريق التجسّس على المغتربين الدومينيكان بين الحين والآخر. نزولاً عند أوامر تروخيّو، كلَّفه أبيس غارسيا بتصفية واحد منهم، تانكريدو مارتينيس، قنصل الدومينيكان السابق في ميامي، الذي ولَّى هاربًا إلى المكسيك، وتقدَّم بطلب اللجوء. فأفسد بوناتشيا المهمة إلى حدٍّ كبير، إذ استهدف تانكريدو مارتينيس في شركة التأمينات التي كان يعمل بها، وأطلق النار على وجهه، فتركه مُشوَّهًا، غير أنه لم يردِه قتيلاً. وهكذا ولَّى بوناتشيا

هاربًا إلى غواتيمالا، وها هو الآن يطلب المساعدة. تحدَّث أبيس غارسيا إلى المُقدِّم ترينيداد أوليبا، الذي رتَّب أوراق بوناتشيا، وقال إن بإمكانه توفير مهمات خاصة للكوبي، تسمح له بالعيش، كتلك التي ينفِّذها كارلوس غاسيل كاسترو.

ذات يوم، خلال لقائهما الأسبوعي على الغداء، قدَّم الدومينيكاني للغواتيمالي عرضًا جريئًا: واقترح عليه أن يفتتح كازينو بالشراكة معه، فاستغرق الضابط الداكن الحادّ في النظر إليه حائرًا.

ـ أنا وأنت، مناصفةً. ـ أوضح أبيس غارسيا ـ وأنا مُتأكِّد أنها تجارة رابحة، تدرّ مالاً وفيرًا.

ـ أرأيتَ الجدال القائم في غواتيمالا بشأن مسألة الكازينوهات؟ ـ سأل ترينيداد أوليبا، وهو يحسب حساب كلماته ـ لقد أمر كاستيّو أرماس بإقفال بيتش أند تنس كلوب، وطرد المالكين الغرينغو من البلد. حتى رئيس الأساقفة يعارض فتح كازينوهات جديدة باستماتة.

ـ إن ذلك الخبر هو الذي أوحى إليَّ بالفكرة. ـ أومأ أبيس غارسيا ـ ربما كان الحلّ الأخير أن تُفتَح أبواب الكازينوهات أمام الرواد الأجانب فحسب، ما دام ذلك يريح رئيس الأساقفة. «فليذهب السائحون إلى الجحيم، أما أهل البلد فلا!»، هكذا يفكِّر الكثير من الكهنة. من بيده إصدار التراخيص اللازمة لفتح كازينو؟ بيدك أنت، أليس كذلك؟

ـ المسألة أشدّ حساسيةً مما ينبغي. ـ تحلَّى ترينيداد أوليبا بجدية شديدة ـ يجب عليَّ الرجوع إلى الرئيس في الأمر.

ـ ارجع إليه إذن، لا مشكلة. وليس من الضروري أن يظهر اسمي واسمك، حتى وإن كنا نحن المالكَيْن. ألا تعرف مَن يمكنه أن يصبح واجهة لنا؟

فكَّر المُقدِّم لحظة.

ـ عندي الشخص المثالي لتلك المهمة. ـ قال ترينيداد أوليبا ـ إنه أحمد قرني، التركي، الذي يتاجر في المجوهرات والأحجار الكريمة ويشتغل بأمور شائكة. يُقال عنه إنه مُهرِّب، ورجل عصابات. لا شكّ في ذلك.

ـ قضِي الأمر إذن، يبدو أنه الرجل الذي نحتاج إليه.

وعلى الرغم من ذلك، لم تنجح العملية، وإنما ساهمَت بالأحرى في ترسيخ العداوة بين كاستيّو أرماس وإنريكي ترينيداد أوليبا. أخبر «الحثالة» رئيسَ الجمهورية بأنه سوف يصدر ترخيصًا بفتح كازينو لصالح التاجر أحمد قرني، التركي، فمنعه الرئيس من ذلك منعًا باتًّا. أوضح له أن لديه ما يكفي من المشكلات مع الكنيسة الكاثوليكية، بسبب الكازينوهات وغيرها من الأمور، حتى إن رئيس الأساقفة حرَّض عددًا كبيرًا من الكهنة على الوعظ من فوق منابرهم تنديدًا «بأولئك الرجال الذي يدَّعون الكاثوليكية، ويتَّخذون المحظيات لأنفسهم». ولقد عرف الرئيس لتوّه بأمر أسبوع الابتهال المُزمَعة إقامته في الكاتدرائية حتى لا يُحكِم الشيطان قبضته على المدينة عن طريق الكازينوهات. ولذا فهو لن يسمح بفتح بيت آخر من بيوت المراهنة، دع عنك أن يكون واجهة الكازينو لصّ ومُهرِّب معروف كذلك التركي. ألم تكُن لأحمد قرني سمعة سيئة؟ ولذا قال المُقدِّم ترينيداد أوليبا مُنبِّهًا أبيس غارسيا:

ـ فلننسَ أمر المشروع في الوقت الراهن. وسنرى لاحقًا.

لم يسهل على الدومينيكاني الوصول إلى «ميس غواتيمالا». لأن مارتا الشهيرة ما كانت تخرج إلى الشارع إلاَّ في ما ندر، دع عنك أن تحضر لقاءات المجتمع وحفلات الكوكتيل. اكتفَت مارتا بلقاء الصديقات محل الثقة، في لقاءات لا يُدعَى إليها أبيس غارسيا. حتى كان يوم أسعده فيه الحظّ بلقائها مصادفةً، خلال وجبة خفيفة قُدِّمَت في سفارة كولومبيا.

ومنذ وقع بصره عليها، تأكَّد له أن الجنرال الأعلى قد أصاب في ما أدركه بالحدس: فتلك المرأة سوف تلعب دورًا مفتاحيًا في المهمة التي جاء ينفِّذها على أرض غواتيمالا.

ومن جهة أخرى، فما كاد المُقدِّم يراها حتى شعر بأن تلك هي المرأة التي يودّ الارتباط بها. كانت أجمل وأجمل مما جاء في الأساطير التي نُسِجَت حول عشيقة رأس الدولة. كانت في مُقتبَل العمر، حتى بدَت وكأنها قد تجاوزَت طور المراهقة منذ عهد قريب. لم تكُن فارعة الطول، وإن بدا قوامها متناسقًا على نحو بديع، فضلاً عن ذلك الدلال العفوي الذي تميَّزَت به ثيابها (يومذاك انتعلَت صندلاً، وارتدَت بلوزة تُبرِز نهدَيْها المُتكوِّرَيْن وتنورة مُتموِّجة تشفّ عن ساقَيْها الملفوفتَيْن وعن كاحلَيْها). كانت تهزّ كتفَيْها بحكمة في سيرها، بينما يرتجّ ردفاها ونهداها بخفَّة على وقع خطاها. ولكن أكثر سماتها جاذبية هي تلك النظرة الساكنة الغريبة التي ترغم مُحدِّثيها على خفض أنظارهم، وكأنهم لو صمدوا أمام الجرأة الناعمة الكامنة في هاتين العينَيْن الثاقبتَيْن الخضراوَيْن المائلتَيْن إلى اللون الرمادي، لخارت قواهم وتملَّكهم شعور بالهزيمة. فعل أبيس غارسيا المستحيل حتى يتودَّد إليها ويصادقها. فهنَّأها ولاطفها وسألها عما إذا كانت تسمح له بزيارتها، فأجابَت طلبه بالإيجاب، بل إنها ضربَت له موعدًا: مساء الخميس المقبل، قرب الخامسة، في ساعة الوجبة الخفيفة. ليلتذاك، وبينما كان أبيس غارسيا في الماخور، مستغرقًا في الهياج، موشكًا على القذف، وهو برفقة عاهرة كغيرها من العاهرات الكثيرات، أطبق عينَيْه وأخذ يحلم بأنه يُجرِّد «ميس غواتيمالا» من الثياب ويستحوذ عليها.

في أولى زيارات المُقدِّم إلى البيت الذي أقامه كاستيّو أرماس لعشيقته، ذلك البيت الذي لا يبعُد كثيرًا عن مقرّ الرئاسة، توثَّقَت صداقة چوني أبيس غارسيا بـ«ميس غواتيمالا»، وتدفَّق تيار غريب من المودة

المتبادلة بين مارتا والدومينيكاني. مضى إليها بالهدايا، وأرسل إليها الزهور، تعبيرًا عن امتنانه الجمّ لموافقتها على استقباله. أخبرها بالأحاديث التي تناهَت إلى سمعه في كل مكان، منذ وصوله إلى غواتيمالا، ومفادها أن مارتا تملك نفوذًا قويًا على الرئيس، وأن الفضل يرجع إلى مشورتها في خير الإنجازات التي حقَّقها الكولونيل كاستيّو أرماس من أجل بلده. وبينما هما يتناولان الشاي، حدَّثها عن العجائب التي صنعها تروخيّو في جمهورية الدومينيكان، ودعاها إلى الذهاب للتعرّف عليها عن كثب، متى شاءت: فهي ضيفة الجنرال الأعلى في أي وقت. ولسوف تنعم هناك بشطآن جمهورية الدومينيكان وموسيقاها وهدوئها وتكتشف أن الميرينغي هي الموسيقى الأوفر حظًّا من البهجة في العالَم بأسره، متى تعلَّمت الرقص على أنغامها.

بعد تلك الزيارة، كتب تقريرًا مسهبًا إلى زعيمه يخطره فيه بالعلاقة التي جمعَت بينه وبين «ميس غواتيمالا»، وأدرج في التقرير وصفًا مفعمًا بالحماس تناول فيه مفاتن جسدها. كما أردف قائلاً: «ولكن جاذبيتها لا تقتصر على قوامها فحسب، بل إنها تتميَّز بذكاء صافٍ وفضول جارف وبديهة سياسية، مع أنها في ريعان الشباب». ثم جاء في الردّ الذي أرسله الجنرال الأعلى تروخيّو أن تلك العلاقة مفيدة جدًّا ولا بد من الحفاظ عليها. كما أخبره بضرورة الاتصال برجل السي آي إيه لدى غواتيمالا في الوقت الحالي، ذلك الغرينغو الذي يطلق على نفسه مايك، وتجمعه بالسفارة الأمريكية علاقة من نوع ما. طلب منه أن يبحث عن مايك هناك، أو يترك له اسمه وعنوانه.

ظلَّ أبيس غارسيا مقيمًا في نزل سان فرانسيسكو الرثّ حيث أقام منذ وصوله. كان يتناول الغداء والعشاء في الشارع، ثم يذهب إلى أحد المواخير ليلاً برفقة غاسيل وبوناتشيا ليون، ما لم يكُن مرتبطًا بالتزامات أخرى. عاش حياة روتينية في الظاهر. بَيْد أنه، في قرارة الأمر، سخَّر كل

طاقته ونشاطه في سبيل هدف واحد دون سواه: تنفيذ المهمة التي كلَّفه بها تروخيّو.

راح أبيس غارسيا يتساءل عن كيفية الوصول إلى الغرينغو الذي يُرجَّح أنه لا يُدعَى مايك، وإذا به يتلقَّى دعوة إلى تناول الغداء في فندق باناميريكان بعد يومَيْن، مُرسَلة من سيد جاء في بطاقته الشخصية ما يلي: «مايك لاپورتا. أخصائي المناخ والجغرافيا الحيوية والبيئة. سفارة الولايات المتحدة لدى غواتيمالا». (لم تصل الدعوة إلى سفارة الدومينيكان، وإنما إلى الفندق الصغير حيث أقام أبيس غارسيا، وإن لم يكُن يعرف عنوانه إلاّ غاسيل). أي شيطان أخبر الغرينغو بعنوانه؟ ذلك دليل على أن السي آي إيه تؤدّي عملها كما ينبغي، من دون شكّ.

ما كان لمايك لاپورتا أن يبدو أكثر أمريكيةً مما بدا عليه، على الرغم من لغته الإسبانية الطليقة، وإن شابتها لكنة مكسيكية خفيفة. لا بدّ أن عمره يتراوح بين الأربعين والخمسين عامًا. كان أشقر، ضخم الجرم، قوي البنيان، فيه شيء من الصلع، ينتشر الزغب الأحمر على ذراعَيْه وصدره. يضع على عينَيْه نظارة لعلاج قصر البصر، تملأ نظرته بالغموض. كان عفويًا، ودودًا، يظهر عليه الإلمام بكل شيء عن غواتيمالا، وأمريكا الوسطى بوجه العموم، مع أنه لا يتبجَّح بذلك، وإنما يبدو أقرب إلى الخجل والكتمان. سأله أبيس غارسيا كم عامًا أمضى على تلك الأرض فاكتفى بحركة واسعة من ذراعه، وهو يقول: «أعوامًا كافية».

تناولا البيرة المُثلَّجة على الغداء، ثم أعقبا الحلوى والقهوة بكأس من رمّ أنييخو.

أكَّد مايك على ما يعرفه أبيس غارسيا بخطوط عريضة، وإن قدَّم له تفاصيل جديدة كثيرة في ما يتعلَّق بمختلف الفصائل التي انقسم إليها

الجيش، الذي كانت تُحاك في داخله عدة مؤامرات بالفعل. وعلى الرغم من ذلك، فاجأه بقوله إن الجنرال ميغيل إديغوراس فوينتيس هو الذي يتصدَّر السباق دونًا عن ورثة كاستيّو أرماس المزعومين. كان إديغوراس فوينتيس يعيش في الخارج آنذاك، وقيل إنه ممنوع من العودة بتعليمات من كاستيّو أرماس الذي يخشاه. وعلى الرغم من انسحابه، فما زال يحظى بعدد كبير من الأنصار بين الضباط والجنود، كما يقرّ له شعب غواتيمالا بأنه رجل مقدام، ذو شخصية حاسمة مفعمة بالنشاط. ولهذا لم يسمح له كاستيّو أرماس بالعودة إلى البلد.

ـ أي أنه يتمتَّع بكل ما يفتقر إليه هذا الرئيس. ـ خلص مايك إلى تلك النتيجة ـ ولسوف يسرّ الجنرال الأعلى تروخيّو بذلك، وفق ما يُخيَّل إليّ.

ـ بالفعل، لديه انطباع إيجابي جدًّا عن الجنرال إديغوراس فوينتيس، وهما صديقان. ـ أومأ أبيس غارسيا ـ ولكن الأكثر ملائمةً للشعب هو ما يهمّ تروخيّو، على كل حال.

ـ بالتأكيد. ـ قال مايك، بضحكة مقتضبة، يشوبها قدر من الاستهزاء ـ ومن المُثبَت لديَّ أن الجنرال إديغوراس يشعر بإعجاب كبير نحو تروخيّو. ويعتبره قدوته.

تجاذبا أطراف الحديث بشأن عدد من الأمور. كما اعترف الدومينيكاني للغرينغو بأنه لم يفلح في اللقاء بالرئيس كاستيّو أرماس على انفراد، مع أنه في غواتيمالا منذ عدة أشهر. وفجأة، بادره مايك، كمن تذكَّر شيئًا، وقال إنه يودّ لو طلب منه خدمة كبرى. أي خدمة؟ أن يُعرِّفه بمارتيتا، ميتس غواتيمالا، عشيقة الرئيس.

ـ أجل، طبعًا، ببالغ السرور. ـ قال الدومينيكاني ـ كم غريب أنك لم تتعرَّف بها حتى الآن!

ـ ليس هذا بالشيء اليسير على الإطلاق. ـ أوضح له مايك ـ الرئيس

غيور جدًّا ولا يسمح لها بالخروج وحدها. بل إنها لا تخرج إلاَّ برفقته متى اصطحبها إلى حفلات الاستقبال ودعوات العشاء، الشيء الذي يبدو نادر الحدوث. أو كما يقول المثل هنا، «لا يحدث إلاَّ بموت أسقف».

ـ إذن، فهي صاحبة السلطة الحقيقية. ـ قال أبيس ـ لا السيدة أوديليا پالومو.

ـ بالطبع. ـ أكَّد مايك، ولكنه ما لبث أن أردف بقوله ـ: أو هكذا يقول الناس، على الأقل.

ـ من دواعي سروري أن أعرِّفك بها. ـ قال أبيس ـ في وسعنا زيارتها ذات مساء. إنها رائعة الجمال، سترى.

ـ عسى أن توافق على استقبالنا. ـ تمتم مايك ـ حتى الآن باءت كل محاولاتي بالفشل.

وقد كان. إذ استقبلَتهما في بيتها، وقدَّمَت لهما الشاي وحلوى راهبات القديسة كلير. فُوجِئت مارتيتا قليلاً عندما قرأت بطاقة مايك، فأوضح لها مهنته ومهمّاته في السفارة وقال إنه يعمل مستشارًا لدى هيئة الأرصاد الجوية القومية التي يوافيها بآخر التطوّرات بهدف رصد الأحوال الجوية، كما يساهم في وضع السياسة الأنسب لحماية المدن من الهزات الأرضية الشائعة جدًّا على هذه الأرض البركانية.

وعند الوداع، سألها مايك عما إذا كان في وسعه أن يعاود زيارتها بدوره.

ـ على فترات متباعدة جدًّا. ـ أجابته بصراحة ـ كارلوس غيور جدًّا، من المدرسة القديمة. لا يروق له أن أستقبل الرجال، ولا حتى برفقة زوجاتهم، ما لم يكُن حاضرًا بنفسه.

ضحك كلاهما، في حين أردفَت هي بتلك الابتسامة المفعمة بالدلال:

ـ الأفضل أن تحضرا لزيارتي معًا.

وقد كان. فبات چوني أبيس غارسيا والرجل الذي لا يُدعَى مايك ـ ويُرجَّح أنه لا يشتغل بالأرصاد الجوية ـ يحضران إلى بيت عشيقة الرئيس مرة كل أسبوعَيْن أو ثلاثة أسابيع، مُحمَّلَيْن بباقات الأزهار وصناديق الشكولاتة، فيتناولان معها الشاي وحلوى راهبات القديسة كلير. وهكذا أخذَت دفة الأحاديث تتحوَّل صوب السياسة رويدًا رويدًا، بعد أن بدأت تافهة.

لاحظ أبيس غارسيا أن مايك ينتزع المعلومات من الشابة الجميلة في كل زيارة، بطريقة مرهفة، كمن لا يتعمَّد الأمر. هل كانت على وعي بذلك؟ أجل. هكذا اكتشف أبيس غارسيا ذات مساء، في تلك اللحظة، حين تركهما مايك وحدهما برهةً وذهب إلى دورة المياه، فقالت مارتا مُوجِّهةً سؤالها لأبيس غارسيا، وهي تخفض صوتها بشدة وتشير إلى الآخر الذي سار مبتعدًا:

ـ ذلك الغرينغو يعمل لحساب السي آي إيه، أليس كذلك؟

ـ لم أسأله. ـ قال أبيس ـ ولكنه لن يعترف بذلك حتى لو كان صحيحًا، على كل حال.

ـ يحاول أن يستطلع مني المعلومات بالحيل، وكأنني بلهاء لا أدرك ما يجري. ـ قالت مارتيتا.

وفيما هما خارجان من بيت «ميس غواتيمالا»، فكَّر أبيس غارسيا بوجوب تحذير مايك، وأفضى إليه بما قالت مارتا، فأومأ الغرينغو برأسه.

ـ بالطبع أدركَت لحساب من أعمل. ـ قال، مطلقًا ضحكة مقتضبة أخرى ـ بل إنها طلبَت مني أجرًا مقابل المعلومات التي توافيني بها.

أبرمتُ معها اتفاقًا. ولكن، ربما كان من الملائم ألاَّ نتحدَّث أنا وأنت عن تلك الأمور الحرجة في الوقت الراهن.

ـ مفهوم. ـ قال أبيس غارسيا، راسمًا علامة الصليب على فمه.

ذهبا إلى سينما باريداديس لمشاهدة واحد من أفلام رعاة البقر التي كان الغرينغو مُتيَّمًا بها. كان فيلمًا بطيئًا، حافلاً بتبادل إطلاق النار، بطولة آفا غاردنر. وبعد مغادرة السينما، ذهبا إلى مطعم إيطالي صغير لتناول العشاء. وهناك شرب كلٌّ منهما كأسًا من الرمّ، وفي تلك الأثناء، ارتكب أبيس غارسيا فعلة طائشة، إذ اقترح على مايك ختام الليلة في أحد المواخير.

وإذا بوجه مايك يصطبغ باللون الأرجواني، وينظر إليه بصرامة.

ـ لا أذهب إلى تلك الأمكنة أبدًا. ـ أكَّد مشمئزًّا، وقد بدَت على وجهه أمارات النفور ـ عذرًا، فأنا مخلص لزوجتي ولديني.

١٦

ـ يجب عليَّ أن أجري مكالمة هاتفية. ـ قال الدومينيكاني ـ دعنا نذهب إلى فندق باناميريكان أولاً.

كان قريبًا جدًّا، فذهب ريكاردو بوناتشيا ليون في جولة صغيرة عَبْر شوارع وسط المدينة الخاوية قبل أن يوقف السيارة أمام حانة أكبر فنادق مدينة غواتيمالا. بدا كل شيء هادئًا جدًّا في الشوارع، فأخذ الدومينيكاني يتخيَّل الصخب العارم الذي من شأنه أن يدوِّي فور انتشار الخبر: المكالمات الهاتفية المُلِحَّة، الشائعات، الدوريات العسكرية التي سوف تخرج إلى الشوارع وتلقي القبض على من تجده في طريقها أينما ذهبَت. أما مكتب إنريكي الذي يقع في قصر الحكم، فمن المُرتقَب أن يغدو بؤرة ذلك الهياج المحموم. عسى أن تسير أموره كما يريد. شعر نحو الغواتيمالي بتقدير حقيقي، وإن حدَّثه شيء سرِّي بأن وصوله إلى كرسي الرئاسة في غاية الصعوبة.

كادَت الحانة تخلو إلاَّ من بعض الروَّاد الذين جلسوا إلى طاولتَيْن، فضلاً عن رجل أخذ يدخِّن ويحتسي البيرة جالسًا إلى البار. جاء صوت طبول الماريمبا من الراديو، بينما أشار الدومينيكاني إلى الساقي بأن يصبَّ له كأسًا من الرمّ ويناوله عملة معدنية لاستخدام الهاتف. أوصد على نفسه كابينة الهاتف وأجرى الاتصال، فوجد الخطَّ مشغولاً. وضع السماعة، وانتظر حينًا، وعاود الاتصال مرة، ثم أخرى، ثم أخرى،

فكان يجد الخطَّ مشغولاً في كل مرة. والآن، لم يقتصر العرق على يدَيْه فحسب، وإنما تفصَّد من جبينه وعنقه أيضًا، وأحسَّ الدومينيكاني على ظهره بالعرق الذي بلَّل القميص. عاود الاتصال للمرة الخامسة وهو يفكِّر «لا ينقصني إلاَّ أن يكون هاتفه مُعطَّلاً!». ولكنه سمع صوت مايك، بعد دقة الجرس الثانية.

ـ قضِي الأمر. ـ قال وهو يحاول التحدّث بتلقائية، وإن لم يفلح في ذلك ـ أرجو منك الاتصال بمارتا في أسرع وقت ممكن. يجب عليها أن تستقلَّ السيارة فورًا. لا بدّ أن غاسيل على أعتاب بيتها.

خيَّم صمت طويل.

ـ هل سار كل شيء جيدًا؟ ـ سأل مايك أخيرًا.

ـ أجل، جيدًا جدًّا. اتَّصلْ بها فورًا.

ـ هل أنت مُتأكِّد من صرف الحراسة عن بيتها؟

ـ مُتأكِّد. ـ نفد صبر الدومينيكاني ـ سوف يُصدِر إنريكي أمرًا بإلقاء القبض عليها خلال ساعة إلاَّ ربع. ولهذا يجب عليها المغادرة في هذه اللحظة، ما لم ترغب في الذهاب إلى السجن. أخبرها بذلك!

ـ تحدَّثتُ إليها عَبْر الهاتف مساء اليوم، وجهَّزتُها لما يجري. ـ قال مايك ـ لا تشغل بالك. حظ سعيد.

خرج الدومينيكاني من الكابينة ثم وقف أمام البار حتى يتجرَّع كأس الرمّ دفعةً واحدة. رمقه الساقي كالحائر الذي لا يدري إن كان يجدر به الكلام أم السكوت. بَيْد أنه تشجَّع أخيرًا وقال:

ـ معذرة يا سيدي. ـ قال. ثم خفض صوته كثيرًا، وهو يشير إلى فتحة السروال ـ: سروالك مُبتَلّ.

ـ أوه، أجل، أرى ما تقول. ـ تلعثم في ارتباك، ناظرًا إلى اللطخة الظاهرة على سرواله ـ أشكرك.

دفع الحساب وخرج إلى الشارع.

ـ حسنًا يا ريكارديتو. ـ قال، وهو يستقلّ السيارة التي كانت في انتظاره عند مدخل فندق باناميريكان ـ اضغط دواسة البنزين بكل ما أوتيتَ من قوة ولا تقف حتى نصل إلى سان سالفادور.

١٧

تلوَّت «ميس غواتيمالا» بلذَّةٍ تحت الملاءات الناعمة على فراشها الفسيح المصنوع على الطراز الاستعماري. وبعين واحدة، نظرَت من خلال نسيج الناموسية الأبيض الشفاف إلى الساعة التي استقرَّت على الطاولة: فوجدت عقاربها تشير إلى السابعة صباحًا. غالبًا ما كانت تستيقظ في السادسة، ولكن كارلوس اقتحم مخدعها في ساعة مُتأخِّرة جدًّا من الليلة الفائتة، بعد يوم من العمل الشاق، ثم أيقظها وهو في غاية الهياج حتى يطارحها الغرام. بعد ذلك أطالا المداعبة والتربيت، بينما راحت هي تنصت إليه يشكو حاله ويتذمَّر لاعنًا («أبناء الكلبة حاملة البراغيث، لكِ أن تتخيَّلي!»)، بسبب المؤامرات والمكائد التي يكتشفها في كل لحظة، بحسب اعتقاده، وسط أولئك الذين حسبهم أقرب معاونيه وأوفاهم. والآن، بات يرتاب حتى في أمر المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا (الحثالة)، مدير الأمن العام في حكومته.

تقلَّبَت مارتيتا في فراشها مُجدَّدًا، مستغرقة في وسنة لذيذة. لم تعاود ارتداء قميص النوم، بل إنها استلقَت عارية، فتركَت الملاءات الناعمة على جسدها إحساسًا منعشًا ودفقات مباغتة من الكهرباء. كيف لذلك الكائن الرقيق أن يمارس الحبَّ مع الملحق العسكري الدومينيكاني المُترهِّل؟ لم يسبق لها قطّ أن رأت كائنًا يفتقر إلى الوسامة بقدر ما يفتقر إليها چوني أبيس غارسيا. وعلى الرغم من ذلك، أو ربما لذلك،

استأثرَت شخصيته بفضولها. وكثيرًا ما فكَّرَت فيه منذ تعرَّفَت به. لمَ؟ أي شيء في ذلك الدومينيكاني يستحقّ الفضول الذي أيقظه في نفسها؟ مظهره القبيح؟ «تراكِ مُنحرِفة؟»، سألت نفسها. «بلغني أن له سمعة سيئة»، هكذا أخبرها كارلوس يومَ أقنعَته بلقاء چوني أبيس. «بينه وبين ترينيداد أوليبا صفقات مشبوهة. لقد طلب مني «الحثالة» إذنًا بفتح كازينو، مُتذرِّعًا بحجة تشجيع السياحة. فقابلتُ طلبه بالرفض، والآن يبدو أنه فتح الكازينو بنفسه رغم كل شيء، واشترك فيه مع الملحق العسكري الدومينيكاني، تاركًا في الواجهة رجلاً سمعته في غاية السوء، أحمد قرني، المُهرِّب التركي. يا لهم من أوغاد! لن يفلتوا بفعلتهم، أؤكِّد لك».

صفقات مشبوهة مُتعلِّقة بالكازينوهات؟ شريك ترينيداد أوليبا، مدير الأمن في حكومة كارلوس؟ أي شيء قد يعنيه كل هذا؟ أبيس غارسيا شخص غامض، ينسج مُخطَّطًا خفيًا، ويريد شرًّا بخطاه ومبادراته وأفعاله، أو هكذا أيقنَت مارتيتا، على أقل تقدير. ولكن ما الذي يريده على وجه التحديد؟ ما طبيعة تلك النية القاتمة التي يضمرها؟ أتكون سياسية أم اقتصادية؟ تراه يعمل لحساب السي آي إيه هو الآخر، شأنه في ذلك شأن مايك؟ تراه قد نجح في التقرّب إليها وتوثيق صداقته بها لمُجرَّد أن تحصل من أجله على ذلك الموعد لمقابلة الرئيس صباح اليوم؟ كلا، لا يمكن أن يكون هذا غرضه الوحيد. ربما كانت كل الزيارات والهدايا التي أغدق بها عليها في الأسابيع الأخيرة ـ من الأزهار والعطور والمشغولات التقليدية ـ تعني ببساطة أنه يضمر لها الإعجاب، ويحلم بمطارحتها الغرام. ألا يحدث الشيء نفسه للكثيرين من أولئك الذين يرفّون حولها كالفراشات؟ رغمًا عن غيرة كارلوس! تحسَّسَت «ميس غواتيمالا» نفسها في ذلك الموضع، بين الفخذَيْن، وتأكَّدَت أنها مُبتلَّة. أتثيرها ذكرى ذلك الرجل البشع؟ ضحكَت من نفسها برهةً، في

صمت. ما زال أمامها مُتَّسع من الوقت. سوف يحضر أبيس غارسيا في التاسعة والنصف صباحًا، لأن موعده مع الرئيس في تمام العاشرة. ولسوف تأخذه إلى مكتب كارلوس بنفسها. كان قصر الحكم يقع على مسيرة عشر دقائق وحسب من البيت الذي أقامه لها كاستيّو أرماس منذ تلك الليلة التي قصدَته فيها مُستغيثةً، في لفتة جريئة أقدمَت عليها مدفوعة باليأس، فاتَّخذها عشيقة لنفسه.

الحق أن الرئيس قد أحسن إليها، ولم يكُن لمارتا أن تشكو أمرها. طلَّقها كاستيّو أرماس من زوجها، فلم تعاود رؤية إفرين غارسيا أرديليس، ولم تعرف عنه إلاَّ أنه مُختفٍ عن الأنظار، عاطل عن العمل، يعاني الاكتئاب وخمود الهمة تحت وطأة الهجران الذي تكبَّده، وموت أمه، وعجزه عن ممارسة الطبّ، والحذر الذي يتوخَّاه لئلاَّ تزجّ به الحكومة في السجن مرة أخرى. أخبرَتها سيمولا بأن إفرين يعمل الآن مُعلِّمًا في إحدى المدارس، وبأنه قد تعلَّق بـ«ترينسيتو»، الطفل الذي يحمل اسمه. ابنهما. ما كان يروق لمارتيتا أن تذكر ذلك الطفل الذي هجرَته. بل إنها راحَت تنحّيه عن ذهنها رويدًا رويدًا. وصارَت تفكِّر فيه، كلّما تسلَّل إلى وعيها رغمًا عنها، باعتباره ابن زوجها السابق، لا ابنها هي. ابتسمَت، وهي تذكر أمارات المفاجأة التي ارتسمَت على وجه وزير العدل حين تلقَّى من الرئيس أمرًا بـ«تطليق هذه السيدة من زوجها على جناح السرعة»، وتحريرها من تلك الزيجة المسيئة التي أُرغِمَت عليها مارتا بأمر من أبيها، أرتورو بورّيرو لاماس، ذلك المكابر، الذي يبس وانسحب من الحياة العامة بدوره. طلَّقها الوزير من دون أن تُضطَرّ هي إلى التحرّك أو اللقاء بالقضاة وكُتَّاب العدل والمحاميين. في أقل من أسبوع واحد، حلَّ القاضي ذلك الرباط، وردَّها إلى العزوبية. بهذه السرعة. هل أصدر إليه كارلوس تلك الأوامر لأنه يفكِّر في الزواج منها؟ كانت مارتيتا على يقين من ذلك، لو أفلح هو في الطلاق من زوجته.

ولكن الأمر لن يكون يسيرًا، لأن أوديليا پالومو دي كاستيّو أرماس تصطنع التمسّك بالكاثوليكية، وتحظى بدعم رئيس الأساقفة والكهنة، أولئك الذين صاروا يفرضون حكمهم على كل شيء. إن تلك المدعوة أوديليا كالنمرة، تدافع بمخالبها وأنيابها عما تراه حقًّا لها. ضحكَت مارتيتا وقد ألصقَت وجهها بالوسادة المحشوة بالريش. اندلعَت في غواتيمالا حرب أهلية بين أنصار أوديليا پالومو، الزوجة، وأنصار مارتيتا بورّيرو، العشيقة. لمن تكون الغلبة؟ الآن تحلَّت «ميس غواتيمالا» بالجدية، من المُؤكَّد أن الغلبة لها هي. نظرَت إلى أظفارها: كانت تودّ لو أنشبَتها في حلق غريمتها. أفاقت تمامًا، وحانت ساعة القيام من الفراش. نادَت سيمولا ـ التي جاءت بها إلى البيت كي تعمل لحسابها، فلم يعترض والد مارتا سبيلها، بل إنه سمح لها بالرحيل ـ ثم طلبَت منها إعداد الفطور وملء المغطس بالماء الدافئ والرغوة.

تناولَت الفطور وتحمَّمَت وارتدَت ثيابها. وبعد مضي نصف ساعة، راحَت تطالع جرائد اليوم. لطالما اهتمَّت بالسياسة، ألم يكُن ذلك هو السبب الذي قرَّبها من زوجها السابق وهي لا تزال طفلة؟ ولكن اهتمامها زاد كثيرًا منذ ارتبطَت بكاستيّو أرماس. تصدَّر الشعارُ القومي لثورة التحرير واجهات الصحف كافة: «الرب، الوطن، الحرية». الآن صارت السياسة محور حياتها. وأدركَت مارتا جيدًا أن وضعها الاقتصادي والاجتماعي رهن بالسياسة، التي يرجع إليها الفضل في تلك السلطة التي تحقَّقَت لها، وأدركَت أن استمرار الحال أو زواله كما يتلاشى السراب رهن بالسياسة أيضًا. في الوقت الحالي، يكفيها مُجرَّد الاتّصال بوزير أو كولونيل عَبْر الهاتف كي تُقابَل توصياتها بالموافقة على الفور. وطبقًا للنمائم التي أخبرها بها المداهنون، فلقد ذاع في تلك الأنحاء أن كاستيّو أرماس لا يعدو أن يكون مُهرِّجًا عاشقًا، وأن السلطة الحقيقة خلف العرش تكمن بين يدَي عشيقته، الأمر الذي لم تكتفِ بتناقله ألسن

الشيوعيين وأنصار حركة التحرير وحدهم. بل وقيل إن «ميس غواتيمالا» هي التي تتَّخذ جميع القرارات المهمة، بالسلطة التي تحقَّقَت لها بفضل الأمور البذيئة المُنحلَّة التي يقترفها الكولونيل معها في الفراش ليلاً، وقيل إنها أحكمَت السيطرة عليه بالشهوات وفنون السحر الشريرة. في قرارة قلبها، راقَت لمارتا تلك الشائعات والتهامسات، وإن لم تكُن امرأةً مُدَّعية قاتلة بحق.

وماذا لو كانت تملك هذا القدر من السلطة على كارلوس بحق؟ لو لم يكُن ذلك حقًّا، لما استعان بها أبيس غارسيا، الملحق العسكري المُوفَد من جمهورية الدومينيكان، كي ترتِّب له موعدًا مع الرئيس. بل إنه كان سيلجأ إلى «الحثالة»، المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا، مدير الأمن. ألم يكُن صديقه؟ قال كارلوس إنهما شريكان، وإن ذلك الكازينو الذي افتتحاه بالشراكة في ما بينهما يدرّ عليهما مالاً وفيرًا. وعلى الرغم من ذلك، لجأ إليها هي حتى يحصل على ذلك الموعد. لو صحّ أنها تملك هذا القدر من السلطة، فلا بد أن تستخدمها لتأمين المستقبل. كان ذلك الأمر يصيبها بالكدر، على الرغم من ثقتها الكبيرة بنفسها. لم يكُن مستقبلها آمنًا، فوحده المال يمنح المرء مثل ذلك الأمان، وهي لا تملك من المال شيئًا، مهما أبدى الرئيس من السخاء، ومهما وفَّر لها من حياة كريمة. فلو انتهَت علاقتها بكاستيّو أرماس، لما تبقَّى لها سوى حساب الادخار الهزيل في البنك. حتى المظاريف البسيطة التي يمُرِّرها لها مايك لن تسمح لها بأن تودِّع الفقر.

في الموعد المُحدَّد، أي في التاسعة والنصف، جاءت سيمولا تخبرها بأن الملحق العسكري لدى سفارة الدومينيكان على الباب، وبأنها سمحَت له بالدخول.

ـ أي دقة في المواعيد! ـ بادرَته مُحيِّية وهي تمدّ له يدها بالدلال المألوف.

كان أبيس غارسيا قد خلع القبعة، فلمع رأسه المُدبَّب المُضمَّخ بالكْريم، وانحنى طابعًا قبلةً على يدها، الأمر الذي كان يصدمها، لأن أحدًا لا يقبِّل أيدي السيدات في غواتيمالا.

ـ لا يليق بالمرء أن يتأخَّر على سيدة. ـ ابتسم لها المُقدِّم ـ دعي عنكِ أن يتأخَّر على رئيس الجمهورية نفسه! لا تعرفين مدى امتناني لترتيبك هذا اللقاء من أجلي يا سيدتي مارتا.

ـ أنا أصغر من أن تدعوني سيدتي. ـ ابتسمَت له وهي ترمش ـ لك أن تناديني مارتا، كما سبق وقلتُ لك.

كان المُقدِّم قد استأجر سيارة ليموزين يقودها سائق بالزي الرسمي حتى يقلّهما إلى قصر الحكم، مع أن المسيرة قريبة إلى الحدّ الذي يسمح لهما بالذهاب مشيًا على الأقدام. طلبَت مارتيتا من حارسَيْها الانتظار عند بوابة قصر الحكم. وصلا إلى هناك، فرأت مارتيتا أن لافتةً أكبر حجمًا قد حلَّت محل سابقتها، وجاء فيها أيضًا: «الرَّب، الوطن، الحرية»، شأن اللافتات التي لا يُحصَى لها عدد، تلك التي بدأت تظهر في كل أرجاء المدينة منذ انتصرَت ثورة التحرير. تذكَّر المُقدِّم أن شعار حركة التحرير القومية بقيادة كاستيّو أرماس هو الشعار الذي تبنَّته جمهورية الدومينيكان في نضالها سعيًا إلى التحرّر من احتلال هايتي، بقيادة خوان پابلو دوارتي.

تعرَّفَت فرقة الحراسة على مارتا، فسمحَت لهما بالمرور فورًا، ولم تفتِّشهما كالمعتاد. وفي الداخل، حيَّاهما المعاون، الذي كان شابًّا برتبة ملازم، وضرب كعب حذائه، رافعًا يده إلى القبعة ذات الحافة الناتئة. بعد ذلك مضى بهما إلى مكتب الرئيس، وفتح الباب بنفسه.

ما إن رآهما كاستيّو أرماس يدخلان حتى نهض تاركًا مكتبه.

ـ حسنًا... ـ قالت مارتيتا ـ هنا أترككما، حتى يتسنَّى لكما الحديث.

ـ كلا، لا تذهبي، ابقي وكفى. ـ قاطع الرئيسُ «ميس غواتيمالا» ـ لا أسرار بيني وبينك، أليس كذلك؟

التفت إلى أبيس غارسيا وشدّ على يده:

ـ لي جزيل الشرف بلقائك أيها المُقدِّم أبيس غارسيا. لم نتمكَّن من اللقاء حتى الآن. لك أن تتخيَّل كم يشغلني هذا المكتب دائمًا.

ـ يا صاحب الفخامة، أحمل إليك تحية مفعمة بالودّ من الجنرال الأعلى تروخيّو. ـ قال أبيس غارسيا وهو يمدّ يدًا مكتنزة رخوة، ويحني رأسه إجلالاً أمام رئيس غواتيمالا.

مضى الرئيس بالزائرَيْن إلى بعض الأرائك المصنوعة من المخمل الأحمر التي تشغل ركنًا كاملاً في مكتبه. ثم دلف إلى المكان ساعٍ يرتدي سترة بيضاء، فقدَّم لهما أرماس القهوة والمُرطِّبات والماء الممزوج بالثلج.

ـ كيف حال فخامة الجنرال الأعلى؟ ـ سأل كاستيّو أرماس ـ أشعر نحوه بإعجاب جارف، كما تعلم حضرتك، لأن تروخيّو هو المُعلِّم والنموذج الذي نقتدي به جميعًا في أمريكا اللاتينية. ليس لمُجرَّد أنه عرف كيف يتغلَّب على كل المؤامرات التي حاكها الشيوعيون للإطاحة به، ولكن لأنه قد أرسى النظام في جمهورية الدومينيكان وعمل على تنميتها بطريقة جديرة جدًّا بالملاحظة، فوق كل اعتبار.

ـ الإعجاب مُتبادَل، يا صاحب الفخامة. ـ قال أبيس غارسيا، وهو ينحني له مرة أخرى ـ الجنرال الأعلى يقدِّر حملة التحرير التي خضتَها غاية التقدير. لقد أنقذتَ غواتيمالا من التحوّل إلى مستعمرة سوفييتية.

بدأت مارتيتا تشعر بالضجر من الشكليات التي راح يتبادلها المسؤولان. «وكأنهما من اليابان!»، دار في خلدها. «أمن أجل هذا ألحَّ

عليَّ أبيس غارسيا بشدة في طلب اللقاء؟ كي يبادل كارلوس المجاملات؟».

وكما لو أنه حدس خواطرها، تحلَّى المُقدِّم الدومينيكاني بالجدية الشديدة، ثم همس وهو يميل على الرئيس قليلاً:

ـ أعرف أن فخامتكم رجل لديه من المشاغل الكثير، ولا أريد إهدار وقتك. طلبتُ هذا الموعد حتى أبلغك بالرسالة التي حمَّلني إياها الجنرال الأعلى تروخيّو. لقد طلب مني إبلاغك بالرسالة شخصيًا، نظرًا لأن المسألة في غاية الحساسية.

أما مارتا، التي كانت تراقب لوحة تصوِّر أهرامات المايا حول بحيرة، فاستغرقَت في صمت مطبق، وانتبهَت بكل ما تملك إلى ما يوشك الدومينيكاني على الإفضاء به. مال كاستيّو أرماس بجسده نحو ضيفه قليلاً، في جدية بالغة:

ـ أجل، أجل، لك أن تتكلَّم بكل طمأنينة. لا تقلق بشأن مارتا، اعتبرها وكأنها أنا نفسي، فهي متى دعَت الحاجة بئر بلا قرار.

أومأ أبيس غارسيا. ثم شرع في الحديث وقد خفض صوته إلى حدٍّ جعله يبدو كالهامس. أطلَّ من عينَيْه لهف شديد، وانتفخ الوريد الذي يشطر جبينه شطرَيْن:

ـ لقد اكتشف جهاز مخابرات الجنرال الأعلى مؤامرةً تهدف إلى اغتيال فخامتكم، مؤامرة تُحاك منذ زمن، بتعليمات وتمويل من موسكو.

رأت مارتيتا وجه كاستيّو أرماس الذي لم يظهر عليه التأثُّر ولا الشحوب.

ـ مؤامرة أخرى؟ ـ غمغم راسمًا على وجهه ابتسامة ـ «الحثالة» يكتشف مؤامرة كل يوم... أعني المُقدِّم ترينيداد أوليبا، من جهاز المخابرات، صديقك، أليس كذلك؟

- إنها مؤامرة دولية. - تابع أبيس غارسيا حديثه، وكأنه لم يسمع الرئيس - يقود العملية الرئيسان السابقان، أريبالو وأربينس، بطبيعة الحال. ولكن الروس اختاروا مُخطَّط المؤامرة بأنفسهم، ويُرجَّح أنهم قد اختاروا مُنفِّذيها أيضًا، بالاستناد إلى دعم الشيوعية الدولية وذهب موسكو.

مرَّت هنيهة من الصمت، تناول كاستيّو أرماس خلالها رشفة ماء.

- هل من أدلة على ذلك؟ - سأل.

- بالتأكيد يا صاحب الفخامة. لم يكُن تروخيّو ليبعث معلومة كهذه قطّ، ما لم يتحقَّق منها بالقدر الكافي. وكما يقتضي المنطق، فمخابراتنا تقتفي كل خطوات المؤامرة، يومًا بيوم.

- أعرف أنهم يريدون اغتيالي حق المعرفة، منذ زمن. - هزَّ كاستيّو كتفَيْه - لقد انتزعنا من أيديهم السلطة، وذلك شيء لا يصفح عنه الحمر بسهولة. سنرى مَن يقضي على الآخر.

- بالضبط. - قاطعه أبيس غارسيا، رافعًا يدَيْه - فضلاً عن ذلك، أرسلني الجنرال الأعلى كي أخبرك بأنه يملك الوسائل اللازمة حتى يضع حدًّا لهذه المسألة فورًا.

- هل لي أن أعرف كيف؟ - سأل رئيس غواتيمالا، وقد تملَّكته المفاجأة.

- باستئصال المشكلة من الجذور. - قال أبيس غارسيا. سكت هنيهة، ثم أردف وهو يتفرَّس في الرئيس - أي بتصفية أريبالو وأربينس قبل أن يقدما على تصفيتك.

والآن، انقبض قلب «ميس غواتيمالا» بحقّ، حتى خُيِّل إليها أنه قد توقَّف عن الخفقان. بدأ العرق يسيل من يدَيْها، لا تأثّرًا بما قال المُقدِّم أبيس غارسيا، وإنما بالطريقة الجليدية القاطعة التي تكلَّم بها، والنظرة

الثابتة الخبيثة المطلَّة من عينَيْه الجاحظتَيْن المُحملقتَيْن إلى رئيس غواتيمالا.

ـ يدرك تروخيّو أن اتخاذ إجراء راديكالي مثل هذا يشقّ على فخامتكم كثيرًا. ـ بدأ الدومينيكاني يحرِّك يمينه في دوائر، مُشدِّدًا على كلماته ـ ولكن، في مدينة تروخيّو، كل شيء مُعَدٌّ لتلك النوعية من العمليات. لن تُضطَرّ إلى التدخّل مطلقًا يا صاحب الفخامة. لن نعاود الحديث عن هذه المسألة. حتى إننا لن نخطرك بإعدادات المُخطَّط وتنفيذه. ولو دعَت الضرورة، فلن تراني مرة أخرى من اليوم فصاعدًا. كل ما عليك أن تعطينا الضوء الأخضر، وتنسى الأمر.

سكت أبيس غارسيا، فخيَّم الصمت على المكتب طويلًا. أحسَّت مارتا بقلبها يخفق أسرع فأسرع.

على مكتب كاستيّو أرماس المزدحم بالأوراق، استقرَّت لوحة صغيرة بألوان علَم غواتيمالا الوطني، في إطار من الزجاج، ورد فيها شعار ثورة التحرير المبدئي ـ «الرَّب، الوطن، الأسرة» ـ الذي قيل إن رئيس الأساقفة ماريانو روسيل إي أريَّانو هو الذي ابتكره بنفسه. وفي وقت لاحق، بدَّل أحدهم «الحرية» بـ«الأسرة». والآن، بلغَت مارتيتا من شدة الانتباه حدًّا جعلها تظنّ أنها تسمع أنفاس ثلاثتهم. كان الرئيس مطأطئ الرأس، يتأمَّل. وأخيرًا، بعد ثوان بدَت وكأنها قرون من الزمان، رأته يبتسم لحظةً، قبل أن يقول مغمغمًا:

ـ أبلغْ صاحب الفخامة تروخيّو بجزيل الشكر لعرضه أيها المُقدِّم. ـ جعل يتكلَّم وكأنه يحصي عدد المقاطع الصوتية في كلماته ـ إنه رجل سخي، أعرف جيدًا، ومساعدته كانت حاسمة في الحملة التي تشرَّفتُ بقيادتها.

ـ لستَ مضطرًّا للردّ على الفور. ـ مال أبيس غارسيا بجسده إلى

الأمام ثانيةً ـ لو شئت أن تدرس الأمر وتقلّبه على أوجهه، فلا مشكلة على الإطلاق يا صاحب الفخامة.

ـ كلاً، كلاً، أفضل الردّ فورًا. ـ قال الرئيس على نحو قاطع ـ إليك جوابي: لا. الأفضل أن يبقى كلاهما على قيد الحياة. عندي أسبابي، ولسوف أوضحها لك يومًا.

بدا وكأنه يهمّ بإضافة شيء ما، ولكنه أطبق شفتَيْه المنفرجتَيْن نصف انفراجة، ثم لم يزِد على قوله كلمة واحدة، بل شرد بعينَيْه مُحدِّقًا إلى نقطة في الفضاء.

ـ ممتاز يا صاحب الفخامة. ـ قال أبيس غارسيا ـ سوف أخطر الجنرال الأعلى بالردّ فورًا. وغني عن القول إنني سوف أسلِّمك جميع التقارير المُتعلِّقة بالمُخطَّط الذي وضعه أريبالو وأربينس بمعاونة موسكو.

ـ أغدو شاكرًا. لا تنسَ أن تعرب لتروخيّو عن امتناني لعرضه. ـ أردف كاستيّو أرماس وهو يهبّ واقفًا، معلنًا بذلك نهاية اللقاء ـ أعرف أنه صديق جيد يمكنني الوثوق به. وأتمنّى لك إقامة هانئة في بلدي.

قام أبيس غارسيا و«ميس غواتيمالا» أيضًا. في حين مدَّ كاستيّو أرماس يده للزائر.

ـ أتمنّى لك مهمة ناجحة في غواتيمالا. ـ كرّر، وفيما هو يلتفت إلى مارتا أردف بقدر أقل من الرسمية ـ: سأحاول تناول الغداء في البيت. ولكن لا تنتظريني. تعلمين أن وقتي ليس ملكي.

خرجَت هي والمُقدِّم من قصر الحكم في صمت. وبينما هما في الشارع، همس إليها أبيس غارسيا، قبل ركوب السيارة:

ـ سيدتي، لا أدري إن كان سماعك هذا الحديث شيئًا جيدًا. ولكني لم أجد بديلاً، فربما تكون تلك هي الفرصة الوحيدة السانحة لإبلاغ الرئيس برسالة الجنرال الأعلى تروخيّو شخصيًا.

ـ أنا لم أسمع شيئًا ولا أذكر شيئًا. ـ قالت بجدية شديدة ـ لا تقلق بهذا الشأن.

وبينما السيارة ماضية في طريق العودة إلى بيت «ميس غواتيمالا»، خيَّم عليهما الصمت. ترجَّل المُقدِّم من السيارة أولاً حتى يفتح لها الباب. وعند الوداع، انتبهَت مارتيتا إلى يد أبيس غارسيا الحارة الرطبة، ولاحظت أنه استبقى يدها أطول مما تقضي به الحكمة، وجعل ينظر إليها نظرة جريئة، تكاد تبلغ حدّ البذاءة. وإذا هي تحسّ بقشعريرة.

مكتبة
t.me/t_pdf

١٨

اقتحم المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا مكتبه كالإعصار، ومن على أعتاب الباب، صاح بقوله:

ـ لقد تعرَّض الرئيس لمحاولة اغتيال! فلتُعلَن حالة الطوارئ فورًا! ولتُقفَل الحدود! ولتنتشر الدوريات في جميع النقاط الاستراتيجية! وليصدر أمر بعدم التحرّك في الثكنات! بلا استثناء!

رأى الحيرة تشلّ أطراف الاثني عشر رجلاً ـ الذين كان بعضهم في ثياب مدنية وبعضهم في ثياب عسكرية ـ بينما أخذوا ينظرون إليه من مكاتبهم في دهشة وذعر، في حين نهض عدد منهم، وهم لا يملكون عمل شيء. ما هي إلاَّ لحظة حتى أمسك كلٌّ منهم سماعة هاتف وشرع ينقل الأوامر إلى سائر أرجاء البلاد.

ـ يبدو أن الفاعل جندي من جنود الحراسة. ـ أوضح المُقدِّم ـ أنا في حاجة إلى التحدّث إلى قائد الحرس الرئاسي فورًا.

ـ أجل يا سيدي، حالاً. ـ سارع أحد مساعديه، الشاب الذي كان يرتدي ثيابًا مدنية ويضع على عينَيْه نظارة وخلف أذنه قلمًا، واتَّصل بالرقم المنشود ثم مرَّر له الهاتف.

ـ أنا المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا، مدير الأمن. ـ قال فور تلقّيه سماعة الهاتف، بصوت عالٍ جدًّا، حتى يسمعه جميع الحضور في المكتب ـ مَن المُتحدِّث؟

ـ الرائد أدالبيرتو بريتو غارسيا. ـ أجاب الصوت عَبْر الهاتف ـ تأكَّد الخبر يا سيدي. أحد جنود الحراسة هو مرتكب الجريمة. يبدو أنه قد انتحر. طبقًا للطبيب الشرعي، الذي وصل منذ لحظات، أصيب الرئيس برصاصتَيْن، إحداهما أفضَت إلى الموت.

ـ هل أُلقِي القبض على المشتبه فيهم؟ ـ سأل المُقدِّم.

ـ ليس بعد يا سيدي. نعمل على تفتيش قصر الحكم، حجرة تلو أخرى. ولقد أمرتُ بحظر خروج جميع الحاضرين في قصر الحكم، لحين إشعار آخر. الجندي القتيل يُدعَى روميو باسكيس سانتشيس. ما كاد يقترف جريمته حتى انتحر، على ما يبدو. أغلب الوزراء هنا. ولقد وصل رئيس مجلس النواب من فوره، السيد إسترادا دي لا أوس.

ـ سأذهب إلى هناك متى فرغتُ من اتخاذ بعض إجراءات الطوارئ. ـ قال ترينيداد أوليبا ـ أبلغني بكل ما يطرأ من أخبار. آه، مهلاً، كيف حال السيدة أوديليا؟

ـ ناولها الطبيب بعض المهدئات. ثوبها كاملاً مُضرَّج بالدماء. لا تقلق، سأخطرك بما يطرأ من أخبار.

توجَّه إنريكي ترينيداد أوليبا إلى مساعده، العميد إرنستو إليسپورو، الذي رآه قادمًا فهبَّ واقفًا على قدمَيْه، وجعل يتحدَّث إليه بصوت خفيض، وهو في غاية الشحوب:

ـ تراها جريمة اغتيال ارتكبها الشيوعيون؟ يُخيَّل إليَّ أنها كذلك.

ـ إن لم يكُن الشيوعيون، فمن يكون الفاعل! ـ قال رئيسه ـ على كل حال، لا بد من البدء في اعتقال المشتبه فيهم حالاً. تولَّ الأمر بنفسك. إليك هذه القائمة. عسى ألاَّ يهرب واحد منهم. أنت مسؤول أمامي.

ـ أجل، لا تقلق، سوف أصدر الأوامر فورًا.

همَّ المُقدِّم ترينيداد أوليبا بالذهاب، غير أنه دار على عقبَيْه وعاد أدراجه:

ـ ألقوا القبض على مارتا بورّيرو هي الأخرى، عشيقة الرئيس! ـ أمَر مساعدَه ـ فورًا.

فاستغرق العميد إليسپورو في النظر إليه، ذاهلاً.

١٩

بالنسبة إلى مارتيتا، لم يبدأ السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٧ بداية سيئة وحسب، بل في غاية السوء. لم تنَم إلاَّ قليلاً، نومًا تخلَّلَته الكوابيس. ولمَّا فتحَت عينَيْها فجرًا، رأت أول ما رأت قطًّا أسود على حافة النافذة، يرمقها بعينَيْن خضراوَيْن شيطانيتَيْن. سرَت رعشةٌ إليها، من قمة الرأس إلى أخمص القدمَيْن. ولكنها ما لبثَت أن تحرَّكَت. فأزاحَت الناموسية، وأمسكَت بخفّها، ثم رشقَت به القط حانقةً. سمع القط وقع الضربة على الزجاج، فانطلق راكضًا.

في غيظ، وبجسد مُثقَل بحمل الكوابيس والليلة المزعجة، ذهبَت إلى دورة المياه وهي تتوكَّأ على الطاولة. أحسَّت بيدها تنزلق وتطيح بالمرآة الصغيرة التي كانت هناك، فسقطَت المرآة على البلاط، وتهشَّمَت إلى ألف شظية. الآن أفاقَت تمامًا. «قط أسود، ومرآة مكسورة!»، جعلَت تفكِّر، وقد سرَت إليها القشعريرة. إنه ليوم موسوم بالحظ العاثر. يوم لا يجدر بالمرء الخروج فيه من البيت، فلربما وقع له أي مكروه، ابتداءً بالزلازل، وصولاً إلى الثورات، مرورًا بكل صنوف الكوارث: فالشياطين طليقة، قادرة على ارتكاب ما يحلو لها.

ارتدَت الروب وطلبَت من سيمولا أن تجهِّز لها الفطور وحمام الماء الدافئ. وبينما هي تتناول عصير الفاكهة وفنجان الشاي مع رقاقة التورتيَّا المضاف إليها قليل من الفاصوليا، راحَت تلقي نظرة على صحف اليوم.

وفي تلك الأثناء دقَّ جرس الهاتف. كانت المتصلة هي مارغاريتا ليبايّيه، زوجة وزير العدل التي توثَّقَت صداقتها بمارتا. اتَّصلَت مارغاريتا سائلة عن إمكانية الذهاب معًا إلى الحفل الذي يقيمه الليلة وزير الدفاع، الكولونيل خوان فرانسيسكو أوليبا، بمناسبة عيد ميلاده.

ـ لم يقُل لي كارلوس عن ذلك الحفل شيئًا. ـ أجابت مارتا ـ لطالما نسي تلك الأمور. أو لعلّ المدعوة الرسمية هي أوديليا؟

ـ كلاَّ، كلاَّ. ـ أكَّدَت لها مارغاريتا ـ تحدَّثتُ إلى أوليندا منذ قليل، تعرفين أنها من أنصارك، ولقد أخبرَتني بأنكِ أنت المدعوة، لا تلك المرأة.

ـ في هذه الحالة، سيكون من دواعي سروري. فلنذهب معًا. ـ قالت «ميس غواتيمالا» ـ لا بد أن كارلوس قادم لتناول الغداء. لا أدري ما إذا كان يرغب في الخروج معي من هنا أم أنه سوف يتوجَّه إلى هناك من قصر الحكم. على كل حال، يمكننا الذهاب معًا، بالتأكيد.

اتَّخذَت الحرب الدائرة بين مارتيتا وأوديليا پالومو، زوجة الكولونيل كاستيّو أرماس، أبعادًا جعلَت «ميس غواتيمالا» تشعر بالاضطراب. والآن، حتى زوجات الوزراء تدخَّلن في تلك الحرب. كانت مارغاريتا، زوجة رئيس العدالة، من أنصارها الأوفياء، كما يبدو أن زوجة وزير الدفاع من مُشجِّعي فريقها أيضًا (هل تُدعَى أوليندا؟ لم تذكر مارتا منها إلاَّ مؤخرتها الضخمة المتراقصة). ومع أن تلك الحرب الصغيرة أشبعَت كبرياءها، فلقد بدأ الأمر برمّته يبدو لها محفوفًا بالأخطار. حتى مايك، ذلك الغرينغو الغريب الذي لا يُدعَى مايك، قال لها: «إن تلك الحرب الصغيرة القائمة بينك وبين السيدة أوديليا پالومو باتَت في غاية القبح. أرى أنها لا تلائم أحدًا، ألا توافقينني الرأي؟».

ضحكَت مارتيتا وهي تذكر الغرينغو. هل يُدعَى مايك؟ «دعينا نقُل إنه

يُدعَى مايك»، كما قال أبيس غارسيا باسمًا يومَ عرَّفها به. ثم أردف بلا مزيد من الإيضاح: «من المُؤكَّد أنه اسم زائف». كان كل ما يتعلّق به غامضًا، ولم يعُد لديها أدنى شك في أنه يعمل لحساب السي آي إيه، في حقيقة الأمر. لم يسألها قطّ عن الأسرار الكبرى (التي لا تقدر على كشفها بأي حال من الأحوال)، وإنما اكتفى بالسؤال عن النمائم، وتوافه الأمور، والترهات. ذات يوم مازحَته قائلة إنها لن تستمرّ في تزويده بكل هذه المعلومات ما لم يدفع لها الحساب لاحقًا. ولشدّ ما كانت مفاجئتها حين مدّ لها مايك مظروفًا، يومَ التقيا في المرة التالية، وفسَّر ما بدر منه قائلًا إنه من المنصف أن يكافئها، ما دام يشغلها إلى هذا الحد. «لم أدرِ يومًا ماذا أهدي النساء»، أردف مايك، «حتى زوجتي. أفضِّل أن يشترين الهدايا بأنفسهن». فحارت بين طرده من بيتها وقبول الهدية، وأخيرًا قبلَت. كانت لعبة محفوفة بالأخطار، وذلك شيء تعرفه مارتا، ولكن الخطر يستهويها، وتلك المظاريف الصغيرة تسمح لها بأن تملك مالها الخاص، برغم كل شيء. ألم يكُن ذلك أمرًا غريبًا؟ كان في منتهى الغرابة، بكل تأكيد. والحق أن حياتها باتَت شديدة الغرابة في الآونة الأخيرة، ولا سيما بسبب المُقدِّم الدومينيكاني وذلك الغرينغو الذي لا يُدعَى مايك.

جاء كارلوس والنهار ينتصف لتناول الغداء. كان في مزاج لا يُحتمَل. وعندما أخبرَته بأن مارغاريتا قد اتَّصلَت بها سائلة عن إمكانية الذهاب معها إلى حفل الليلة، اكتفى بالسؤال: «أي حفل هذا؟»، واستمرَّ في ذمِّ «الحثالة» بأقذع الكلام، وقال عنه إنه: لا يفعل شيئًا، ولا يعرف شيئًا، بل إنه متقاعس، وأسوأ ما في الأمر أنه يخفي عنه الأمور. يُحتمَل أن يكون خائنًا، كغيره الكثيرين. تراءى لمارتا أن رئاسة غواتيمالا قد نغَّصَت حياته، بدلاً من أن تسعده. كان يشعر بالضيق والغمّ، ويرتاب في المؤامرات والمكائد التي يحيكها جميع المحيطين به، طوال الوقت.

بعد دقائق، وفيما هو يتناول الغداء المُؤلَّف من اللحم المفروم والأرز، التفت إليها وسأل مرة أخرى، والمزاج العكر لا يفارقه:

ـ أي حفل هذا؟

ـ الحفل الذي سيقيمه وزير الدفاع في بيته، بمناسبة عيد ميلاده. تقول مارغاريتا إنه حفل باذخ. دُعِي إليه جميع الوزراء وزوجاتهم.

ـ إلاَّ أنا. ألا تبدو لكِ وقاحة؟ ـ غمغم كاستيّو أرماس، وهزَّ كتفَيْه ـ حفل يحضره جميع الوزراء، ويُستثنَى منه رئيس الجمهورية! لعلّه خائن آخر في مجلس الوزراء؟ حتى الآن كنتُ أعتبر خوان فرانسيسكو أوليبا واحدًا من أوفى الرجال. ولكن ربما جانبني الصواب، طبعًا. فضلاً عن ذلك فهو شقيق إنريكي ترينيداد، ما يفسِّر كل شيء.

ـ أمر في منتهى الغرابة، أنت محق. ـ أومأت مارتا ـ حتى زوجتك لم تُدعَ إلى الحفل، كما أخبرَتني مارغاريتا. يظهر أن أوليندا زوجة وزير الدفاع من أنصاري أنا.

لم يبدُ على كاستيّو أرماس أنه سمع حديثها: بل إنه استغرق في التفكير، مُتجهِّم الوجه.

ـ كل يوم تجري أمور هي آخر ما يتوقّعه المرء. ـ سمعَته يقول ـ أجل، أعتقد بأن أوليبا يشغل منصبًا لا يليق به. ذلك المنصب أهمّ من أن أكلِّف به شخصًا عديم الأهمية من قبيل «الحثالة». دع عنك أن أكلِّف به خائنًا محتملاً.

ـ أتعزل مدير الأمن في حكومتك؟

ـ ما عدتُ أثق به. ـ بدا كارلوس على قدر من الشحوب، وبدلاً من تناول الطعام، راح يقلِّب اللحم المفروم بالأرز من جانب إلى آخر ـ أكتشف أشياء مريبة بشأنه منذ فترة. لا يلعب لعبًا نظيفًا، بل إنه يشعر نحوي بالغيرة، ويقترف حماقات. والشخص الحقود يُمثِّل خطورة دائمًا.

ـ هل لي بمعرفة السبب الذي يدفعك إلى الارتياب بشأنه الآن؟ كان صديقك في ما مضى. ـ قالت مارتا. ثم أدركَت أن كاستيّو أرماس قد شرد مُجدَّدًا، فلا هو سمعها ولا رآها، وإنما شعر بذلك القلق المتزايد الذي كان ينخر نفسه ويستحوذ عليه ليل نهار. ما الذي اكتشفه؟ ما الشيء الذي تركه في هذه الحالة؟ وفجأة، رأته ينهض بحدة، قبل أن تصل القهوة الثقيلة التي لا تفوته أبدًا بعد الغداء.

ـ أنا ذاهب. ـ قال، وهو ينحني طابعًا قبلة على رأسها بحركة آلية. وما لبث أن ارتدى السترة التي تركها ملقاة على الأريكة، ثم عجَّل بالابتعاد ماضيًا صوب الباب المفضي إلى الشارع بخطى واسعة.

أي أمور شيطانية تجري في غواتيمالا؟ لم تكُن مُجرَّد هواجس، بل تأكَّدَت مارتا أن القط الأسود والمرآة المكسورة فجرًا ينذران بمصيبة فادحة، ربما كانت لها آثار مُدمِّرة على حياتها. هل كان سفر أبيس غارسيا المفاجئ إلى الخارج نذير شؤم آخر؟ أي شيء لعين على وشك الوقوع؟

قبل يومَيْن، حضر الملحق العسكري الدومينيكاني إلى بيتها من دون سابق موعد، في الثالثة مساء، بعد أن استيقظَت لتوّها من القيلولة القصيرة المعتادة بعد الغداء.

ـ أعتذر ألف مرة عن حضوري المفاجئ. ـ اعتذر المُقدِّم وهو يمدّ لها يده في تلك الصالة الصغيرة التي تقع في صدر البيت ـ جئتُ أودِّعك.

حضر بالثياب المدنية، إذ كان يرتدي معطفًا ويضع حول عنقه ربطة ويحمل بيده حقيبة ممتلئة.

ـ كلَّفتَني حكومتي بمهمة. ـ أوضح لها ـ وسأذهب إلى المكسيك أيامًا قليلة.

ـ أتسافر في رحلة عمل إذن؟

ـ أجل. ـ عجَّل بقوله، وهو يجيل عينَيْه الجاحظتَيْن في المكان، ويمرِّر لسانه على شفتَيْه اليابستَيْن ـ أعود خلال يومَيْن أو ثلاثة أيام على أقصى تقدير. ألا ترغبين في شيء من المكسيك؟

ـ كم لطيف منك أن تحضر لوداعي! ـ قالت مارتيتا، وهي تحرِّك عينَيْها النجلاوَيْن ثم تغمضهما ـ أتمنى لك رحلة سعيدة، وبالتوفيق في المهمة التي عُهِد إليك بها.

كان أبيس لا يزال واقفًا حين أشارَت إليه بالجلوس، فأجاب بأنه في عجلة شديدة من أمره. تحلَّى بالجدية الشديدة، وتراءى وجهه أشدّ وجومًا حين أردف وهو يخفض صوته قليلاً:

ـ مارتا، تعلمين كم أقدِّركِ.

ـ التقدير مُتبادَل أيها المُقدِّم. ـ ابتسمَت له.

ولكن أبيس غارسيا لم يبتسم. بل إنه تلفَّت حوله وكأنما ليتأكَّد أن أحدا لا يمكنه سماع حديثهما.

ـ أقصد بذلك أنه لو وقع في غيابي شيء، فيمكنكِ الاعتماد عليَّ دائمًا، ما دعَت الحاجة إلى ذلك، بصفتي صديقًا وفيًّا مخلصًا.

ـ وأي شيء قد يقع أيها المُقدِّم؟ ـ شعرَت مارتيتا بالقلق.

ـ في بلادنا، تقع أمور غير مُتوقَّعة دائمًا. ـ أردف أبيس غارسيا بابتسامة بدَت وكأنها تقطيبة ـ لا أريدكِ أن تشعري بالقلق مطلقًا. كل ما أقصده أنه يمكنكِ الاتصال بمايك أو غاسيل لو احتجتِ إلى مساعدة في غيابي. لقد دوَّنتُ أرقام كليهما في هذه الورقة الصغيرة. لا تضيعيها. يمكنكِ الاتصال بهما في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار. إلى اللقاء قريبًا يا صديقتي.

سلَّمها الورقة الصغيرة، ثم طبع قبلة على يدها، ورحل. لم تولِ مارتا أهمية كبرى لما حسبَته مُجرَّد غزل من أحد المعجبين في حينه. أما

الآن، في هذا اليوم الحافل بأمور في غاية الغرابة، فقد اكتسب وداع المُقدِّم الدومينيكاني معنى ينطوي على قدر من الكآبة. ما سرّ رحيله المفاجئ، وأرقام الهاتف التي تركها لمارتا؟ تحقَّقَت من جارور الطاولة المجاورة للفراش، وهناك وجدَت أرقام الهاتف. كانت الورقة الصغيرة لا تزال في يدها حين أقبلَت سيمولا تخبرها بأن السيد مايك يودّ رؤيتها.

أقبل بثيابه المعهودة، البنطال الجينز والقميص الرياضي المُربّع الخطوط الذي شمَّره عن ساعدَيْن يكسوهما الشعر الغزير. كان يتحدَّث الإسبانية بطلاقة قاربَت حدّ الكمال. كان أبيس غارسيا قد أخبرها بأنه فني أرصاد جوي لدى سفارة الولايات المتحدة، وبأنه يرغب في التعرّف عليها كي تحيطه علمًا بالوضع الاجتماعي والسياسي في غواتيمالا. ما زالت مارتا تشعر بالضيق لأن مايك يسلِّمها مظاريف الدولارات الصغيرة بمنتهى العفوية كلما تحدَّث إليها، مازجًا النمائم الاجتماعية بالأسئلة السياسية. وإن برَّرَت الأمر قائلةً لنفسها إن تلك النقود تُعتبَر دخلاً شخصيًا، على الأقل. ما كانت تملك من النقود شيئًا، باستثناء نفقات البيت التي يصرفها لها كارلوس بلا أدنى زيادة. ولكن في هذه المرة لم يحضر مايك حتى يسألها في النمائم والسياسة، بل جاء يحذِّرها، بطريقته المباشرة الفظَّة المعهودة.

ـ جئتُ أحذِّركِ يا مارتيتا. ـ قال ناظرًا إليها وقد لاح في عينَيْه الصافيتَيْن شيء من الحذر ـ كما تعرفين جيدًا، لديك عدد كبير من الأعداء. بسبب وضعكِ، أقصد علاقتك بالرئيس. وربما وجدتِ نفسك تمرّين بوقت عصيب، استثنائي.

ـ ماذا يعني كل هذا يا مايك؟ ـ قاطعَته مارتا. لم ترِد أن يبدو عليها الذعر، وإن شعرَت به.

ـ جهِّزي حقيبة وضعي فيها ما لا غنى لكِ عنه من الأغراض. ـ قال

مايك خافضًا صوته، وهو لا يحوِّل عينَيْه عنها ـ كوني على أهبة الرحيل، لو اقتضى الأمر. في أي لحظة. لا يمكنني أن أزيد على ما قلتُ شيئًا. لا تخبري أحدًا بكلمة واحدة مما أقول. ولا سيما الكولونيل كارلوس كاستيّو أرماس.

ـ أنا لا أخفي عن كارلوس شيئًا. ـ أجابَته حائرة.

ـ احتفظي بما قلتُ لنفسك. ـ قال، وقد لاحت في صوته الآن نبرة قاطعة ـ لو دعَت الضرورة، سأتَّصل أو أمرّ بكِ. لا تخرجي من هذا البيت لأي سبب. ولا تستقبلي أحدًا. سوف أحضر بنفسي، أو أرسل السيد كارلوس غاسيل كاسترو نيابةً عني. لقد تعرَّفتِ به، أليس كذلك؟ إنه ذلك الرجل الذي يذكره الجميع بسبب قبحه. أقولها لمصلحتك يا مارتا، صدقيني. يجب عليَّ الذهاب. إلى اللقاء.

رحل الغرينغو من دون أن يمدَّ لها يده. فاستغرقَت هي في الذهول والخرس. حتى إنها لم تتمكَّن من سؤاله عن معنى تلك الأوامر التي تلقَّتها من فورها. وكيف يجرؤ على توجيه الأوامر إليها؟ هل جُنَّ جنون ذلك الغرينغو؟ ماذا يجري في غواتيمالا؟ سرعان ما خطر لها أن الرئيس في خطر، وأن تحذيره واجب عليها، فالأمر شديد الجدية، ولا شك في وجود مؤامرة قيد التنفيذ. انقلاب محتمل. كيف علم أبيس غارسيا ومايك؟ أمسكَت الهاتف، ولكنها تردَّدَت قبل الاتصال. وماذا لو فات أوان تحذيره؟ أضف إلى ذلك أن كارلوس لم يكُن على علم بأمر زيارات أبيس غارسيا ومايك إلى بيتها بصفة دورية. سوف يطلب منها معلومات دقيقة، وبيانات مُحدَّدة، ويرتاب في أمرها مدفوعًا إلى ذلك بغيرته الأبدية، وهكذا تقع هي نفسها في ورطة. خاضَت مارتا بحرًا من الشكوك، وجفّ حلقها من فرط الغمّ.

أمضَت البقية الباقية من المساء ونفسها تجيش بالتردّد. أتّتصل

بكارلوس أم لا؟ وفي لحظة بعينها، شرعَت تملأ حقيبة اليد بما لا غنى لها عنه من الأغراض، استعدادًا لرحلة مرتجلة، من دون أن تدرك بوضوح ما هي فاعلة، أو تخبر سيمولا بشيء، ومن دون أن تستقرّ على الاتصال بكارلوس في قصر الحكم. وضعَت في الحقيبة مظاريف الدولارات الصغيرة التي تلقَّتها من مايك أيضًا. بات رأسها زوبعة، وكاد قلبها يقفز من صدرها. أيكون ذلك آخر أيام حياتها؟ أهناك من يرغب في قتلها حقًّا؟ ذلك ما ألمح إليه الغرينغو، أجل، ذلك بعينه. ربطَت بين كل ما يجري وبين وداع أبيس غارسيا الغامض ورحلته إلى المكسيك قبل يومَيْن. لم يفارقها الخوف لحظة واحدة طوال البقية الباقية من ذلك المساء، حتى أقبل الليل.

قرب الخامسة، جاءت سيمولا تسأل مارتا عما إذا كانت تريد منها أن تقدِّم الشاي والكعك. رأتها سيمولا شاحبة إلى حدٍّ أدهشها. «أتشعرين بوعكة يا صغيرتي؟». هزَّت مارتا رأسها نافية، وقد اضطربَت إلى درجة منعَتها من التفوّه بكلمة واحدة، خشية أن تلحظ سيمولا مشاعر الارتباك والذعر التي استحوذَت عليها.

بعد قليل، تلقَّت مكالمة من كارلوس الذي اتَّصل بها من مكتبه في قصر الحكم.

ـ هل أنتِ مُتأكِّدة أن مارغاريتا أخبرَتك بإقامة حفل في بيت وزير الدفاع؟ ـ سألها.

ـ أتحسبني مجنونة حتى أختلق أمرًا كهذا؟ أنا مُتأكِّدة تمامًا. ـ أجابته ـ لماذا تسألني؟

ـ تحدَّثتُ إليه لتوِّي، فأنكر. ـ قال كارلوس ـ هل أخبرَتكِ مارغاريتا حقًّا...؟

ـ أخبرَتني بما قلتُ لك بالحرف الواحد. ـ غضبَت مارتا ـ سألَتني عن

إمكانية الذهاب معها إلى ذلك العشاء. وقالت إن أوديليا لم تكُن مدعوة. ولماذا أختلق حماقة كهذه؟

ـ لا أقصدكِ أنتِ. ولكن أحدهم اختلق تلك القصة، على ما يبدو. ـ قال كارلوس عَبْر الهاتف.

ـ ربما كانت زوجة وزير الدفاع قد أعدَّت له مفاجأة بمناسبة عيد ميلاده، وهو لا يدري شيئًا (زوجته التي تُدعَى أوليندا، أليس كذلك؟ صاحبة المُؤخِّرة الضخمة). ـ أردفَت مارتا.

ـ ربما. ـ قال كارلوس ـ على كل حال، بدا خوان فرانسيسكو متفاجئًا بحق. لو صحّ الأمر، فلقد أفسدنا مفاجأة أوليندا.

ـ صبيحة اليوم، ما كدتُ أفتح عينَي حتى رأيت قطًّا أسود. ـ قالت مارتيتا فجأةً ـ وبعد قليل كسرتُ مرآة وأنا في طريقي إلى الحمام.

ـ وما الذي يعنيه ذلك؟ ـ ضحك الرئيس ضحكة مقتضبة مفتعلة.

ـ ما لا يقلّ عن سبع سنوات من الحظ العاثر. ـ قالت مارتيتا ـ أعرف أنك لا تؤمن بتلك الأمور التي تبدو لك ضربًا من الحماقة.

ـ من المُؤكَّد أنها ضرب من الحماقة. ـ أجابها كاستيّو أرماس ـ على كل حال، لا تقلقي.

ـ حتى أنا لا أؤمن بها، غير أنني أشعر بالخوف، وإن لم أؤمن بها. ـ أقرَّت مارتا ـ أتحضر الليلة؟

ـ أودّ ذلك، ولكن لا... لا أستطيع. ـ قال كارلوس ـ سأعمل كثيرًا، طوال المساء. وعندي اجتماع برجال الأعمال في قصر الحكم لأشجِّعهم على الاستثمار في البلد. غدًا ألقاك. الفوضى هنا عارمة، سأحكي لكِ.

وضعَت مارتيتا السماعة وهي ترتجف كما لو أنها قد أصيبت بحمَّى الملاريا. كانت عيناها مغرورقتَيْن بالدموع. «يجب عليكِ أن تهدأي»،

أمرَت نفسها. «يجب عليكِ التفكير برأس بارد ما دمتِ لا تريدينهم أن يقتلوك».

اتَّصلَت بمارغاريتا، ولكنها لم تكُن في البيت. أو لعلّها تتهرَّب منها؟ عاودَت الاتصال بها عدة مرات، فتعلَّل الخدم بمختلف الأعذار. كيف يُعقَل أن تتَّصل بها مارغاريتا حتى يذهبا معًا إلى حفل وزير الدفاع، ثم ينفي خوان فرانسيسكو إقامة مثل هذا الحفل في حديثه إلى الرئيس؟ هل مِن رابط بين كل هذا وبين زيارة مايك وتعليماته العجيبة لها بأن تعدّ «حقيبة صغيرة» وتضع فيها أهم أغراضها. هل فعلَت حسنًا بإخفاء الأمر برمّته عن كاستيّو أرماس نفسه؟ ربما مرَّ بها حتى يقلّها بالسيارة ذلك الكوبي المدعو كارلوس غاسيل كاسترو، الذي يبدو مثل قطّاع الطرق ويعمل لحساب المُقدِّم ترينيداد أوليبا ويقود سيارة أبيس غارسيا. ولكن، إلى أين يمضي بها؟ سوف تتَّصل بقصر الحكم فورًا، وتخبر كارلوس بكل شيء. ذلك واجبها. ولكنها ما كادت ترفع السماعة حتى ارتابت في الأمر مُجدَّدًا، ولم تتَّصل. قال لها مايك ألاّ تبوح بكلمة واحدة، «ولا سيما» للرئيس نفسه. كيف تسوِّل له نفسه تلك الأمور، ذلك الغرينغو الذي لا يُدعَى مايك؟ لماذا يعطيها النقود؟ هل أساءت التصرّف حين تاجرَت بتلك النمائم التي كانت تخبره بها؟

كانت في تلك الحالة من الغمّ حين دلفَت سيمولا إلى حجرتها سائلة عما إذا كانت تريد منها تقديم العشاء. نظرَت إلى ساعتها: التي أشارَت عقاربها إلى الثامنة، ثم أجابتها بالموافقة، ولكنها لم تذُق لقمة واحدة عندما قُدِّم الطعام. غسلَت أسنانها، وارتدَت قميص النوم، ثم أوَت إلى الفراش. أحسَّت بألم في جسدها، وبإرهاق شديد، وكأنها أمضَت ساعات طوالاً في السير. كانت على وشك الاستغراق في النوم حين عادت سيمولا إلى حجرة مارتا، والذعر يطلّ من عينَيْها، لتخبرها بأن ذلك الغرينغو قد اتَّصل، وطلب من سيمولا أن توقظها، لأن الأمر

عاجل جدًّا. طوال البقية الباقية من حياتها، لن تنسى مارتا المحادثة بالغة القصر التي دارَت بينها وبين مايك.

ـ ما الخطب؟ ما الخطب يا مايك؟

ـ غاسيل في طريقه إليكِ حتى يقلّكِ بالسيارة. سوف يصل خلال ثلاث أو أربع دقائق. كوني في انتظاره عند الباب. لقد صُرِفَت الحراسة عن بيتكِ، ولم تعُد هناك.

كان يتكلَّم بثقة واضحة، وإن حدسَت مارتيتا بأنه يبذل جهدًا كبيرًا لئلا يكشف التوتّر الذي اعتراه.

ـ إلى أين يمضي بي؟ أنا لا أثق بذلك الرجل شديد القبح.

ـ مارتا، حياتك الآن رهن به.

ـ سأتّصل بكارلوس وأخبره بكل شيء. ـ قالت.

ـ لقد تعرَّض الرئيس لمحاولة اغتيال، ولا يُعرَف ما إذا كان قد فارق الحياة أم أصيب بجرح غائر. ـ قال مايك بجفاء ـ مارتا، قد يُصدِر المُقدِّم ترينيداد أوليبا أمرًا بإلقاء القبض عليكِ بتهمة التواطؤ في الجريمة. لو فعل، فمن المُرجَّح أن تتعرَّضي للاغتيال، لا الاعتقال. نجاتكِ من الموت رهن بك. لقد صُرِفَت الحراسة عن بابك ابتداءً من مساء اليوم، الأمر الذي يُعَدّ نذير شر. مارتا، اخرجي واستقلِّي السيارة مع غاسيل.

ثم أنهى المكالمة. فلم تتردَّد لحظة واحدة. وإنما سارعَت بارتداء ثيابها، وأخرجَت حقيبتها، ثم قطعَت الصالة تتبعها سيمولا التي راحت ترسم علامة الصليب مرة تلو أخرى. فوجئَت مارتا بغياب الحراس الذين كانوا يشملون البيت بالحماية ولا يفارقون موقعهم ليل نهار. واربَت الباب المفضي إلى الشارع، فوجدَت باقي جنود الحراسة وقد اختفوا بدورهم، وخلَت منهم المقصورة، كما أخبرها مايك. لماذا صُرِفَت الحراسة عن بيتها؟ وجدَت سيارة سوداء تنتظر على مقربة من البيت. ثم

انفتح أحد أبواب السيارة، ورأت وجه غاسيل البشع يطلّ من خلفه. بدا في غاية التوتّر هو الآخر. لم يبادرها حتى بتحية المساء، بل إنه أمسك الحقيبة الصغيرة وعجّل بوضعها في الصندوق. ثم فتح لها الباب الخلفي حتى تستقلّ السيارة.

ـ أسرعي يا سيدتي، أسرعي. ـ سمعَته يقول.

عندما انطلقَت السيارة، أدركَت مارتا أنها قد نسيَت أن تودّع سيمولا. مضَت السيارة مطفأة المصابيح عَبْر شوارع وسط المدينة الخاوية. بدا كل شيء هادئًا.

وعلى مدى الأيام والسنوات التالية، كثيرًا ما سوف تذكر مارتا تلك السيارة التي انطلقَت مطفأة المصابيح، بسرعة طائشة، عَبْر الشوارع المعتمة، شوارع حي سان فرانسيسكو، أقدم أحياء مدينة غواتيمالا. لم تدرِ أنها لن تعود إلى شوارع تلك المدينة مرة أخرى، ولا ذلك البلد الذي هجرَته في ذهول، وهي لا تفهم الكثير مما يدور حولها. لن تنسى أنها قد عرفَت الخوف آنذاك، وربما كانت تلك أول وآخر مرة تعرف فيها الخوف مدى الحياة... خوف مروِّع، رعب تغلغل إلى عظامها، وترك كل موضع في بشرتها رطبًا. بدا قلبها وكأنه مضخة، وأحسَّت به يكاد يقفز من صدرها بين لحظة وأخرى. هل تعرَّض كارلوس لمحاولة اغتيال حقًّا؟ ولِمَ لا؟ ألم يكُن تاريخ غواتيمالا حافلًا باغتيالات الساسة والرؤساء؟ كم رئيسًا لقي مصرعه اغتيالًا؟ أليس من المدهش أن يصدر المُقدِّم ترينيداد أوليبا أمرًا بإلقاء القبض عليها؟ لتواطؤها في الجريمة! هي! رباه! لا بد أنها مؤامرة حاكتها أوديليا، طبعًا، تلك التي تواطأت هي ومدير الأمن. لقد بلغ مارتا أن «الحثالة» يشعر بالضعف أمام زوجة كارلوس فعلًا. أو هل كان مايك يحاول زرع الخوف في نفسها بهدف إبعادها؟ لم تكُن شديدة التديّن قطّ. ولكنها الآن راحَت تبتهل إلى الرَّب بحرارة غير مسبوقة، وتطلب منه أن يرأف بحالها، وهي المرأة

قليلة الحيلة: باتت وحيدة في العالَم، هاربة لا تدري إلى أين. وماذا لو كان ذلك هو الشرك الحقيقي؟ ماذا لو كان قاطع الطريق الذي يقود السيارة بتلك السرعة العبثية هو المُكلَّف بقتلها؟ كان ذلك ممكنًا، فكل شيء ممكن. قد يأخذها إلى أرض خلاء، ثم يطلق عليها بضع رصاصات، ويترك جثمانها ملقى هناك حتى تنهشه الكلاب والنسور والجرذان.

ـ ما هذا، ما هذا؟ ـ سألَت مفزوعة.

ـ دورية. ـ أجابها غاسيل ـ لا تتحرَّكي ولا تتفوَّهي بشيء يا سيدتي. دعيني أتولَّ الأمر.

امتدَّت الحواجز على الطريق الذي اعترضه الجنود بما لهم من خوذات وبنادق. رأت ضابطًا يقترب من السيارة وهو يحمل كشافًا مضاءً، ويمسك بيده مسدسًا. أنزل غاسيل نافذة السيارة وأطلعه على الأوراق التي تفحَّصها الضابط على ضوء الكشاف ثم اقترب من النافذة الخلفية ونظر إلى مارتا، ملقيًا بخيوط الضوء على وجهها. ومن دون أن ينبس بكلمة واحدة، ردَّ الأوراق لغاسيل وأصدر أمرًا للجنود، فأزاحوا الحاجز إيذانًا للسيارة بالمرور.

ـ من حسن الحظ، من حسن الحظ! ـ تلعثمَت «ميس غواتيمالا» ـ ما الأوراق التي أطلعتَه عليها؟

ـ أوراق صادرة من إدارة الأمن. ـ قال غاسيل، بنبرته الموسيقية الكوبية التي لا يخطئها السامع ـ في اعتقادي، لن تقابلنا مشكلة هنا في المدينة لأن المُقدِّم ترينيداد أوليبا هو الآمر الناهي. ولكن الخطر يكمن على الحدود. تضرَّعي إلى الرب حتى نتمكَّن من العبور.

ـ على الحدود؟ ـ سألت مارتا ـ هلاّ قلتَ لي إلى أين تأخذني؟

ـ إلى سان سالفادور. ـ أجاب غاسيل باقتضاب. ثم كرَّر ـ: تضرَّعي إلى الرب حتى نتمكَّن من العبور، لو أنكِ تؤمنين به.

إلى سان سالفادور؟ لم يسبق لها أن حملَت جواز سفر قطّ، لأنها لم تغادر غواتيمالا في أي وقت مضى. كيف تدخل إلى سان سالفادور؟ وماذا تفعل هناك؟ ما كانت تملك من النقود سوى المطاريف التي أعطاها مايك إياها، تلك التي احتفظَت بها في حقيبة اليد. ولكنه مبلغ هزيل من المال، يكفي للعيش زمنًا قصيرًا. ماذا تفعل في سان سالفادور وهي لا تملك ورقة هوية واحدة؟ لماذا يشملها بحمايته ذلك الغرينغو الذي لا اسم له؟ كان كل شيء غموضًا، وخطرًا، وحيرة.

ـ بعد أن نعبر الحدود، يمكنك أن تغفي قليلاً يا سيدتي. ـ جاءها صوت غاسيل ـ أتمنّى أن يكون أبيس غارسيا قد عبر بالفعل. وفي تلك الأثناء، دعينا نصلِّ حتى يُسمَح لنا بالعبور. مع أنني لا أؤمن بالغيبيات كثيرًا أنا أيضًا.

«أشعر بخوف شديد إلى الحدّ الذي يمنعني من الصلاة»، قالت مارتا في نفسها. وعلى الرغم من ذلك، لا بد أنها استغرقَت في النوم على الفور. داهمَتها الكوابيس التي رأت فيها الموت يحوم حولها على شكل هاويات ووحوش وشراك تنفتح أمامها، فلم يبقَ أمامها خيار سوى الغوص في تلك الفجوة السوداء، وسؤال يعود إلى رأسها مرة تلو أخرى: لماذا قال غاسيل ما قال؟ ألم يرحل أبيس غارسيا إلى المكسيك منذ يومَيْن؟ كيف يتساءل غاسيل عما إذا كان أبيس غارسيا قد عبر الحدود إلى سالفادور الآن؟

ـ والآن، حانت اللحظة الأشدّ خطورة يا سيدتي. ـ سمعَت السائق يقول ـ ابقي هادئة.

أفاقت من فورها، فرأت أنوارًا، وصفًا مُمتدًا من الشاحنات والحافلات، ونقطة عسكرية تضمّ رجالاً في الثياب الرسمية والثياب المدنية. أوقف غاسيل السيارة وترجَّل منها ممسكًا برزمة من الأوراق.

مضى مبتعدًا، من دون أن يقول لها كلمة واحدة، وتوجَّه إلى المقصورة الخشبية التي اصطفّ أمامها طابور طويل من سائقي الشاحنات والحافلات المُتوقِّفة على جانب الطريق. بدا لها الترقّب بلا نهاية. كانت ليلة مدلهمة، خالية من النجوم، وإذا المطر ينهمر فجأة، والقشعريرة تسري إليها على وقع قطرات المطر المتساقطة فوق سقف السيارة في غير تناغم. وأخيرًا عاد غاسيل إلى الظهور برفقة ضابط يرتدي سترة من البلاستيك لا ينفذ منها الماء، ويمسك كشافًا مضاءً. فتح غاسيل حقيبة السيارة التي فتَّشها الضابط وهو يميل ويطلّ برأسه عليها. تراه يأتي بعد ذلك حتى يستجوبها؟ لم يأتِ، وإنما ذهب الضابط من دون حتى أن يلقي نظرة على المقعد الخلفي. عاد غاسيل، ثم انطلق بالسيارة وهو يتنفَّس الصعداء. عبرا الجسر ببطء شديد، والمطر ينهمر أكثر فأكثر، وقطراته تدوِّي كالأعيرة النارية على السيارة الماضية صعودًا فوق ربوة عالية.

ـ والآن، لكِ أن تنامي هانئة يا سيدتي. ـ قال غاسيل، من دون أن يداري بهجته ـ لقد مرَّ الخطر.

ولكن مارتا لم يغمض لها جفن مرة أخرى. كثُرَت الحفر في الطريق، ما جعل جسدها يرتطم بمسند المقعد كلما مرّت السيارة بمطبّ. كم ساعة مضَت قبل وصولهما إلى تلك المدينة الكبيرة؟ لم تكُن تملك أدنى فكرة، بل إنها فقدَت الإحساس بالزمن. ثلاث ساعات؟ أربع؟ خمس؟ ما زالت الليلة مدلهمة.

لا بد أن غاسيل يعرف مدينة سان سالفادور جيدًا، لأنه لم يتوقَّف مرة واحدة لسؤال المشاة القلائل الذين جابوا الشوارع كالظلال عن الاتجاهات. بدأت خيوط الفجر الأولى تلوح في الأفق، وانقطع المطر.

وأخيرًا، توقَّفَت السيارة أمام باب فندق. ترجَّل غاسيل حتى يُنزِل

الحقيبة، وساعدها على الخروج من السيارة أيضًا. ما كادت مارتا تدلف إلى المكان حتى رأت المُقدِّم أبيس غارسيا، بثيابه المدنية، جالسًا على واحدة من الأرائك التي استقرَّت في المدخل. كان مظهره يترك لدى الناظر انطباعًا بأنه قد وصل من فوره أيضًا. رآها فنهض من مكانه واتَّجه نحوها. أمسك بذراعها، واقتادها صوب الرواق، بدلاً من المضي بها إلى الاستقبال، من حيث كانت امرأة وحيدة تراقبهما. ودَّع غاسيل بربتة على ذراعه. وبعد أن قطع ذلك الرواق خافت الإضاءة، فتح بابًا، فرأت مارتا سريرًا وخزانة ثياب مُوارَبة، تحوي مشاجب شاغرة. وجدَت هناك حقيبة سفر لم تُفتَح. أجل، من الواضح أن أبيس غارسيا قد وصل لتوّه أيضًا.

ـ ألن أقيم في حجرة لي وحدي؟ ـ سألَت.

ـ بالطبع لا. ـ أجاب أبيس غارسيا، بتلك الابتسامة التي تجعل وجهه المكتنز يبدو مُشوَّهًا ـ فراش واحد يكفي ويفيض عن حاجة اثنين يجمعهما الحبّ. مثلنا.

ـ أحتاج إلى تفسير لما يحدث في غواتيمالا. ـ قالت ـ ولما سوف يحدث أيضًا.

ـ أنتِ على قيد الحياة، وذلك ما يهمّ في الوقت الراهن. ـ قال أبيس غارسيا، مُبدِّلاً صوته ـ وإليكِ ما هو على وشك الحدوث: سوف ألهب مُؤخِّرتكِ وأجعلكِ تصيحين كالعاهرة، يا «ميس غواتيمالا».

انتبهَت إلى أن المُقدِّم قد رفع الكلفة بينهما أخيرًا وما عاد يحفظ الألقاب في حديثه إليها، أكثر مما انتبهَت إلى الكلمات النابية التي كانت تسمعها من الدومينيكاني لأول مرة.

٢٠

ـ لقد اعتُقِلتُ بتهمة معاداة الشيوعية في عهد حكومة أربينس! ـ صاح المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا. ثم رفع يدَيْه مُظهِرًا الأصفاد ـ والآن تزجّون بي في السجن هكذا! أي وحشية! أرجو منك تفسيرًا.

بَيْد أن رئيس المحكمة العسكرية، الكولونيل پيدرو كاستانيينو غامارًا، المحامي المنتدب لدى الجيش، لم يلقِ إليه بالاً، وما برح يطالع بعض الأوراق وكأنه في المكتب وحده. كان شبه أصلع، برغم شاربه الكثّ الخليق برعاة البقر المكسيكيين. ولقد ارتدى الثياب الرسمية، ووضع على عينَيْه نظارة سميكة لعلاج قصر البصر. تسلَّل ضوء غير مباشر عَبْر النوافذ الضخمة المُطلّة على ثكنة حرس الشرف، ولاحَت سماء مُلبَّدة بالغيوم. وعلى مسافة بعيدة، في الباحة، كان هناك بعض الجنود المُتدرِّبين.

ـ والأدهى من ذلك أنكم تتَّهمونني بالمشاركة في مؤامرة اغتيال الرئيس! ـ صاح المُقدِّم، وأحسَّ بقطرات العرق تسيل على وجهه ـ أطالب بقدر أكبر من الاحترام مراعاة لمنصبي وأوسمتي. لقد خضتُ مناقشات معاهدة السلام في سان سالفادور. وكنتُ عضوًا في المجلس الانتقالي. بل إن الرئيس نصَّبني مدير أمن النظام. أطالب بالاحترام والتقدير. لماذا لا تسمحون لي بالحديث إلى شقيقي، الكولونيل خوان فرانسيسكو أوليبا، الذي شغل منصب وزير الدفاع في حكومة كاستيّو

أرماس؟ لماذا لا تسمحون لي برؤية أسرتي؟ أو تراهم قد زُجّ بهم جميعًا في السجن أيضًا؟

والآن، رفع الكولونيل كاستانيينو غامارًا رأسه، وخلع نظارته، وراح يرمقه بلا أدنى اكتراث. فلم يتكلَّم حتى خرس المُقدِّم.

ـ لستَ رهن الاعتقال لأنك شاركت في أي مؤامرة. ـ قال بجفاء ـ لا تلقِ لأقاويل الناس بالاً. أسرتك الآن في غاية الهدوء، تعيش حياتها المألوفة كل يوم. ولذا يجب عليك أن تهدأ. أنت رهن الاعتقال لأنك استغللتَ مقتل الرئيس كي تنسب لنفسك ما لا تملك من الصلاحيات. ولأنك بدَّلتَ قيادات عسكرية، ومنحتَ سلطات، ونزعتَ سلطات، وأصدرتَ أوامر باعتقال مواطنين شرفاء بلا أي أساس. ولأنك أعلنتَ حالة الطوارئ من دون الرجوع إلى رؤسائك. ماذا دهاك؟ هل أصابك اغتيال الرئيس كاستيّو أرماس بالاضطراب؟

ـ لقد أدَّيتُ واجباتي، وهذا كل ما فعلت! ـ صاح السجين مرة أخرى، وهو يستشيط غضبًا ـ كان عليَّ العثور على قتلة الرئيس، ذلك واجبي، ألا تفهم؟

ـ لقد تخطَّيتَ حدودك. ـ أعاد رئيس المحكمة العسكرية قوله. جاء صوته رتيبًا، وكأنه يتلو نصًّا من الذاكرة ـ حسبتَ نفسك رئيس الجمهورية الجديد، وارتكبتَ الأفعال الطائشة بكل صنوفها، وبلا أدنى مُبرِّر. أنت هنا لهذه الأسباب.

ـ أطالب باحترام منصبي وأوسمتي! ـ عاد المُقدِّم إلى الصراخ، مُظهِرًا الأصفاد من جديد، وقد خرج عن شعوره ـ إن هذه المهانة عصية على الاحتمال. عبثية. لم يُسمَح لي حتى بلقاء محاميّ!

كانا في تلك الحجرة وحدهما، إذ انصرف الحارس الذي أحضر السجين بعد أن أرغمه على الجلوس أمام مكتب رئيس المحكمة

العسكرية، بأمر من كاستانيينو غامارًا. وهناك، خلف النوافذ، اصطفّ الجنود المُتدرِّبون، يتقدَّمهم ضابط الصف الذي تولّى القيادة، ومضى بالخطوة العسكرية، بقناعة راسخة. أخذ يحرِّك فمه، ولكن صيحاته لم تبلغ هذه القاعة.

ـ هدِّئ من روعك قليلاً. ـ قال الكولونيل أخيرًا، بقدر أكبر من المودة ـ ليس هذا تحقيقًا، فلا محاضر ولا كُتَّاب محاضر. ألا ترى؟ إنه مُجرَّد حديث خاص، لن يُنشَر في الصحف، ولن يبقِّى له أدنى أثر. هدِّئ من روعك.

ـ حديث خاص؟ ـ قال ترينيداد أوليبا ساخرًا، مُظهِرًا الأصفاد مرة أخرى.

ـ يريد الجيش أن يمنحك فرصة. ـ خفض الكولونيل صوته قليلاً. وتلفَّت حوله كي يتأكَّد من خلوّ الحجرة إلاّ منهما ـ هدِّئ من روعك وأنصت إليَّ جيدًا. دعني أنبِّهك لأن هذا العرض لن يتكرَّر. ولذا يجب عليك أن تتحمَّل العواقب لو قابلته بالرفض.

ـ أي عرض؟

ـ تقدَّمْ بطلب التسريح من الجيش، لأي عذر. لك أن تتعلَّل بالإجهاد والأسف لما تعرَّض له رأس الدولة... أو بأي شيء. واعترفْ بالتهم المنسوبة إليك: تجاوز الصلاحيات وإساءة استغلال منصب مدير الأمن وإصدار أوامر التنصيب والاعتقال بلا وجه حق.

سكت الكولونيل هنيهة، وراح يقدِّر وقع كلماته في نفس الآخر، في حين امتقع ترينيداد أوليبا، وبلَّل العرق وجنتَيْه وصدغَيْه. على مدى الأيام القليلة التي أمضاها سجينًا، هزل جسده، وبدَت قسمات وجهه ضامرة، وانتشرَت في جبينه التجاعيد.

ـ سوف تُعقَد محاكمة صغيرة، طي الكتمان، مع تجنّب ذيوع أمرها

علانية بأي شكل. أعني، بلا أي دعاية. ـ تابع الكولونيل حديثه، ببطء، وهو يتقصَّى وقع كلماته في نفس السجين ـ بعد ذلك تقضي عامَيْن في السجن العسكري، حيث تلقى من المعاملة ما يليق برتبتك، وتحتفظ بمعاش التقاعد.

ـ أتخالني قادرًا على القبول بمثل هذا الأمر المشين؟ ـ صاح المُقدِّم وقد استشاط غضبًا مرة أخرى ـ عامَيْن في السجن! عن أي جرم؟ لأني أدَّيتُ مهمات مدير الأمن التي كلَّفني بها رئيس الجمهورية شخصيًّا؟

الآن جعل رئيس المحكمة العسكرية يرمقه بنظرة هازئة على نحو مبهم، وشفَّ صوته عن سخرية وشيء من الاحتقار لمَّا أجاب قائلاً:

ـ أؤكِّد لك أن المحاكمة المفتوحة، في حضور الصحافيين، لا تلائمك البتة أيها المُقدِّم. والجيش يسدي إليك خدمة عظيمة بهذا العرض. فكِّر في مستقبلك، دع عنك الحماقة ولا ترفض.

ـ أنا ضحية انتهاك، أريد تفسيرًا وأعذارًا، بل وأطالب بها! ـ صرخ ترينيداد أوليبا، وقد خرج عن شعوره، مُظهِرًا الأصفاد لرئيس المحكمة العسكرية طوال الوقت.

نفد صبر الأخير. وعندما استأنف الحديث، تكلَّم بلهجة في غاية الحدة، بل والعدوانية أيضًا:

ـ لو رفضتَ هذا العرض، لحوكمتَ بحق، وعُرِضتَ على محكمة عسكرية، وافتضح أمر ضلوعك في اغتيال الرئيس وخرج إلى العلن. ولسوف يفتضح الكثير من أكاذيبك، مثل ادعائك بأن ذلك الجندي الذي عثرتَ على يومياته المزعومة هو الذي اغتال كاستيّو أرماس حتى يثأر لأبيه الشيوعي. لم يكُن لباسكيس سانتشيس أب... أعني أنه لم يعرف أباه قطّ، لأن أمه لم تتزوَّج. أضف إلى ذلك أن اليوميات التي أعلنتَ عنها، حيث يوضح الجندي الأسباب التي تحمله على الانتحار بعد اغتيال

الرئيس، زائفة من الألف إلى الياء، كما ثبت بعد عرضها على اثنين من خبراء الخطوط العسكريين، فأجمعا على أنه تزييف صارخ. بل إن الجندي ما كان ليستطيع كتابتها لأنه يكاد لا يجيد القراءة والكتابة. أيلائمك فضح جميع الأكاذيب التي اختلقتَها في محاكمة علنية؟ اطلبْ تسريحك من الجيش وارضَ بعامَيْن في السجن العسكري، الذي يُعتبَر أفضل من السجن المدني ألف مرة. وإلاَّ، فربما أمضيتَ البقية الباقية من حياتك خلف القضبان. ولأن الشيء بالشيء يُذكَر، أتعرف أن الرئيس الراحل كان يطلق عليك لقب «الحثالة»؟ ترى، ما السبب؟

٢١

مكتبة
t.me/t_pdf

فتح الكولونيل كارلوس كاستيّو أرماس عينَيْه في تمام الخامسة والنصف صباحًا، من دون حاجة إلى المُنبِّه، كما هو دأبه كل يوم. دَرَج جسده على الاستيقاظ مع أولى خيوط الفجر منذ كان طالبًا في المدرسة الفنية العسكرية، حتى وإن ذهب إلى الفراش في ساعة مُتأخِّرة جدًّا، الأمر الذي يقتضيه منصب رئيس الجمهورية أيامًا كثيرة. سار على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ أوديليا، وذهب إلى الحمام كي يحلق ذقنه ويغتسل. رأى في المرآة وجهه المهزول، والهالات السود حول عينَيْه، والبيجامة الفضفاضة عند الخصر والكتفَيْن، فلاحظ أنه عاود فقدان الوزن مرة أخرى. ولكن الوضع كفيل بذلك. لم يكُن من الغريب أن يستمرَّ في الهزال مع الأخذ في الحسبان إصابته بالصداع كل يوم منذ ثلاثة أعوام مضَت، زد على ذلك ثلة الخونة وعديمي الفائدة التي أحاطت به. لم يشعر قطّ بانجذاب شديد نحو الطعام، على عكس الشراب. ولكنه في الآونة الأخيرة بات يحسّ بنفور من الطعام، ويرغم نفسه على تناول القليل من الفاكهة على الفطور. أما وجبته المعتادة، فكانت مُؤلَّفة من رقاقة تورتيًا مضافًا إليها الفلفل والفاصوليا، ما لم يكُن مرتبطًا بغداء رسمي. وفي الليل، كان يرغم نفسه على تناول ما لا يقلّ عن صحن واحد، وإن شرب كأسًا أو اثنتين من الرمّ حتى يسترخي قليلاً وينسى المذاق المرير الذي تتركه في نفسه ثورات الغضب والإحباطات اليومية التي يُمنَى بها منذ حين.

وفيما هو يحلق ذقنه ويغتسل عاود سؤال نفسه متى بدأ كل شيء يتداعى من حوله. لم تكُن الحال هكذا في البدء، منذ ثلاثة أعوام. بالطبع لا. يذكر دخوله مدينة غواتيمالا آتيًا من سالفادور بعد مفاوضات السلام التي خاضها مع القوات المسلحة، وذراعه في ذراع السفير چون إميل پيوريفوي، ذلك الغرينغو الضخم الذي ارتاب كثيرًا بشأنه أول الأمر، ولكن السفير أبدى له دعمًا قويًّا في آخر المطاف. لقي المسكين مصرعه في حادث، يُحتمَل أن يكون مُدبَّرًا، راح ضحيته هو وابنه الذي كان برفقته في السيارة، في تايلند، حيث تولّى منصب السفير حديثًا. عسى أن يتغمَّدهما الرَّب برحمته في الملكوت! تذكَّر كاستيّو أرماس الحشودَ التي استقبلَته في مطار آورورا بالتصفيق والهتافات والمُكبِّرات. استقبال يليق بالملوك! هكذا اعترف به العسكر والمدنيون، الأصدقاء والأعداء، وجميع وسائل الإعلام في غواتيمالا. سرعان ما شرع الجميع في مداهنته، والسعي إلى مرضاته في كل شيء، ولعق حذائه، واستجداء المناصب، والوزارات، والترقيات، والعقود. خونة! أوغاد! ولكن، ربما بدأت الأمور تسير على غير ما يرام منذ ذلك اليوم، يوم الاستقبال الكبير. أولم يقع هناك الصدام الأول بين طلّاب المدرسة الفنية العسكرية وبين المُتطوِّعين في جيش التحرير، «حاملي البراغيث»؟ كل ما في الأمر أن تلك الواقعة قد مرَّت مرور الكرام على الكثيرين، حتى هو، في غمرة الزحام.

وبعد ثلاثة أعوام، بات الكل يتآمر على الحكومة من خلف ظهره، كما يعلم تمام العلم. بل إنهم أرادوا القضاء عليه. بالتأكيد. حتى مدير الأمن نفسه، «الحثالة»، ذلك الذي ائتمنه على جميع الأجهزة الخاصة في البلد، التابعة للشرطة منها والتابعة للجيش، وهو على قناعة بأن ذلك الشخص خير من يؤمِّن ظهره. ولكنه الآن يعلم علم اليقين بأنه حتى إنريكي يتآمر ضده، كما أقرَّ شقيقه، خوان فرانسيسكو، وزير الدفاع («لا

أدري في أي جحيم زجَّ إنريكي بنفسه. كما تعرف، لطالما كان شقيقي على قدر من الخبل. والحق أننا ما عدنا نلتقي إلاَّ لمامًا»). إذن، فحتى المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا يتأهَّب لطعنه في ظهره متى وجد فرصة سانحة! ولكنه لن يمنحه تلك الفرصة. بل إنه سوف يسحقه في القريب العاجل كالصرصور، في القريب العاجل، حالما يجد بديلاً مناسبًا ليشغل منصبه. ولسوف يُذيق إنريكي طعم الخيانة والمذلة متى ركع على ركبتَيْه مُتوسِّلاً، طالبًا الصفح. ولكن لا أعذار للخونة. لا أعذار لأي منهم. أقسم بالرب!

وفيما راح يرتدي ثيابه، جعل يستذكر التزامات اليوم. لن يستغرق لقاؤه بوفد السكان الأصليين الآتي من بيتين طويلاً. في العاشرة صباحًا، من المزمع أن يحضر سفير الولايات المتحدة. كان يعلم تمام العلم سبب حضوره: السفير آتٍ ليطلب منه ضبط النفس والرصانة. أي تفاوت! الآن يطالبونه بضبط النفس والرصانة، بعد أن كانوا يطلبون منه الضرب بيد من حديد والقضاء على الشيوعيين، الحقيقيين منهم والمزعومين، القضاء على الحمقى المفيدين ورفاق السفر والنقابيين وقادة اتحادات الفلاحين والمُثقَّفين الذين باعوا أنفسهم، والفنانين أعداء الوطن والناشطين وأعضاء الجمعيات التعاونية والإرهابيين والماسونيين وحتى قادة الجمعيات الدينية. وفوق كل اعتبار، الحيلولة دون خروج أولئك الذين تقدَّموا بطلب اللجوء إلى السفارات الأجنبية، بدءًا بأربينس «الأخرس». فليذهبوا إلى السجن! وإن لم تجدوا عددًا كافيًا من الشيوعيين، فاصنعوهم، اختلقوهم، ابتغاءَ لمرضاة أولئك الأجلاف المُتزمِّتين.

لن يبقى في ذلك اللقاء المُزمَع عقده بسفارة المكسيك إلاَّ مدَّة الخطاب الذي سوف يستغرق عشر دقائق. عسى ألاَّ يشتمل نص الخطاب على عدد أكبر مما ينبغي من الكلمات المُقعَّرة التي يتعذَّر فهمها أو يصعب نطقها، ذلك النص الذي وضعه ماريو إفراين ناخيرا فارفان،

مستشاره في الشؤون القانونية والدبلوماسية والثقافية. بعد ذلك يتلقّى الرسائل والتقارير حتى ساعة الغداء. أيذهب إلى بيت «ميس غواتيمالا»؟ أجل. كان يفتقد الهدوء الذي يُدخِله على نفسه الغداء برفقة مارتا، وحدهما، والتطرّق إلى أمور بعيدة عن مجريات الأحداث، ثم القيلولة التي يستغرق فيها خمسة عشر دقيقة، جالسًا على مقعد الخيزران الوثير قرب المروحة، حيث يستجمع قواه قبل تأدية واجبات المساء والليل.

في المساء، يلتقي بعدد من الوزراء لمباشرة أمور مُعلَّقة، ثم وفد سيدات «العمل الكاثوليكي»، الموفدات من قبل رئيس الأساقفة ماريانو روسيل إي أريَّانو، الذي كان صديقًا ومعينًا له في الماضي. ولكنه صار ألدّ أعدائه منذ ارتبط كارلوس بمارتا، طبعًا. سوف يحضرن بالأسطوانة المعهودة: فيحذِّرنه من تمادي الإنجيليين في اختراق مجتمع غواتيمالا، ولا سيما في أوساط الهنود الجهلة والفقراء. سوف يسمح لهن بالحديث والشكوى خمسة عشر دقيقة على وجه التقريب، ثم يصرفهن مُؤكِّدًا على القضية بقوله: «سوف نوصد أبواب غواتيمالا في وجوه أولئك الإنجيليين، من يخالون أنفسهم! هذا ما ينقصنا!». وفي الليل، كان لديه اجتماع بأهم رجال الأعمال في البلد، من المزمع أن يُقام في قصر الحكم، بينما تنوب عنه أوديليا في لقاء حول التعليم. كانت الحاجة مُلِحَّة إلى إقناع الأثرياء من أهل غواتيمالا بأن الواجب يملي عليهم ضخّ المزيد من الاستثمارات في البلد، وجلب النقود المُخبَّأة في الولايات المتحدة. أضف إلى ذلك أنه مُضطَرّ إلى قراءة الخطاب الذي أعدَّه ماريو إفراين ناخيرا فارفان. أينام بعد ذلك في بيت «ميس غواتيمالا»؟ طبقًا لحساباته، فهو لم يطارحها الغرام منذ ما لا يقلّ عن أسبوع. أو أسبوعَيْن؟ حتى مثل هذه الأمور المهمة لم يعُد رأسه قادرًا على تذكّرها. الأمر رهن بمدى إرهاقه، لاحقًا يستقرّ على اختيار.

وفيما هو يتأهَّب للخروج، سمع صوت زوجته التي سألته، بين حلم

وحلم، عما إذا كان ينوي الحضور لتناول الغداء. ومن دون أن يقترب حتى يلقي عليها تحية الصباح، أجابها بالنفي، مُتعلِّلًا بالتزامات رسمية. حثَّ الخطى ليتجنَّب الحديث إلى زوجته أوديليا. كانت علاقته بها قد بلغَت مرحلة حرجة منذ تناهى إلى علمه قبل أسبوعَيْن أن أوديليا حضرَت اجتماعًا بحضور قادة عسكريين في الكازينو العسكري، اجتماعًا لم تقُل له كلمة واحدة بشأنه. وحين استجوبها، رأى زوجته تنفعل بشدة، وتتردَّد، وتنكر صحة الأمر. ولكنها حين سمعَته يرفع صوته، اعترفَت له بما فعلَت أخيرًا: وقالَت إنهم قد دعوها إلى الحضور لأن المسألة «حرجة وعاجلة».

ـ أيبدو لكِ من اللائق أن تجتمعي بعسكريين متآمرين من خلف ظهري؟ ـ رفع صوته أكثر فأكثر.

ـ لم تكُن هناك أي مؤامرة. ـ قالت أوديليا، وهي لا تتراجع عن موقفها، بل إنها تحدَّته الآن بإيماءات الجسد والعينَيْن ـ إن أولئك العسكريين أصدقاؤك، مخلصون لك، ولكن الوضع الحالي يثير قلقهم.

ـ أي وضع؟ ـ شعر أرماس بالغضب يعمي بصره، فسعى إلى كبح جماح نفسه لئلَّا يُضطَرّ إلى صفعها.

ـ العشيقة التي اتَّخذتَها لنفسك، تلك التي صارت فضيحة غواتيمالا! ـ صرخَت ـ الأمر لا يثير قلق العسكريين وحدهم، بل والكنيسة أيضًا، وجميع المحتشمين في هذا البلد.

استغرق في الصمت. حتى هذه اللحظة، لم يسبق أن تجرَّأت أوديليا وذكرَت «ميس غواتيمالا» في شجارهما. تردَّد بضع ثوان قبل الردّ.

ـ لستُ مُضطرًّا إلى تقديم بيان عن حياتي الخاصة لأحد، كائنًا من كان! ـ صرخ محمومًا ـ تأكَّدي مما أقول لكِ، سحقًا، هذا ما ينقصني!

ـ بل إنك مُضطَرّ إلى تقديم بيان أمامي، فأنا زوجتك أمام الرب

والقانون. ـ قالتها أوديليا والشرر يتطاير من عينَيْها، ومن صوتها ـ أما الفضيحة التي تعيشها مع تلك العاهرة فربما دفعتَ ثمنها غاليًا. ولذا اجتمعتُ بالعسكريين. فهم يشعرون بالقلق ويقولون إن الوضع لا يلائمك، لا أنت ولا الحكومة ولا البلد.

ـ أمنعكِ من حضور اجتماعات الخونة مرة أخرى! ـ صاح رغبةً منه في إنهاء كل شيء بأسرع ما يمكن ـ وإلاَّ، فأنا أحذِّركِ من العواقب ـ ثم خرج وصفق الباب من خلفه.

«كُل خراء!»، سمع أوديليا تصرخ وهو يمضي مبتعدًا عن حجرة النوم. وعند ذاك، فكَّر كاستيّو لأول مرة في الافتراق عن زوجته. سوف يدفع الثمن، أيًّا كان، لحلِّ تلك الزيجة الكاثوليكية، ثم يعيش مع مارتا ويتزوَّجها، لأنه كان سعيدًا برفقتها، برغم كل شيء. مع «ميس غواتيمالا»، عاودته الرغبة والفحولة في الفراش. من يكون أولئك العسكريون الذين اجتمعَت بهم أوديليا؟ أبَت أن تخبره بأسمائهم، ولم يُجدِ الوعيد ولا التوسّل نفعًا. كان يعرف بعضهم، وإن لم يكُن مُتأكِّدًا من الباقين. حتى «الحثالة» الغبي أخفى الأمر عنه. لا شكّ أن ذلك الاجتماع مؤامرة مكتملة الأركان. فأولئك الأوغاد يخطِّطون لتنفيذ انقلاب. طبعًا.

سار لقاؤه بسكان پيتين الأصليين أفضل مما توقَّع. ظنّهم قد جاؤوا يحتجّون بسبب الأراضي التي انتُزِعَت منهم، والقتلى والجرحى الذين سقطوا خلال الاشتباكات بينهم وبين الشرطة وأصحاب الأملاك. ولكنه لم يسمع من ذلك شيئًا، فهم لم يطلبوا من الحكومة إلاَّ ترميم الكنيسة الصغيرة التي احترقَت إثر صاعقة ضربَت المكان، فضلاً عن مساعدة مادية لدعم أخويَّة دينية وجمعيتَيْن مسيحيتَيْن في المنطقة. فما كان من الرئيس، الذي تملَّكَته المفاجأة، إلاَّ أن قطع لهم عهدًا بالوفاء بجميع طلباتهم.

أما لقاؤه بسفير الولايات المتحدة فكان أشدّ حساسية، إذ تناول اللقاء - كما جرَت العادة! - شركة يونايتد فروت. أقرَّت الولايات المتحدة بالجهود التي تبذلها الحكومة لتعويض الشركة عن الخسائر الفادحة التي تكبَّدَتها في عهد حكومتي أريبالو وأربينس، كما أقرَّت بملائمة العودة إلى الاتفاقيات القديمة وإلغاء القوانين الجائرة التي أبطلها مجلس النواب والمحاكم. ولكن، ماذا عن النفقات التي تحمَّلَتها الشركة من أجل إعادة بناء المواقع واستبدال المعدَّات التي تعرَّضَت للتخريب، فضلاً عن نفقات الإجراءات القانونية، والغرامات المجحفة، والضرائب التعسفية، إلى آخره؟ من جانبها، لا تريد الشركة من الدولة أن تتولّى إجمالي النفقات. وعلى الرغم من ذلك، فمن المنصف أن تتقاسم الدولة والشركة تلك النفقات بالتساوي، على أقل تقدير، بموجب مقايسة تجريها شركة محايدة ذات وجاهة، تلقى قبول الطرفَيْن. فما كان من كاستيّو أرماس إلاّ أن ذكَّر السفير، بطريقة لا تخلو من بعض الخشونة، بأن الأمر كاملاً بين يدي القضاء، وبأن الحكومة سوف تمتثل للحكم الصادر وتتولّى النفقات التي تقضي بها المحكمة.

لم يستغرق الحفل المقام في سفارة المكسيك إلاّ نصف ساعة، نزولاً عند طلبه. ألقى كاستيّو أرماس الخطاب. وفي تلك المرة أيضًا، كان ماريو إفراين ناخيرا فارفان قد ترك العنان لأسلوبه المبهرج الاستعراضي، إلى الحدّ الذي جعل الرئيس يتلعثم مرتَيْن فيما هو يلقي الخطاب، والسبب تلك الكلمات المُقعَّرة التي تروق للسيد ماريو إفراين، وإن أخبره الرئيس بأنه يفضِّل نصوصًا سهلة واضحة في كل مرة، نصوصًا لا تسبِّب له المشكلات التي يقع فيها وهو يقرأ كلمات لا يعرف حتى معناها. (ومرة أخرى، فكَّر في ضرورة لفت نظره، بل وتهديده بالاستغناء عن خدماته لو أنه استمرّ في إحراج الرئيس بالخطابات التي يكتبها من أجله).

بعد ذلك أخذ يملي الرسائل حتى ساعة الغداء. ثم وصل إلى بيت مارتا قرب الواحدة والنصف. ولكنه لم يهنأ بالراحة البدنية والعاطفية التي كان يجدها في تناول الغداء لدى عشيقته، بخلاف مرات أخرى. شعر يومذاك بالاستياء علمًا منه أن قائد القوات المسلحة قد نظَّم وليمة عشاء بمناسبة عيد ميلاده، ودعا إليها جميع الوزراء في حكومته، غير أنه لم يوجِّه دعوة للرئيس.

وفي المساء، لدى عودته إلى قصر الحكم، اتَّصل عَبْر الهاتف بوزير الدفاع، الكولونيل خوان فرانسيسكو أوليبا. وبين جدٍّ ومزاح، لامه لأنه لم يدعُه إلى الحفل. فقال الكولونيل خوان فرانسيسكو أوليبا إن كاستيّو أرماس مخطئ، وبدا صادقًا في شعوره بالمفاجأة. فليس صحيحًا على الإطلاق أنه يعتزم إقامة حفل ـ مع أن عيد ميلاده يوافق السادس والعشرين من يوليو حقًّا ـ بل إنه وزوجته سوف يتناولان العشاء مع الأسرة، برفقة الأبناء، بلا مدعوين. أي شائعة تلك؟ ما مصدر تلك القصة الخيالية؟

اتَّصل الرئيس بمارتا التي كانت مفاجأتها شديدة، وأكَّدَت له أن مارغاريتا ليبايّيه، زوجة وزير العدل، قد طلبَت منها حضور ذلك العشاء برفقتها. وأكَّدَت له مارتا أنه لو كان هنالك من يختلق الأمور، فهي ليسَت ذلك الشخص. للوهلة الأولى، خلص كاستيّو أرماس إلى نتيجة مفادها أن الكولونيل خوان فرانسيسكو أوليبا قد نظَّم ذلك الحفل، ولكنه ألغى العشاء حين اكتشف أن الرئيس قد استُثنِي من الدعوة. والآن، لا شكّ أنه وزوجته يتَّصلان بالوزراء حتى يفسِّرا لهم السبب في إلغاء الحفل. إذن، فلقد شعر خوان فرانسيسكو بخطئه، وألغى حفل عيد الميلاد. حسنًا فعل! ولكن شيئًا غريبًا بدأ يحوم في رأسه لاحقًا، وكأن ذلك التفسير لم يكُن مقنعًا. الأمر برمّته ترك في فم كارلوس مرارةً طوال البقية الباقية من اليوم، وأكّد الشكوك التي حدَّثَته بأنه محاط بمن لا يسعه الوثوق بهم.

كانت أشغال المساء أكثر مشقّة. ومهما بذل من جهد، لم يتمكّن من التركيز في اجتماع الخبراء الاقتصاديين بحضور الوزير المُختَصّ، الأمر الذي تعرَّض له كثيرًا في الأسابيع الأخيرة. كان رأسه يشرد، برغم إصراره على سبر أغوار تلك الاجتماعات حيث يتكلَّم الخبراء التقنيون عن القروض وتصنيف غواتيمالا لدى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومفوضية الأمم المتحدة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية وجزر الكاريبي، فضلاً عن مسائل أخرى لا يفقه فيها شيئًا. أما الخبراء، فلم يبذلوا أدنى جهد لمساعدته على فهم تلك الأمور الجهنمية التي يتحدَّثون عنها. من حسن الحظ أن وزير الاقتصاد، على ما يبدو، راح يتنقَّل بسلاسة بين تلك الأرقام والمصطلحات التقنية التي شعر كارلوس أمامها بالضجر، ولم يفهم منها شيئًا. اكتفى برسم أمارات شديدة الجدية، والتحديق في المُتحدِّث، والتظاهر بالتركيز التام، ولم يجرؤ على الإدلاء بتعقيب أو طرح سؤال إلاَّ على فترات متباعدة للغاية، مُتوخِّيًا الإمعان في التعميم لئلَّا يجانبه الصواب. وعلى الرغم من ذلك، كان يلمح على وجوه الخبراء علامات السخرية أو المفاجأة أحيانًا، فيعلم أنه لم ينجح في إصابة الهدف المنشود بمداخلته.

تراه قد ندم؟ لا، بالطبع لا. لو مرَّ بلده بوضع مشابه مرة أخرى، لعاود رفع السلاح، وخوض المعارك، والمجازفة بحياته في مواجهة الشيوعيين وحلفائهم، قتلة الكولونيل فرانسيسكو خابيير أرانا، صديقه ومرشده. ولكن بعض الناس، من أمثال الغرينغو، سرعان ما يتناسون الأخطار التي خاضها كما فعل حين أنقذ حياة يونايتد فروت التي كان أربينس «الأخرس» يناصبها العداء. والآن ما زال الغرينغو يطالبونه بـ«ضبط النفس» في مواجهة اليساريين أنفسهم، أولئك الذين كثيرًا ما بثّوا الرعب في نفوسهم قديمًا. أجل، كان الكولونيل كارلوس كاستيّو أرماس لديه من الأسباب ما يكفي ويفيض حتى يشعر بالخذلان. ولا سيما نحو رفاقه

العسكريين. ما عاد يصدِّق واحدًا منهم. دع عنك «الحثالة»، ذلك الخائن الذي أولاه ثقته. من المُؤكَّد أنه واحد من القادة العسكريين الذين اجتمعوا بأوديليا للحديث عن «ميس غواتيمالا». هل كان شقيقه خوان فرانسيسكو هناك أيضًا؟ ها قد وجدوا الذريعة المثالية لخلعه من السلطة. ولكنهم لم يتَّفقوا على زعيم واحد بينهم لقيادة تلك المؤامرة، لأن كلّهم مُتعطِّش لذلك. وهكذا أنقذَته رغبتهم جميعًا في تولِّي الرئاسة، في اللحظة الراهنة. أي صفاقة! هذا ما ينقصه، أن يتدخَّلوا في حياته الخاصة! متناسين أن معظمهم يتَّخذون لأنفسهم عشيقات، على نفقة الدولة، طبعًا!

عندما انتهى اجتماعه بخبراء الاقتصاد، كان عليه أن يترأس اجتماعًا بحضور أعضاء مجلس النوَّاب الذين جاؤوا يعرضون عليه آخر مشاريع القانون المزمع طرحه للتصويت في المجلس. لم يشعر وسطهم بالتيه كما شعر وسط الخبراء الاقتصاديين. ولكنه حتى في حضور النوَّاب عجز عن التركيز والإدلاء بآراء راسخة بشأن الأمور التي جاؤوا يطلبون مشورته فيها. لم يقدر ذهنه على مواصلة التركيز في حديثهم أكثر من أوقات قصيرة، تقطعها ذكرى وليمة العشاء الغامضة بمناسبة عيد ميلاد وزير الدفاع، تلك التي لن تُقام. ما السبب الذي جعل مارغاريتا ليبايّيه تجري ذلك الاتصال بمارتا؟ تراها اتَّصلَت لتحمل الرئيس على إفساد كعكة عيد الميلاد والاتصال بخوان فرانسيسكو أوليبا سائلاً عن السبب الذي منعه من دعوة الرئيس؟ ماذا جرى بحقّ؟ لا شكّ أن ما وقع ضرب من الغباء عديم الأهمية. ولكن في تلك البلبلة شيئًا... شيئًا يودّ لو وقف على حقيقته. لعلّها محاولة للإيقاع بـ«ميس غواتيمالا» واختطافها بغرض ابتزازه وإرغامه على التنحّي؟ شقي كارلوس بخوفه من تعرّضها للاختطاف منذ اللحظة الأولى. ولذا أقام في بيتها حراسة دائمة، وحظر على مارتا الخروج إلى الشارع وحيدة.

رحل وفد مجلس النوّاب (من دون أن يتلقّى من الرئيس تعليمات ذات بالٍ)، عند ذاك مضى إليه السكرتيران مُحمَّلَيْن برزمتَيْن من المراسلات. طلبات، دائمًا طلبات، بكل صنوفها، ومن كل جهة في أرجاء البلد، معظمها مُرسَل من البسطاء والتعساء الذين يتوسَّلون طالبين المساعدة والنقود بلا أدنى قدر من الحرج. أخذ يملي الرسائل ويتسلَّم التقارير على مدى ساعتَيْن. وفي السابعة والنصف ليلاً، شعر برغبة في تعليق بقية الالتزامات المثبتة في الأجندة، والعودة إلى البيت. شعر بالاستياء، والإحباط، وأحسّ بالإنهاك يستحوذ عليه تمامًا. ومع أن احتمال رؤية زوجته جعله يشعر بالاكتئاب، فلقد وطَّن النفس على تجنّب أي شجار معها، والذهاب مُبكِّرًا إلى الفراش. سوف يتناول القرص المعهود حتى يتمكَّن من النوم. كان الطبيب قد نهاه عن تناول أكثر من قرصَيْن نيمبوتال أو ثلاثة أقراص كل أسبوع. ولكنه يتناول قرصًا كل ليلة، وإلاَّ ما غمض له جفن.

وعلى الرغم من ذلك، لم يقدر على الذهاب. كانت سيدات «العمل الكاثوليكي» هناك، في قاعة الانتظار، موفدات من قبل رئيس الأساقفة، طبعًا، ذلك الغريم الآخر الذي كان يرغب في القضاء عليه بأي طريقة. استقبلهن مُتحفِّزًا لقطع حديثهن إن تجرَّأن وتعرَّضن لأمر «ميس غواتيمالا»، وإن يكُن على نحو غير مباشر. ولكن السيدات الكاثوليكيات لم يذكرن المسألة، وإنما جئن يبلغنه بالقلق الذي تشعر به «غواتيمالا الكاثوليكية»، أي الغالبية العظمى من البلد، بسبب الاختراق المنهجي الذي تمارسه الطوائف البروتستانتية، و«الإرساليات» المزعومة، المُحمَّلة بالدولارات، التي تنشئ الكنائس وترسِّخ عقائدها في أذهان السكان الأصليين وتشيِّد معابد تبدو أقرب إلى دور السيرك منها إلى الكنائس، حيث تُقام تلك الاستعراضات الغنائية الراقصة البشعة، استعراضات السود الأفارقة التي يحاولون إغواء الشعب الجاهل بها، ثم ينظِّمون

حملات الدعاية لترويج الطلاق وآلاف الممارسات المعادية للكاثوليكية، بما في ذلك الإجهاض. وأبلغنه بأن غواتيمالا قريبًا تغدو بلدًا بروتستانتيًا، ما لم تضع الحكومة حدًا لذلك الاعتداء الذي استهدف الكنيسة الكاثوليكية، الديانة التي يعتنقها ٩٩٪ من الشعب.

أصغى الرئيس إليهن بانتباه، بينما هو يدوّن الملاحظات في أثناء الحديث. وأخيرًا، أكّد لهن أنه سوف يكلّف الوزراء المُختصّين بتولّي المسألة في اليوم التالي، نظرًا لأنها مسألة في غاية الخطورة بالفعل، كما جاء في حديثهن. شاطرهن القلق، وأكّد على ضرورة وضع حدٍّ لتسلّل الرعاة الإنجيليين، مع الأخذ في الاعتبار أن غواتيمالا صارت الآن بلدًا حرًّا، وتحرَّرَت من الشيوعية، ولا يمكن أن تقع في شكل آخر من أشكال الهمجية شبه الوثنية. في النهاية رحلَت سيدات «العمل الكاثوليكي»، وهو مُتأكِّد أن اسم «ميس غواتيمالا» مطبوع في رأس كل واحدة منهن، وإن لم يجرؤن على ذكره. كان يعرف تمام المعرفة أن أولئك الناس، في أحاديثهم الخاصة، يطلقون على مارتا ذلك النعت الذي اختلقه الكهنة لوصمها بالعار: «بغي القصر». ولقد تملَّكه السخط العارم إذ اكتشف أن «بغي» مرادفًا لعاهرة، عندما بحث عن الكلمة في القاموس.

وأخيرًا، ختم يومه باجتماع رجال الأعمال في كبرى قاعات قصر الحكم. كان الرئيس قد دعاهم إلى الاجتماع بنفسه، وفوجئ بحضور ذلك العدد الكبير منهم: إذ حضر ما يربو على المئة شخص، أو المئة والخمسين. جاء خطابه آنذاك أكثر وضوحًا وتماسكًا من ذلك الذي ألقاه في سفارة المكسيك، إذ تناول التقدّم الاقتصادي الذي يحرزه البلد بالتفصيل، وحثّ التجار وملاّك الأراضي ورجال الصناعة على المجازفة والاستثمار بوطنية من أجل تعافي غواتيمالا سريعًا.

وحين دلف إلى البيت الرئاسي، كانت زوجته قد أوصدَت على

نفسها باب الحمام وهي برفقة مُدرِّمة أظفار اليدَيْن والقدمَيْن، بعد أن عادت لتوّها من ذلك اللقاء الذي عُقِد حول التعليم. أحسَّ بتعب شديد إلى الحدِّ الذي جعله يستلقي على الفراش وهو لم يخلع إلاَّ السترة والحذاء. ما لبث أن استغرق في النوم، فداهمه حلم غريب، حيث رأى نفسه وهو يسقط في بئر معتمة ببطء، بينما هو يتحدَّث إلى شخص مُتخفٍّ بوشاح، من قمة رأسه حتى أخمص قدمَيْه، وعلى وجهه قناع يمثِّل وجه حيوان ذي قرنَيْن. قال له الشخص بضرورة ترتيب حياته قليلاً، واستعادة البهجة الضائعة. حاول أن يتعرَّف على صوته، ولكن سدى. «من أنت؟ قُلِ لي ما اسمك، دعني أرَ وجهك، أتوسَّل إليك».

وأخيرًا أيقظَته زوجته. «العشاء جاهز»، قالت. ثم أردفَت، بقليل من اللوم: «لقد نمتَ قرابة ساعة».

قام من الفراش وذهب يغسل وجهه ويدَيْه بماء بارد حتى يفيق تمامًا. في الطريق من المخدع إلى قاعة الطعام، كان عليهما المرور بحديقة صغيرة خلَت إلاَّ من شجرة سنط وحيدة، تنتهي برواق. ما كادا يخرجان من المخدع حتى داهم الكولونيل شعور غريب، وإن كانت زوجَته هي التي بادرَت بالسؤال أولاً:

ـ لماذا لم تُضاء الأنوار؟ ـ سألَت ـ وأين الخدم؟

ـ والحرس؟ ـ صاح.

استأنفا السير، ولكن كل شيء بدا في منتهى الغرابة.

لماذا كان كل شيء غارقًا في العتمة؟ وأين زجّ الجنود بأنفسهم؟ أولئك الذين يحرسون الحديقة ومدخل البهو المفضي إلى الشارع أربعًا وعشرين ساعة؟

ـ فيليپيه! أمبروسيو! ـ نادت أوديليا المشرفَيْن على الخدم، ولكن أحدًا لم يلبِّ النداء.

كانا قد بلغا الرواق المفضي إلى قاعة الطعام، الذي غرق في العتمة أيضًا.

ـ ألا يبدو لك الأمر برمّته غريبًا؟ ـ صاحت أوديليا وهي تلتفت إلى زوجها.

في تلك اللحظة، سطعَت خاطرة في ذهن كارلوس كاستيّو أرماس، فهمَّ بالعودة إلى المخدع مهرولاً، حتى يستلَّ المدفع الرشاش الذي يحتفظ به في الخزانة، وإذا بالرصاصة تدوِّي من الخلف وتجعله يترنَّح ثم ينكفئ على وجهه. وبينما هو يحسّ بالطلقة الثانية تنهش جسده، أسعفه الوقت لسماع صرخات أوديليا الهيسترية.

٢٢

كثيرًا ما فكَّر المُقدِّم السابق أنريكي ترينيداد أوليبا أنه لو قبل العرض لبات أفضل حالاً، العرض الذي قدَّمه له يومذاك رئيسُ المحكمة العسكرية، الكولونيل بيدرو كاستانيينو غامارًا، باسم جيش غواتيمالا. ولكن، تراهم كانوا يلتزمون بكلمتهم، فلا يتركونه أطول من عامَيْن في السجن العسكري، حيث يلقى المعاملة الحسنة ويحتفظ بمعاشه، إن هو تقدَّم بطلب تسريحه من الجيش؟

الأرجح أنهم ما كانوا ليفعلون. وعلى الرغم من ذلك، فلعلَّه ما كان يقضي الأعوام الخمسة التي أعقبَت ذلك اللقاء مُتنقِّلاً بين السجون العسكرية والمدنية عَبْر جميع أرجاء غواتيمالا، في تلك الحجّة العصية على الفهم، التعسّفية، الغبية، المهينة، في درب الصليب[1] السادي الذي اقتيد إليه لمُجرَّد أن يتجرَّع الشقاء ويدفع الثمن عن الجريمة التي لم يرتكبها، من الناحية التقنية. ألم يكُن الدومينيكاني هو الذي أردى كاستيّو أرماس قتيلاً برصاصتَيْن أطلقهما من البندقية؟ ألم يرغب جميع أولئك العسكريين ـ الكولونيلات والمُقدِّمون والروّاد والنقباء ـ في ارتكاب تلك الجريمة؟ ألم يشعروا بالسعادة لأن هناك من ارتكبها، بدءًا بالوغد

(١) درب الصليب: طبقًا للعقيدة المسيحية، هو الدرب الذي قطعه يسوع المسيح حاملاً الصليب. (المترجم)

الجنرال ميغيل إديغوراس فوينتيس، الذي ينعم الآن برئاسة لا يستحقّها طبعًا؟

في الأعوام الخمسة الماضية، طُرِد من القوات المسلحة شرّ طردة، وحُرِم من كل حق في المعاش، جزاء له على الجريمة العظمى ـ خيانة الوطن ـ كما هجره أبناؤه وزوجته، وانتقلوا إلى نيكاراغوا مدفوعين بالخزي المُتمثِّل في حمل اسمه، على ما يبدو. ولكنهم قبل الرحيل باعوا البيت، وأفرغوا حساب المدخرات الخاص به، وتركوه أفقر من الشحاذين. وبعد ذلك نسوا أمره ولم يعاودوا زيارته ولا إرسال الطعام إليه كعهدهم خلال الشهور الأولى من الحبس. وبالمثل نسيه أبواه وأشقاؤه، وكأنه وصمة عار في جبين الأسرة حقًّا.

ولكن أسوأ ما في الأمر أن المحاكمة لم تُعقَد قطّ، وأنه لا أدين ولا سُمِح له بالدفاع عن نفسه، وأن المحامين الذين تولّوا قضيته منذ البدء ـ أو على الأقل تظاهروا بالدفاع عنه ـ هجروه بدورهم حين لم يعُد في إمكانه دفع الأتعاب، إذ تركه أبناؤه وزوجته وسائر أقربائه في أقصى درجات البؤس.

على مدى خمسة أعوام، عاش وسط السفاحين، واللصوص، وقتلة الأبناء والأمهات والآباء، والمنحرفين، والمُتحرِّشين بالأطفال، والمُنحلِّين بكل صنوفهم، والهنود الأميين الذين لا يعلمون لسجنهم سببًا، كما اضطُرّ إلى أكل القاذورات المُقدَّمة للسجناء طعامًا، والدفاع عن عذرية مُؤخِّرته عضًّا وركلاً عندما حاول المنحرفون أن يسلبوه إياها مُستغلِّين الازدحام والإباحية المُتفشِّية في الزنازين الجماعية التي كانت تُعَدّ حظائر مُكتظَّة بالحيوانات.

على مدى الأعوام الخمسة التي أمضاها في السجن، اضطُرّ المُقدِّم السابق إلى تجرّع الخراء مرة تلو أخرى، وتناول الحساء القذر المائع،

والخبز المُلوَّث الذي لا قوام له، والأرز المليء بالسوس، بل إنه في بعض الأمكنة اضطُرّ إلى أكل الزِّيز والضفادع والسلاحف والنمل والثعابين. كما اضطُرّ إلى الاستمناء وكأنه طالب مدرسي، على الأقل في أول عهده بالسجن، في بعض ليالي اللهفة الجارفة. بَيْد أنه فقد الرغبة الجنسية لاحقًا، وبات عاجزًا.

اقتنع بأنه لن يُسمَح له بالمثول أمام القضاء أبدًا، دع عنك المثول أمام المحكمة ـ بعد عامَيْن أو ثلاثة أعوام أمضاها وهو يطالب بذلك في جميع السجون الذي أُرسِل إليها ـ وذهب إلى التفكير بأنه سوف يقضي البقية الباقية من حياته على تلك الحال، عند ذاك استقرَّ على الانتحار. ولكن حتى الانتحار لم يكُن بالشيء اليسير في سجون غواتيمالا. تمكَّن من عقد أنشوطة مستعينًا بالسروال والقميص، ثم حاول شنق نفسه ورفاقه في الزنانة نيام، وهو لا يرتدي من الثياب إلاَّ السروال الداخلي، فجاءت النتيجة بشعة. ربط الحبل المزعوم بدعامة في السقف، ثم لفّه حول عنقه، ورفع ساقَيْه، فلم يتلقَّ إلاَّ ضربة غبية من الدعامة حين انفلَت الحبل وانشطرَت الدعامة التي أكلَتها العثّة شطرَيْن. وإذا به ينطلق ضاحكًا تحت جنح الظلام، وهو يفكِّر أن الظلم الذي وقع ضحيته قد بلغ حدّ حرمانه من الانتحار.

ذات يوم، وبينما هو في سجن تشيتشيكاستينانغو، زفَّ له الحارس خبر العفو الذي شمله، بَيْد أنه لم يتأثَّر حتى بالخبر. بات كائنًا أشبه بالهياكل العظمية، يقضي يومه كاملاً في حكّ رأسه بغضب عارم حتى يسحق القمل، أشعث الشعر واللحية، طويلهما، ينتعل حذاءً باليًا، ويرتدي قميصًا وسروالاً مهترئَيْن. أطلقوه في الشارع وهو لا يحمل في جيبه سنتًا واحدًا، ولا يحمل ورقة ثبوتية واحدة، ولا يملك إلاَّ الثياب التي يرتديها، والتي انتشرَت الثقوب في كل موضع منها. ما كان أحد ليتمكَّن من التعرّف عليه، من حسن الحظ. بات إنسانًا غير الإنسان.

بعد عدة أسابيع، وصل إلى مدينة غواتيمالا. مضى يستجدي، وينام في العراء، ويرتكب سرقات صغيرة، ويختلس ما يتغذّى عليه من المزارع. لم يدرِ إلى أين الذهاب، ولا ما العمل. طوال الرحلة، نجا بفضل الأشغال البسيطة التافهة التي كان يُكلَّف بها، من قبيل إزالة الأعشاب من إحدى المزارع أو إزاحة الصخور والأحجار عن الطريق مقابل إكرامية تنسلّ من بين يدَيْه كالماء. وفي العاصمة، نزل بملجأ للمُشرَّدين والمعوزين تابع لكنيسة إنجيلية. وهناك تحمَّم وغسل جسده بالصابون لأول مرة منذ أعوام طوال. كما ارتدى ثيابًا أقل اهتراء من تلك التي كان يرتديها، مهداة من المُؤسَّسة الإنجيلية. استطاع أن يقصّ شعره ويحلق ذقنه. فأبدَت له صفحة المرآة وجه رجل عجوز، وهو الذي بالكاد أتمّ الخمسين من عمره.

عاش طويلاً على الأشغال اليدوية الهيِّنة الطارئة، فعمل خفيرًا وكنَّاسًا وحارسًا ليليًا في الصيدليات والأسواق على سبيل المثال. حتى جاء يوم، مرَّ فيه أمام كازينو، فتذكَّر تاجر المجوهرات سيئ السمعة، أحمد قرني، التركي، ذلك الذي اتَّخذ منه أنريكي ترينيداد أوليبا والدومينيكاني واجهةً للكازينو، فكتب إليه رسالة يطلب فيها عملاً، والشيء المدهش أن التركي أجابه وضرب له موعدًا، وإذا به يندهش لمرأى العسكري السابق وهو يدلف إلى مكتبه. سمع القصة التي سردها عليه إنريكي بعبارات فضفاضة جدًا، فأشفق عليه. بالطبع، سوف يبحث له عن عمل، ويساعده على استخراج أوراق ثبوتية. قطع له وعدًا. ويا للمفاجأة، وفى بوعده! بعد زمن يسير، تولَّى ترينيداد أوليبا مسؤولية الأمن في صالات القمار السرية التي يملكها قرني التركي في عاصمة غواتيمالا.

٢٣

حين تلقَّت «ميس غواتيمالا» دعوة من الجنرال إكتور تروخيّو مولينا ـ الذي عُرِف بلقب «النيغرو» تروخيّو أكثر مما عُرِف باسمه، بسبب وجهه الخلاسي ـ كان قد استقرَّ بها المقام منذ سنوات في مدينة تروخيّو، الاسم الذي كان يُطلَق على عاصمة جمهورية الدومينيكان آنذاك. استغرقَت زمنًا طويلاً حتى عرفَت أن للبلد رئيس جمهورية ـ انتُخِب وأعيد انتخابه في انتخابات سليمة ظاهريًا ـ لم يكُن هو الجنرال الأعلى رافاييل ليونيداس تروخيّو مولينا، «ولي النعمة»، والأب الشرعي للوطن الجديد، وإنما شقيقه، الواجهة التي سعى بها مالك البلد وسيده إلى تهدئة الأمريكيين، أولئك الذين ساندوه في البدء من دون تحفظات، والآن باتوا يلقون عليه باللائمة لأنه ما زال باقيًا في الحكومة، ولأن مساحات الديمقراطية اختفَت من البلد تمامًا منذ صعوده إلى سدة الحكم إثر انقلاب ١٩٣٠، وها نحن قد صرنا في عام ١٩٦٠! ومثل مارتا، لم يكُن الكثيرون في جمهورية الدومينيكان على علم بيِّن بوجود رئيس يقتصر حضوره على المظاهر، لم يكُن هو الجنرال الأعلى رافاييل ليونيداس تروخيّو، وصل إلى المنصب استجابةً للمطالب المُقنَّعة بقناع الديمقراطية التي طالب بها الغرينغو، أولئك الذين يُفترَض بنظام تروخيّو أن يكون ابنًا لهم، وإن ساءت علاقته بهم كثيرًا في الآونة الأخيرة.

أظهرَت مارتا الدعوة التي تلقَّتها للكولونيل أبيس غارسيا، الذي ترقّى

منذ أعوام وتولّى منصب رئاسة جهاز المخابرات العسكرية (SIM)، بما ينطوي عليه من نفوذ كبير. وفيما هو يحكّ لغده، جعل أبيس غارسيا يتفحَّص الدعوة بتروٍّ، مُقطَّب الجبين، ثم حذَّرها خافضًا صوته:

ـ حذار يا مارتيتا. «النيغرو» تروخيّو ليس شريرًا، ولكنه عديم النفع. وباستثناء المناسبات التي يحضرها وكأنه قطعة زينة، لأنها تصيب الجنرال الأعلى بالضجر، فهو لا يجد ما يفعله، وإنما يكرّس حياته للتصنّت على الأحاديث الخاصة التي تدور في بيوت العائلات حيث وضعنا أجهزة التصنّت، ولمضاجعة زوجات أصدقائه. إن ذهبتِ للقائه في ذلك الموعد، فاستعدّي للأسوأ.

كان وزن أبيس غارسيا قد زاد قليلاً منذ تعرَّفَت به، فبات الزيّ الرسمي المشدود ينفخ بطنه ويبرز أكوام الشحم المتراكمة في ذراعَيْه وردفَيْه. تدلَّى لغده وبدَت النتوءات في وجهه أشدّ بروزًا من عينَيْه الجاحظتَيْن. وبصفته قائد الشرطة السياسية وجهاز المخابرات في البلد، كان الجميع يهابه ويضمر له الكراهية حيثما ذهب. تباعدَت لقاءاته بمارتا شيئًا فشيئًا، مع أنها عشيقته، ولم تكُن تجرؤ على خوض علاقات غرامية مع رجل آخر ما دامت عشيقته. سوف تذكر مارتا تلك الليلة مدى الحياة، أولى ليالي الغرام (أتجوز تسميتها بهذا المُسمَّى؟) التي جمعَتها بذلك الذي كان مُقدِّمًا دومينيكانيًّا آنذاك، في نزل صغير بسالفادور، حيث تعهَّد لها، في سوقية بذيئة، بأن يلهب مُؤخِّرتها ويجعلها تصيح. لم يكُن الأسد بالضراوة التي يتبجَّح بها، وإنما كان له قضيب هزيل، ويعاني سرعة القذف، فلا يكاد يبدأ في مطارحة الغرام حتى ينتهي، تاركًا مارتا وسائر النساء التي يشاركهن الفراش في غاية الإحباط. أما الشيء الوحيد الذي كان يستهويه بحقّ، فهو الغوص برأسه بين أفخاذ النساء والتهامهن بلسانه. «تراه يضاجع زوجته لوبِي هي الأخرى، تلك المكسيكية المسترجلة التي تحمل المُسدَّس دائمًا، وتتعمَّد إبراز مقبضه

من حقيبتها؟»، تساءلَت مارتا باسمة. كانت لوبي رثة الهيئة، بارزة الصدر والردفَيْن، كبيرة الأذنَيْن، عيناها قاسيتان، جامدتان، كما تناقلَت الألسنة بشأنها قصصًا مشؤومة. ومن أمثلة ذلك أنها ترافق چوني أبيس إلى مواخير مدينة تروخيّو، حيث يروق لها أن تضرب العاهرات على مؤخّراتهن ثم تأمرهن بمداعبتها. كان أبيس غارسيا قد عرَّفها بها ذات مرة، فخرج ثلاثتهم معًا، ولعبوا الروليت في فندق خاراغوا. أما مارتا، التي لا تعرف الخوف، فشعرَت بالضيق وبشيء من المهابة أمام تلك الشخصية، على الرغم من المودة التي قابلتها بها المكسيكية طوال الوقت. عُرِف عن المدعوة لوپي أنها ترافق أبيس غارسيا إلى سجن كوارينتا وغيره من السجون، حيث يُعذَّب ويُقتَل المتآمرين والمُتمرِّدين على تروخيّو، الحقيقيين منهم والمزعومين. قيل عنها إنها، في جلسات التعذيب، كانت أشدّ قسوة من زوجها.

ـ كيف أمكنكَ الزواج من امرأة قبيحة إلى هذا الحدّ؟ ـ سألَت چوني ذات ليلة وهما في الفراش.

غير أنه لم يغضب. وإنما تحلَّى بالجدية وجعل يتأمَّل قبل أن يجيب. وأخيرًا، حاد بالحديث إلى تفاصيل ثانوية.

ـ ما بيننا ليس حبًّا، وإنما علاقة تواطؤ. لا يجمعنا الجنس ولا القلب، وإنما الدمّ: أوثق رباط قد يجمع بين الرجل والمرأة. ولكني لا أعتقد بأنني سوف أستمرّ مع لوپي طويلاً.

وبالفعل، بعد زمن قصير علمَت أن الكولونيل قد طلَّق زوجته حتى يتزوَّج بامرأة دومينيكانية تُدعَى سيتا. لم يذكر لها الأمر، فلم تُبدِ له مارتا حتى معرفتها بما كان. ظلَّت تقابله، وإن تباعدَت لقاءاتهما أكثر فأكثر.

هل أحسن أبيس غارسيا معاملتها؟ لا شكّ في ذلك، ما دام هو الذي أنقذ حياتها في غواتيمالا حقًّا، عشيةَ اغتيل كاستيّو أرماس، وصدر أمر

بإلقاء القبض عليها بتهمة التواطؤ على ارتكاب الجريمة، الأمر الذي أملاه المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا التعيس (القاتل الحقيقي، حسبما أخبرها أبيس غارسيا). وهنا، في مدينة تروخيّو، أنزلها أبيس غارسيا في فندق بسيط بشارع الكوندي، في المنطقة المُشيَّدة على الطراز الاستعماري، يوم وصلا من سالفادور على متن طائرة خاصة. وما زال يسدِّد نفقات الفندق من جيبه الخاص، بعد مضي ثلاثة أعوام، لأن الراتب الذي تتلقَّاه من صوت الدومينيكان لا يسمح لها بالكثير، ولأن مارتا تعيش في أضيق الحدود. في الفترة الأولى، كان أبيس غارسيا يحضر لتمضية الليل برفقتها مرة أو مرتَيْن كل أسبوع، ويخرج معها بين الحين والآخر إلى دور الملاهي والكازينوهات ويعطيها النقود كي تراهن على الروليت. ولكن في الشهور الأخيرة، قلَّت لقاءاته بها كثيرًا تحت وطأة القلق الذي استحوذ عليه بسبب محاولات الغزو والهجمات الإرهابية على النظام، بتمويل من فنزويلا رومولو بيتانكورت، وكوبا فيديل كاسترو، طبقًا لأبيس غارسيا. الأمر برمّته ترك في نفس مارتا شيئًا من الحيرة، ومع أنها لم تخبر أحدًا بذلك، فلقد تولَّد لديها انطباع بأن نظام تروخيّو في غاية الوهن من الداخل، على الرغم من الواجهة الصلبة التي يتمتَّع بها، وبأن أعداءه في الداخل والخارج ـ مثل الكنيسة والولايات المتحدة في الوقت الراهن ـ يعملون على تقويضه رويدًا رويدًا. أما الضربة الأشدّ وقعًا، فجاءت من منظمة الدول الأمريكية (OEA) خلال اللقاء الذي عُقِد منذ عهد قريب في كوستاريكا، في شهر أغسطس عام ١٩٦٠، حين استقرَّت الدول الأعضاء، بدءًا بالولايات المتحدة، على قطع العلاقات الدبلوماسية بجمهورية الدومينيكان، ومقاطعتها اقتصاديًّا وتجاريًّا.

وعلى الرغم من الشهرة الكبيرة التي حقَّقَتها بفضل برامجها الإذاعية، فما زالت الحاجة إلى النقود مصدر القلق الرئيسي لدى مارتا. حتى وإن

تكفَّل أبيس غارسيا بنفقات النزل ـ الفراش والطعام ـ فهي لم تخرج من غواتيمالاً سوى بالثياب التي كانت ترتديها على وجه التقريب. أما الدولارات المُدَّخرة المهداة إليها من الغرينغو الذي لا يُدعَى مايك، فهي لم تكفِ لأكثر من شراء بعض الثياب وما لا غنى عنه من الأغراض. من حسن الحظ أنها، قبل انقضاء أول شهر لها في المنفى، تلقَّت من أبيس غارسيا عرضًا بالعمل لدى صوت الدومينيكان، المحطة الإذاعية التي كان يملك فيها حصة من الأسهم. وهكذا وجدَت في ذلك الدخل الثابت نعمةً، وإن يكُن دخلاً هزيلاً. ولكن أهم ما في الأمر أنها اكتشفَت المهنة التي سوف تتَّخذ منها حرفةً وواجهةً على مدى أعوام طوال: صحافة الرأي. في البدء زاولَت المهنة عن طريق الإدلاء بتعليقات وجيزة، تكتبها وتعيد كتابتها قبل قراءتها أمام الميكروفون. ولكنها سرعان ما بدأت تكتفي بتدوين الملاحظات، وترتجل مستعينةً بما دوَّنَت. كانت تؤدِّي عملها بسلاسة، وكثيرًا ما احتدَّت، ورفعَت صوتها، بل وأجهشَت بالبكاء. كانت تعلِّق على الوضع السياسي الراهن في أمريكا الوسطى والكاريبي، وتهاجم الشيوعيين بضراوة، الحقيقيين منهم والمزعومين. كانت «الشيوعية» و«الشيوعيين» عندها كلمتَيْن تشملان قطاعًا شاسعًا من الناس، من مختلف الأيديولوجيات والتوجّهات. كانت تنعت أحدهم بالشيوعية لمُجرَّد أنه يهاجم أو ينتقد الطغاة، الرجال الأقوياء، القادة ـ الأحياء منهم والأموات ـ من أمثال تروخيّو، وتيبورسيو كارياس أندينو، ومانويل أودريا، وأناستاسيو سوموسا، وبابا دوك، وروخاس پينيًا، وپيريس خيمينيث، وجميع الأنظمة الديكتاتورية في أمريكا الجنوبية، في الحاضر والماضي، تلك الأنظمة التي كانت تدافع عنها وتروِّج لها بحماس عارم. أما الموضوع المُتكرِّر في برنامجها، فهو غواتيمالا، بطبيعة الحال، إذ اشتدَّت هجماتها على المجلس العسكري الذي حلّ محلّ كاستيّو أرماس بعد اغتياله. وجاءت خطاباتها الأشدّ حدّة مُوجَّهةً

إلى أنصار حركة التحرير أكثر مِن كل مَن عداهم، رفاق كاستيّو أرماس وأتباعه في غزو غواتيمالا الذي انطلق من هندوراس عام ١٩٥٤، أولئك الذين ظلَّت تنسب إليهم تهمة اغتيال الرئيس طويلاً. كانت خطاباتها الحارة تحتدم بشدة، ولا سيما إذا هاجمَت المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا، مدير أمن كاستيّو أرماس، المُعتقَل في أحد سجون غواتيمالا في الوقت الراهن، ذلك الذي لم تكتفِ باتهامه بوضع تلك المكيدة لاغتيال كاستيّو أرماس، وإنما اتَّهمَته أيضًا بتزييف المؤامرة التي تهدف إلى إلصاق التهمة بالشيوعيين وحماية القتلة الحقيقيين. منذ اللحظة الأولى، كذَّبَت مارتا رواية السلطات الغواتيمالية التي اتَّهمَت الجندي روميو باسكيس سانتشيس باغتيال الرئيس، وأكَّدَت أنها مُجرَّد تمثيلية الغرض منها حماية القتلة، بما في ذلك تزييف اليوميات السرية المزعومة التي يُفترَض أن يكون باسكيس سانتشيس قد دوَّنها معترفًا بانتمائه إلى الشيوعية، ثم انتحاره فور إلقاء القبض عليه ليلة ارتكاب الجريمة.

وبفضل برامجها، صارت لها شعبية جارفة في جمهورية الدومينيكان. وبات الناس يتعرَّفون عليها في الشارع ويطلبون توقيعها والتقاط الصور معها. اتَّسمَت هجماتها بالشراسة في غالب الأحوال، تلك الهجمات التي كانت تشنّها على أنصار حركة التحرير في غواتيمالا، الذين أصرَّت على نعتهم بـ«الخونة» في لجاجة. وبفضل خطاباتها الإذاعية الحارة، فازت بتلك السعادة الجارفة المُتمثِّلة في التعرّف بالجنرال الأعلى تروخيّو شخصيًّا. ذات نهار، ما كادَت تخرج من الأستوديو حتى ظهر أبيس غارسيا في مقرّ صوت الدومينيكان، وقال لها: «تعالي معي. سوف تتعرَّفين بالزعيم». ومضى بها إلى القصر الوطني. سرعان ما سُمِح لهما بالدخول إلى مكتب الجنرال الأعلى. فتأثَّرَت بشدة لمرأى ذلك النبيل ذي الحضور المهيب، والثياب بالغة الأناقة، والشيب الذي كلَّل فودَيْه، والنظرة الثاقبة، إلى الحدّ الذي ملأ عينَي مارتا بالدموع.

ـ الكولونيل كاستيّو أرماس كان يتمتَّع بذائقة رفيعة جدًّا! ـ قال الجنرال الأعلى بصوته الرفيع وهو يتفرَّس فيها من قمة رأسها حتى قدمَيْها. ومن دون أن يبدِّل لهجته، أخذ يهنِّئها على أحاديثها في صوت الدومينيكان.

ـ إنه لشيء عظيم أن تنتقدي تلك الأكذوبة التي اختلقها أنصار حركة التحرير. لأنهم هم قتلة كاستيّو أرماس الحقيقيون، بالتأكيد. ـ قال لها تروخيّو ـ والآن بات من المهم أن تدعمي حكومة الجنرال ميغيل إديغوراس فوينتيس، فهو صديق عزيز، يقوم بما يحتاج إليه بلده. ولكن أنصار حركة التحرير يريدون الوقوف عثرة في طريقه. غير أنهم، في قرارة أنفسهم، ضعاف، يسمحون للحُمْر باختراقهم. أما إديغوراس فوينتيس، فيملك من الشجاعة ما يكفي ويفيض. وأعلم أنه سوف يعاقب قتلة كاستيّو أرماس في النهاية.

عند الوداع، طبعَت مارتيتا قبلة على يد الزعيم. وابتداءً من ذلك الحين، صارت تدافع في كل برامجها عن إديغوراس فوينتيس، الجنرال الذي تولَّى رئاسة غواتيمالا في الثاني من مارس عام ١٩٥٨، وتغالي في الترويج له، وتقول إنه الوحيد في غواتيمالا القادر على الاقتداء بالجنرال الأعلى تروخيّو في ما قدَّمه لجمهورية الدومينيكان، وهو الذي أرسى النظام في البلد وأحرز التقدّم الاقتصادي واعترض سبيل «الحُمْر أعداء الوطن».

ما الدور الذي لعبه أبيس غارسيا في اغتيال كارلوس كاستيّو أرماس؟ تلك هي المسألة التي ظلَّت «ميس غواتيمالا» تتأمَّل فيها بلهف طوال أعوام. كانت مجريات الأمور كلها تشي بضلوع الكولونيل الدومينيكاني في الجريمة، وتشير إلى تورّطه في وضع مُخطَّط اغتيال الرئيس، بل وتنفيذه أيضًا. أولم يتقرَّب إليها كي ترتِّب له لقاءًا خاصًا مع كاستيّو أرماس؟ ألم ترَ بنفسها كيف عرض عليه أبيس غارسيا اغتيال أريبالو وأربينس، مُتحدِّثًا باسم تروخيّو؟ هل ولَّى المُقدِّمُ هاربًا من غواتيمالا قبل

وقوع الجريمة بيومَيْن، حتى لا يترك أثرًا لضلوعه في عملية الاغتيال؟ ساورَت مارتا الشكوك. في تلك الليلة، حين وصلَت إلى سان سالفادور، تولَّد لديها انطباع بأن أبيس غارسيا قد سبقها إلى هناك بدقائق قليلة جدًا. وفوق ذلك، ألم تفلت تلك العبارة من غاسيل، حين قال إنهما وأبيس غارسيا قد ولّوا هاربين من غواتيمالا في الوقت نفسه؟ كان رئيس جهاز المخابرات العسكرية يقاطعها كلما رغبَت في التطرّق إلى الأمر، ويرغمها على تغيير دفة الحديث. لماذا يضيق بالمسألة إلى ذلك الحد؟ ارتابَت في أمره، غير أنها لم تجرؤ على مواجهته، لأن إقامتها في مدينة تروخيّو رهن بأبيس غارسيا إلى حدٍّ كبير. على مرِّ السنين، وفي المرات النادرة التي أشار فيها إلى كاستيّو أرماس، كان يذكره بازدراء، ويقول إن السي آي إيه قد أساءت الاختيار لمَّا نصَّبَته قائدًا لثورة التحرير ضد أربينس، وينعته بـ«الضعيف»، عديم الشخصية، الضحل الذي لا سلطة له ولا رؤية مستقبلية، الجاحد الذي أساء بشدة إلى تروخيّو بعد أن تسلَّم منه المال والسلاح والرجال حتى يبني جيشه، وتلقَّى منه النصائح اللازمة لتنفيذ الانقلاب الذي كان في طور الإعداد آنذاك. ومن جهة أخرى، ألم يبدأ كاستيّو أرماس في توزيع الأراضي على الفلاحين بعد إبطال قانون الإصلاح الزراعي، حصان طروادة الذي تسلَّل الشيوعيون الغواتيماليون من خلاله؟ لقد أنقذ مغتالوه الثورة المناهضة للشيوعية في غواتيمالا، مع أن اغتياله أمر حزين من المنظور الإنساني. من الجيِّد أن إديغوراس فوينتيس هو الذي يمسك بمقاليد السلطة الآن، ومن حسن حظ البلد أنه يقتدي بالنموذج الذي قدَّمه تروخيّو في جمهورية الدومينيكان.

كانت مارتا تثني على إديغوراس فوينتيس يوميًا في برنامجها، الذي كثُر مستمعوه في غواتيمالا، لأن مُعدّات صوت الدومينيكان كانت هي الأقوى في الكاريبي بأسره، ووصلَت موجاتها إلى فنزويلا وكولومبيا وبورتوريكو وميامي وكل أرجاء أمريكا الوسطى.

ذات يوم، وفيما هي خارجة من مقصورة الإذاعة، بعد الانتهاء من برنامجها، وجدَت مارتيتا نفسها أمام الغرينغو الذي لا يُدعَى مايك، وأي مفاجأة! وجدَته كما هو ـ وإن بدا أنحف مما تذكره قليلاً ـ يرتدي الثياب نفسها، السروال الجينز غير الرسمي والبوط والقميص المُربَّع الخطوط. عانق أحدهما الآخر، كما يفعل قدامى الأصدقاء.

ـ مايك، حسبتُ أنني لن أعاود رؤيتك أبدًا.

ـ لقد حقَّقتِ شهرة كبيرة في جمهورية الدومينيكان. أهنِّئكِ يا مارتيتا. ـ قال مُهنِّئًا ـ الكل يتحدَّث عن برنامجك. لا في مدينة تروخيّو وحدها، وإنما في كل أرجاء الكاريبي، وأمريكا الوسطى. لقد تحقَّقَت لكِ الشهرة بصفتكِ مُعلِّقة سياسية.

ـ أخوض تلك المعركة منذ أعوام. ـ أقرَّت «ميس غواتيمالا» ـ لم أتمكَّن من الإعراب عن امتناني للمساعدة التي قدَّمتَها لي هناك، عندما كنتُ على وشك السقوط قتيلة بأيدي قتلة كاستيّو أرماس.

ـ أدعوكِ إلى تناول الطعام. ـ قال مايك ـ لقد افتُتِح مطعم بيتزا جديد، يُدعَى البيسوبيو، هنا، على الممشى.

ذهبا إلى المطعم حيث دعاها الغرينغو إلى تناول بيتزا مارغاريتا ممتازة مصحوبة بكأس من نبيذ كيانتي. جاء مايك يخبرها بأنه سوف يمضي فترات طويلة في جمهورية الدومينيكان، ويودّ لو استأنفا تلك الأحاديث الدورية التي درجا على تبادلها في غواتيمالا.

ـ أتدفع لي مقابل تلك الأحاديث؟ ـ أطلقَت عليه سؤالها مباشرةً، ثم قالت شارحة ـ: في غواتيمالا، كان عندي من يتكفَّل بنفقاتي، فساعدَتني الإكراميات التي أعطيتَني إياها بعض الشيء. أما هنا، فيجب عليَّ أن أكسب قوتي بنفسي. وأؤكِّد لك أنه ليس بالأمر اليسير.

ـ طبعًا، طبعًا، سأدفع لكِ المقابل. ـ هدَّأها مايك ـ اعتبري الأمر مفروغًا منه، سأهتمّ بذلك.

ومنذ ذلك الحين، صار مايك يلتقي بها مرة كل أسبوع ما دام في مدينة تروخيّو، ويقابلها في مختلف الأمكنة: مطاعم ومقاهٍ ومنتزهات وكنائس، وفي النزل حيث تقيم هي، أو الفنادق الفاخرة حيث يقيم الغرينغو. كانت الأحاديث بينهما سياسية بحتة. فصارَت مارتا تحكي له جميع ما يُقال في المحطة الإذاعية، ولكن الشيء الذي اهتمَّ به مايك أكثر من كل شيء سواه هو حديث أبيس غارسيا عن استقرار النظام وعن عمله. وفي نهاية اللقاء، كان يترك مظروف الدولارات بين يدَي مارتا، كما في سابق عهده. سألَته ذات مرة عما إذا كان كلاهما يعمل لحساب السي آي إيه، فأجابها مايك بابتسامة خفيفة قائلاً بالإنجليزية: «No comment».

وإلى جانب الأحاديث، كان يعهد إليها بمهمات صغيرة، مثل التحقّق من أمور مُتعلِّقة بأشخاص بعينهم، أو تسليم رسائل لنساء ورجال لا تعرفهم، عسكريين بوجه العموم.

ـ هل أعرِّض حياتي للخطر بما أنا فاعلة؟ ـ سألَته ذات مرة، وهما سائران على الممشى، ينظران إلى البحر الذي كاد يبدو أبيض اللون، لامعًا، في تلك الساعة.

ـ في منطقة نفوذ الجنرال الأعلى تروخيّو، كلنا يخاطر بحياته، لمُجرَّد أننا في هذا البلد. ـ أجابها ـ تعلمين تمام العلم يا مارتيتا.

وكانت تلك حقيقة. في السنوات الأخيرة، أخذ الوضع يتدهور بالتدريج، كما لاحظت مارتا بسبب القلق المتزايد الذي عاش فيه چوني أبيس. كانت تلاحظ أن حذره يشتدّ أكثر فأكثر، وإن لم تلتقِ به إلاَّ لمامًا. طبقًا لما أخبرها به، فلقد وقعَت محاولات غزو جديدة، وأسفرَت عن مذابح دامية. دار الحديث في كل مكان عن حملات مداهمة بالجملة، وحالات اختفاء بلا أدنى أثر، وحالات إعدام رميًا بالرصاص في

الثكنات، واغتيالات تطول المعارضين الذين يُعثَر على جثامينهم مُمزَّقة إربًا في الشوارع، أو يُلقَى بها إلى القروش، حسبما قال البعض. حتى في مقر صوت الدومينيكان، المحطة الإذاعية التابعة للنظام، كثيرًا ما تناهَت إلى سمع مارتا تلك التعليقات التي كان يدلي بها الموظفون ومقدِّمو البرامج والصحافيون بصوت خافت عن التدهور المُستمِرّ الذي طرأ على الوضع السياسي في البلد. بدأت تشعر بالحذر المتزايد. ماذا لو سقط تروخيّو واستولى الشيوعيون على السلطة، كما جرى في كوبا؟ داهمتها الكوابيس، إذ تخيَّلَت بلدًا لن تخرج منه ما حييت، تُحظَر فيه الديانة الكاثوليكية ـ مع الأخذ في الاعتبار أنها صارَت في غاية التديّن، وما عادت تفوتها قداسات الآحاد قطّ، وأصبحَت تشارك في المواكب الدينية بالمدينة المُشيَّدة على الطراز الاستعماري، حيث كانت تستر نفسها بالحجاب والوشاح ـ ، تخيَّلَت بلدًا تكتظّ فيه السجون ومعسكرات الاعتقال، التي سوف يُزَجّ بمارتا فيها، من دون شك، وهي التي اشتهرَت بمعاداتها الشديدة للشيوعية ودفاعها عن تروخيّو وجميع الطغاة العسكريين والرجال الأقوياء في أمريكا اللاتينية.

وفي ظلّ هذا الوضع تلقَّت دعوة من الجنرال إكتور تروخيّو، رئيس الجمهورية، لزيارته في مكتبه بالقصر الوطني بعد يومَيْن، في السابعة ليلًا. مضى إليها بالدعوة سائق دراجة بخارية يرتدي زيًّا رسميًا، فمازحها عدد من زملاء العمل بهذا الشأن. لماذا يدعوها الرئيس الآن وحسب، مع أنها في جمهورية الدومينيكان منذ ثلاثة أعوام على وجه التقريب؟

هندمَت مارتا نفسها بأفضل ما لديها ـ مع أنها تكاد لا تملك خزانة ثياب تتخيَّر منها ـ ثم استقلَّت سيارة أجرة حملَتها في الموعد المُحدَّد إلى القصر الوطني، حيث مضى بها ضابط عَبْر المنشآت الفسيحة التي بدأت تخلو من شاغليها، ثم تركها في مكتب السكرتير، وهناك اضطُرَّت إلى الانتظار بضع دقائق. وأخيرًا، انفتح الباب المفضي إلى مكتب الرئيس

وسُمِح لها بالدخول. كان «النيغرو» تروخيّو يرتدي زيَّ الجنرال الرسمي، والصدار المُرصَّع بالنياشين. وما إن دلفَت مارتا إلى المكتب حتى أحسَّت بالمُكيِّف الذي لطَّف هواء المكتب المزدحم إلى حدّ البرودة. ترك ذلك الشخص في نفسها أسوأ انطباع ممكن. أشار إليها بالجلوس، بينما هو يتحدَّث عَبْر الهاتف. انزعجَت بشدة من وقاحته في التحديق إليها، من رأسها حتى قدمَيْها، بعينَيْن شهوانيتَيْن ضاربتَيْن إلى الصفرة، مسترسلاً في حديثه الذي استمرَّ بضع دقائق أخرى، وفيما هو يتكلَّم عَبْر الهاتف، ما برح الرئيس يتفحَّصها، ويجرِّدها من ثيابها، بكل صفاقة وسفاهة. شعرَت بانزعاج شديد.

وحين وضع سماعة الهاتف، ابتسم لها ابتسامة واسعة، فاتحًا فمه الضخم على سعته. ثم جاء مادًّا يده، وجلس أمامها. كان خلاسيًّا، قوي البنيان، أقرب إلى قصر القامة منه إلى الطول، بارز البطن.

ـ كنتُ أشعر برغبة جارفة في التعرّف عليك. ـ قال وهو ما زال يتفحَّصها بعينَيْن وقحتَيْن. كان شديد السمرة، له وجه عريض مكتنز، ويدان في غاية الضآلة، يفرط في تحريكهما ـ أستمع إلى برامجك عَبْر إذاعة صوت الدومينيكان منذ أعوام. واسمحي لي بتهنئتك. لأنكِ تشاطرينني الأفكار نفسها، طبعًا، التي هي أفكار النظام أيضًا.

ـ شكرًا جزيلاً يا صاحب الفخامة. ـ قالَت ـ هل لي بسؤالك عن السبب الذي جعلك تنعم عليَّ بشرف هذه الدعوة إلى مقابلتك؟

ـ قيل لي إنك لستِ صحافية ممتازة وحسب، بل إنكِ امرأة رائعة الجمال أيضًا. ـ قال الرئيس وهو يرشقها بهاتين العينَيْن البذيئتَيْن اللتين أطلَّت منهما ابتسامة مشوبة بالاستهزاء ـ وأعترف لكِ بأنني ضعيف أمام الجمال.

لم تشعر مارتا بالإطراء، وإنما بالمهانة. لم تدرِ أيهما أشدّ إزعاجًا، نظرة مُحدِّثها أم صوته المعدني المداهن الشهواني.

ـ دعينا نُسمِّ الأشياء بمسمياتها. ـ قال فجأة، وهو يهبّ واقفًا ـ أنا رجل في غاية الانشغال، كما لكِ أن تتخيَّلي يا مارتيتا، من دون شكّ. ولذا دعينا ندخل سريعًا إلى صلب الموضوع الذي جاء بكِ إلى هنا.

مضى إلى مكتبه، والتقط من فوقه مظروفًا، ثم مدّه إليها. شعرَت مارتيتا بالحيرة، ولم تدرِ ما العمل ولا ما القول، غير أنها استقرَّت على فتح المظروف. وجدَت فيه شيكًا يحمل توقيع إكتور بيينبينيدو تروخيّو، ولكنه على بياض.

ـ ماذا يعني هذا يا صاحب الفخامة؟ ـ غمغمَت، اعتقادًا بأنها قد أدركَت المعنى المُراد وعزوفًا منها عن التصديق في آن واحد.

ـ اكتبي المبلغ بنفسك. ـ قال «النيغرو» تروخيّو، وهو لم يكفّ لحظة واحدة عن التفرّس فيها من قمة رأسها حتى أخمص قدمَيْها بعينَيْه الجشعتَيْن ـ فأنا أقدِّركِ بالثمن الذي تقدِّرين به نفسكِ.

هبَّت مارتيتا واقفة، وقد امتقعَت، وراحَت ترتجف.

ـ لا أملك إهدار وقتي في مثل هذه الأمور. ـ أوضح لها، مُصوِّبًا كلامه إلى الهدف مباشرةً ـ أو بالأحرى، لا أملك وقتًا حتى أهدره على الرومانسية. ولذا، دعينا نسمِّ الأشياء بمسمياتها. أشعر برغبة في مطارحتكِ الغرام، وتمضية وقت لطيف معكِ. والأفضل أن تختاري بنفسكِ الهدية، بدل أن أختارها من أجلك...

لم يتمكَّن من إنهاء العبارة، لأن الصفعة التي انهالَت بها مارتا عليه جعلَته يترنَّح. ولكنها لم تكتفِ بذلك. بل إنها لم تمهله الوقت اللازم حتى يأتي بردّ فعل، إذ انقضَّت عليه وأخذَت تضربه بكلتا يدَيْها صائحة: «لن أقبل إهانة منك ولا من أحد، كائنًا من كان». وبرغم الضربات التي سدَّدها إليها، راحت تعضّ أذنه، ولم تفلته، بل أنشبَت فيه أسنانها بكل ما أوتيَت من قوة، مدفوعةً بالسخط الذي نضح به كل مسام جسدها.

سمعَته يصرخ بشيء، وإذا الباب ينفتح، ويدلف إلى المكتب رجال بالثياب الرسمية، ويكبّلون حركتها، ويدفعونها بعيدًا عن الرئيس الذي رأته وقد شحب ورفع كلتا يدَيْه إلى أذنه التي كادَت تنتزعها من مكانها، بينما هو يعوي قائلاً:

ـ إلى الحجز! امضوا بهذه المجنونة اللعينة إلى الحجز!

لا بد أنها فقدَت الوعي تحت وطأة الضربات التي سدَّدها لها حراس الرئيس وهم يحاولون إبعادها عنه. لم تذكر أنها قد سُحِلَت عَبْر الأروقة وأُرغِمَت على نزول الدَّرَج إلاَّ على نحو مبهم، كالحلم. استردَّت وعيها وهي في ما يشبه الزنزانة، في حجرة خالية من النوافذ، خالية إلاَّ من كرسي واحد، يضيئها نور خافت، مصدره كشَّاف يحوم حوله الذباب والبعوض. كانت الساعة قد سقطَت من يدها وهم يدفعونها. أو تراها قد انتُزِعَت منها انتزاعًا؟ لم يكُن حرمانها من الطعام والشراب أسوأ ما في الأمر، طوال الثمانية وأربعين ساعة التي أمضتها حبيسة ذلك القبو في القصر الوطني، وإنما جهلها بالساعة ومضي الوقت، وعجزها عن تمييز الليل من النهار. ران حولها صمت مطبق، وإن كان يبلغها وقع خطى بعيدة من آن إلى آخر. كانت في ركن ناءٍ من أركان القصر، لا شكّ أنه قبو. ضاقَت بعجزها عن معرفة الساعة بأشدّ مما ضاقت بتخيّل المستقبل. أيقتلونها؟ من المُروِّع أن يتركوها حبيسة تلك الحجرة التي خلَت إلاَّ من كرسي واحد، عاجزةً عن الذهاب إلى دورة المياه لقضاء حاجتها، محرومةً من الطعام والشراب، كي تقضي نحبها رويدًا رويدًا. لم تضِق بحرمانها من الطعام بقدر ما ضاقَت بحاجتها إلى جرعة ماء. جفَّ حلقها، وأحسَّت بلسانها كما لو كان قطعة من ورق السنفرة. استلقَت أرضًا، فلم تقدر على النوم بسبب الإحساس بالضيق والألم الذي أورثَتها إياه ضربات الحراس. خلعَت الحذاء وانتبهَت إلى التورّم الشديد في قدمَيْها. لم تشعر بالندم لحظة واحدة لأنها انقضَّت على «النيغرو»

تروخيّو، وجُنّ جنونها من فرط الغضب، وعضَّت أذنه بكل ما أوتيَت أسنانها من قوة، وراحت تخدشه وتضربه. سمعَت ذلك الخلاسي الحقير وهو يصرخ كالجرذ المنسحق، ورأت الخوف والمفاجأة الشديدة في هاتين العينَيْن الضاربتَين إلى الصفرة. كان يملك القدرة على إهانة امرأة، ولكنه عجز عن الدفاع عن نفسه، فانطلق التعيس في الصراخ، وقد استحوذ عليه الخوف. لن تندم مارتا، بل إنها كانت ستعيد الكرَّة لو اقتضى الأمر، وإن فقدَت حياتها جزاء لها على ما فعلَت. لم يسبق لها قطّ أن شعرَت بالقدر نفسه من المهانة والكدر والمذلة كما شعرَت في تلك اللحظة، حين مدَّ لها ابن العاهرة ذلك المظروف، ووقع بصرها على الشيك، وأدركَت ما يعرضه عليها: أن تضع بنفسها المبلغ الذي ترغب فيه كي تصبح عاهرته! وفي غمرة الألم والريب، ابتسمَت وهي تذكر الشراسة التي أنشبَت بها أسنانها في تلك الأذن الهلامية.

كانت تغفو بين الحين والآخر، فتحلم بأن الأمر برمّته مُجرَّد كابوس، ثم تفيق وتدرك أن الكابوس هو ما تعيشه حقًّا، ويداهمها شعور قَدَريّ، ويقين بأن أبناء الكلبة سوف يتركونها تقضي نحبها جوعًا هناك، وبأن اللحظات الأخيرة ستكون هي الأسوأ. وفجأة، كانت تذكر مدينة غواتيمالا، ودكتور إفرين غارسيا أرديليس، وذلك الابن الذي هجرَته هناك بعد مولده بأعوام قلائل. أيكون والده قد حدَّثه عنها؟ حلمَت بأنها تتبوَّل، ثم أفاقَت فوجدَت تنورتها وثيابها الداخلية مُبلَّلة. أتتغوَّط على نفسها أيضًا؟ على نحو مبهم، تذكَّرَت أباها وخادمتها ومُربِّيتها سيمولا التي كثيرًا ما دلَّلَتها. أيكون الطفل الذي أنجبَته على قيد الحياة؟ لعلّه الآن في العاشرة من العمر على وجه التقريب. هل تركه إفرين غارسيا أرديليس في أحد الملاجئ؟ أما زال «ترينسيتو» على قيد الحياة؟ لم تتلقَّ المزيد من أخباره. في بعض الأحيان، كانت تصلها بضع سطور ترسلها سيمولا، وتبلغها فيها بأخبار والدها، الذي يوصد باب البيت على ذاته

طوال الوقت، وكأن الحزن ينخر نفسه. كان مصابًا بألم في المعدة. الآن صارَت تشعر بضغينة لا تنتهي نحو ذلك الأب الذي هام بحبّها طفلةً، ثم تبرَّأ منها لاحقًا. أما زال أرتورو بورّيرو لاماس على قيد الحياة؟ بدأت تشقى بذلك العطش، إلى حدٍّ جعلها تمضي إلى الباب زحفًا، ثم تطرقه، وتصرخ طالبة كوب ماء. ولكن لا من مجيب. لم يكُن الحراس في موضع قريب من ذلك الحجز، أو لعلّهم تلقّوا أوامر بالامتناع عن الحديث إليها. في آخر المطاف، داهمها الوهن والنعاس، وتركاها ملقاة على الأرض، تعدّ الأرقام كي تخلد إلى النوم، ذلك السرّ الذي احتفظَت به منذ الصغر.

ولمَّا انفتح الباب أخيرًا، دلف إلى الحجرة بضعة رجال بالثياب الرسمية، ثم أقاموها من الأرض وعمدوا إلى تسوية ثيابها ونفضها. وفيما هم يقتادونها عَبْر الأروقة، ويصعدون بها الدَّرَج، كانت مارتا قد بلغَت من الوهن حدًّا جعلها لا تطلب سوى قليلاً من الماء، لأنها تموت عطشًا. فبدا وكأنهم لا يسمعون. قطعوا الصالات والأروقة وهم يكادون يحملونها في الهواء حتى توقَّفوا أمام واحد من الأبواب أخيرًا، فانفتح على الفور. وهناك، رأتهم ينظرون إليها: الجنرال الأعلى تروخيّو شخصيًا، و«النيغرو» تروخيّو بأذنه المُضمَّدة، وجوني أبيس غارسيا. جعل ثلاثتهم يراقبونها والحذر بادٍ في عيونهم، بينما اقتادها العسكريون إلى أريكة، وتركوها تسقط هناك. وأخيرًا تمكَّنَت مارتا من النطق بقولها:

ـ ماء، أتوسَّل إليكم. ماء، ماء.

ناولوها كوبًا من الماء فاحتسَته رشفةً تلو أخرى، مغمضة العينَيْن، وهي تحسّ بالسائل البارد الذي سرى إلى جسدها وردّ لها الحياة.

ـ باسمي وباسم أخي، أعتذر إليكِ عما جرى. ـ سمعَت الجنرال الأعلى تروخيّو يقول بذلك الصوت الرفيع المهيب ـ سوف يعتذر لكِ هو أيضًا.

ولمَّا استغرق الرئيس الصوري طويلاً، سأله الجنرال الأعلى مغلِّظًا صوته:

ـ ماذا تنتظر؟

عند ذاك تلعثم «النيغرو» تروخيو، وقد رضي بالمحتوم:

ـ أعتذر لكِ يا سيدتي.

ـ إنها طريقة بائسة وتعيسة في طلب المغفرة. ـ سمع الجنرال الأعلى يقول ـ كان حريًا بك أن تقول: لقد أسأتُ التصرّف كالخنزير عديم التهذيب، «كالبلطجي»، ولذا أطلب منكِ المغفرة، جاثيًا على ركبتَيّ، لأني أهنتُكِ بتلك الفعلة البذيئة التي اقترفتُها في حقك.

جاءت كلمات الزعيم متبوعةً بصمت مشؤوم. بينما تناولَت مارتيتا كوبًا آخر من الماء، وراحت تشرب على مهل، رشفةً تلو أخرى، وتحسّ في كل موضع من جسدها وعضلاتها وعروقها وعظامها بالامتنان لذلك السائل الذي بدا أنه يردّ الحياة لأحشائها رويدًا رويدًا.

ـ الآن يمكنك الذهاب. ـ قال تروخيّو ـ ولكن، قبل أن تذهب، تذكّر أمرًا في غاية الأهمية يا «نغيرو»: أنتَ لا وجود لك. تذكَّر جيدًا، ولا سيما كلما شعرتَ برغبة في ارتكاب حماقة كتلك التي ارتكبتَها في حق هذه السيدة. لا وجود لك. بل إنك اختراع من صنعي أنا. وفي يدي أن أمحوك مثلما اخترعتُك، في أي لحظة.

سمعَت وقع خطوات، أعقبها صوت باب يُفتَح ثم يُقفَل. ورحل الرئيس الصوري.

ـ أرى السيدة في حالة سيئة جدًا. ـ قال الجنرال الأعلى ـ أنزلها في أفضل فنادق مدينة تروخيّو. وليرَها الطبيب على وجه السرعة، ويجرِ لها فحصًا شاملاً. إنها ضيفة الحكومة، وأريدها أن تُعامَل بأكبر قدر ممكن من العناية. فورًا.

ـ أجل يا صاحب الفخامة. ـ قال أبيس غارسيا ـ فورًا.

مال عليها مادًّا ذراعه، فتمكَّنَت من النهوض بمشقة كبيرة. أرادت أن تعرب عن امتنانها للجنرال الأعلى، فلم يُسمَع لها صوت. أحسَّت برغبة في إفراغ ما في جوفها، والنوم. اغرورقَت عيناها بالدموع.

ـ كوني قوية يا مارتيتا. ـ قال لها أبيس غارسيا فور عبورهما بوابة الخروج.

ـ والآن، ماذا يكون من أمري؟ ـ تلعثمَت سائلةً بينما هما يقطعان الصالات والأروقة وقد تعلَّقت بذراع الكولونيل بكلتا يدَيْها.

ـ سوف تمضين بضعة أيام في فندق خاراغوا أولاً، وهناك تلقين معاملة الملوك نزولاً عند طلب الجنرال الأعلى. ـ قال أبيس غارسيا. ثم أردف، خافضًا صوته بشدة ـ: ولكن، لا بد من إبعادكِ عن هنا حالما تشعرين بتحسّن، فالزعيم قد أذاق «النيغرو» تروخيّو إهانة مميتة، ولسوف يحاول ذلك الخلاسي الحقود أن يقتلك. هدِّئي من روعكِ الآن، واستريحي، واستردِّي عافيتك. سوف أتحدَّث إلى مايك، ولنرَ الطريقة الملائمة لإبعادكِ عن هنا بأسرع ما يمكن.

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٤

تولّى إنريكي ترينيداد أوليبا مسؤولية الأمن في صالات القمار السرية التي يملكها لأحمد قرني، فردَّ له ذلك العمل لذة الحياة والنوم والمأكل والملبس، ببطء. وكذلك لذة النساء، ببطء شديد. استغرق في ذلك العمل بشغف وامتنان لمستخدمه، ذلك الرجل الذي ردَّ له إنسانيته، بعد أن حسب نفسه قد فقد الإنسانية على مدى خمسة أعوام رهيبة.

لم يكُن بالعمل الهيّن، لأن الأوكار التي يمتلكها التركي تجذب إليها كائنات خطيرة في واحدة من مدن غواتيمالا، هناك حيث أخذ العنف الجنائي والسياسي يتفاقم يومًا بعد يوم: وباتَت عمليات الاختطاف والاغتيال والهجمات الإرهابية أكثر شيوعًا في الوقت الراهن، بعد أن كانت نادرة الوقوع في ما مضى. كان إنريكي يأمر «بلطجيته» بتفتيش جيوب الزبائن بعناية، وسحب الأسلحة التي يحملونها عادةً، ما دام الزبائن في صالة القمار.

كان عليه أن يتجنّب وقوع الشجارات التي تنشب بين السكارى في بعض الأحيان، والتفريق بين أطراف الشجار بسرعة، وتهدئة نفوس الزبائن بأسرع ما يمكن، لئلاّ تسوء سمعة المكان.

زد على ذلك أن مراقبة «البلطجية» وتعيينهم أمر حساس، فحتى هم لا يستحقّون الثقة، والكثيرون منهم أرباب سوابق، سجيتهم الإجرام، اكتسبوا عادات رديئة في الحجز. ولكن إنريكي يتمتَّع بالشخصية اللازمة

لمراقبتهم عن كثب، وصرفهم عند أول بادرة سهو، وتذكيرهم طوال الوقت بقوله: «من عبث معي دفع الثمن، مضافة إليه الفوائد».

بدَّل إنريكي وجهه بآخر، واسمه بآخر، فسمَّى نفسه إستيبان راموس، وأطلق لحية مُربَّعة تحيط بوجهه وتغيِّر قسماته. ما كان يخلع النظارة الداكنة إلاَّ فيما ندر، كما أنه بدَّل تصفيفة شعره بأخرى. كرَّس نفسه للعمل أربعة وعشرين ساعة يوميًا. حتى في أثناء النوم، بات يحلم بكيفية إدخال التحسينات على العمل. أقام في نزل لا يبعد عن كنيسة يورّيتا، حيث ظنَّه القائمون على المكان عامل تلغراف ليليًا. كان يعيش في ذلك النزل قطٌّ يُدعَى ميسيفوس، تعلَّق به وصار ينام عند قدمَي فراشه.

كان التركي يدعو إنريكي إلى الغداء أو الشراب من آن إلى آخر. ذات يوم، بعد أن هنَّأه على خدماته الممتازة، عرض عليه التكفّل بـ«مهمَّات أكبر». كان رجلاً ضخم الجرم، خمسينيًا، شبه أصلع، شغوفًا بالخواتم، يضع على عينَيْه النظارة الداكنة ليل نهار. «براتب أكبر، طبعًا»، أردف وهو يربِّت على ذراعه. حذَّره من بعض الأخطار التي سوف يخوضها. وهكذا تأكَّد إنريكي أن التهريب هو النشاط الرئيسي الذي يزاوله التركي، وليس القمار، كما حدَّثَته الظنون.

ومنذ ذلك الحين، اضطُرّ إلى مضاعفه حضوره، لأنه بالإضافة إلى حفظ الأمن في صالات القمار، تولَّى مسؤولية استقبال وإرسال الشاحنات والزوارق عَبْر حدود البلد كافة، من دون أن يسأل يومًا عن نوعية البضائع التي يتسلَّمها التركي أو يُسلِّمها، وإن عرف بحاسة الشم جيدًا.

عرف أنه يغوص في رمال مُتحرِّكة قد تردّه إلى السجن، أو تصيبه برصاصة في ظهره بين لحظة وأخرى. غير أنه بدأ يحقِّق أرباحًا وفيرة،

ويقتني الأنيق من الثياب، ويأكل طعامًا أطيب، بل إنه سُرَّ ذات ليلة لأنه تجرَّأ واستعان بخدمات عاهرة من حانة تقع في منتزه كونكورديا، فمضى بها إلى نزل صغير في تلك الأنحاء، وتأكَّد من تعافي قدرته الجنسية التي ظنَّها خامدة.

ولمَّا بات يجني قدرًا أوفر من المال، تمكَّن من استئجار شقة في المنطقة الرابعة عشر، حيث تقع أفخم البيوت. كما اتَّخذ لنفسه طاهية وخادمًا. بل إنه اقتنى سيارة فورد مُستعمَلة، حالتها كالجديدة. لم يواجه مشكلة في الأوراق، إذ رُتِّبَت من أجله أوراق ثبوتية باسم المهندس الصناعي إستيبان راموس، والفضل في ذلك يرجع لعلاقات التركي وصداقاته، علمًا أنه يدفع مبالغ طائلة لموظفي الإدارة. عرف أنه فاز بمكانة جديدة في تنظيم التركي حين عرض عليه الأخير أن يرسله إلى بوغوتا، بعد غداء تخلَّله من البيرة الكثير. وبصراحة، أوضح له التركي أن سعر الكوكايين هو السبب الذي يحدو به إلى إرساله، لأن المُنتِج الكولومبي يرغب في زيادة السعر بطريقة مبالغ فيها. ومهمته إقناع المُنتِج بالموافقة على خفض السعر، وإلاَّ خسر السوق الغواتيمالية.

لم يسع إنريكي التصديق، فبين يديه جواز سفر يحوي جميع الأختام اللازمة، وصورته الشخصية، واسمه الجديد، ومهنته الجديدة: إستيبان راموس، مهندس صناعي. سافر ونزل في فندق تيكينداما الواقع في بوغوتا، فأحسَّ بقلبه يخفق تأثّرًا بالارتفاع الشاهق، ولكنه أفلح في إقناع المنتج بالموافقة على سعر معقول، ثم عاد أدراجه، وسُرَّ التركي كثيرًا بأدائه.

أحيانًا، في المطاعم أو المقاهي أو الحفلات الاستعراضية، أو في سيرو ـ الملهى الليلي الوحيد بالمدينة قبل افتتاح كازابلانكا ـ كان يتعرَّف بأشخاص من حياته السابقة، أي عندما كان عسكريًا، له ما له من

الطموحات والسلطات، قبل الزجّ به في السجن. لا هم تعرَّفوا به، ولا هو بادرهم بالتحية. لم يعاود رؤية فرد واحد من أسرته، ولم يعرف عنهم شيئًا. بَيْد أنه شعر بقدر كبير من الهدوء حيال الأمر: لأنه بات رجلاً غير الرجل.

ولكنه شعر بالقلق من العنف الذي يتفشَّى ويتزايد في جميع أنحاء غواتيمالا منذ حين. اندلعَت حروب العصابات في بيتين، وشرقي البلد، زد على ذلك الهجمات الإرهابية وعمليات الاختطاف وحظر التجول وما أُطلِق عليه «نزع ملكية» البنوك. وإذا هي موجة إجرامية تتخفى بقناع سياسي في كثير من الأحيان. ومن جهة أخرى، تعاقبَت الانقلابات العسكرية واحدًا تلو الآخر. وصارت الحياة أشدّ وأشدّ خطورة على الجميع. الأمر الذي لم يكُن ملائمًا للتجارة أيضًا.

٢٥

في الثامن عشر من يونيو عام ١٩٥٤، لمَّا عبرَت قوات جيش التحرير حدود هندوراس من ثلاثة مواقع، تحت إمرة كاستيّو أرماس، كان چون إميل پيوريفوي، سفير الولايات المتحدة الجديد الذي نصَّبَته إدارة أيزنهاور، قد مرَّ على وجوده في غواتيمالا سبعة أشهر. ومن دون مبالغة، يمكن القول إنه، بما له من طاقة مُتفجِّرة دائمًا، لم يتوقَّف يومًا واحدًا عن العمل في سبيل تنفيذ العمل الذي عهد به إليه وزير الخارجية چون فوستر دالاس، رئيسه الذي كلَّفه بمهمة: تقويض نظام خاكوبو أربينس.

كان چون إميل پيوريفوي، بقامته الخليقة بإنسان الغاب، في السادسة والأربعين من العمر. ولقد حرم نفسه كثيرًا وبذل جهودًا متراكمة في سبيل الوصول إلى ذلك المنصب. وُلِد عام ١٩٠٧ في والتربورو، تلك البلدة الصغيرة الواقعة في كارولينا الجنوبية. توفِّي والداه وهو لا يزال صغيرًا، فعاش في بيوت أقربائه. واضطُرّ إلى البحث عن أشغال متواضعة جدًّا، وهو في عمر المراهقة، للبقاء على قيد الحياة. كان يحلم بالالتحاق بالعسكرية، وقُبِل في أكاديمية ويست پوينت العسكرية. ولكن، لا بد أنه ترك الأكاديمية بعد زمن يسير لدواعي صحية. في واشنطن، عمل مُشغِّلَ مصعدٍ لكسب قوته. وفي عام ١٩٣٦، تزوَّج من بيتي چين كوكس، وسرعان ما شغل منصبًا عديم الأهمية لدى وزارة الخارجية.

أخذ يترقَّى في المناصب، بفضل مثابرته وطموحه، من القاع حتى وصل إلى منصب سفير الولايات المتحدة لدى اليونان أخيرًا، لمَّا أضرمَت العصابات الشيوعية النيران في البلد وأوشكَت على الإطاحة بالنظام الملكي والوصول إلى الحكم. وهناك أمضى ثلاثة أعوام.

كان ذلك أوان مجده: فبالوعيد، والقدرة منقطعة النظير على التآمر، وحاسة الشمّ التي لا تخيب في غالب الأحوال، والروح العملية، والشجاعة الهوجاء، أمكنه عقد مجلس عسكري مدعوم من التاج، ومُسلَّح ومُموَّل من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، فتغلَّب المجلس على جماعات حرب العصابات، وأقام في البلد نظامًا استبداديًا قمعيًا. عند ذاك فاز بلقب «جزَّار اليونان». وهكذا وجد كل من چون فوستر دالاس وشقيقه ألن دالاس، رئيس السي آي إيه، أن دبلوماسيًا مثل چون إميل پيوريفوي هو الرجل الملائم للذهاب إلى غواتيمالا حتى يمثِّل البلد الذي اتَّخذ قراره بالقضاء على حكومة خاكوبو أربينس بالتي هي أحسن أو بالتي هي أسوأ. وبالفعل، شرع في العمل على تقويض تلك الحكومة بقوة، فور وصوله إلى غواتيمالا، بقبعة بورسالينو مُزيَّنة بريشة لا تخيب، ومن دون حتى أن يشغل نفسه بالتحقّق على الأرض من الاتهامات الزاعمة بأن نظام أربينس قد وقع أسير الشيوعية، لعلَّها اتهامات مغالية أو غير واقعية (كما تجرَّأ وقال له مساعدُه في المفوضية).

ومنذ اليوم الذي قدَّم فيه أوراق اعتماده بقصر الحكم الهائل في مدينة غواتيمالا، عمد السفير الجديد إلى إحاطة الرئيس علمًا بأن البلد سوف يعيش أيامًا عصيبة في حضوره. ما كادَت تنتهي المراسم حتى طلب الرئيس من السفير أن يدخل إلى قاعة خاصة. وقبل أن يتناول معه كأس الشامبانيا التي صبَّها أحد الخدم لتوّه، وجد پيوريفوي يمدّ له ورقة تحوي قائمة مُرقَّمة بأسماء أربعين شخصًا.

ـ ما هذا؟ ـ كان الرئيس أربينس فارع القوام، وسيم المظهر، راقي

الخلق، غير أنه يتكلَّم الإنجليزية بمشقة، ولذا حرص على حضور المُترجِم دائمًا. وبالمثل فعل پيوريفوي.

ـ أربعون شيوعيًا في حكومتك. ـ قال له السفير بحدة أبعد ما تكون عن الدبلوماسية ـ باسم الولايات المتحدة، أطالبك بإعفائهم من مناصبهم فورًا، بتهمة اختراق النظام والعمل لصالح قوة خارجية بما يضرّ بمصالح غواتيمالا.

قبل أن يردّ، ألقى أربينس نظرة على قائمة الأسماء، حيث وجد عددًا من الأصدقاء الأعزاء والمعاونين، فضلاً عن أولئك الذين يجاهرون بانتمائهم إلى اليسار، كما وجد عددًا كبيرًا من أولئك الذين يناهضون الشيوعية بقدر ما يناهضها هو نفسه. أي حماقة! ابتسم في مودة، ثم توجَّه إلى الضيف قائلاً:

ـ بداية غير مُوفَّقة يا سعادة السفير. المعلومات التي بلغَتك خاطئة تمامًا. لم يرد في هذه القائمة من الشيوعيين سوى أربعة نوَّاب في المجلس يمثِّلون الحزب العمالي الغواتيمالي، الذي يجاهر بانتمائه إلى الشيوعية، مع أن غالب قادة الحزب، وتلك الثلة من الناشطين فيه، لا يعلمون جيدًا ما الشيوعية. أما باقي المذكورين في القائمة، فهم يناهضون الشيوعية بقدر ما تناهضها أنت. ـ سكَت هنيهة، ثم أردف سائلاً، بالدماثة نفسها ـ: أنسيتَ أن غواتيمالا بلد ذو سيادة، وأنك مُجرَّد سفير، فلا أنت نائب مَلِك ولا أنت والٍ؟

استغرق پيوريفوي في القهقهة، فاتحًا فمه على سعته، مطلقًا سحابة صغيرة من الرذاذ. ثم أخذ يتكلَّم ببطء، تيسيرًا على المترجمين. كان السفير ضخمًا، قويًا، سرى بعض الشيب إلى سوالفه قبل الأوان، له بشرة شاهقة البياض، وعينان داكنتان عدوانيتان، وحاجبان كثيفان.

أخذَت قطرات العرق تلتمع فوق جبينه. وابتداءً من ذلك الحين، كان

الرئيس أربينس كلما رأى السفير أحسَّ بارتفاع الحرارة، وشعر كأنه على وشك الانفجار.

ـ رأيتُ من واجبي اللعب معك لعبًا نظيفًا منذ اليوم الأول يا صاحب الفخامة. ألا تزعم بأن وجود عدد كبير من الشيوعيين في حكومتك مُجرَّد وهم أمريكي؟ إليك الدليل على خطأ مزاعمك.

ـ هل لي بمعرفة صاحب الخيال الواسع الذي أعدَّ هذه القائمة؟

ـ السي آي إيه. ـ أجاب السفير، مطلقًا ضحكة أخرى مقتضبة، في تحدٍّ. ثم أردف شارحًا ـ: إنها مُؤسَّسة في غاية الفعالية، كما تأكَّد النازيون إبان الحرب. والآن، بفضل السيناتور جوزيف مكارثي، تعمل الوكالة على تنظيف إدارة الولايات المتحدة التي اخترقها عدد كبير من الحُمْر، وذلك شيء تعاني منه حكومتك أيضًا. ألن تعفيهم من مناصبهم إذن؟

ـ بل إنني بالأحرى سوف أثبِّتهم في مناصبهم. ـ قال الرئيس هازئًا، ساخرًا مما يجري ـ ما دامت السي آي إيه تعتبرهم أعداء لها، فذلك يعني أنهم جديرون بثقتي. أنا ممتن لوقاحتك يا سعادة السفير.

ـ أرى أن التفاهم بيننا ممتاز يا صاحب الفخامة. ـ قال باسمًا.

ليلتذاك، في بيته الواقع في بومونا، قال الرئيس أربينس لزوجته ماريا بيلانوبا:

ـ لقد أرسلَت لنا الولايات المتحدة شمبانزي على درجة سفير.

ـ ولمَ لا؟ ـ أجابت ـ ألا يرى الغرينغو بلدنا وكأنه ضرب من حدائق الحيوانات؟

أصيب الكولونيل كارلوس كاستيّو أرماس بإحباط شديد بسبب تحرّكات جيش التحرير الأولى، يومي الثامن عشر والتاسع عشر من يونيو عام ١٩٥٤. لأن القوّة المُؤلَّفة من مئة واثنين وعشرين رجلاً، التي

انطلقَت من بلدة فلوريدا بهندوراس في اتجاه ساكابا، وجدَت مخفر الحرس المدني الصغير في غوالان مُعزَّزًا بثلاثين جنديًا تحت إمرة الملازم الثاني سيسار آوغوستو سيلبا خيرون، الضابط الشاب المفعم بالطاقة، الذي كان على أتمّ استعداد للتحرّك. أعدَّ جنوده للحرب، وأمرهم بالتربّص في أعالي التلال المحيطة، من حيث باغتوا قوات التحرير، وأرغموهم على التراجع بعد معركة حامية الوطيس، تاركين عشرات القتلى على الأرض، بمن معهم الكولونيل خوان تشاخون تشوا، قائد القوة، وغيره عدد كبير من الجرحى. وهكذا لم تنجُ من القتل والأسر إلاّ مجموعة من المُتمرِّدين لا يزيد عدد أفرادها على الثلاثين.

أما قوات التحرير التي انطلقَت من نويبا أوكوتيبيكي، تحت إمرة الكولونيل ميغيل أنخيل ميندوسا، وبمشاركة «وجه الفأس» نفسه، فعبرَت الحدود فجرًا في اتجاه إسكيپولاس. وإذا هم يجدون الحامية أفضل تجهيزًا من المُتوقَّع، مفعمة بالحماس، على أهبة خوض المعركة ضد الغزاة، شأنها في ذلك شأن مخفر غوالان. أفلت جيش التحرير من هزيمة منكرة بفضل الطائرات التي أرسلها الكولونيل برودفروست من نيكاراغوا على وجه السرعة، ولا سيما بفضل براعة چيري فرِد ديلارم الذي قصف ثكنة إسكيپولاس بقنبلتَيْن عنقوديتَيْن، فأتقن التصويب، أو حالفه الحظّ، إلى الدرجة التي جعلَت واحدة من القنبلتَيْن تنفجر وتدمِّر اثنين من أسلحة المدفعية التي كبَّدَت المهاجمين خسائر فادحة.

أما الفرقة التي انطلقَت من بلدة ماكويليسو في هندوراس ـ التي كانت أكبر الفرق عددًا، وقوامها مئة وثمانية وتسعون جنديًا ـ فاقتربَت من مرفأ بارّيوس على جبهتَيْن: عن طريق هجوم برمائي شنَّته السفينة سيستا، التي أرسلها الجنرال الأعلى تروخيّو تحت إمرة ألبرتو أرتيغا، وهجوم برّي آخر. كان المُخطَّط يرمي إلى تنفيذ مناورة المطرقة والسندان لخنق قوات النظام المرتكزة في المنطقة العسكرية بكبرى مرافئ غواتيمالا

المُطلّة على الكاريبي. ولكن جيش التحرير قوبِل بوابل شديد من الرصاص على الجبهتَيْن، ومشاركة في غاية الفعالية من الأهالي المدنيين. فإلى جانب الجنود، تدخَّلَت فرق العمال دفاعًا عن المنشآت العسكرية بمرفأ بارّيوس، بعد أن مدَّتهم النقابة والحكومة بالسلاح في الأيام السابقة. كانت تلك هي الواقعة الوحيدة التي ظهرَت فيها ما أُطلِق عليها «الميليشيات الشعبية»، في جميع أنحاء غواتيمالا، تلك «الميليشيات» التي كثيرًا ما روَّعَت صفوف المعارضة، مع أن وجودها لم يتعدَّ النظرية. اضطُرَّت قوات جيش التحرير إلى الهرب والتخلّي عن قتلاهم وجرحاهم في ساحة المعركة، على مشارف المرفأ. وانتصرَت حامية مرفأ بارّيوس التي كانت على أتمّ استعداد، ضبّاطًا وجنودًا، وبدعم الأهالي المُدرَّبين الذين شاركوا ببنادق الصيد والهراوات والأحجار والسكاكين، فتغلَّبوا على المهاجمين بعد ساعات من الصراع، وأرغموهم على الهرب، وأوقعوا بعضهم في الأسر. وفي وقت لاحق، أعدمَت الجموع عددًا من الأسرى. وهكذا باءت كل محاولات جيش التحرير بالهزيمة في الهجمة الأولى.

ومن جهة أخرى، تحرَّكَت مجموعة صغيرة من قوّات الغزاة انطلاقًا من سانتا آنا، في سالفادور، فلم يتمكّنوا حتى من بلوغ حدود غواتيمالا. إذ استوقفهم جيش سالفادور وصادر سلاحهم لعدم حيازتهم التراخيص اللازمة. فلم يُخلَ سبيل الموقوفين إلاّ بعد مضي يومَيْن، بفضل المساعي الحثيثة التي بذلَتها سفارة الولايات المتحدة، مع أمر بنقلهم إلى هندوراس على الفور، نظرًا لاعتراض أوسكار أوسوريو، رئيس سالفادور، على تحرّك أتباع كاستيّو أرماس من أرضه بهدف الهجوم على حكومة غواتيمالا.

وعلى الرغم من ذلك، كان أسوأ ما حدث لمُتمرِّدي كاستيّو أرماس في أول يومَيْن من أيام الغزو هو الإخفاق الذي باءت به كل محاولات

طيران التحرير لمدّ الجماعات والفرق المُتمرِّدة بالسلاح، تلك التي أفاد المخبرون بأنها تتحرَّك على أرض غواتيمالا فعلاً، وإن كانت تلك الأخبار محض دعاية. فلم تظهر الفرق المُكلَّفة باستلام الإمدادات الحربية ومؤن الطعام والأدوية المُزمَع إنزالها عن طريق المظلات في مواقع التسليم، مهما أصرَّ الكولونيل برودفروست على إرسال طائرات الشحن من طراز دوغلاس C-124C في الموعد المُتَّفق عليه. حلَّق الطيَّارون الأمريكيون فوق تلك المواقع والأنحاء المجاورة طويلاً، حتى بلغهم أمرٌ بالعودة إلى ماناغوا، والامتناع عن إنزال الحمولة، أو إغراقها في البحر. انضمَّت طائرة رابعة إلى الثلاث طائرات الدوغلاس C-124C، بعد أن صرَّح بشرائها ألن دالاس، رئيس السي آي إيه، الذي أصدر إذنًا بصرف النفقات اللازمة. استمرَّت أعداد الأسطول في الارتفاع على مدى الأيام التالية حتى بلغَت، عشية الغزو، ست طائرات شحن C-47 (DC-3)، وست طائرات F-47 ثاندربولت، ومقاتلة خفيفة من طراز P-38، وطائرة سيسنا ١٨٠، وطائرة أخرى سيسنا ١٤٠. كان جميع طيَّاري الأسطول من الغرينغو، ورُصِد لكل واحد منهم راتب وقدره ألفا دولار شهريًا، تُضاف إليه المكافآت عن كل مهمة ناجحة.

في جميع اللقاءات التالية، طوال ثمانية أشهر تقريبًا، أي المدة التي أمضاها السفير بيوريفوي في غواتيمالا، حاول الرئيس أربينس أن يشرح له وضع البلد الحقيقي. كما أصرَّ على أن الإصلاحات التي تبنَّتها حكومته، بما فيها الإصلاح الزراعي، لم يكُن الهدف منها إلاَّ تحويل غواتيمالا إلى ديمقراطية حديثة رأسمالية، على غرار الولايات المُتَّحدة وغيرها من الأمم الغربية. وإلاَّ، فهل أُنشِئَت «مزارع جماعية» في البلد؟ هل أُمِّمَت شركة خاصة واحدة؟ لم تكُن الأراضي البور التي أمَّمَتها الحكومة، ثم وزَّعَتها على الفلاحين المعوزين، إلاَّ حصصًا مُقسَّمة على حدة، بهدف تطوير الزراعة الخاصة الرأسمالية. «أجل، أنصتْ إليَّ جيدًا

يا سعادة السفير: رأسـ ـ ما ـ لية»، كان يقولها الرئيس مقطعًا مقطعًا، فيحذو المترجم حذوه، وينطقها مقطعًا مقطعًا بدوره. لو أن الحكومة ترغب في تحصيل الضرائب من شركة يونايتد فروت، كما تحصِّل الضرائب من جميع المزارعين الغواتيماليين، فالدافع الذي يحدو بها إلى ذلك هو نشر المدارس والطرقات والجسور في البلاد، علاوة على تحسين أجور المُعلِّمين وجذب المُوظَّفين من أصحاب الكفاءات وتمويل الأشغال العامة التي سوف تنتشل مجتمعات السكان الأصليين من العزلة والفقر، مع الأخذ في الاعتبار أن تلك المجتمعات تشكِّل الغالبية العظمى من تعداد غواتيمالا الذي يُقدَّر بثلاثة ملايين نسمة. أصرَّ الرئيس أربينس على حديثه، رغم أنه سرعان ما أدرك أن السفير بيوريفوي رجل منيع على الحجج والأسباب، التي لا يصغي إليها من الأساس، بل إنه يكتفي بتكرار حديثه الزاعم بتفشِّي الشيوعية في جميع أرجاء البلد، وكأنه دمية يلهو بها مُحرِّك الدمى. ألم يؤكِّد على تلك المزاعم رئيسُ الأساقفة بنفسه، مونسِنيور ماريانو روسيل إي أريَّانو، في رسالته الرعوية الشهيرة؟ ألم يبرهن على ذلك التصريحُ بإنشاء النقابات، منذ عهد خوان خوسيه أريبالو؟ ألم تسُد روح التمرّد وسط الفلاحين والعمَّال، بفعل المُحرِّضين؟ ألم تقع حوادث الاستحواذ على الأراضي واجتياح المزارع؟ ألم يشعر رجال الأعمال والمزارعون بالتهديد؟ ألم يرحل كثيرون منهم إلى الخارج؟ ألم تقرّ بذلك الصحف ومحطات الإذاعة يوميًّا؟

ـ ألا توجَد نقابات في الولايات المتحدة؟ ـ كان يجيبه أربينس سائلاً
ـ إن البلد الذي يخلو من النقابات الحرة المستقلة هو روسيا تحديدًا.

ولكن السفير لم يرِد أن يفهم شيئًا، بل راح يردِّد أن الولايات المتحدة لن تسمح بوجود مستعمرة سوفييتيه بين كاليفورنيا وقناة بنما ـ باللين حينًا وبالوعيد حينًا ـ فلمثل هذه الحالات وُجِدَت قوات المارينز، التي كانت في سبيلها إلى محاصرة غواتيمالا من الكاريبي والمحيط الهادي، «وإن لم يكُن ذلك تهديدًا».

ـ أتدري كم مواطنًا روسيًا في غواتيمالا في هذه اللحظة؟ ـ كان يحتجّ أربينس ـ لا يُوجَد مواطن روسي واحد يا سعادة السفير. هل لكَ أن تخبرني كيف يمكن أن يتَّخذ الاتحاد السوفييتي من غواتيمالا مستعمرةً، من دون أن يكون في هذا البلد مواطن سوفييتي واحد؟

حتى اعتراضات الرئيس على الحملة الصحافية التي انطلقَت من الولايات المتحدة وامتدَّت إلى العالم بأسره كانت عديمة الجدوى. كيف أمكن لصحف ذات وجاهة مثل نيويورك تايمز وواشنطن بوست وتايم ماغازين ونيوزويك وشيكاغو تريبيون أن تختلق شبحًا من هذا القبيل: الشيوعية في غواتيمالا!؟ إنها أكذوبة خالصة، قدَّمَت الإصلاحات الاجتماعية بصورة هزلية، وبطريقة تبعث على السخط، مع أن الإصلاحات المشار إليها تهدف إلى وضع حدٍّ للفقر والتفاوتات الاجتماعية كيلا ينجرف شعب غواتيمالا إلى الشيوعية على وجه التحديد. فكان الدبلوماسي يكتفي بالردِّ قائلاً إن الصحافة تتمتَّع بالحرية في الولايات المتحدة، ذلك البلد الديمقراطي، وإن الحكومة لا تتدخَّل في شؤونها. أوضح له أربينس بأدقّ التفاصيل أن الإصلاح الزراعي لم يقضِ بتأميم رقعة واحدة من الأرض المزروعة التي تملكها «فروتيرا»، شركة يونايتد فروت، أو تلك التي يملكها أصحاب المزارع الغواتيماليون، بل إن الإصلاح لم يشمل سوى الأراضي البور التي تُرِكَت غير مزروعة. زد على ذلك أن أصحاب الأراضي المُؤمَّمة قد تلقّوا تعويضات بمقتضى التقديرات الواردة في الإقرارات الضريبية التي قدَّموها بأنفسهم.

أخذ الرئيس يشجِّع سفير الولايات المتحدة على السفر في أنحاء البلد، بدلاً من عقد كل هذه الاجتماعات مع رجال العسكرية وتحريضهم على تنفيذ انقلاب ضد حكومته ـ بينما الآخر ينصت إلى تلك التفاصيل في ثبات ـ ويحثّه على أن يرى بعينَيْه كيف تسلَّم نصفُ مليون

من الهنود تلك الأراضي التي سوف تجعلهم من أصحاب الأملاك أخيرًا ـ «أجل يا سعادة السفير، من أصـ ـ حاب الـ ـ أمـ ـ لاك» ـ تلك الأراضي التي سوف تسمح لهم بالازدهار، وتسمح لغواتيمالا بالتحوّل إلى مجتمع لا جوع فيه ولا استغلاليون ولا فقراء، أسوةً بنموذج الولايات المُتَّحدة. أما السفير پيوريفوي، الذي تدرَّع بالبلادة، وتملَّكه الهوس بتنفيذ المهمة التي كُلِّف بها، فلم يسافر إلى خارج مدينة غواتيمالا يومًا. وفي جميع اللقاءات التي جمعَت بينه وبين الرئيس، كان يكتفي بترديد السؤال نفسه مرارًا وتكرارًا:

ـ لماذا تجور حكومتكم على شركة أمريكية مثل يونايتد فروت يا صاحب الفخامة؟

ـ سعادة السفير، أيبدو لك من العدل ألاَّ تكون «فروتيرا» قد دفعَت سنتًا واحدًا، ضريبةً عن نشاطها التجاري، طوال تاريخها الذي يمتدّ لأكثر من نصف قرن في غواتيمالا؟ ـ أجابه أربينس ـ أجل، أنصتْ إليَّ جيدًا: لم تدفع سنتًا واحدًا طوال تاريخها. والحق أنها كانت ترشو الطغاة التافهين من أمثال إسترادا كابريرا وأوبيكو، فيوقِّعون تلك العقود التي تُعفَى الشركة بمقتضاها من الضرائب. ولمَّا عجزَت الشركة الآن عن رشوتي، صارَت مُضطرَّة إلى سداد الضرائب، كما تفعل كل الشركات في الولايات المتحدة وسائر الديمقراطيات الغربية. ألا تسدِّد الشركات الضرائب في بلدك؟ على كل حال، هنا تدفع الشركات أقل من نصف ما تدفعه هناك.

كان الرئيس يعرف أنه لا طائل يُرتجَى من ذلك. وبالفعل، عرف أن السفير پيوريفوي لن يكفّ عن محاولاته الساعية إلى تحريض الجيش حتى يتمرَّد على الحكومة وينقلب على النظام. سأل الرئيس وزراءه عما إذا كان من الملائم سحب الثقة من السفير وطرده من البلد، فاعترض وزير الخارجية غييرمو توريّو وأكَّد له أن ذلك الإجراء سوف يؤدي إلى

تفاقم الأزمة بينهم وبين الولايات المتحدة، وربما اتُّخِذ ذريعة لإنزال قوات المارينز في غواتيمالا. سادَت فكرة ذلك الإنزال طوال الوقت. كان أربينس يعرف أنها تبثّ الهلع في صفوف جيش غواتيمالا، مخافة أن يؤدّي ذلك الغزو إلى سحق القوات المسلحة. طبقًا لاستطلاعات الرأي الخاصة التي أجرَتها الحكومة، فمن المُتوقَّع أن ينضمّ إلى صفوف العدو ما لا يقلّ عن نصف أفراد الجيش الغواتيمالي أو ثلاثة أرباعهم، في حالة وقع غزو أمريكي. كان ذلك أشدّ ما يقلق الرئيس. حتى الآن تمكّن من السيطرة على رفاقه العسكريين، ولكنه يعلم تمام العلم أن العسكريين سوف يتخلّون عن القوات المسلحة جماعات في تلك اللحظة، متى لامسَت أقدام المارينز أرضَ غواتيمالا. في تلك الحقبة المفعمة بالتوتّر الشديد، كان يحس بالحكّة في كل جسده أحيانًا، وبالحاجة إلى كأس من الويسكي أو الرمّ. بَيْد أنه لم يستسلم لتلك الغواية قطّ.

كان أربينس يقول إنه أول المناهضين للشيوعية في غواتيمالا، فيرى السفير پيوريفوي مبتسمًا في سخرية. كان يسأله أي تابع روسي هو ذلك البلد الذي يخلو من المواطنين الروس تمامًا، ولم تجمعه بالاتحاد السوفييتي أي علاقات دبلوماسية أو تجارية قطّ، ذلك البلد الذي يحظر الأحزاب السياسية الدولية بمقتضى الدستور، فينصت إليه السفير ولا ينبس بكلمة واحدة. كما يفعل متى أكّد له الرئيس أن الحزب العمالي الغواتيمالي، الذي يعترف بانتمائه إلى الشيوعية، ما هو إلاّ منظمة هزلية في ضآلتها (وإن ظهر على وجه السفير قدر أكبر من الريب أحيانًا). في تلك المناسبات، كان چون إميل پيوريفوي يجيبه بأنه ربما اقتصر عدد النوّاب الذين ينتمون إلى ذلك الحزب على أربعة أعضاء، ولكنه يسيطر على جميع النقابات. وكان السفير مُحِقًّا في تلك المسألة التي بثّت الرعب في عائلات المزارعين ورجال الأعمال الغواتيماليين، الذين تعرَّضَت أراضي الكثيرين منهم للاجتياح، ثم أرغِموا على السفر إلى

الخارج. «ليس هنالك ما يمكن عمله»، كان أربينس يفكِّر. «لقد بعثوا إلينا رجلاً أحمق».

غير أن چون إميل پيوريفوي لم يكُن أحمق، بل مُتشدِّدًا وعنصريًا، من دون شك. أضف إلى ذلك أنه مكارثي، ثقيل الروح، بطيء الفهم، طبقًا لما أخذَت تردِّد زوجة أربينس، السيدة ماريا كريستينا بيلانوبا، على أسماع كل من يرغب في الإنصات إليها، طوال الليل والنهار، منذ اليوم الذي تعرَّفَت فيه على السفير. وعلى الرغم من ذلك، فهو رجل فعَّال، ينقضّ على عمًى حتى يذلِّل أي عقبة في طريقه ويحقِّق أهدافه. ولقد تحلَّى بالجرأة اللازمة لمحاولة شراء قائد الجيش، الكولونيل كارلوس إنريكي دياس («أربينس الصغير الثاني»)، الذي عرض عليه مبعوث السي آي إيه مئتي ألف دولار، خلال رحلة قطعها الكولونيل إلى كاراكاس، مقابل «مدّ يد العون للولايات المتحدة». رفض كارلوس إنريكي دياس العرض، وما كاد يعود من فنزويلا حتى هرع ليخبر الرئيس أربينيس بالقصة. كما اعترف له بأن «شعورًا مُروِّعًا بالذعر» قد تملَّكه في كاراكاس ظنًّا منه بأن زوجته قد أرسلَت من يقتفي أثره، لأنه اغتنم تلك الرحلة كي يصطحب عشيقته.

انتهج السفير پيوريفوي استراتيجية قريبة من تلك التي اتَّبعها في اليونان: إقناع القادة العسكريين بأن سياسة أربينس لا تضرّ بالبلد وحده، وإنما تضرّ بالقوات المُسلَّحة أيضًا، أكثر من كل ما عداها، مع الأخذ في الحسبان أنها أولى المُؤسَّسات التي سوف يمحوها الشيوعيون من الوجود، ثم يستعيضون عنها بميليشيات شعبية تحت قيادة الحزب، كما فعلوا في روسيا والديمقراطيات الشعبية التي استحوذ عليها الشيوعيون في أعقاب الحرب العالمية الثانية. لم يكُن السفير يتوخَّى أدنى حذر في تلك المهمات، وهكذا وقف الرئيس أربينس وحكومته على أدق تفاصيلها. اعتبر أربينس تلك المساعي «استفزازات» يُراد بها إرغامه على

طرد السفير، وبذلك يقدِّم للولايات المتحدة ذريعةً كافية لغزو بلده. كان پيوريفوي يدعو الكولونيلات والروّاد العسكريين إلى السفارة، بدءًا بالكولونيل دياس، قائد الجيش، وآخرين من أمثال الكولونيل إلفيغو أ مونسون، والكولونيل روخيليو كروس وير، قائد الحرس المدني، والرائد خايمي روسِمبرغ، قائد الشرطة القضائية. وإلاً، فكان يجتمع بهم في الكازينو العسكري، أو في بيوت خاصة يملكها أصحاب المزارع ورجال الأعمال الذين روَّعَتهم الإصلاحات، ولا سيما مرسوم ٩٠٠ من قانون الإصلاح الزراعي، لأن بعضهم اضطُرّ إلى سداد الضرائب لأول مرة في حياته. كان السفير يحذِّر أولئك العسكريين زاعمًا أن الولايات المتحدة لن تجد بديلاً عن التدخّل في القريب العاجل، ما دام الوضع مُستمِرًّا في التفاقم كما يحدث بالفعل. أيقفون في وجه أقوى جيوش العالم؟ ومن جهة أخرى، كان يُذكِّرهم بأنه منذ عام ١٩٥١، ومنذ الشروع في تطبيق الإجراءات الشيوعية التي نعتها أربينس «بالاجتماعية»، اضطُرَّت الولايات المتحدة إلى فرض حظر على غواتيمالا تُمنَع بموجبه من شراء الأسلحة والذخيرة وقطع الغيار العسكرية من أي بلد غربي، وانضمَّ إلى المقاطعة عددٌ من الحكومات الأوروبية، الأمر الذي كبَّد القوات المسلحة خسائر فادحة. ألا يعرفون ذلك تمام المعرفة؟ ألم يكُن ذلك سببًا كافيًا للتحرّك والإطاحة بهذه الحكومة؟

وعلى الرغم من ذلك، فبحلول الثامن عشر من يونيو، لمَّا عبرَت قوات كاستيّو أرماس حدود هندوراس، لاحظ السفير أن عددًا كبيرًا من العسكريين الذين كان يجتمع بهم دوريًّا قد أبدى استياءً شديدًا. إذ اعتبروا التمرّد الذي أعلنه على بلده ذلك العسكري المُهرِّج الذي يفتقر إلى الوجاهة، على رأس قوة من المرتزقة أكثرهم من الأجانب، أمرًا «لا يُحتمَل»، «وخيانةً عظمى». وهكذا بدَّل پيوريفوي الاستراتيجية بأخرى، استجابةً للإصرار المُؤسَّسي الذي أبداه الضبَّاط، وطلب من وزارة

الخارجية والسي آي إيه ألاَّ يكون دعم الولايات المتحدة لذلك «الخائن» صريحًا إلى هذا الحدّ، وطلب من واشنطن أن تقبل بمزايا «الانقلاب المُؤسَّسي»، كما سبق واقترح منذ البدء.

ومن جهة أخرى، أصبح للسفارة مخبرون في صفوف الضبَّاط الغواتيماليين، والفضل في ذلك يرجع إلى الجهود التي بذلها السفير بيوريفوي، الذي أخبر رؤساءه في وزارة الخارجية بأنهم «أوفر كثيرًا من الضبَّاط اليونانيين». لم يكُن جميع الضبَّاط من ذوي الضمائر اليقظة مثل الكولونيل دياس. كان السفير بيوريفوي يرسل المعلومات إلى واشنطن يوميًا، ويسعى جاهدًا للحطِّ من شأن تحرّكات كاستيّو في الخارج، والدفاع عن قناعته بأن انقلاب القوات المسلحة على أربينس والإطاحة به أفضل وأسرع. ودفع بحجّة مفادها أن الحل آنف الذكر سوف يكون أكثر فعالية من الغزو الذي طال انتظاره إلى الحد الذي يبرِّر أقوى شكوك العسكريين والمدنيين.

ولقد تأكَّد ذلك المنطق يومَي الثامن عشر والتاسع عشر من يونيو عام ١٩٥٤، بعد أن عبرَت الحدود قوات كاستيّو أرماس (أو بالأحرى «عصاباته»، على حد قول بيوريفوي). لولا سلاح طيران التحرير، لباءت محاولة الغزو بفشل عظيم. إذ حال سلاح الطيران دون القضاء على القوات التي مُنيَت بالهزيمة في مواجهة الجيش في غوالان ومرفأ بارّيوس، وتمكّن بمعجزة من إنقاذ القوات التي حاولَت احتلال ساكاپا. أما سلاح الطيران التابع لحكومة أربينس، فكان هزليًا، واقتصر قوامه على خمس طائرات بيتشكرافت AT-11، خسرَت الحكومة إحداها في أول أيام الغزو، إذ تخلّى قائدها عن الجيش وهرب إلى هندوراس، حيث انضمَّ إلى التمرّد بطائرته. لم يجرؤ أربينس على إرسال باقي الطائرات لخوض المعركة خشية أن ينضمّ الطيارون إلى صفوف العدو. وهكذا خلَت الأجواء لطيران التحرير، بقيادة الكولونيل برودفروست.

أحسن الطيارون الغرينغو استغلال ذلك الاحتكار الذي فرضوه على السماء. وهكذا تسبَّب طيران التمرّد في خسائر فادحة، ولا سيما في تشيكيمولا، بقيادة چيري فرِد ديلارم، الذي تمكَّن من قصف باحة الثكنة بقنبلة عنقودية، مُحلِّقًا فوق الحامية بطريقة انتحارية، ما أسفر عن تدمير ذخيرة المدفعية وسقوط القتلى والجرحى، فاضطرَّت البقية الباقية من الجنود في الموقع إلى الاستسلام يومَ الثالث والعشرين من يونيو، على الرغم من النصر الذي أحرزوه في البدء. احتلَّت قوات التحرير الحامية، فكان ذلك حافزًا كبيرًا للغزاة عقب الهزائم التي تكبَّدوها على مدى اليومَيْن السابقَيْن، وبعد التقهقر الوشيك إلى أراضي هندوراس. أعلن راديو التحرير عن استحواذ كاستيّو أرماس على حامية إسكيپولاس وتشيكيمولا واصفًا الحدث بأنه «بداية النهاية» التي تنتظر حكومة أربينس.

عند ذاك، بدأ السفير پيوريفوي يتوجَّه إلى وزارة الخارجية والإدارة الاستراتيجية المسؤولة عن غزو جيش التحرير (بقيادة اثنين من مسؤولي السي آي إيه، هما روبرتسون ويزنر)، داعيًا إلى قصف مدينة غواتيمالا، فلا بد أن يسود الهلع في العاصمة ليتَّخذ الجيش قراره بالتحرّك. دافع السفير عن دعوته مُتعلِّلًا بما أدلى به صراحةً كبار الضبَّاط، بمن معهم الكولونيل مونسون، والكولونيل دياس، قائد الجيش نفسه: «لا بد من سقوط القتلى في صفوف المدنيين. لا بد من تفشّي الهلع وسط الأهالي. تلك هي الحالة الوحيدة التي نُضطَرّ فيها إلى التحرّك ضد أربينس». ولقد تأكَّد الأمر عندما حضر الكولونيل إلفيغو أ مونسون إلى السفارة برفقة الكولونيل خوسيه لويس كروس سالاسار والكولونيل ماوريسيو دوبوا، وأشار بضرورة استهداف حصن ماتاموروس تحديدًا، ذلك الذي يقع وسط العاصمة، وقصفه بطيران جيش التحرير.

وقع الهجوم في الخامس والعشرين من يونيو، في أول المساء. كان سلاح الطيران التابع لجيش التحرير قد زاد عددًا بحلول ذلك الوقت.

وقبل التوجّه إلى العاصمة، حلّقَت طائرتا ثاندربولت فوق تشيكيمولا وساكاپا، بقيادة ويليامز وديلارم. في البدء دمَّرَت الطائرتان قطارًا يحمل قوات تابعة للنظام، كانت في سبيلها إلى تعزيز الحاميات، ثم أتبعَتا ذلك بقصف أحد الجسور لعرقلة الناجين الذين مضوا سيرًا على الأقدام.

وصلَت كلتا الطائرتَيْن إلى العاصمة في الثانية وعشرين دقيقة من المساء. حلَّق ويليامز فوق حصن ماتاموروس أولاً، ولكن القنبلة العنقودية التي كان يحملها، ويُقدَّر وزنها بمئتي وخمسة وسبعين رطلاً، علقَت بآليات الطائرة. أما ديلارم، الذي جاء في أثر ويليامز، فتمكّن من قصف مستودع مُتفجِّرات الحصن بقنبلة يُقدَّر وزنها بخمسمئة وخمسة وخمسين رطلاً، فتفجَّر المستودع واستحال شظايا. تعاقبَت التفجيرات وسقطَت أعداد لا تُحصَى من الموتى والجرحى، في داخل الثكنة وخارجها. فتحَت الطائرتان نيران المدافع الرشاشة على الناجين، خلال باقي الطلعات الجوية، فقُوبِلَتا بدفقات من رصاص البنادق. عند ذاك تراجعَتا، ولكن ليس قبل أن يطلق ويليامز على المدينة قنبلتَيْن أخريين، كلتاهما أصغر حجمًا من تلك التي علقَت بطائرته، أصابت واحدة منهما باحة الشرف بالمدرسة العسكرية. عند ذاك، شعر ضبَّاط الجيش بالرضى، وعلى رأسهم قائد الجيش، الكولونيل دياس («أربينس الصغير الثاني»)، والكولونيل إلفيغو أ مونسون: إذ سقط عدد كبير من الموتى والجرحى في صفوف المدنيين، وانطلقَت آلاف العائلات مذعورةً إلى الطرقات في محاولة للهرب من المدينة التي شبَّت فيها ألسنة اللهب، مُحمَّلين باللفائف والمهود والكلاب، مخافة أن تقع هجمات أخرى وعمليات قصف جديدة ينفِّذها طيران التحرير.

بعد قصف حصن ماتاموروس بأربع وعشرين ساعة ـ بينما كانت المدينة لا تزال في حالة فوضى تحت تأثير الهجوم الذي أسفر عن سقوط القتلى والجرحى في الشوارع التي لم يُنقَلوا منها بعد، وبينما أخذ

طوفان من الناس يحاولون الهرب إلى الريف ـ استقبل الرئيس أربينس طلبًا عاجلاً من قائد الجيش، الكولونيل كارلوس إنريكي دياس، «باسم القوات المُسلَّحة التي أتشرَّف بقيادتها»، يناشد فيه الرئيس بالاجتماع به في حضور هيئة الأركان العسكرية «على خلفية الأحداث بالغة الخطورة التي وقعَت أمس، أي القصف الذي نفَّذه الطيران المعادي على حصن ماتاموروس ونواحيه». كان دياس ومونسون وغيرهما من أعضاء هيئة الأركان العسكرية رفاق أربينس في المدرسة الفنية العسكرية وأصدقاء له. زد على ذلك أن أربينس قد استخدم سلطات واسعة حتى يصل دياس إلى قيادة الجيش. بَيْد أنه ما كاد يتلقَّى الطلب الذي كُتِب بتلك الصيغة حتى أخبره حدسه بأن الكولونيل دياس لم يعُد هو الشخص الذي يعرفه، لم يعُد صديقه ورفيقه منذ عهد الشباب.

حتى يومَيْن مضيا، كان الكولونيل دياس يخبره يوميًا بالضغوط التي يمارسها پيوريفوي على كبار الضبَّاط لتنفيذ انقلاب عسكري. هل بات الانقلاب قيد التنفيذ؟ حتى هو اشتروه أخيرًا؟ ما لبث أن استدعى الكولونيل دياس وهيئة أركان الحرب إلى مكتبه الرئاسي مساء ذلك اليوم. وبعد ذلك استدعى ثلاثة مدنيين من أصدقائه ومستشاريه، كارلوس مانويل پيبسير، وبيكتور مانويل غوتييرّيس، الأمين العام لاتحاد نقابات العمال والفلاحين، وخوسيه مانويل فورتوني، زعيم الحزب العمالي (الشيوعي)، الذي عاونه على وضع قانون الإصلاح الزراعي وتطبيقه عقب إقرار القانون في المجلس. كان خوسيه مانويل فورتوني هو الذي تولَّى إتمام صفقة السلاح السرية في تشيكوسلوفاكيا، في أواسط عام ١٩٥٤، تلك الصفقة التي عقدها أربينس في محاولة منه للتحايل على الحظر الذي فرضَته الولايات المتحدة على غواتيمالا، وسبَّب للجيش قلقًا عارمًا. أفلح فورتوني في المهمة. وبعد شراء السلاح، تمكَّن أربينس من إدخاله إلى البلد على متن سفينة سويدية تُدعَى ألفيم، وصلَت إلى

مرفأ بارّيوس من دون أن تكشف الولايات المتحدة أمرها. وأي دليل أفضل من ذلك على أن الاتحاد السوفييتي لا يلقي لما يجري في غواتيمالا أدنى بال! كثيرًا ما خطرَت تلك الفكرة لأربينس، إذ اضطُرَّت حكومته إلى دفع ثمن السلاح الذي بيع إليها بأسعار باهظة، عدًّا ونقدًا، بلا أدنى تخفيض. أثارت الصحافة الأمريكية فضيحة مُدوِّية بسبب صفقة البنادق والبازوكا التي لم يسمح الجيش يومًا باستخدامها لتسليح ميليشيات شعبية لم يكُن لها وجود.

سألهم أربينس عن سير عملية تشكيل الميليشيات، من دون أن يوضح لهم أي شيء بخصوص رسالة دياس، فأدلى ثلاثتهم بمعلومات في غاية التشاؤم، ولا سيما فورتوني. سارَت عملية تشكيل الميليشيات ببطء شديد. إذ لم تكُن جميع نقابات الفلاحين راغبة في انضمام أعضائها. في حين أبدَت نقابات أخرى استعدادًا، ولكنها وجدَت معارضة شديدة من جانب الأعضاء الذين تسلَّموا مزارع صغيرة منذ عهد قريب وأرادوا التفرّغ للعمل في الأراضي بأسرع ما يمكن بدلاً من خوض الحرب والانضمام إلى الميليشيات. أما فورتوني، الذي كان صديقًا مُقرَّبًا إلى خاكوبو وماريا أربينس من قبل الانتخابات، فأكَّد له أن المشكلة الكبرى بحقّ تتمثَّل في امتناع رجال العسكرية المُكلَّفين بتدريب المُجنَّدين عن تأدية مهمتهم، إذ كانوا يخشون ذلك «الجيش المدني» ويرون أنه يهدِّد بقاء الجيش الحقيقي. أو لعلَّهم تلقّوا أوامر من رؤسائهم بتخريب مهمة تشكيل الميليشيات. لم يتقدَّم في إستاد المدينة الأوليمبية بالعاصمة إلاَّ بضع عشرات من المُتطوِّعين، لا الآلاف المُتوقَّعة. في حين عمد الضبَّاط المُكلَّفون بتمرينهم إلى المماطلة، والتغيّب عن الحضور في مواقع التدريب المُحدَّدة، واختلاق الأعذار لتبرير امتناعهم عن تسليم البنادق الموعودة للمُتطوِّعين. كان الأمر في غاية الوضوح: لم يرضَ جيش غواتيمالا عن تكوين ميليشيات شعبية دفاعًا عن الثورة. كان السفير

بيوريفوي قد أقنع أولئك الذين ما زالَت تساورهم الشكوك بأن تلك «الميليشيات»، في حال شُكِّلَت، سوف تقضي على الجيش الشرعي في خاتمة المطاف. إن خوض الصراعات والحروب مهمة القوات المسلحة، لا النقابات ولا الفلاحين. وبسبب هذا التصريح، اتُّهِم خوسيه مانويل فورتوني لاحقًا بأنه «قد انتهج سلوكًا شخصيًا لا يليق بمنصبه» وصرَّح بـ«سياسيات خاطئة تشاؤمية»، كما اتَّهمَته اللجنة المركزية للحزب العمالي الغواتيمالي (الذي كان يشغل منصب الأمين العام فيه). وهكذا خضع فورتوني لـ«إجراءات تأديبية»، وأُعفِي من قيادة الحزب العمالي الغواتيمالي.

لم يخبر أربينس المدنيين الثلاثة بشأن الاجتماع المُزمَع عقده مساءً في حضور هيئة الأركان العسكرية. ولكن التقرير الذي تسلَّمه من ثلاثتهم تركه في غاية التشاؤم. جاء كلامهم عن تصدِّي الجيش لتشكيل الميليشيات مطابقًا لما حدَّثَته به الظنون. فمن الوارد أن يكون الضبَّاط المُكلَّفون بتمرينهم قد تلقَّوا أوامر عليا بالتباطؤ واختلاق مختلف الأعذار، ولكن من الوارد أيضًا أن يكونوا هم الذين قرّروا تخريب العملية بأنفسهم، إذ طغَت عليهم روح الجسد الواحد رغم وجود مُؤيِّدين للإصلاحات الاجتماعية في صفوف الضبَّاط. لطالما عرف الرئيس أن الجيش لن يقبل بمواجهة الولايات المتحدة أبدًا. ولقد استبعدَت المُؤسَّسة العسكرية احتمالات الدخول في حرب ضد قوات المارينز تمامًا، مهما بلغ شعور الضبَّاط بالاحتقار نحو كاستيّو أرماس. ومَن يلومهم؟

ابتداءً من الثامنة ليلاً، شغل المكتبَ الرئاسي نحو عشرين فردًا من القادة العسكريين، الذين جاء بعضهم من حاميات تقع في المناطق الداخلية. حضر جميعهم بثياب المراسم، وقد زيَّنوا صدورهم بالنياشين، فسمح الرئيس لقائد الجيش بالحديث على الفور.

ما إن بدأ الكولونيل كارلوس إنريكي دياس يستعرض بواعثه، في رصانة ومهابة، وشرع يُقحِم في حديثه لقب صاحب الفخامة المُبجَّل طوال الوقت، حتى عرف خاكوبو أربينس ما هو آتٍ. الأمر يتعلّق بحماية ثورة أكتوبر، والإصلاحات، وقانون الإصلاح الزراعي، وتسليم الأراضي للفلاحين. تلك هي المسألة. طبعًا، أصرَّ دياس، طبعًا يا صاحب الفخامة. فتلك إصلاحات يتفهَّمها الجيش ويؤيِّدها. ومن المُؤكّد أن الجيش الغواتيمالي لن يحتمل تمرّدًا مُسلَّحًا يقوده خائن من أمثال كاستيّو أرماس، تمرّدًا يدعمه المرتزقة الأجانب، مع الأخذ في الاعتبار تعنّت الولايات المتحدة وعداوتها الصريحة. لا بدّ من إحباط ذلك التمرّد، ذلك الغزو الآتي من هندوراس، الذي تصدّى له الجيش ببسالة في غوالان ومرفأ باريوس. من دون أدنى شكّ. ذلك شيء لا يرتاب فيه جنود الجيش الغواتيمالي وضبّاطه الذين يُقدَّر عددهم بثمانية آلاف. ولكن من المُؤكَّد أن جيش غواتيمالا لن يقوى على خوض حرب ضد أقوى بلد في العالم بأسره، الولايات المتحدة. ومن جهة أخرى، فعدوان الولايات المتحدة على «صاحب الفخامة»... (بل عدوانها «على غواتيمالا»، قاطعه أربينس)... أجل، على غواتيمالا، تراجع دياس، ذلك العدوان قد أوقع بالقوات المسلحة خسائر فادحة، بسبب الحظر والمنع من شراء الأسلحة والذخيرة وقطع الغيار العسكرية، ذلك الإجراء الذي أفلحَت الولايات المتحدة في إقناع غالب البلدان الغربية بتبنّيه منذ أعوام، ما أفضى بالقوات المسلحة إلى الوقوع في مأزق شديد، كما تأكّد هذه الأيام، تحت وطأة الغزو الذي شنّه كاستيّو أرماس وجيشه المُؤلّف من أعداء الوطن والمرتزقة والخونة. ولقد ثبت بوضوح أن الاستعاضة عن الولايات المتحدة بالبلدان الشرقية لاستيراد السلاح أمر غير ممكن، كما تأكّد منذ بضعة أشهر عند شراء السلاح من تشيكوسلوفاكيا، تلك الصفقة التي أثارَت فضيحة دولية وكادَت تمنح

قوات المارينز الذريعة اللازمة لغزو غواتيمالا، وكل ذلك من أجل سلاح معظمه بلا نفع يُذكَر، لأنه عتيق لا قطع غيار له!

أعقب حديثه سكوت طويل، ران خلاله صمت خليق بالقبور وسكون مطبق خيَّم على جميع الحضور في المكتب. «الآن يدخل إلى صلب الموضوع»، هكذا فكَّر أربينس. وقد كان.

ـ ولذا، يا صاحب الفخامة، نطالبك نحن السلطات العسكرية العليا ـ الحريصة على حماية مكتسبات الثورة وإلحاق الهزيمة بكاستيّو أرماس في أسرع وقت ممكن وعلى النحو الأكثر فعالية ـ بالتنحّي عن الرئاسة في لفتة وطنية سخية من جانب فخامتكم. ولسوف يتولّى جيش غواتيمالا السلطة، ويتعهَّد بالحفاظ على الإصلاحات الاجتماعية، والإصلاحات الزراعية على وجه التحديد. وهزيمة كاستيّو أرماس وأتباعه من المرتزقة.

سكت الكولونيل كارلوس إنريكي دياس. ومرة أخرى، ران صمت طويل، حتى سأل الرئيس أربينس أخيرًا:

ـ هل يؤيِّد جميع الضبّاط الحاضرين كلمة قائد الجيش؟

ـ لقد أبرمنا هذا الاتفاق بالإجماع يا صاحب الفخامة. ـ أجابه الكولونيل دياس ـ في البدء اتُّخِذ القرار بإجماع هيئة الأركان العسكرية، ثم لاقى موافقة جميع قادة الحاميات والمواقع في غواتيمالا.

ومرة أخرى، جاءت كلماته متبوعة بصمت مفعم بالكهرباء. في تلك المرة، نهض خاكوبو أربينس من كرسيه وتكلَّم واقفًا على قدمَيْه، بصوت في غاية الثبات:

ـ لستُ مُتمسِّكًا بهذا المنصب الذي اختارتني له الغالبية العظمى من شعب غواتيمالا في انتخابات نظيفة، المنصب الذي سمح لي بتنفيذ إصلاحات اجتماعية واقتصادية لا غنى عنها لرفع الظلم الذي تكبَّده الفلاحون في هذا البلد على مدى قرون. وما دام الحفاظ على تلك

الإصلاحات رهنًا بالتنحّي، فأنا لا أملك سببًا واحدًا يدفعني إلى الاستمرار في هذا المنصب. وخاصة ما دام الهدف من وراء ذلك إلحاق الهزيمة بالخائن المدعو كاستيّو أرماس وعقابه.

ـ نقسم على ذلك بشرفنا يا صاحب الفخامة. ـ قاطعه الكولونيل كارلوس إنريكي دياس، ضاربًا كعب حذائه.

ـ فليبقَ معي قائد الجيش. ـ قال الرئيس ـ أما باقي الضبّاط، فبإمكانهم العودة إلى مواقعهم، ولسوف يخبرهم الكولونيل دياس بقراري.

واحدًا تلو الآخر، خرج الضبّاط من المكتب، وأدّى جميعهم التحية العسكرية للرئيس رافعين أيديهم إلى القبعات ذات الحواف الناتئة قبل الرحيل.

بقيا وحدهما، فتكلّم أربينس سائلاً دياس، وقد لاحظ الامتقاع الشديد البادي على وجهه:

ـ أتعتقد أن التنحّي سوف يرضي الولايات المتحدة؟

ـ لا أدري بشأن الولايات المتحدة. ـ أجابه الكولونيل دياس ـ ولكنه سوف يرضي الجيش يا خاكوبو، الجيش الذي كاد يعلن التمرّد. أقسم لك إنني صنعتُ معجزات حقيقية لتجنّب ذلك. لقد أكّد لي السفير پيوريفوي أن الولايات المتحدة سوف تحترم الإصلاحات، ولا سيما الإصلاح الزراعي، لو أنك تنحّيت عن الرئاسة، علمًا أن واشنطن لا ترغب إلاّ في إبعاد الشيوعيين عن السلطة.

ـ هل طلب منك إعدامهم رميًا بالرصاص؟

ـ مبدئيًا، طلب مني الزجّ بهم في السجن. وطردهم من الإدارة العامة فورًا. لديه قوائم جاهز، وشاملة جدًّا.

ـ وماذا يكون من أمر كاستيّو أرماس؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ كانت تلك هي المسألة الأشدّ صعوبة. ـ قال الكولونيل دياس ـ ولكني لم أتهاون في الأمر، ولم أتراجع ميليمترًا واحدًا. لا للخائن والعاصي. لقد أكّد لي السفير بيوريفوي أن الولايات المتحدة سوف تسمح بسقوط كاستيّو أرماس لو تولّى الجيش مقاليد الحكم وزجّ بالشيوعيين في السجن وحظر الحزب العمالي الغواتيمالي. ومن جانبي، قلتُ له مرارًا وتكرارًا إن هزيمة ذلك الخائن ومحاكمته على خيانة وطنه وزيّه العسكري أمر لا بد منه.

ـ حسنًا يا كارلوس. ـ قال الرئيس ـ أنا علي يقين من أنك تنطق بالحق. وآمل أن تحافظ على الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي أدخلناها على الأقل. وأن تمنع ذلك التعيس من الصعود إلى الحكم.

ـ أقسم لك على ذلك يا خاكوبو. ـ قال قائد الجيش وهو يؤدِّي التحية العسكرية.

رآه أربينس يخرج من مكتبه، ويوصد الباب من خلفه. أخذ جسده يرتجف كاملًا. حتى إنه اضطُرّ إلى إغماض عينَيْه والتقط نفسًا عميقًا ليهدِّئ من روعه. هل كان القرار الذي يوشك على اتّخاذه منصفًا؟ سوف يكون منصفًا لو حفظ العهدَ كلٌّ من الجيش والكولونيل كارلوس إنريكي دياس، لو أنهما لم يبرما اتفاقًا مع الخائن وعصاباته ومرتزقته. لم يكُن مُتأكِّدًا من سير العسكريين على خطى دياس. لو أخلص جميع الضبّاط، لباء الغزو بالفشل وقُضِي عليه برغم طيران الغزاة الذي ما زال يكبِّد قوات النظام خسائر فادحة. تناولَت الأخبار الأخيرة مذبحة مُروِّعة ارتكبها المُتمرِّدون في حق المدنيين في بانانيرا. كان يخشى أن تزيد الوتيرة التي يقع بها الضبّاط في الخيانة بعد تنحِّيه حتى ينتهي الأمر بالإطاحة بكارلوس إنريكي دياس، الذي يثق أربينس بكلمته.

تحدَّث إلى فورتوني عَبْر الهاتف وأخبره بقرار التنحِّي. حاول

فورتوني إقناعه بالعدول عن رأيه، في حيرة وحذر، ولكنه لزم الصمت عندما احتدَّت لهجة الرئيس الذي قال إن قراره نهائي، وإن التنحّي هو السبيل الوحيد لإنقاذ شيء من الثورة على الأقل، ومَنْع كاستيّو أرماس من الاستحواذ على السلطة. ومن جهة أخرى، فهو السبيل الوحيد لتجنّب الغزو الأمريكي الذي سوف يؤدِّي إلى تساقط أعداد هائلة من المدنيين. وقبل أن ينهي المكالمة، قال إنه هو الذي سيكتب خطاب التنحّي عن السلطة بنفسه، بخلاف خطابات أخرى. وطلب منه أن يتوخَّى الحذر، وألاّ يهدر أي وقت، لأن الشيوعيين، الحقيقيين منهم والمزعومين، سوف يتعرَّضون لحملة صيد. ثم أنهى المكالمة.

أصدر تعليماته للإذاعة الوطنية بإعداد كل شيء تأهّبًا لبثّ رسالته التي سوف يلقيها على الأمة خلال ساعتَيْن. بعد ذلك اتَّصل بسفير المكسيك، پريمو بيًّا ميتشيل، الذي كان على اتصال وثيق به في الأيام الأخيرة، وأخبره بأنه، بعد أن يلقي خطاب تنحّيه عن السلطة، في تلك الليلة، سوف يتقدَّم هو وأفراد أسرته بطلب اللجوء لدى السفارة، ما وافقَت حكومة المكسيك على استقبالهم. أكَّد له السفير على موافقته، وقال إنه سوف يؤكِّد على الأمر قبل مضي ساعة واحدة. عند ذاك تحدَّث الرئيس إلى زوجته عَبْر الهاتف، فلم يقُل لها سوى أربع كلمات وحسب: «جهِّزي الحقائب يا ماريا». ران صمت قصير، ثم أجابته ماريا كريستينا بيلانوبا قائلة: «الحقائب جاهزة يا حبيبي. متى؟». «الليلة».

طلب الرئيس من مساعديه ألاَّ يقاطعه أحد. ثم أوصد باب المكتب على نفسه وشرع يجهِّز حقيبته ويتخلَّص من الأوراق التي لا ينوي الاحتفاظ بها. وفيما هو على تلك الحال، وبعد ما يربو على ثلاثة أعوام لم يشرب خلالها قطرة واحدة من الكحول، صبَّ الويسكي في الكأس حتى نصفها. ثم تجرَّعها دفعة واحدة، مغمض العينَيْن.

٢٦

ذهب لشراء هدية من أجل الطاهية التي تعمل لديه، بمناسبة عيد ميلادها، فتوجَّه إلى واحدة من تلك الأسواق العملاقة التي افتُتِحَت جنوبي مدينة غواتيمالا. وبينما هو خارج، سمع صوتًا يناديه باسمه الحقيقي: «إنريكي؟». توقَّف بحدَّة، والتفت، فرأى شابة ترتدي سروالاً جينز وقميصًا عسكريًا من تلك الأقمصة الرائجة بين الأجيال الجديدة. كانت تعتمر بيريه أزرق، ولها عينان جميلتان. ابتسمَت له وكأن بينهما سابق معرفة.

ـ حضرتك المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا، أليس كذلك؟ ـ تقدَّمَت الفتاة نحوه خطوة، وهي تمدّ يدها، والابتسامة لا تفارقها.

فتحلَّى بجدية شديد قبل أن يجيبها في جفاء:

ـ أنتِ مخطئة، لا أدري مَن هذا. ـ تكلَّم إليها بنبرة في غاية الحدة، ثم ابتسم هو الآخر في محاولة منه للاستدراك ـ اسمي إستيبان راموس. في خدمتك. مَن حضرتك؟

ـ إذن، فقد اختلط الأمر عليّ. ـ قالت الشابة، بابتسامة أخرى ـ لك مني ألف اعتذار.

ثم دارت على عقبَيْها ومضَت مبتعدة، بمشية مرنة، وردفاها يتمايلان قليلاً.

أما هو، فلبث مكانه جامدًا، ممسكًا بعلبة الهدية بين يدَيْه، وقد شلّته المفاجأة، بينما راح يلعن نفسه بسبب رد الفعل المرتبك الذي صدر عنه. أخذَت ساقاه ترتجفان، وأحسَّ بيدَيْه رطبتَيْن. وفي ذهنه، طفق يوجِّه لنفسه اللوم بكل صنوفه، لأنه قد ارتكب ثلاثة أخطاء في منتهى الخطورة: توقَّف لدى سماع اسمه القديم؛ وأظهر الغضب حين أنكر أنه المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا؛ وخاطب الفتاة مرة من دون تكلّف ومرة مع حفظ اللقب، في جملة واحدة. كان يجب عليه أن يمضي قدمًا، ألاّ يتوقَّف، لو فعل لظنَّت الفتاة أن الأمر قد اختلط عليها فعلاً. «لقد فضحتَ نفسك، أيها الأحمق»، قال لنفسه. وبينما هو يقود السيارة، في طريق العودة إلى بيته، أحسّ بما يشبه الدوار، وبألف سؤال ينهشه: مَن تكون تلك الفتاة؟ أهو لقاء عارض؟ هل جاءت تقتفي أثره؟ من المستحيل أن تكون قد التقَت به من قبل: فعمرها لا يزيد على السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، ما يعني أنها كانت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة قبل ذهابه إلى السجن. ومن المستحيل أن تذكره، لأنه قد تغيَّر كثيرًا جدًّا. أضف إلى ذلك أنه لا يذكر ذلك الوجه ولا هاتين العينَيْن ولا ذلك الأسلوب غير المُتكلِّف على الإطلاق. كلا، لم يسبق لها التعرّف به، بل إنها تعقَّبَته في محاولة للتحقّق من هويته. وبسبب ارتباكه، نجحَت في ذلك. أتكون من الشرطة؟ ذلك أمر عسير. مِن جهاز المخابرات العسكرية؟ شيء بعيد الاحتمال. بدَت طالبة، في جامعة سان كارلوس، في قسم العلوم الإنسانية أو الحقوق، واحدة تلك الكليات الراديكالية. لا بد أنها عضوة في إحدى الجماعات المتطرفة، الشيوعية، تلك التي ترتكب عمليات الاختطاف وتزرع القنابل في البنوك وفي بيوت الجنرالات. وحدهم أولئك الناس قد يبدون اهتمامًا بالتحقّق من بقائه على قيد الحياة وانسجامه في الحياة المدنية باسم مستعار، مع الأخذ في

الاعتبار أنه كان رئيس جهاز المخابرات في حكومة التحرير بزعامة كاستيّو أرماس.

في مساء اليوم نفسه، تحدَّث عما جرى إلى التركي، الذي لم يلقِ للأمر بالاً، ولكنه أخبره بأنه يملك الوسيلة الملائمة حتى يعرف من خلال معارفه في الحكومة إذا كانت الشرطة أو أجهزة المخابرات تقتفي أثره. بعد يومَيْن، أكّد له أحمد قرني بعدم صحة الخبر الذي نفاه مخبروه نفيًا قاطعًا: فأمره لا يهمّ الشرطة ولا الجيش. ولهذا السبب تحديدًا، لم يتمكَّن من استبعاد ذلك الاحتمال القائل بأن واحدة من تلك الجماعات الإرهابية المُتفشِّية في البلد تقتفي أثر العسكري السابق، المُتَّهم بارتكاب الكثير من الفظائع في عهد ثورة التحرير، ما لم يكُن لقاؤه بالفتاة عارضًا.

اتَّخذ إنريكي احتياطه من ذلك الحين، فعاد إلى حيازة السلاح في تنقّلاته بعد أن امتنع عن ذلك بسبب انتشار دوريات الشرطة والجيش التي كانت تستوقف الناس في الشارع للتحقّق من هوياتهم أو تفتيشهم، على خلفية الانفلات الأمني والهجمات الإرهابية والجريمة التي تضاعفَت معدلاتها. ومنذ اليوم الذي فضح فيه أمره بنفسه، ما عاد يخرج إلاّ والمُسدَّس في حزامه، ذلك المُسدَّس الذي أهداه إياه التركي. ومنذ ذلك اليوم، صار يتوخَّى الانتباه أينما ذهب. لم يفارقه الشعور بأنه تحت الملاحقة والمراقبة لحظةً واحدة. بات يتجنّب البقاء في الشارع إلاّ قليلاً، ويخرج من بيته لحضور الاجتماعات مباشرة من دون أن يتوقَّف في الطريق، ويتجنَّب الحانات والمطاعم. لم يعُد إلى دخول ملهى سيرو أو كازابلانكا، ولا حتى في تلك الليلة حين دعاه التركي إلى مشاهدة الراقصة تونغوليلي، راقصة الرومبا ذائعة الصيت، صاحبة الشعر المُرسَل فاحم السواد الذي تتخلَّله خصلة بيضاء. وأصبح يزور كازينوهات التركي برفقة تيميستوكليس، الحارس الذي يثق به أكثر من باقي الحراس.

وفي ليلة بعينها، خرج لمباشرة جولاته المألوفة إلى صالات القمار،

فتراءى له أنه قد تأكَّد من الملاحقة التي يتعرَّض لها، الأمر الذي جرى بأشدّ الطرق حماقة. كان قد انتهى لتوّه من زيارة كازينو متوارٍ عن العيون، بصالة تقع خلف أحد متاجر التحف، في بناية پاساخي روبيو، في المدينة العتيقة، وإذا هو يحسّ بوميض الفلاش خلف ظهره. فالتفت سريعًا، وأمر حارسه بإيقاف الشخص الذي التقط تلك الصورة. وبرفقة العمَّال المُكلَّفين بحراسة المدخل، أوقف الحارس فتًى ظهر عليه بوضوح أنه لم يكُن هو المُصوِّر، لأنه لا يحمل كاميرا. ثم اتَّضح أنه مندوب مبيعات جائل يختلف إلى صالة القمار منذ أعوام. فاضطُرّ إنريكي إلى الاعتذار شخصيًا. ولكن، على الرغم من وضوح الأمر، ظلّ إنريكي يعتقد بأن هناك من التقط له صورة من الخلف، على الرغم من إنكار الحراس. هل كان في سبيله إلى الجنون؟ هل بات يرى هلاوس؟ كلا، لم تكُن مُجرَّد بارانويا، بل إنها حاسة الشم. لقد سمع «الكليك» ورأى وميض الفلاش. من المُرجَّح أن يكون المُصوِّر قد تحرَّك أسرع من الحراس. لم يعُد إنريكي ينام جيدًا، وتخلَّلَت نومه الكوابيس. وفي النهار، صارت تعذِّبه فكرة انهيار تلك الحياة فجأة وكأنها بيت من ورق، تلك الحياة التي استطاع أن يعيد بناءها من الهاوية التي تركه فيها السجن.

ذات صباح، ذهب إليه تيبورسيو الخادم، وأيقظه واضعًا إصبعه على فمه لئلاَّ يُصدِر صوتًا. كان الوقت لا يزال فجرًا، والضوء ينبلج خافتًا. حمله على القيام، ومضى به إلى إحدى النوافذ، ثم وارَب الستارة. وهناك رأى إنريكي رجلاً يصوِّر شقته ومدخل البناية حيث يسكن، بوجه مكشوف، من مختلف الزوايا. وبعد ذلك سار ببطء، في غير استعجال، حتى بلغ مفرق الطرقات. وهناك كانت في انتظاره سيارة، ما كاد يستقلّها حتى انطلقَت على الفور.

إذن، فلا شك في ذلك. هوذا الدليل. إنهم يقتفون أثره، ويمكنهم اختطافه أو اغتياله في أي لحظة، اليوم قبل غد. لا يُعقَل أن يكونوا من

المجرمين. وإلاَّ فما رغبتهم في اختطافه، مع الأخذ في الاعتبار أنه لا هو مليونير ولا أوضاعه تسمح له بدفع فدية؟ تحدَّث إلى التركي مساء ذلك اليوم وطلب منه أن يساعده في الخروج من البلد حينًا. في البدء اعترض أحمد قرني بشدّة. لأنه يحتاج إليه بصفة خاصة هنا، في غواتيمالا. ولقد عهد إليه بمسؤوليات كثيرة في أعماله. من المُرجَّح أن تكون مُجرَّد هلاوس. فليس من الغريب أن يلتقط أحدهم صورة في الشارع، في وقت مُبكِّر كهذا. ربما كان سائحًا، من أولئك المهووسين بالتصوير الذين يبحثون عن ضوء الفجر حتى يلتقطوا الصور. ولكن إنريكي أصرَّ بلجاجة، حتى وافق التركي في آخر المطاف قائلاً: «OK». سوف يرسله إلى المكسيك بضعة أسابيع، لعلَّه ينسى أمر ملاحقيه المزعومين. يمكنه التخفِّي والشعور بالأمان حينًا، في تلك المدينة التي تشبه خلية النحل.

٢٧

مع أن الغالبية العظمى من أهل البلد قد استمعَت إلى الخطاب الذي أعلن فيه الرئيس خاكوبو أربينس تنحّيه عن المنصب عَبْر الراديو، فمن المُرجَّح أن ردود الفعل الأكثر شططًا هي تلك الذي صدرَت عن اثنين: السفير بيوريفوي، الذي شعر بالبهجة الغامرة (ألم يكُن ذلك التنحّي برهانًا على انتصار استراتيجية «الانقلاب المُؤسَّسي» التي اتَّبعها، ونجاحها في القضاء على الشيوعيين فورًا؟)؛ والكولونيل كاستيّو أرماس، الذي داهمته نوبة غضب جديدة عارمة بمقرّ القيادة الذي يقع في إسكيبولاس. وكما هو دأبه، طفق يكيل السباب المقذع الذي أنصت إليه مرؤوسيه في صمت.

عجَّل السفير چون إميل بيوريفوي بكتابة تقرير إلى وزارة الخارجية: ورد فيه أن تنحّي أربينس يثبت انقلاب الجيش مجتمعًا على الرئيس. ومن شأن صعود القوات المسلحة إلى الحكم أن يسهِّل عملية القضاء على جميع العناصر الهدَّامة المُتوغِّلة في الإدارة، وإغلاق النقابات العدوانية، فضلًا عن وقف السياسات التمييزية ضد يونايتد فروت على الفور. ومن جانبه، فهو سوف يلتقي مباشرةً بالكولونيل كارلوس إنريكي دياس، الرئيس الجديد، للمطالبة بتنفيذ تلك الإجراءات.

أما رسالة الكولونيل كاستيّو أرماس إلى السي آي إيه (أي رسالته إلى السيد فرانك ويزنر، التي أرسل منها نسخة إلى الكولونيل برودفروست)،

فجاءت في غاية الاختلاف. إذ لم يسرّ الكولونيل بما حدث مطلقًا، وإنما اعتبر تنحّي أربينس «الأخرس» مُجرَّد تمثيلية لإنقاذ أسوأ صنوف الشطط الذي تمارسه ثورة أكتوبر، مسرحية يشارك فيها خادم أربينس وشريكه، قائد الجيش، الكولونيل «أربينس الصغير الثاني». والدليل على ذلك سماحه للرئيس بإذاعة تلك الرسالة عَبْر الراديو، الرسالة التي أساء فيها لجيش التحرير، وله شخصيًا، واتّهم الولايات المتحدة بوضع مُخطَّط الغزو ودعمه وقيادته، مُردِّدًا جميع الأكاذيب الشيوعية. ولكنه لن يخوض تلك المهزلة السياسية. لو ارتكبَت الولايات المتحدة تلك الحماقة، ودعمَت الكولونيل كارلوس إنريكي دياس، فهو لن يلبث أن يفضح الأمر ويعود أدراجه إلى هندوراس. ومن هناك يخبر العالَم بأن الشيوعيين الغواتيماليين قد انتصروا مرة أخرى ـ بدعم من واشنطن هذه المرة! ـ وقدَّموا لنا تلك التمثيلية التي أعلن فيها أربينس تنحّيه عن الرئاسة ليبقى كل شيء على ما هو عليه، ويستمرّ الحُمْر في تخريب غواتيمالا. ناشد «وجه الفأس» كلًّا من السي آي إيه («زوجة الأب»)، ووزارة الخارجية، والرئيس أيزنهاور، بألاَّ يسمحوا للسفير پيوريفوي («الكاوبوي») بخداعهم، وأن يطالبوا «أربينس الصغير الثاني» بالتنحِّي فورًا. أما من جانبه، فهو لن يفاوض ذلك الشيوعي أبدًا، بل إنه مُرابِطٌ على رأس جيش التحرير ما اقتضى الأمر ذلك. وأخيرًا، أفاد بأنه، بعد الاستماع إلى تنحّي أربينس، قد تلقَّى اتصالات من عدد كبير من العسكريين الغواتيماليين الذين اقترحوا عليه الهدنة، بل إن بعضهم عرض دعمه المفتوح للغزو.

لم يكُن كل ما لوَّح به كاستيّو أرماس زائفًا. فصحيح أن ثقة ضبَّاط القوات المُسلَّحة بالثورة ـ تلك الثقة التي سلَّم بها أغلبهم من باب الطاعة، وليس عن قناعة ـ قد انهارَت منذ بلغهم صوت أربينس وهو يتنحَّى عَبْر الراديو. شعر الضبَّاط بأن لهم حرية الاختيار. وهكذا اختارت

الغالبية العظمى منهم التفكير بأن الانضمام إلى غزو كاستيّو أرماس المدعوم من الولايات المتحدة، في تلك الحقبة المفعمة بالارتياب والفوضى الوشيكة، خير لهم من الاستمرار في تأييد ثورة سيكون الجيش الغواتيمالي من ضحاياها، طال الأمد أم قصر، كما أكَّد لهم السفير پيوريفوي الذي لا يكلّ. ولهذا السبب، أرسل الكولونيل بيكتور م ليون مبعوثًا إلى كاستيّو أرماس ليلةَ تنحَّى أربينس، وطلب منه عقد هدنة لبدء مفاوضات السلام، علمًا أنه هو الذي قاد قوات النظام المدافعة عن ساكاپا، وتصدَّى للغزاة بثبات حتى الآن. قال له إن جميع الضبَّاط تحت إمرته يدعمون ذلك القرار.

لم يتمكَّن السفير پيوريفوي من الاحتفال بما كان يحسبه انتصارًا. ذلك أنه، بعد ساعات قليلة من إرسال التقرير، تلقَّى من رئيسه في العمل، چون فوستر دالاس، رسالة مُشفَّرة حادة اللهجة، أخبره فيها باستحالة الموافقة على وصول الكولونيل كارلوس إنريكي دياس إلى الرئاسة محلَّ أربينس، بأي حال من الأحوال: فالتواطؤ بينهما أمر جليّ، مع الأخذ في الاعتبار أن دياس قد سمح للرئيس السابق بإلقاء ذلك الخطاب، خطاب الوداع الذي أساء فيه إلى الولايات المتحدة وافترى عليها وهاجم كاستيّو أرماس وقوات التحرير. ولذا يجب على السفير مطالبة الكولونيل دياس بالتنحّي عن المنصب والسعي إلى تشكيل مجلس عسكري مستقل بحق، لا يمتّ لأربينس بصلة، ومن ثم يجب الضغط على المجلس المذكور، وإن يكُن ذلك عن طريق التهديد بالغزو العسكري، لإرغامه على مفاوضة الكولونيل كاستيّو أرماس، الذي تعهَّد بالقضاء على جميع الإصلاحات الشيوعية نهائيًا.

وإذا بالسفير پيوريفوي يبدِّل رأيه فورًا، ويتبنَّى أفكار چون فوستر دالاس. ما لبث أن طلب من الكولونيل دياس استقباله، فلديه رسالة من واشنطن يجب على السفير أن يسلِّمها إلى الكولونيل شخصيًا. ضرب له

الرئيس الجديد موعدًا في العاشرة من صباح اليوم التالي (وإن كان فجر ذلك اليوم الذي لا نهاية له قد حان بالفعل). حضر السفير پيوريفوي اللقاء وقد علَّق تحت إبطه حزامًا ضخمًا وضع فيه المُسدَّس الهائل الذي طالما رافقه خلال المفاوضات التي جمعَته بالعسكريين اليونانيين، الذين وجدهم أكثر تحضّرًا من أولئك الهنود بما لهم من ثياب رسمية، والشيء بالشيء يُذكَر.

في المكتب الرئيسي لهيئة الأركان العسكرية، عُقِد اللقاء الذي حضره الكولونيل دياس برفقة اثنين من الضبَّاط هما الكولونيل إلفيغو أ مونسون، والكولونيل روخيليو كروس وير، قائد الحرس المدني الذي التقى به السفير لأول مرة يومذاك. استقبله ثلاثتهم بعبارات التهليل: «ها نحن قد حقَّقنا ما أردتَ يا سعادة السفير. تنحَّى أربينس، وبدأت حملة صيد الشيوعيين». وبالفعل، بعد التحية، أخبره الكولونيل دياس بأنه قد أصدر الأوامر الضرورية لإلقاء القبض على القادة النقابين أعضاء الحزب العمالي الغواتيمالي، وغيرهم من العناصر الهدَّامة على جميع أراضي الوطن.

ـ ولكن ما يدعو إلى الأسف أن بعض قادة الحزب العمالي الغواتيمالي قد وجدوا الوقت الكافي للتقدّم بطلب اللجوء لدى سفارة المكسيك عشية البارحة. ـ أردف دياس ـ إذ سمح لهم بذلك السفير پريمو بيًّا ميتشيل، المتواطئ.

ـ الذنب يقع على عاتقك أنت، لأنك أسأت تأدية عملك بشدّة يا كولونيل دياس. ـ انتهره پيوريفوي بعنف، مقتنعًا بأنه ما لم يتمكَّن من تثبيط همة الكولونيل منذ البدء، فالجولة خاسرة. ما كادوا يسمعونه حتى تلاشَت البهجة من وجوه ثلاثتهم.

ـ لا أفهم مقصدك يا سعادة السفير. ـ هكذا جاء ردّ فعل دياس في آخر الأمر.

ـ حالاً تفهم مقصدي يا سيادة الكولونيل. ـ أجاب بيوريفوي، بالنبرة المفعمة بالطاقة نفسها، وهو يلوِّح في وجه الضابط الغواتيمالي بسبَّابته ـ لم ينصّ اتفاقنا على تنحّى أربينس بعد إلقاء الخطاب الذي استمعَت إليه غواتيمالا بأسرها، وأساء فيه إلى الولايات المتحدة، واتَّهمنا بالتآمر ضد الإصلاحات الاجتماعيات لحماية مصالح يونايتد فروت، وهاجم كاستيّو أرماس وأتباعه، ونعتهم بأنهم «عصابة من المرتزقة» لا بد من هزيمتها، الأمر الذي يبدو أنك تعهَّدتَ بتنفيذه.

والآن، بدا الكولونيل دياس ممتقعًا. غير أن بيوريفوي لم يسمح له باستئناف الحديث. أما الضابطان الآخران، فبدا عليهما الشحوب ولزما الصمت. جعل المترجم ينقل إليهم كلمات السفير بسرعة بالغة، ويقلِّده في حماسته ولفتاته المُتوعِّدة.

ـ كما لم ينصّ اتفاقنا على إعطاء أربينس مهلة كافية ليحذِّر كل شيوعيي النظام حتى يتقدَّموا بطلب اللجوء، لا في سفارة المكسيك وحدها، بل وكذلك في سفارات كولومبيا وتشيلي والأرجنتين والبرازيل وفنزويلا، إلى آخره. ـ استرسل الدبلوماسي في حديثه ـ إنهم يتقدَّمون بطلبات اللجوء منذ عشية البارحة، في حين لم يتحرَّك الجيش ولا الشرطة للحيلولة دون ذلك. ليس هذا ما اتفقنا عليه. والآن تشعر حكومتي بالإهانة والإساءة من جرَّاء ما حدث، ولسوف تتَّخذ جميع التدابير الضرورية إزاء الوضع. كولونيل دياس، أقولها لك بوضوح: الولايات المتحدة لا تقبل بك رئيسًا لغواتيمالا. لا يمكنك أن تحلَّ محلَّ أربينس. أقولها لك بصفة رسمية. إذا لم تتنحَّ عن المنصب، فعليك بتحمّل العواقب. تعرف وضع بلدكم تمام المعرفة. وأسطول الولايات المتحدة البحري يحاصر غواتيمالا من المحيط الهادي والكاريبي. وقوات المارينز على أهبة الإنزال وإنجاز المهمة في غضون ساعات قليلة، تلك المهمة التي لم تنجزها بنفسك. لا تجرف بلدك إلى محرقة. تنحَّ عن

رئاسة مجلس الحكومة فورًا، وسهِّل عملية الوصول إلى حل سلمي لهذا المأزق. تجنَّب الغزو والاجتياح العسكري، واعف غواتيمالا من الدماء التي قد تسيل والخسائر الرهيبة التي ربما وقعَت في تلك الحالة.

صمت وأخذ يتفرَّس في وجوه الكولونيلات الذين تجمَّد ثلاثتهم في وضع انتباه، وخيَّم عليهم الخرس.

ـ أهو إنذار نهائي؟ ـ سأل الكولونيل كارلوس إنريكي دياس أخيرًا، وصوته يرتجف، والدموع تتلألأ في عينَيْه.

ـ أجل، هو كذلك. ـ قال السفير بحزم. ولكنه ما لبث أن خفَّف من حدة إيماءاته ونبرته ـ أحثّك على هذه اللفتة الوطنية أيها الكولونيل. تنحَّ وأنقذ غواتيمالا من الغزو الذي سوف يترك البلد خرابًا ويودي بحياة الآلاف. لا تدخل التاريخ بوصفك العسكري الذي سمح بدمار بلده مدفوعًا بالكبرياء. تنحَّ ودعنا نحاول الاتفاق على مجلس عسكري مُؤلَّف من ثلاثة أو أربعة أعضاء يقبلون بمفاوضة الكولونيل كاستيّو أرماس في سبيل التوصّل إلى اتفاق تقرّه حكومتي ويسمح للولايات المتحدة بمدّ يد العون من أجل إقامة نظام ديمقراطي وإعادة بناء غواتيمالا.

وعلى الرغم من صمت الكولونيلات الثلاثة وشحوبهم، عرف السفير بيوريفوي أنه قد ربح المباراة في تلك المرة أيضًا، كما ربح في اليونان. تنفَّس عميقًا. أما الكولونيلات الثلاثة، فبعد أن نظر بعضهم إلى بعض، أخذ كلٌّ منهم يومئ برأسه، ويسعى جاهدًا للابتسام، وإن تجلّى في ابتساماتهم شيء مشؤوم. طلبوا منه أن يتفضَّل بالجلوس. ثم طلبوا القهوة والمياه المعدنية، وأبرزوا السجائر. شرعوا في الحديث وهم يدخِّنون، وينفثون الدخان في وجوه بعضهم بعضًا. وما هي إلاَّ ساعة حتى كانوا قد أبرموا اتفاقًا بشأن أعضاء المجلس العسكري الجديد، والبلد الذي سوف يُبعَث إليه الكولونيل كارلوس إنريكي دياس سفيرًا، والنصّ الذي سوف

يُتلَى على شعب غواتيمالا إعلانًا عن تنصيب مجلس عسكري جديد على استعداد لمفاوضة الكولونيل كاستيّو أرماس في سبيل التوصّل إلى اتفاق ـ لا غالب فيه ولا مغلوب ـ من أجل السلام والأخوية، وبدء عهد جديد من الحرية والديمقراطية في غواتيمالا.

ما كاد يخرج من مقرّ قيادة هيئة الأركان العسكرية، ويصل إلى السفارة، حتى اتَّصل الدبلوماسي بواشنطن للإحاطة بما جرى على وجه الدقة. والآن، بات من الواضح أن الكولونيل كارلوس كاستيّو أرماس هو المشكلة. ذلك أنه يطالب باستسلام قوات النظام المسلحة فورًا، ويريد أن يدخل مدينة غواتيمالا على رأس جيش التحرير في موكب عسكري مشهود. «حتى ذلك المُهرِّج لا بد من إرغامه على الركوع»، قال بيوريفوي لنفسه. «لقد اغترَّ بنفسه أكثر مما ينبغي». كان منهك القوى. وعلى الرغم من ذلك، فلطالما أيقظَت الحالات القصوى في نفسه إثارة مفعمة بالجذل، وحاجة بدنية إلى التحرّك وخوض الأخطار.

في الأيام التي أعقبَت تنحّي الرئيس أربينس، شُكِّلَت خمسة مجالس عسكرية متعاقبة، كلٌّ مجلس منها أكثر قربًا إلى الولايات المتحدة من سابقه، بفضل مطالب السفير بيوريفوي ومكائده، وإن تشابهَت تلك المجالس جميعًا في سعي كل منها إلى التفوّق على سابقه في الإيقاع بالشيوعيين وتعذيبهم وإعدامهم رميًا بالرصاص. تمكَّن قادة الحزب العمالي الغواتيمالي ـ الذين لم يتقدَّموا بطلب اللجوء لدى السفارات الأجنبية ـ من التواري عن الأنظار أو الهرب إلى الجبال والأدغال بفضل التحذير الذي وجَّهه أربينس إلى فورتوني، ولكن كثيرين غيرهم لم ينجحوا في ذلك، ولا سيما القادة النقابيين، ومُعلِّمي المدارس، وشباب الطُلَّاب، والحرفيين اللادينو الذين احتشدوا وانتبه كثير منهم إلى السياسة لأول مرة في ثورة أكتوبر. لم يُعرَف للضحايا عدد قطّ، وإن كانوا يُقدَّرون بالمئات، أو حتى بالآلاف. كانوا مُجرَّد كائنات كغيرهم

الكثيرين... فلاحين لا اسم لهم ولا تاريخ، بدا لهم تقسيم الأراضي المُؤمَّمة هديةً نزلَت عليهم من السماء، وإذا هم يصابون بالذهول حين أُبطِل قانون الإصلاح الزراعي وأُرغِموا على ردّ الأراضي التي حسبوا أنفسهم مالكيها. أذعن بعضهم، ولكن بعضهم الآخر دافع عن أراضيه بكل ما أوتي من ضراوة، فتعرَّض في سبيل ذلك للتعذيب والقتل أو السجن أعوامًا طوالاً من دون أن يفهم شيئًا من تلك التغيّرات العجيبة التي انتفع بها أولاً، ثم راح ضحية لها.

أما أقصر المجالس العسكرية عمرًا ـ الذي لم يستمرّ أكثر من ساعات قليلة ـ فهو ذلك المجلس المُؤلَّف من الكولونيلات كارلوس إنريكي دياس، وخوسيه أنخيل سانتشيس، وإلفيغو أ مونسون. إذ فقد ذلك المجلس كل ما له من سلطة حين أعلن كاستيّو أرماس أنه لن يعترف به ولن تجمعه به أي معاملة. تزوَّد كاستيّو أرماس بالشجاعة، فمنذ تنحّي أربينس انضمّ إليه كثيرون من قوات النظام المُرسَلة لمحاربته على حدود هندوراس. ولمَّا زادَت ثقته بنفسه، بات يتمادى في التمرّد على الأمريكان. ومنذ الليلة التي تقدَّم فيها أربينس بطلب اللجوء، استمرّ بيوريفوي في الضغط مُلوِّحًا في وجوه العسكريين بغزو قوات المارينز. وهكذا راح يتنازل العسكريون، خطوة خطوة. ولكن كاستيّو أرماس لم يقنع بتنحّي دياس. وإنما أصرَّ على دخول مدينة غواتيمالا على رأس جيش التحرير في موكب عسكري ضخم. وإلاَّ، فهو لن يفاوض قوات النظام. أمضى السفير بيوريفوي أيامًا لم يذق فيها الطعام وليالي لم يذُق فيها نوم، شارك خلالها في مناقشات لا تنتهي، وأبرم اتفاقات لم تكُن تدوم أكثر من ساعات أو دقائق، نظرًا للاعتراض الشديد الذي كان يبديه أحد الأطراف على ما جاء فيها. كما خاض السفير محادثات مضنية مع واشنطن لتعديل الاتفاقات أو إعادة صياغتها من الألف إلى الياء.

وفي تلك الأثناء، انطلق الجنود ورجال الشرطة، يتقدَّمهم الضبَّاط،

في حملة صيد غير مسبوقة على مدى تاريخ غواتيمالا العنيف. أما النقابات ومكاتب الإصلاح الزراعي التي افتُتِحَت في جميع القرى، فكانت تُقفَل رميًا بالرصاص، أو بحبس جميع الحاضرين في المقرّات. كما أُعِدَّت قوائم سود بالاستناد إلى وشايات المجهولين. كان عدد كبير من أولئك الذين اعتقلوا بسطاء لا نصير لهم، غير أنهم خضعوا للتعذيب المفضي إلى الموت في حالات كثيرة. وكانت الجثامين تُطمَر أو تُحرَق من دون إخطار الأهل. خيَّم ذعر شديد على كل حنايا المجتمع الغواتيمالي، ولا سيما القطاعات الأشدّ فقرًا. وتمادى العنف إلى أن تجاوز كل الفظائع السابقة. في الشهور التي أعقبَت صعود كاستيّو أرماس إلى الحكم، استطاع نحو مئتي ألف من المايا الغواتيماليين أن يهربوا إلى تشياپاس، في المكسيك، وقد استحوذ عليهم الذعر من المذابح التي ارتُكِبَت آنذاك. ولقد عُرِف ذلك الرقم من خلال البيانات التي أدلَت بها السلطات المكسيكية، ويُعتبَر هو الرقم الوحيد الذي يتَّسم بشيء من الجدية وسط ما تردَّد عن القمع الذي شهدَته تلك الأيام المُروِّعة.

ومن الحوادث غير المسبوقة على مدى تاريخ الملاحقة السياسية في غواتيمالا منذ عهد محاكم التفتيش: محارق «الوثائق الضارة والهدَّامة»، التي كانت تُقام في الثكنات والميادين العامة، وتُحرَق فيها النشرات الإعلامية والمنشورات والصحف والمجلات والكتب التي وقع الاختيار على مُؤلِّفيها بطريقة في غاية الغموض، من أمثال فيكتور هوجو ودوستويفسكي. وهكذا كانت تُحرَق الكتب في حلقات النيران التي يرقص الأطفال حولها كما يرقصون عشية عيد سان خوان.

عُقِدَت المفاوضات النهائية بين قوات التحرير وقوات النظام الواهية في سالفادور، التي اقترح رئيسها، أوسكار أوسوريو، أن يستضيف كلا الطرفَيْن (بمبادرة من واشنطن). كما حضر پيوريفوي أيضًا، لا بصفته مراقبًا، بل «شاهدًا مُشارِكًا» (ذلك الامتياز الذي كان يتبجَّح به ولم يفهمه

سواه)، من دون أن يفارقه مسدسه الضخم المحشو بالرصاص، الذي كان يعلِّقه تحت إبطه الأيسر. عهد إليه وزير الداخلية بتمثيل الولايات المتحدة في المفاوضات، وطلب منه عمل اللازم في سبيل الموافقة على مطالب كاستيّو أرماس. كانت غواتيمالا قد تكبَّدَت خسائر فادحة تحت وطأة الأحداث التي شهدَتها الأعوام العشرة الأخيرة، وبات من المهم لدى حكومة أيزنهاور أن يكون الشخص الذي يتولَّى قيادة البلد صديقًا مُقرَّبًا من واشنطن ـ بالحكم على قناعاته السياسية وأهوائه ـ مُتساهِلاً مع شركات الولايات المتحدة في أمريكا الوسطى.

حضر المفاوضات سفراء الولايات المتحدة لدى نيكاراغوا وسالفادور وهندوراس، باذلين مساعيهم الحسنة، وإن كان پيوريفوي هو أكثر المشاركين فعالية. والحق أنه دعم موقف كاستيّو أرماس على حساب الكولونيل إلفيغو أ مونسون والكولونيل ماوريسيو دوبوا، اللذين مثَّلا جيش غواتيمالا. وأخيرًا توصَّل الأطراف إلى اتفاق. فنُصِّب «مجلس مُؤقَّت»، مُؤلَّف من الكولونيلات كاستيّو أرماس، ومونسون، وخوسيه لويس كروس سالاسار، وماوريسيو دوبوا، والرائد إنريكي ترينيداد أوليبا. كما اتَّفق الأطراف على حلّ المجلس فور تعديل الدستور، وإقامة «موكب مشترك» تحتفل فيه قوات التحرير وقوات النظام المسلحة بـ«يوم النصر».

في سالفادور، ألقى كاستيّو أرماس التحية على «الكاوبوي» ببرود شديد، ولكنه أبدى له قدرًا أكبر من المودة على متن الطائرة العائدة إلى غواتيمالا، وأعرب عن امتنانه للدعم الذي قدَّمه له في المفاوضات. «سوف تُستقبَل في بلدك مثل الأبطال، أيها الكولونيل»، تنبَّأ له پيوريفوي. وقد كان. وإن لم يكُن القائد المُتمرِّد أول النازلين من الطائرة في مدينة غواتيمالا، بل سفير الولايات المتحدة نفسه. وخلال المظاهرة الحاشدة ـ التي شارك فيها قرابة مئة وثلاثين ألف شخص ـ دعا كاستيّو

أرماس السفيرَ بيوريفوي إلى تحية «شعب غواتيمالا»، وإلقاء كلمة، فاكتفى الأخير بالاحتفاء بمستقبل غواتيمالا، وقد ظهر عليه خجل لا يتوقَّعه المرء في مثل ذلك «البلدوزر» البشري. احتشد في المطار وشوارع المدينة جمع هائل من الناس الذين فاض بهم الكيل من أحداث العنف والانفلات الأمني التي شهدَتها الآونة الأخيرة، وذهبوا لاستقبال الكولونيل كاستيّو أرماس، الذي اعترف به جميع الزملاء والمنافسين في صفوف الجيش زعيمًا لا يرقى إليه خلاف منذ تلك اللحظة. وبتعليمات من واشنطن، تولَّى بيوريفوي مفاوضة أعضاء المجلس العسكري الذين وقع عليهم الاختيار في سالفادور بهدف إقناعهم بالتنازل لصالح كاستيّو أرماس. ولكن الأمر لم يكُن بتلك السهولة. في المقابل، طلب الكولونيل كروس سالاسار سفارةَ غواتيمالا لدى واشنطن ومبلغًا طائلاً من النقود. كما طلب الكولونيل ماوريسيو دوبوا الشيء نفسه. فتلقَّى كلٌّ منهما مبلغ مئة ألف دولار مقابل التنازل. أما باقي أعضاء المجلس، فلا يُعرَف أي تعويض تلقّوا عن تنازلهم، ولكن جميع أعضاء المجلس قد انسحبوا لصالح الزعيم الجديد في خاتمة المطاف.

وبعد الاستفتاء الذي أقيم على عجل، واكتسح أغلبية الأصوات فيه كاستيّو أرماس، بات قائدُ جيش التحرير هو رئيس جمهورية غواتيمالا الجديد، المُكلَّف بإبطال جميع الإجراءات المُتعسِّفة المعادية للديمقراطية التي تبنَّتها حكومة أريبالو وحكومة أربينس على التوالي، في سعيهما الدؤوب إلى تحويل غواتيمالا تابعًا للسوفييت. (أما الاشتباكات التي اندلعَت ركلاً ولكمًا بين طلَّاب المدرسة الفنية العسكرية وبين أفراد جيش التحرير، «حاملي البراغيث»، فلن يعرف بها «وجه الفأس» إلاَّ بعد انتهاء الموكب الحاشد).

في الرابع من يوليو، الذي يوافق العيد القومي للولايات المتحدة، أقام بيوريفوي وزوجته بيتي چين حفل استقبال مشهودًا حضره خمسمئة

شخص في مقرّ السفير بالمنطقة الرابعة عشر، أرقى أحياء غواتيمالا، حيث تعالَت أنغام النشيد الوطني، وشرب الحضور نخب بطل الليلة، الذي لم يكُن هو الكولونيل كاستيّو أرماس، وإنما السفير پيوريفوي، وبادروه بالعناق والتهانئ والثناء بكل صنوفه.

ولكن أوان راحة الدبلوماسي مُستنفَد القوى لم يحِن بعد. فبعد أن انتهى الاحتفال، أصدرَت إليه وزارة الخارجية أمرًا بمعاونة السي آي إيه على نحو وثيق، إذ اقتضَت الضرورةُ محو كل أثر مُترتِّب على مشاركة الولايات المتحدة في «العملية نصر»، عقب الإطاحة بأربينس. فلا بدّ من طمس كل أثر لتلك المشاركة، لئلاَّ تشتدّ الحملة الدولية التي أطلقها الشيوعيون ورفاق السفر ـ وانخرط فيها الفرنسيون أنفسهم ـ مُتَّهمين الولايات المُتَّحدة بغزو بلد صغير ذي سيادة، والإطاحة بحكومته المُنتخَبة ديمقراطيًا، من أجل لا شيء سوى الدفاع عن مزايا شركة يونايتد فروت العابرة للحدود. وهكذا، استمدَّ من التعب الذي أدركه قوةً، ومن دون حتى أن يحلق ذقنه، أو يغتسل، أو يبدِّل قميصه، اضطُر پيوريفوي إلى مساعدة نحو سبعمئة عميل في العودة إلى الولايات المتحدة، أولئك الذين أوفدَتهم السي آي إيه إلى نيكاراغوا وغواتيمالا وسالفادور وبنما وهندوراس استعدادًا للغزو. كما دعَت الحاجة إلى التأكّد من إخفاء الطائرات العشرين التي كان يتألَّف منها سلاح طيران التحرير. فتلقَّى رئيس نيكاراغوا، أناستاسيو سوموسا، عددًا منها على سبيل الهدية، مقابل المساعدة التي قدَّمها بتوفير المواقع اللازمة لمرتزقة كاستيّو أرماس والسماح لهم بتلقِّي التدريبات العسكرية في بلده، بينما احتفظ كاستيّو أرماس ببعض الطائرات المذكورة لتكون قاعدة يرتكز إليها في إعادة بناء الطيران العسكري الغواتيمالي.

طوال الأيام الأخيرة التي أمضاها في غواتيمالا، قبل أن يتولَّى سفارة الولايات المتحدة لدى تايلاند، اضطُرّ پيوريفوي وأسرته إلى حزم

الحقائب والطرود وحضور العديد من حفلات الوداع التي أقامها أصحاب المزارع ورجال الأعمال الغواتيماليون تعبيرًا عن شعورهم بالامتنان، مُؤكِّدين أنهم سوف يفتقدونه كثيرًا (أوضحَت وزارة الخارجية أن شخصًا تورَّط في سقوط أربينس بمثل ما فعل پيوريفوي لا بد له من مغادرة البلد في أسرع وقت ممكن، وهو الرأي الذي قابله السفير بالموافقة). خطر على بال پيوريفوي أنه قد يهنأ بقليل من الراحة هناك، في الشرق.

وقبل الرحيل إلى وجهته الجديدة، تمكَّن من تحقيق رغبة خفية: إذ سمح له سفير المكسيك بالدخول إلى السفارة الحافلة باللاجئين الذين ماطلَت حكومة الرئيس كاستيّو أرماس في منحهم الإذن بالسفر إلى الخارج، مُتعلِّلة بكل صنوف الأعذار. ومع ذلك، لم يسعه لقاء الرئيس السابق أربينس، الذي أبى لقاءه. وإن تشفَّى بقضاء لحظات مع خوسيه مانويل فورتوني، العضو السابق في حزب أربينس، والأمين العام للحزب العمالي الغواتيمالي. تجاذبا أطراف الحديث بضع دقائق، حتى كان أن تعرَّف النقابي الغواتيمالي على السفير، فاستحوذ عليه الخرس. اعترف له بأنه ما زال صديقًا لأربينس، الذي تعاون وإياه على نحو وثيق، ولا سيما في وضع قانون الإصلاح الزراعي وتطبيقه. وجد پيوريفوي رجلاً مهزومًا، روحه المعنوية في الحضيض، عيناه محمرّتان من جرَّاء السهر والمصائب، فقد من وزنه الكثير، يتكلَّم وهو لا يراه. لم يجِب عن سؤال آخر من أسئلة السفير، وكأنه لا يفهمها ولا يسمعها. في التقرير الذي رفعه إلى وزارة الخارجية، أوضح السفير پيوريفوي أن ذلك الغريم القديم الخطير ـ الذي لا شكّ أنه عميل سوفييتي ـ بات في الوقت الراهن حطام إنسان، غارقًا في اختلال الأعصاب، ولعلَّه يشعر بالندم سرًّا على الشرور التي ارتكبها.

قالت الألسنة النمَّامة إن السفير، لمَّا أبلغَته وزارة الخارجية بأن وجهته الجديدة تايلاند، سأل: «هل مِن انقلاب عسكري مُرتقَب؟». ولا

يُعرَف إن كان بيوريفوي قد طرح سؤاله جادًا أم ساخرًا. وعد السفير أبناءه وزوجته، بيتي چين، بأن ينعموا في تايلاند بالهدوء الضروري للحياة الأسرية الهانئة. وقد كان. مع أن الهدوء لم يستمرّ طويلاً. استطاع السفير وزوجته وأبناؤهما أن يعيشوا حياة خالية من الأوجال السياسية لبضعة شهور، كما تمكَّن السفير على الأقل من تكوين فكرة عن تقليد المساج، ذلك التكنيك الممتاز الذي اقترن بالمعتقدات الدينية والممارسات الرياضية والجنسية، والذي يُعَد هو الشغف الوطني لدى التايلانديين. وفي الثاني عشر من أغسطس عام ١٩٥٥، قبل أن يمرّ عليه عام واحد في وجهته الجديدة، انطلق السفير بسيارته الثاندربيرد الزرقاء الجديدة، بسرعة شديدة كالمعهود، على مشارف بانكوك، برفقة واحد من أبنائه. وفيما هو يعبر أحد الجسور، ارتطم رأسًا بشاحنة آتية من الاتجاه المقابل، ربما تكون قد تعمَّدَت الاصطدام به. لقي السفير وابنه مصرعهما في الحال، فأرسلَت حكومة الولايات المتحدة طيارة لإعادة الرفات إلى الوطن، في حين لم تضغط وزارة الخارجية بهدف التوسّع في التحرِّيات للكشف عما إذا كانت الميتة المأساوية التي راح ضحيتها السفير مؤامرةً شيوعية تهدف إلى القصاص من شخص كافح في وجه تمدّد الاتحاد السوفييتي بنجاح مشهود. آثرَت حكومة الولايات المتحدة أن يُنسَى الأمر بسرعة، وإلاَّ بات مصدر إزعاج، مع الأخذ في الحسبان تلك الحملة الدولية التي انطلقَت ضد واشنطن بسبب تورّطها في الإطاحة بحكومة أربينس، الذي نُظِّمَت من أجله حملة ردّ اعتبار، اعترافًا بأنه لم يكُن شيوعيًا، وإنما رجلاً قليل الحذر، حسن النية، لم يرغب إلاَّ في التقدّم والديمقراطية والعدالة الاجتماعية من أجل بلده، ولكنه تلقى المشورة السيئة واتَّبع السبل الخاطئة.

نشرَت أرملة بيوريفوي، بيتي چين، يوميات جمعَت فيها الكثير من المساعي الدبلوماسية لزوجها، الذي قدَّمَته بوصفه بطلاً. بَيْد أنها لم تلقَ

من الرواج الكثير، ولم تستحقّ من المراجعات في الصحف إلاً القليل. في حين تجاهلَتها حكومة الولايات المتحدة كليًا.

وفي تلك الأثناء، سعى الرئيس كاستيّو أرماس جاهدًا لوضع حدٍّ للخسائر التي تكبَّدَتها غواتيمالا من جرَّاء ثورة أكتوبر، بعد أن انتُخِب في الاستفتاء الذي خاضه بلا منافسين، إذ انسحب رفاقه في المجلس العسكري لصالحه: فأغلق النقابات والاتحادات والمُؤسَّسات وجمعيات الفلاحين والعمال، كما أوصد المعهد القومي لشؤون السكان الأصليين، وردَّ الأراضي البور المُؤمَّمة إلى أصحاب المزارع وشركة «فروتيرا»، كما أبطل القانون الذي يرغم مُلَّاك الأراضي والشركات على سداد الضرائب، وملأ السجون بالنقابيين والمُعلِّمين والصحافيين والطلَّاب الذين اتُّهِموا بـ«الشيوعية» و«الميول الهدَّامة». اندلعَت أحداث العنف في الريف، حيث ارتُكِبَت في بعض الأمكنة اغتيالات جماعية تضاهي تلك التي وقعَت في باتسيسيا (سان خوان كومالاپا) في بداية عهد حكومة أريبالو، أو أسوأ منها، ما أسفر عن صدمة شديدة لشعوب اللادينو والمايا والكاكتشكيليس. أما سفير الولايات المتحدة الجديد، الأكثر رصانة من پيوريفوي، فسعى إلى التخفيف قليلًا من حماسة كاستيّو أرماس في معاداة الشيوعية، بتعليمات من وزارة الخارجية، الأمر الذي أفضى إلى بعض الاحتكاكات والخلافات، وعدد من الصدامات الصغيرة بين الولايات المتحدة وذلك الشخص الذي بذلَت حكومة أيزنهاور جهودًا ضخمة من أجل تنصيبه على العرش. عند ذاك بدأت تنتشر في غواتيمالا شائعات مفادها أن الولايات المتحدة ربما تكون أخطأت عندما وقع اختيارها على «وجه الفأس» بوصفه حامل راية الحرية الجديد في أمريكا الوسطى والعالَم، لأنه مغالٍ في تطرّفه، ولا يلقى الدعم الكبير الذي خُيِّل إليه وسط القوات المسلحة.

٢٨

أفاق والظلام لا يزال مُخيِّمًا، وعقارب الساعة تشير إلى الرابعة والنصف صباحًا. لم ينَم أكثر من ثلاث ساعات ونصف، إذ قضى عشية البارحة في تحضير حقائب السفر حتى الواحدة صباحًا. في هاتين الحقيبتَيْن، وحقيبة اليد الصغيرة، وضع كل ما يملك في العالَم. كان قد أهدى الطاهية والخادم ثيابه القديمة، وعددًا كبيرًا من ربطات العنق والأحذية والأوشحة والسراويل الداخلية، فضلاً عن الثياب التي ما زالت جديدة، ولكنه لم يجد لها مُتَّسعًا. كما ألغى إيجار البيت الذي سوف يحضر المُلاَّك لاسترداده عند منتصف النهار. ولقد جاء المُلاَّك بالأمس لإلقاء نظرة أخيرة، فتأكَّدوا أنه سوف يردّ لهم البيت أفضل حالاً مما كان عندما استأجره، ذلك أنه قد طلى الجدران وترك لهم قطع الأثاث التي اقتناها على سبيل الهدية.

سحب جميع مُدَّخراته من البنك واحتفظ بها على هيئة شيكات سفر يمكنه صرفها في المكسيك. قبل التوجّه إلى المطار لركوب الطائرة، سوف يعرِّج على بنك پوپولار كي يقفل آخر حساب له بصفة نهائية، الحساب الذي لم يتبقَّ فيه من النقود إلاَّ القليل.

في تلك اللحظة، أصابته فكرة بالذعر. عرف الكثيرون بأنه في سبيله إلى الرحيل: الطاهية، والخادم، وموظفو البنوك الذين قدَّموا له خدماتهم حتى الآن. تراه ارتكب فعلة طائشة؟ ألم يكُن خيرًا له الرحيل من دون

التفوّه بكلمة واحدة، والاختفاء بين عشية وضحاها؟ ما لبث أن بدَّد تلك الشكوك. كانت هواجس عبثية. شعر بالتردّد، ولم يدرِ ما إذا كان السفر إلى المكسيك برًّا أفضل من السفر جوًّا. نعم، ربما كان ذلك أفضل. ولكن السيارة الفورد العتيقة، التي اشتراها مستعملة وظلَّ يستخدمها طوال الأعوام الماضية، لم تكُن مضمونة النجاة على الطرق الوعرة، ولا سيما إذا توغَّلَت في الأدغال صوب حدود تاپاتشولا، في تشياپاس. «دع عنك ذلك!»، فلقد فات أوان الندم على كل حال. الآن يحضر تيميستوكليس، أفضل حراسه، الذي تعهَّد ببيع السيارة الفورد ثم تحويل نصف المبلغ إليه في المكسيك (والاحتفاظ بالنصف الآخر على سبيل العمولة).

أي حياة يعيش في عاصمة المكسيك؟ لم يكُن يعرف أحدًا هناك، رغم علمه بأن عددًا من أفراد عائلته القديمة، على الأقل، قد استقرّوا في المكسيك منذ عدة سنوات. ولكنه لم يرغب في رؤيتهم، لأنهم صاروا عنده في عداد الأموات، حتى قبل خروجه من السجن. يا لهم من جاحدين! علَّق جميع آماله على التركي، أحمد قرني، وعرف أنه يستطيع الوثوق به. تعهَّد التركي بأن يجد له أشغالاً بسيطة، وبفضله تمكَّن من النجاة طوال الأعوام الماضية، واستطاع أن يحيا حياة جديدة. لن يلبث أن يتأقلم، ويمضي قدمًا. فالعيش هناك يعني أنه لن يُضطَرّ إلى تمضية أيامه مُتلفِّتًا حوله، خشية أن يتعرَّف عليه أولئك الذي يسعون إلى اختطافه واغتياله. ولكن، الآن وقد ثبت له أنهم يفتِّشون عنه، فالمُهمّ أن يتبخَّر في الهواء، ويختفي عن العيون، وينسى غواتيمالا إلى الأبد، أو على الأقل بضعة أعوام. أكثر من التفكير في الأيام الأخيرة، واستقرَّ على أن القتل خير له من الاختطاف. فلو اختطفوه رغبةً منهم في طلب فدية، لبات في عداد الضائعين: إذ لم يكُن لديه ما يسدِّد به الفدية، ولن يسدِّدها أحد من أجله. وفي تلك الحالة، سوف يُجرِّعونه عذابًا فظيعًا،

من باب المتعة، ثم يقتلونه في النهاية على كل حال. مَن؟ تراها واحدة من تلك الجماعات الثورية التي ظهرَت مُؤخّرًا في غواتيمالا؟ كان الناشطون في تلك الجماعات من الشباب الذين لا يمكنهم تذكّر الأشياء التي فعلها بصفته مدير الأمن في حكومة كاستيّو أرماس. ربما كانوا أبناء أو أقرباء لأولئك الذين سُجِنوا في الزنازين أو لقوا حتفهم خلال تلك الأعوام.

على نحو مبهم، فكَّر في زوجته السابقة وابنَيْه اللذين أنجبَتهما منه. لعلَّ ثلاثتهم باتوا من المكسيكيين الآن، وصاروا يتكلَّمون بتلك العبارات باللغة الطرافة التي تُسمَع في الأفلام. لو التقى بهم ذات مرة في الطريق، فمن المُرجَّح ألاَّ يتعرَّف بهم، وألاَّ يتعرَّفوا به. عليه أن يبحث لنفسه عن زوجة هناك، بعد أن عاش في وحدة مطبقة طوال الفترة الماضية، وكرَّس نفسه لمهمة العيش الشاقة. عسى أن يجد مكسيكية جميلة حنونًا يصنع معها حياته من جديد، ويحسّ بدفء الأسرة. كان قد سئم وجودَه منذ خرج من السجن، بلا زوجة، ولا حبّ، ولا أصدقاء، ولا معارف قد يطلبون رفع قداس إلهي على روحه إن هو سقط قتيلاً.

قرب الخامسة، قام وذهب إلى الحمام ليغتسل ويحلق ذقنه. جعل يتحرَّك ببطء شديد، تاركًا الوقت يمضي. وبعد أن ارتدى ثيابه، أعدَّ قهوة بالحليب وحمَّص الخبز الذي تركَته له الطاهية مُقسَّمًا إلى شرائح. بعد أن تناول الفطور، فتح الراديو لسماع أخبار اليوم. ولكنه بدلاً من الإنصات إلى النشرات الإخبارية، شرع يتذكَّر الظلم الذي وقع عليه. لم يكُن بالشخص الذي يهدر وقته في الشفقة على نفسه. بَيْد أنه في الأيام الأخيرة، وخاصة منذ تأكَّد من الملاحقة التي يتعرَّض لها، استسلم لذلك الضعف. الكل أساء إليه بشدّة، ولا سيما كاستيّو أرماس. فبعد أن ساعده إنريكي، وأبى الانضمام إلى ذلك المجلس الذي تقرَّر تشكيله في مفاوضات سان سالفادور، رغبةً منه في السماح لكاستيّو أرماس

بالوصول إلى الرئاسة، لم يلقَ عن الخدمات التي قدَّمها إلاَّ التهميش والاستخفاف، إذ عُهِد إليه بمنصب إدارة الأمن الهزلي، الذي لا مغزى له ولا معنى. وما أكثر الضبَّاط الذين تعهَّدوا له بالوفاء ثم أعرضوا عنه وتآمروا عليه هم وقادة الجيش، وتركوه يتعفَّن في السجن ما لا يقلّ عن خمسة أعوام، من دون أن يُسمَح له حتى بالدفاع عن نفسه أمام القاضي، أو المحكمة، خشية أن يتكلَّم ويضرّ بأحد.

سوف ينسى القصة برمّتها في المكسيك. هناك يجد مدينة جديدة، وعملاً جديدًا، وزوجة جديدة، وحياة جديدة.

أطفأ الراديو، وبقي ساكنًا، غافيًا، على أريكة الصالة الصغيرة، حتى وصل حارسه تيميستوكليس في الثامنة تمامًا. كان في مقتبل العمر، يرتدي الصنف نفسه من الثياب دائمًا: سروال جينز، وقبعة غليظة، وقميص وسترة سوداء فضفاضة جدًّا، يخفي بين طياتها مُسدَّسَيْن. كان جنديًا فيما سبق، وهكذا تعلَّم إطلاق النار. ثم بدأ في العمل لحساب التركي منذ بضعة أعوام. ومن بين جميع الحراس في منظمة التركي، كان تيميستوكليس يبدو له الأمهر والأجدر بالثقة دومًا. قدَّم له فنجانًا من القهوة، ولكن الفتى قد تناول الفطور بالفعل. ساعده على إنزال الحقيبتَيْن وحملهما إلى السيارة الفورد العتيقة التي استقرَّت أمام باب البناء الذي كان إنريكي يقطن به.

أوصد باب الشقة وألقى بالمفتاح إلى الداخل عَبْر فتحة البريد، عملاً بالاتفاق مع أصحاب البيت.

ذهبا إلى فرع بنك بوبولار، الذي كان لا يزال مُغلقًا. وهناك وجدا أمامهما فائضًا من الوقت، فجلسا يترقَّبان في السيارة، ويتجاذبان أطراف الحديث، ويدخِّنان. توقَّفَت السيارة على بعد أمتار من الباب. كان موعد إقلاع الطائرة في الحادية عشرة صباحًا. ولذا فالوصول إلى المطار قبل

موعد إقلاع الطائرة بساعة واحدة يكفي ويزيد. فُتِحَت أبواب البنك في الثامنة والنصف.

رافقه تيميستوكليس إلى الداخل، وظلَّ بجواره، واضعًا يدَيْه في السترة السوداء، في حين عرَّج هو على الخزينة لإنهاء الإجراءات. وهناك وضع النقود في حافظته. ثم خرج مع الحارس أخيرًا، واستقلاَّ السيارة. وفيما هو ممسك بالمفتاح ليدير المُحرِّك، لمح إنريكي الفتاة. أجل، تلك الفتاة التي التقى بها في السوق الكبيرة. رآها ترتدي الصنف نفسه من الثياب تقريبًا، كما فعلَت يومذاك: الجينز، وقميص الكوماندو، والبيريه الأزرق. كانت على مبعدة خمسين مترًا، تتَّكِئ بظهرها على واحد من أعمدة الإنارة، وتنظر إلى السيارة. بدا وكأنها تبتسم له.

مُتوتِّرًا، فاقد السيطرة، أدار المُحرِّك. وفي اللحظة نفسها، دوَّى انفجار القنبلة. في نشرات المساء، وصحف اليوم التالي، في أواخر مارس من عام ١٩٦٣، أُذيع خبر العملية الإرهابية التي أسفر عنها سقوط قتيلَيْن وعدد من الجرحى وسط العاصمة، قُبَيْل الانقلاب الذي أطاح بالجنرال ميغيل إديغوراس فوينتيس وحمل إنريكي پيرالتا أسورديا إلى السلطة. ولم تعرف الأغلبية العظمى إلاَّ بعد مضي زمن طويل، من خلال تحقيق أجراه صحافيان في جريدة المحايد، أن إستيبان راموس، المهندس الصناعي المزعوم الذي لقي مصرعه مع ضحية أخرى في تلك العملية الإرهابية، هو في حقيقة الأمر مدير الأمن السابق، المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا، الذي سُرِّح من الجيش جزاءً له على انتهاك حقوق الإنسان والتورّط في اغتيال الرئيس كارلوس كاستيّو أرماس بطريقة مبهمة.

نُشِرَت تكهّنات صحافية كثيرة بشأن الحياة السرّية التي عاشها في تلك الفترة، كما اتُّهِم باقتراف أمور كثيرة ـ مثل انضمامه إلى جماعة يمينية مُتطرِّفة تُدعَى «اليد البيضاء»، كانت تُعِدّ انقلابًا عسكريًا ـ وإن لم يُتَّهم بأنه قد زاول التهريب، وبات موضع ثقة لدى مالك صالات القمار.

٢٩

عرف إفرين غارسيا أرديليس عن طريق سيمولا أن أرتورو بورّيرو لاماس في الرمق الأخير، فتردَّد لحظات. ثم تشجَّع أخيرًا، وطلب من مُربِّية مارتا القديمة أن تطلب من صديقه السابق أن يأذن له بزيارته. ومما يدعو إلى المفاجأة أن أرتورو قد استجاب لطلبه. بل إنه حدَّد للزيارة موعدًا ويومًا: الخامسة من مساء السبت. تذكَّر إفرين أن ذلك هو الموعد الذي كان يجتمع فيه أصدقاء بورّيرو لاماس في بيته للمشاركة في مباريات لعبة الورق التي انقرضَت من سائر أنحاء العالَم: الروكامبور. لم تمرّ إلاَّ بضعة أعوام منذ ذلك الحين. ولكن، كم تغيَّرَت غواتيمالا في تلك الأثناء! وكم تغيَّرَت حياته أيضًا! كيف عساه يجد أرتورو؟

كان أسوأ حالاً مما خُيِّل إليه، إذ لزم أرتورو الفراش، وتحوَّل مخدعه إلى حجرة مستشفى، غارقةً في الغبش، ستائرها مُسدلَة لأن المريض ينزعج من الضوء. انتشرَت الأدوية في كل أركان الحجرة، وسهرَت على رعاية أرتورو مُمرِّضة دائمة، غير أنها غادرَت فور وصول إفرين، مراعاةً لسرية اللقاء. فاحت رائحة المرض والأدوية، فذكَّرَته بمهنته القديمة التي ما عاد يزاولها. ما زالت الخادمتان القديمتان هناك، باتروسينيو وخوانا. أما أرتورو، فبدا في غاية النحول والهزال، وأطلّ التعب من صوته ونظرة عينَيْه الغائرتَيْن. جعل يتكلَّم بصوت خفيض، ويطيل السكوت، مكتفيًا بتحريك شفتَيْه، وكأنما الحديث يشقّ عليه كثيرًا.

لم يشدّ أحدهما على يد الآخر، ولكن إفرين ربّت على كتفَيْه بضع مرات، بينما راح يسأله:

ـ كيف حالك؟

ـ تعلم جيدًا أنني ألفظ أنفاسي الأخيرة. ـ أجابه أرتورو، بجفاء ـ وإلاّ، ما كنتُ استقبلتك. ولكن، متى حانَت ساعة الموت، يجب على المسيحي أن يضع للضغائن حدًّا. اجلس وكفى. سعدتُ برؤيتك يا إفرين.

ـ وأنا أيضًا يا أرتورو. كيف حالك؟ ـ سأله مُجدَّدًا.

تغطَّى صديقه القديم باللحاف والغطاء معًا: تراه يحسّ ببرد قارس؟ على الرغم من القيظ الشديد الذي يحسّ به إفرين! اكتسَت الجدران بصور ولوحات قديمة. بينما عُلِّق تمثال المسيح المصلوب على الجدار الذي يقع خلف السرير. أما وجه المريض، الذي بدا خاليًا من الدماء، فوشى بأنه لم يتعرَّض لضوء الشمس منذ أمد بعيد.

ـ حسنًا، لا أدري ما إذا بلغك أنني ما عدتُ أزاول الطب يا أرتورو. طُرِدتُ من مستشفى سان خوان دي ديوس العمومي، وأُقفِلَت جميع الأبواب في وجهي، واحدًا تلو الآخر. في عهد كاستيّو أرماس، اضطررتُ إلى إقفال العيادة بسبب انقطاع المرضى عن الذهاب إليها. والآن أعمل مُعلِّمًا في مدرسة خاصة، حيث أُدرِّس الأحياء والكيمياء والفيزياء. اكتشفتُ أن التعليم يستهويني، تصوَّر!

ـ إذن، فلعلَّك تتضوَّر جوعًا. ـ همس المريض ـ الاشتغال بالتعليم المدرسي في غواتيمالا يعني العيش كالشحاذين، أو أسوأ قليلاً.

ـ حسنًا، الأمر ليس بهذا السوء. ـ هزَّ إفرين كتفَيْه ـ المُعلِّم يجني أقل مما يجنيه الطبيب، طبعًا. ولكني بعتُ البيت حين توفِّيَت أمي. وبتلك المُدَّخرات القليلة يمكنني الوصول إلى نهاية الشهر.

ـ إذن، فكلانا على وشك أن يلقى نهاية وخيمة. ـ أصدر المريض غطيطًا ـ مع أننا لم نبلغ حتى الستين من العمر. يا لنا من فاشلَيْن!

اضطُرّ إفرين إلى الانحناء قليلاً والاقتراب من فراش المريض حتى يسمع صوته. ران صمت طويل، وأخيرًا استجمع إفرين جرأته قائلاً:

ـ ألن تسأل عن حفيدك يا أرتورو؟

ـ ليس لي أحفاد. ـ أجاب من فوره ـ ومن الصعب السؤال عمن لا وجود له.

ـ لقد أتمَّ الحادية عشرة من العمر، وبات مفعمًا بالحيوية كالسناجب. ـ قال إفرين، وكأنه لم يسمعه ـ إنه لطيف، فضولي، باسم. أطلقَت عليه سيمولا لقب «ترينسيتو». وهو يحصل على درجات جيدة في المدرسة، ويمارس كل أنواع الرياضة، وإن كان يفتقر إلى المهارة فيها جميعًا، من حسن الحظ. تعلَّقتُ به كثيرًا، وصرتُ أؤدِّي دور الأب والأم معًا، طبعًا. أحكي له الحكايات وأقرأها عليه أيضًا. يلتهم الكتب التهامًا، مع أنه صغير جدًّا. يقرأها مذهولاً، فاتحًا عينَيْه النجلاوَيْن بشدة. ويطرح عليَّ أسئلة كثيرة، أجد مشقّة في الإجابة عنها أحيانًا. لو أنه يشبه أحدًا، فهو يشبهك أنت.

دلفَت سيمولا إلى الحجرة لتُقدِّم عصير الليمون إلى إفرين. سألَت أرتورو عما إذا كان في حاجة إلى شيء، فأجابها نافيًا برأسه. لم تعُد الخادمة القديمة تعمل في البيت منذ رحلَت لتخدم «ميس غواتيمالا»، وإن كانت تحضر بين الحين والآخر لتساعد پاتروسينيو وخوانا، وتتفقّد أرتورو، ولا سيما منذ شُخِّصَت حالته على أنها إصابة بالسرطان. «سوف أعِدّ الطعام من أجل "ترينسيتو"»، أسرَّت لإفرين في سمعه قبل الخروج من الحجرة. في البدء لم ينَل ذلك اللقب استحسانه، ولكنه لم يجد

طريقة واحدة لإقناع الخادمة العجوز بمناداة الصغير باسمه، حتى انتهى به الأمر وقد ألف اللقب.

ـ سرطان في البنكرياس. ـ قال المريض فجأة، وهو ينتفض قليلاً ـ إنه الأسوأ على الإطلاق. اكتُشِفَت إصابتي بعد فوات الأوان، بعد الإصابة بالنقائل. الآلام رهيبة، لهذا أتناول المُسكِّنات معظم الوقت. صديقي الكاهن اليسوعي أويّوا ـ الذي أعتقد أنك تذكره ـ لا يسمح لي باستعجال الأمر. يقول إنه انتحار، ويريد مني التحمّل حتى النهاية. أقول له إنها سادية من جانب الكنيسة، فيحدِّثني عن الرَّب وأسرار العقيدة المسيحية اللامتناهية. استجبتُ له حتى الآن، ولكني لا أدري ما إذا كنتُ سأطيعه أطول مما فعلتُ كثيرًا. ما رأيك أنت في ذلك؟

ـ أنا لم أعد مؤمنًا بالرَّب يا أرتورو.

ـ إذن، فلقد صرتَ ملحدًا. شيوعي، ثم ملحد. من الواضح أنك حالة ميؤوس منها يا إفرين.

ـ لستُ ملحدًا، أنا مُجرَّد لاأدري. هذا ما أنا عليه الآن: رجل حائر، لا يؤمن ولا يكفر بشيء. إن شئت، سمِّني رجلاً اختلط عليه الأمر. دعني أخبرك بشيء آخر: أتذكر كيف ضقنا في شبابنا كثيرًا بالتفكير في الموت وما بعد الموت؟ حتى فكرتي عن ذلك تغيَّرَت. ما عاد يهمّني وجود حياة في العالَم الآخر من عدمه، وإن بدا لك حديثي أكذوبة.

ـ لقد قتلتَني أنت قبل أن يقتلني السرطان يا إفرين. ـ قال المريض مقاطعًا كلامه. كان قد اعتدل في جلسته قليلاً، وأمعن التحديق إليه ـ ولكني لا أضمر لك الضغينة. أتعرف منذ متى؟ منذ عرفتُ أن مارتا صارت عشيقة كاستيّو أرماس. كان ذلك أسوأ من معرفتي بأنك تركتَها حبلى.

لم يدرِ إفرين ماذا يقول. استند أرتورو إلى الوسادة برأسه مرة أخرى،

مغمض العينَيْن، وقد اشتدّ شحوبه. لا بد أن أحجار البيت العتيق المُشيَّد على الطراز الاستعماري كانت سميكة جدًّا، إذ لم تكُن الأصوات الآتية من الشارع تُسمَع في داخله.

ـ أجل، أسوأ كثيرًا. ـ أصرَّ المريض، وهو يتنهَّد بعمق، من دون أن يفتح عينَيْه ـ ابنتي أنا، تصبح عاهرة كولونيل حقير، وفوق ذلك لقيط! ألا ترى؟

لم ينبس إفرين بكلمة واحدة في تلك المرة أيضًا. وقع في حيرة شديدة، إذ لم يُخيَّل إليه قطّ أن أرتورو قد يتطرَّق لذلك الأمر، وبمثل هذا التهاون.

ـ بل وشاع عنها أنها ربما شاركَت في اغتيال كاستيّو أرماس. ـ بدا أرتورو بورِّيرو لاماس مُشوَّشًا، ولكنه بعد ذلك أظهر قدرًا كبيرًا من اللين ـ أخبرني يا إفرين، أستحلفك بصداقتنا القديمة... لقد تعذَّبتُ بالأمر منذ بدأت تلك الشائعة في الانتشار... أتراه شيئًا ممكنًا، أن تكون قد تورَّطَت في اغتيال الرئيس؟

ـ لا أدري يا أرتورو. ـ شعر إفرين بضيق شديد. كثيرًا ما فكَّر في الأمر، وتعذَّب به أيضًا في بعض الليالي، وكأنه كابوس يداهمه ـ يصعب عليَّ التصديق، أنا وكل من عرفها. ولكن لديَّ انطباع بأن مارتا التي نذكرها أنا وأنت ليست هي نفسها الشخص الذي آلَت إليه لاحقًا. لقد انتشرَت التكهّنات بكل صنوفها حول اغتيال الرئيس، حتى بلغ بعضها حدّ الخيال. ولكن الأرجح ألاّ يتَّضح شيء على الإطلاق، كما هو الحال في وقائع الاغتيال الكثيرة التي ارتُكِبَت طوال تاريخ غواتيمالا. أرتورو، أتعرف النتيجة التي خلصتُ إليها من كل ما جرى وما يجري لهذا البلد؟ خلصتُ إلى فكرة رديئة جدًا عن الإنسان: إذ يبدو وكأن في جوف كل فرد منا وحشًا يترقَّب اللحظة المناسبة حتى يخرج إلى النور ويؤذي

الآخرين. بطبيعة الحال، كثيرًا ما أجد صعوبة في تخيّل مارتا وقد تورَّطَت في أمر مُروِّع كهذا. بالنظر إلى وضعها، كان عدد كبير من أولئك الراغبين في التودّد إلى أوديليا، زوجة كاستيّو أرماس، يضمرون لها الضغينة. ولذا فربما كان الأمر برمّته أكذوبة اختُلِقَت في تلك الأوساط. أو ربما كانت وسيلة لصرف الانتباه عن المذنبين الحقيقيين. على كل حال، لا أدري. معذرة، ولكني لا أملك الإجابة عن سؤالك.

خيَّم صمت طويل. وفي المخدع، بدأت تطنّ حشرةٌ... دبور يظهر ويختفي بينما هو يقترب من ضوء المصباح ويبتعد عنه.

ـ دعني أسألك شيئًا. ـ قال إفرين ـ لعبة الروكامبور التي كُنَّا نلعبها كل سبت هنا، في هذا البيت... من أين جئتَ بها؟ إنها لعبة لا يعرفها أحد، ولم يعُد يلعبها أحد. لطالما رغبتُ في سؤالك عنها.

ـ كان أبي يلعبها مع أصدقائه، ولقد راعيتُ الحفاظ على التقاليد. ـ أجابه أرتورو ـ كانت جميلة جدًّا. ولكن كل جميل في سبيله إلى التلاشي، على ما يبدو. حتى لعبة الروكامبور. قل لي، أما زلتَ مُتمسِّكًا بأفكارك السياسية بالغة الشطط؟ أما زلتَ شيوعيًّا؟ أعرف أنك قد ذهبتَ إلى السجن حين انتصر كاستيّو أرماس. وأنك صرتَ من المنبوذين.

ـ أنت مخطئ، لم أكُن شيوعيًّا قطّ. ـ قال إفرين ـ لا أدري من أين جاءت تلك الفكرة غير المعقولة، التي خرَّبَت حياتي. ولكني ما عدتُ أكترث إلى هذا الحدّ. لعلَّ أفكاري لم تتبدَّل كثيرًا. والحقّ أنني علَّقتُ آمالاً كبرى على أريبالو، ولا سيما على أربينس. ولكن، لك أن ترى كيف انتهى الأمر برمّته وأفضى إلى المزيد من القتل والنفي. لقد أطاحت الولايات المتحدة بتلك الآمال، والآن عدنا إلى حالنا المعهود: ديكتاتورية إثر ديكتاتورية. أيبدو لك أمرًا جيدًا أن يتولّى الجنرال ميغيل إديغوراس فوينتيس منصب الرئيس.

ـ لقد جعلني المرض متشائمًا. ـ تملَّص المريض من الإجابة ـ والشيء الوحيد المُؤكَّد أن الولايات المُتَّحدة سوف تستمرّ في اتّخاذ القرار في كل شيء نيابةً عنا. ولكن ربما كان البديل أسوأ. أقصد، لو صارت موسكو هي التي ترتِّب حياتنا بدلاً من واشنطن. ولكننا متى تحقَّقَت لنا الحرية بات أداؤنا أشدّ سوءًا، حتى ليبدو وكأن استمرارنا في نير العبودية أهون الشرور.

وللحظة، ضحك ضحكةً بدَت وكأنها آتية من كهف.

ـ إذن، فأنت تفضِّل العبودية على الانتماء إلى اليسار. حتى أنت لم تتغيَّر البتة يا أرتورو. ـ هزَّ إفرين كتفَيْه ـ أنت كغيرك الكثيرين من شعب غواتيمالا، تؤمن في قرارة نفسك بأن ما لدينا يلائم هذا البلد: إديغوراس فوينتيس. القاتل، اللصّ. ليس حقًّا أنك صرتَ متشائمًا. ولكنك ما زلتَ تختار الأسوأ.

ـ إفرين، لو شئتَ الحقيقة، فأنا لا ألقي للسياسة أدنى بال في واقع الأمر. ـ قال المريض ـ كنتُ أحاول استفزازك، إنها تسليتي القديمة، أما عدتَ تذكر؟ قلتُها لتنفعل وتلقي عليَّ درسًا في الأيديولوجيا، من تلك الدروس التي كنتَ تحبّ إلقاءها علينا أيام السبت.

بدا وكأنه يهمّ بالضحك مُجدَّدًا، ولكنه ما لبث أن سكت. ومرة أخرى، ران صمت طويل، بينما راح إفرين يشرب عصير الليمون رشفة تلو أخرى. هل أحسن صنعًا بالمجيء؟ أورثه ذلك البيت شعورًا بالحزن، وذكَّره ببداية النهاية. ستكون هذه آخر مرة يرى فيها أرتورو. ولا يمكن القول إنهما قد تصالحا. فما زالت أفكارهما السياسية لا تقبل التصالح. وما زالَت تلك القصة هناك، في قرارة نفسَيْهما، قصة «ميس غواتيمالا»، التي سوف تحول دون الصلح أبدًا. كان يهمّ بالوقوف ثم الوداع، حين سمع صوت أرتورو مُجدَّدًا:

ـ لقد أوصيتُ بهذا البيت لأعمال الخير، تحت إشراف الكاهن أويّوا. كما أوصيتُ بريع لتمويل تلك الأعمال، من أجل الأطفال المهجورين، والأمهات العازبات، والمُسنِّين المُشرَّدين، وما إلى ذلك. أما مزرعة تشيتشيكاستينانغو، فأوصيتُ بها لراهبات الإحسان، لأن لي ولك معها ذكريات أليمة جدًّا. لقد رتَّبتُ كل شيء كي تنزل مارتا في أفضل دار رعاية في غواتيمالا بعد وفاتي. وهناك يشملونها بالعناية حتى النهاية، لو أنها قضَت نحبها أخيرًا، لأنها عمَّرَت أطول من الجميع حتى الآن.

عمَّن يتكلَّم أرتورو؟ أوه، عن مارتا الأم! تذكَّر إفرين والدةَ «ميس غواتيمالا»، التي ما زالَت حية، وإن كانت غائبة عن الوعي، لا تدرك أي شيء. «ذلك خير لها»، دار في خلده.

ـ من المُؤكَّد أنك ذاهب إلى الملكوت بكل هذه التبرّعات يا أرتورو. ـ قال مازحًا.

ـ آمل ذلك. ـ أجابه أرتورو، وهو يسايره في المزاح. ولكنه سرعان ما استغرق في الحزن ـ المشكلة أنني لم أعُد حتى موقنًا بوجود الملكوت يا إفرين.

لم يدلِ إفرين بتعقيب واحد على كلامه. بالطبع، كان يذكر الكاهن أويّوا جيدًا جدًّا. أولم يكُن هو الذي عقد زواجه على مارتيتا؟ نظر إلى ساعته. كادت تحين ساعة تقديم الطعام لإفرين الصغير. في هذه الأيام، تعدّ سيمولا العشاء من أجله، وتصرّ على مراقبته في تلك الأثناء، بينما هي تروي له أمورًا عن جدّه وأمّه، أمورًا لا يتناولها إفرين معه قطّ. صحيح أن «ترينسيتو» مفعم بالحياة، شديد الفضول، فتى معافى، طبيعي، له عينا مارتا النجلاوان النابضتان بالغموض، ولكنه ما كان يذكر أن له أمًّا، إذ هجرَته وهو على مشارف الخامسة. ماذا يكون من أمره في المستقبل؟ كان في يد أرتورو أن يوصي له بشيء، بريع صغير، حتى

يدرس ويكون له مستقبل مهني. أما إفرين، فلا يملك أن يترك له أي شيء، لأنه يعيش يومًا بيوم. وذلك هو مصدر الغمّ الذي خيَّم على حياته الآن: ألاَّ يموت قبل تأمين مستقبل ابنه، أن يستطيع تعليمه وإعداده للمضي قدمًا. لم يكُن له أقرباء تجمعه بهم صلة وثيقة، أقرباء يمكنهم تولِّي مسؤولية ابنه لو تعرَّض إفرين لحادث أو أصيب بمرض قاتل، مثل ذلك الذي أصاب أرتورو. إذن، فلا مفرّ من العيش والتقدّم في السن. تذكَّر أنه وأرتورو في شبابهما قد أيقظا آمالاً كبرى في نفوس أفراد عائلتَيْهما. «سوف يصل كلاهما إلى مكانة رفيعة»، هكذا درجَت أمه على التنبّؤ. «أخطأتِ يا أمي. لم نصل إلى شيء. سوف يموت أرتورو شاعرًا بالمرارة وخيبة الأمل، وأنا لن أنهض ما حييت، فهذا البلد لن يسمح لي بالنهوض مرة أخرى». تروَّى ثم قال في نفسه إنها خواطر حمقاء، تبعث على الشلل. خير له أن ينفضها عن رأسه، ويذهب لتناول العشاء مع «ترينسيتو»، ويجاذب سيمولا أطراف الحديث قليلاً، لو أنها ما زالَت هناك.

قام وذهب على أطراف أصابعه لئلاَّ يوقظ أرتورو، الذي استغرق في النوم. رافقَته پاتروسينيو وخوانا إلى الباب المفضي إلى الشارع، فعانقهما.

مكتبة
t.me/t_pdf

٣٠

نام في مقرّ جهاز المخابرات العسكرية (SIM)، ذلك البناء الذي يخضع لحراسة مُشدَّدة على مفرق جادة مكسيكو وشارع الثلاثين من مارس، في مدينة تروخيّو، خشية أن يتعرَّض للاغتيال في بيته. وفي مقرّ جهاز المخابرات العسكرية، الذي هرب منه بعض المُوظَّفين، لم يدرِ الحرَّاس والمخبرون والمُحقِّقون والمعاونون الأقرب إليه ما العمل ولا إلى أين الذهاب. على الأقل، يستطيع النظام الاعتماد عليهم في الوقت الحالي.

ولكن ماذا عنه هو؟ على من يمكنه الاعتماد؟ لم يدرِ، وكان ذلك هو السبب الأدعى للضيق والأرق على الرغم من أقراص نيمبوتال التي يتناولها كل ليلة. منذ اغتيل الزعيم، في الثلاثين من مايو عام ١٩٦١، سقطَت حياته في جحيم من الهواجس والشكوك. في اليوم السابق، أخبره الجنرال رامفيس تروخيّو عن طريق آخرين بأنه لا طائل يُرتجَى من طلب لقائه شخصيًا، لأن الجنرال لا يفكِّر في استقباله. وفي الوقت نفسه تقريبًا، استدعاه رئيس الجمهورية، دون خواكين بالاغير، إلى مكتبه بالقصر الوطني، في العاشرة صباحًا. ما الذي ينتظره؟

في السادسة فجرًا، نهض من الفراش الصغير الذي وضعه بجوار المكتب، واغتسل، وارتدى ثيابه، ثم ذهب لتناول القهوة في المقهى، حيث قابله النُدُل والروَّاد القلائل بالتحية، وبالأسئلة غير المنطوقة التي

أطلَّت من عيونهم: ماذا يجري في جمهورية الدومينيكان؟ ماذا يحدث بعد اغتيال الزعيم؟ حتى هو لا يدري. منذ تلك اللحظة المشؤومة، لم يدُر في خلده إلاَّ خاطر وحيد: العثور على القتلة. وقد كان. فلم يستمرّ في الهرب والاختباء إلاَّ اثنين من أولئك الذين نصبوا ذلك الشرك للزعيم على الطريق، عند مخرج مدينة تروخيّو المفضي إلى سان كريستوبال، وهما: لويس أمياما تيو، وأنطونيو إمبيرت. ومن المُؤكَّد أن حملة المطاردة الجارية سوف تسفر عن سقوطهما قريبًا، حتى يلحقا بشركائهما في الزنازين أو القبور. خطر على باله أن الشيء الوحيد المُؤكَّد أن رامفيس سوف يجعل المجرمين يدفعون ثمن جريمتهم غاليًا. طبقًا لجميع التقارير، كان رامفيس مُشوَّشًا، وكاد يفقد رشده من فرط ما تأثَّر باغتيال أبيه. في الليلة التي أعقبَت عودته من باريس، على متن طائرة مُستأجَرة من خطوط إير فرانس الجوية، مضى بطلاب السنة النهائية في المدرسة العسكرية إلى سجن كوارينتا، وأمرهم بأن يختار كلٌّ منهم واحدًا من أولئك «الشيوعيين» نزلاء السجن، ويقتله شخصيًّا برصاصة في رأسه. لمَ يرفض استقباله؟ كان يعرف أن الابن الأكبر لتروخيّو لم يشعر نحوه بالمودة قطّ. لمَ؟ ربما كانت غيرة، لأن الزعيم أبدى له من المودة قدرًا أكبر مما أظهر لأبنائه. رقَّ فؤاد أبيس غارسيا وهو يتخيَّل أن تروخيّو ربما يكون قد أحبَّه أكثر مما أحبَّ رامفيس وراداميس.

بعد الفطور، عاد إلى مكتبه حيث استقرَّت صحف اليوم على الطاولة. لم يطالعها، وإنما ألقى عليها نظرة فحسب، فلم تستوقفه إلاَّ عناوين بعينها. حتى هم لا يعرفون الكثير عن مستقبل جمهورية الدومينيكان، فكل ما يعرفونه أن الولايات المتحدة تطالب بعودة الديمقراطية إلى هذا البلد قبل رفع الحظر، ومعها بيتانكورت، وفيغيريس، ومونيوس مارين، طبعًا، ومن يدري كم غيرهم من قادة أمريكا اللاتينية! لم يعرفوا عن المستقبل الكثير. بَيْد أنهم، شأنهم في

ذلك شأن الجميع، قد وقعوا فريسة الذعر والحيرة والجهل بما ينتظر شعب الدومينيكان بعد أن اغتال أولئك السفلة قائدهم، المالك الأعظم، والجنرال الأعلى، الذي جعل من تلك الجمهورية الصغيرة المُتأخِّرة بلدًا قويًا، مزدهرًا، يملك أفضل جيش في الكاريبي بأسره عام ١٩٦١. يا لهم من جاحدين! ملاعين! تعساء! أبناء عاهرة! من حسن الحظ أن رامفيس سوف يجعلهم يدفعون ثمن الجريمة التي اقترفوها غاليًا، باهظًا.

في التاسعة وثلاثين دقيقة صباحًا، لفَّ الربطة حول عنقه، واعتمر قبعته، ووضع على عينَيْه نظارته الداكنة ثم خرج إلى الشارع بثيابه المدنية، لا الرسمية. كانت السيارة وسائقها في انتظاره أمام الباب، على المفرق نفسه، حيث تتقاطع جادة مكسيكو وشارع الثلاثين من مارس، طبقًا للتعليمات التي أصدرها إليه عشية البارحة. وفيما اتَّجهَت السيارة صوب القصر الوطني عَبْر شوارع مدينة تروخيّو التي ازدحمَت بالفعل (أيُبدَّل اسم العاصمة الآن وقد اغتيل الجنرال الأعلى؟ ذلك شيء مُرجَّح)، خطر له أنه قد أحسن صنعًا بإرسال زوجته الجديدة سيتا إلى المكسيك. لقد اتَّخذ بذلك قرارًا سليمًا. ولتنتظر زوجته هناك لحين وضوح الرؤية.

في القصر الوطني، جرَّعه الضبَّاط والجنود مذلة فتح حقيبة السيارة، والتنقيب في أوراقه، وتفتيش سترته وسرواله أيضًا، مع أنهم تعرَّفوا على شخصه. كم تبدَّل الحال! في الماضي، كان متى وصل إلى القصر لم يلقَ من الحراس إلاَّ الابتسامات المُداهِنة، ولم يخضع للتفتيش قطّ.

وفي قاعة الانتظار المُؤدِّية إلى مكتب دكتور خواكين بالاغير (الذي كان رئيسًا صوريًا حتى اليوم الذي اغتيل فيه الزعيم، والآن بات يظنّ نفسه رئيسًا بحق)، تجرَّع مذلة جديدة: إذ اضطُرّ إلى الانتظار ساعة قبل أن يستقبله رأس الدولة.

أما الرئيس، الذي كان في غاية التهذيب بوجه العموم، فلم ينهض لتحيته، وإنما مدّ له يدًا باردة عندما اقترب من مكتبه، ثم غمغم بتحية الصباح، بصوت يكاد لا يُسمَع. فرغ من مراجعة بعض الأوراق ثم نهض من مكانه ومضى به إلى مقعد، وهناك اكتفى بإيماءة، مشيرًا إليه بالجلوس. كان رجلاً قصير القامة، أشيب الشعر، عيناه زائغتان خلف عدسات نظارته العريضة، يرتدي ثيابًا بسيطة، ولكن أبيس غارسيا يعرف تمام المعرفة أن ذكاء حادًا وطموحًا جارفًا يكمنان خلف ذلك المظهر الحميد.

ـ كيف تسير الأمور يا صاحب الفخامة؟ ـ سأل أخيرًا، حتى يكسر ذلك الصمت الذي وتَّر أعصابه.

ـ يجب عليك أن تكون أعلم مني بذلك أيها الكولونيل. ـ قال الرئيس بما يشبه الابتسامة، مرَّت على وجهه وكأنها زفرة ـ يُفترَض بك أن تكون أنت الأكثر اطلاعًا في البلد.

ـ لا أودّ إهدار وقتك يا صاحب الفخامة. ـ قال أبيس غارسيا، بعد هنيهة ـ أخبرني بسبب استدعائي. هل استُدعيتُ كي أُعفَى من منصبي؟

ـ لا شيء من هذا القبيل. ـ أجابه بالاغير، بالابتسامة العابرة نفسها ـ وإنما استدعيتُك بالأحرى لأعرض عليك منصبًا أكثر هدوءًا وأمانًا من ذلك الذي تشغله.

في تلك اللحظة دلف المساعد إلى المكتب معتذرًا حتى يخبر الرئيس بأن السيدة ماريا مارتينيس دي تروخيّو، أرملة الزعيم، تودّ التحدّث إليه عَبْر الهاتف على وجه السرعة.

ـ قُل لها إنني سوف أعاود الاتصال بها بعد لحظة. ـ أجاب دكتور بالاغير. وحين خرج المساعد، التفت الرئيس إلى أبيس غارسيا وقد ارتسمَت على وجهه أمارات الجدية الشديدة، كما تبدَّلَت نبرة صوته ـ:

كما ترى أيها الكولونيل، لا أجد دقيقة واحدة لأي شيء. دعنا لا نهدر المزيد من الوقت. المسألة في غاية السهولة. لقد تغيَّر كل شيء في جمهورية الدومينيكان منذ اغتيل الرئيس. ولماذا أخدعك؟ تعلم تمام العلم أنك الشخص الأبغض إلى النفوس في هذا البلد. وفي الخارج أيضًا. لا شكّ أنها اتهامات جائرة، ولكنك مُتَّهم بارتكاب أسوأ الفظائع: جرائم، وعمليات اختطاف، وتعذيب، واختفاء قسري، كل ما وُجِد من الفظائع وما لم يُوجَد بعد. ولا شك أنك تعلم باستحالة الإبقاء عليك في الحكومة، لو أردنا إنقاذ شيء من الكثير الذي قدَّمه تروخيّو من أجلنا.

سكت، وراح يترقَّب تعقيبًا من أبيس غارسيا، غير أنه استرسل في الحديث عندما وجده ينصت إليه في صمت:

ـ أعرضُ عليك منصبًا دبلوماسيًا، في قنصلية الدومينيكان لدى اليابان.

ـ اليابان؟ ـ انتفض أبيس غارسيا على مقعده قليلاً. ثم أردف سائلاً في سخرية ـ: ألا يمكن الذهاب أبعد من ذلك؟

ـ لا أبعد من قنصليتنا لدى اليابان عن جمهورية الدومينيكان. ـ أجابه الرئيس بالاغير في غاية الجدية ـ غدًا تسافر، عند منتصف النهار، مرورًا بكندا. جوازك الدبلوماسي جاهز، وكذلك تذكرة السفر. سوف تتسلَّمهما لدى خروجك من هذا المكتب.

بدا أبيس غارسيا وكأنه يغوص في المقعد، وقد زاد شحوبًا على شحوب، وأخذ رأسه يغلي كالبركان. أيرحل عن هذا البلد؟ ويذهب إلى اليابان؟ استغرق بضع ثوانٍ قبل أن يتفوّه بشيء:

ـ هل يعلم الجنرال رامفيس تروخيّو بقرارك يا صاحب الفخامة؟ ـ سأل متلعثمًا.

ـ وجدتُ صعوبة في إقناعه أيها الكولونيل. ـ قال بصوته الرفيع المعسول

بعض الشيء، ذلك الذي يلقي به خطاباته البديعة ـ لأن الجنرال رامفيس يريد الزجّ بك في السجن، ظنًّا منه بأنك أخفقتَ في تأدية عملك. ويرى أنه لو كان مدير جهاز المخابرات العسكرية شخصًا آخر سواك لنجا الجنرال الأعلى. أؤكِّد لك أنني قد وجدتُ صعوبة شديدة في إقناعه حتى يسمح بسفرك إلى الخارج وتكليفك بمنصب دبلوماسي. أنا الذي تولَّيتُ الأمر برمّته. ولذا، فعليك أن تكون مُمتنًّا لي أنا.

والآن ضحك ضحكة حقيقية، لم تستغرق أكثر من ثوانٍ.

ـ هل لي بالبقاء بضعة أيام على الأقل، حتى أرتِّب أموري؟ ـ سأل أبيس غارسيا وهو يعرف الردّ على أكمل وجه.

ـ لا يمكنك البقاء ساعة واحدة أطول مما قلتُ. ـ قال دكتور بالاغير، مُشدِّدًا على كل مقطع ـ وإلاّ فربما ندم الجنرال رامفيس وتراجع عن رأيه. أتمنَّى لك حظًّا سعيدًا في وجهتك الجديدة يا سيد أبيس غارسيا. كدتُ أناديك بلقب كولونيل مرة أخرى، ونسيتُ أنك لم تعُد تشغل تلك الرتبة. لقد سرَّحك الجنرال رامفيس من الجيش. أعتقد بأنك على علم بذلك.

هبَّ واقفًا، ومن دون أن يمدَّ له يده عاد إلى المكتب، حيث جلس واستمرَّ في مراجعة الأوراق وكأن الآخر لم يعُد هناك. توجَّه أبيس غارسيا إلى الباب وخرج من دون وداع. أحسَّ بساقَيْه ترتعدان، وفكَّر أنه قد يسقط مغشيًا عليه ويبدو بمظهر سخيف. مضى نحو بوابة الخروج ببطء، وفي أحد الأروقة، ناوله المساعد ملفًّا وهو يهمس له بأن قرار تنصيبه وجوازه الدبلوماسي وتذكرة سفره إلى طوكيو مرورًا بكندا في ذلك الملف.

أمر سائقه بأن يقلّه إلى بيته، ولم يُفاجأ باختفاء رجال الشرطة الذين كانوا يحرسون البيت حتى يومَيْن مضيا. في وحشة، نظر إلى الخزانات الحافلة بثياب سيتا والبدلات وربطات العنق والسراويل الداخلية والأحذية

والجوارب. وقبل أن يملأ الحقيبة ببعض الثياب، أفرغ الخزانة المُموَّهة في صوان الملابس من كل ما حوَت من الدولار والبيزو. عدَّها فوجدها ٢٣٤٨. سوف تنفعه خلال الرحلة. ما كاد يملأ الحقيبة حتى أخذ يراجع مكتب العمل. وباستثناء كشوفات الحساب المصرفية، أحرق جميع الأوراق والدفاتر والمُفكِّرات بما فيها من ملاحظات مُتعلِّقة بالعمل والسياسة. استغرقَت تلك المهمة طويلاً. وبعد ذلك، استقلَّ السيارة التي ما زالت في انتظاره. سأله السائق: «هل أنت مسافر سيدي الكولونيل؟»، فأجابه: «نعم، بضعة أيام، مسألة عاجلة». رجَّح أنه لن يرى ذلك البيت مرة أخرى، وخطر له أنه ربما نسي إضرام النار في ورقة مهمة، أو الاحتفاظ بها في الحقيبة. بعد ذلك توجَّه إلى بنك ريسيرباس، حيث يملك حسابَيْن بعملة البيزو الدومينيكاني. أفرغ كلا الحسابَيْن، وإن أخبره موظفو البنك بعدم إمكانية تحويل البيزو إلى دولار نظرًا لتعليق جميع التحويلات إلى عملات أجنبية منذ اغتيال الرئيس، بسبب الريب الذي عمَّ البلد والتذبذب المُستمِرّ في سعر البيزو. وبصوت خفيض، قال له مدير بنك ريسيرباس، الذي استقبله في المكتب الخاص به: «لو أنك في عجلة من أمرك، فيمكنك الذهاب إلى تجار العملة الجائلين في المدينة الاستعمارية. ولكني لا أوصيك بذلك، لأنهم سوف يبيعونك الدولار بسعر فادح. الكل يتهالك على شراء الدولار مدفوعًا بالشعور بعدم الأمان، لك أن تتخيَّل...».

استبعد أبيس غارسيا الفكرة من فوره. لو صحَّ ما قال الرئيس بالاغير، ولو ألقى عليه رامفيس باللائمة في اغتيال الزعيم، لأنه يفتقر إلى الكفاءة اللازمة، فربما بدَّل أكبر أبناء تروخيّو رأيه وأمر بتصفية أبيس غارسيا في أي لحظة. خير له أن يحتفظ بالبيزو في حافظة النقود، ثم يحاول تغييره في الخارج، لو أن الحصول على شيء في المقابل ما زال ممكنًا...

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة مساءً حين رجع إلى مقرّ جهاز المخابرات العسكرية. أجل، ما زال الحرَّاس يؤدّون له التحية عند مدخل البناء، ويضرب كلٌّ منهم كعب حذائه. هل سرَّحه رامفيس من الجيش حقًّا؟ في مكتبه، مزَّق وأحرق جميع المستندات والمُذكِّرات والرسائل المُتعلِّقة بالخدمة، فلم ينقذ منها إلاَّ حفنة من الأوراق الشخصية التي وضعها في حقيبة يده. نظر إلى الجدران التي خلَت إلاَّ من صورة تروخيّو بنظرته الصارمة، ولفتته الحازمة، وصدره المُرصَّع بالنياشين، فاغرورقت عيناه بالدموع.

بعد ذلك طلب شطيرتَيْن في مكتبه، شطيرة بلحم الخنزير المُقدَّد وأخرى بالجبن، وبيرة مُثلَّجة. أكل وشرب وهو يسائل نفسه عما إذا كان يجدر به الاتصال بسيتا في المكسيك حتى يخطرها بأمر السفر، أم إذا كان الأفضل أن يتَّصل بها غدًا، متى وصل إلى كندا. استقرَّ على الخيار الثاني. وبينما هو ينتهي من الوجبة التي لم يتناول سواها يومذاك، حضر إلى مكتبه ستة من معاونيه، ثلاثة مدنيون وحارس وعسكريان. جاؤوا بين ذعر واضطراب. باسم المجموعة، تحدَّث لانسيس فالكون، المحاسب النحيل، ذو الشارب الرفيع الذي خالطه الشيب، والنظارة الداكنة، فسأله: ماذا يكون من أمرهم؟ كانوا يشعرون بالحيرة والمخاوف القاتلة، ولا يعرفون عما يجري شيئًا. أهو مسافر إلى الخارج حقًّا؟

أنصت أبيس غارسيا إليهم من دون أن ينهض من مقعده وقرَّر أن يخبرهم بالحقيقة:

ـ صحيح أنني ذاهب، ولكني لم أرغب في ذلك. لقد صرفني بالاغير. وأرسلني في مهمة دبلوماسية إلى أقصى أقاصي الأرض، إلى طوكيو، بعيدًا جدًّا عن هنا. أما جهاز المخابرات العسكرية، فلا أعلم عنه شيئًا. ولكن اختفاءه ضربٌ من المحال، لأن استمرار أي حكومة رهن به، أيًّا كان الرئيس. لقد تقاسم بالاغير ورامفيس السلطة في ما

بينهما، إذ تولّى بالاغير السلطة المدنية ورامفيس السلطة العسكرية، ولذا فمن المُرجَّح أن يخضع جهاز المخابرات العسكرية لإدارة الأخير. كان العمل معكم رائعًا. وأنا في غاية الامتنان لمساعدتكم. أعرف البطولات والتضحيات التي ينطوي عليها هذا العمل. كان تروخيّو يوفيكم قدركم ويضمر لكم المودة. أما الآن، فها هي ذي الجرذان تغتنم الفوضى، وتخرج من جحورها، وتتّهمنا باقتراف جرائم وحشية. أخشى أن تُرتكب عمليات انتقام في حقكم. ولذا، فإذا شئتم نصيحتي، قلتُ لكم: ارحلوا! اختبئوا! لا تسمحوا لهم بأن يجعلوا منكم كباش فداء! انجوا بحياتكم!

هبَّ واقفًا، وشدَّ على أيديهم واحدًا واحدًا. رأى بعضهم دامع العينَيْن، في حين غادروا مكتبه أشدّ حيرةً وخوفًا وغمًّا مما دخلوا إليه. وتأكَّد أبيس غارسيا أن معاونيه الستة سوف يبادرون بالاختباء عن العيون فورًا.

ولمّا بقي وحيدًا، دار في خلده أنه ربما كان من الطيش أن يبيت ليلته هنا، فلو أراد رامفيس اعتقاله أو اغتياله، لأرسل من يبحث عنه في مقرّ جهاز المخابرات العسكرية، بالتأكيد. استقرّ على الذهاب إلى فندق. خرج إلى الشارع، فوجد السيارة والسائق ما زالا هناك. أمر السائق بأن يقلّه إلى فندق خاراغوا. وهناك ناوله ثلاثمئة بيزو على سبيل الهدية، ثم شدّ على يده وتمنّى له حظًّا سعيدًا.

ـ ماذا أفعل بالسيارة، سيدي الكولونيل؟ ـ سأله السائق، في حيرة من أمره.

فكَّر أبيس غارسيا لحظة، ثم هزَّ كتفَيْه وغمغم قائلاً: «افعل بها ما شئت».

كان مدير فندق خاراغوا يعرفه، فقبل الامتناع عن تدوين اسمه في سجل النزلاء، والسماح له بالنزول في جناح دفع أجره نقدًا ومُقدَّمًا. كما

وافق على ترتيب سيارة تقلّه إلى المطار صباح اليوم التالي، في سرية. تحمَّم طويلاً في المغطس المضاف إليه الملح والرغوة، ثم أوى إلى الفراش. استغرق طويلاً حتى خلد إلى النوم، مع أنه تناول القرص المعهود. حاول التفكير في فروج النساء التي التهمها بلسانه، لعلّها تثيره، ولكن سدى. كان وجه الزعيم القتيل يعود إلى ذهنه، كما هو دأبه كل ليلة منذ الثلاثين من مايو. أحسَّ أبيس غارسيا بقشعريرة، وعزلة مُروِّعة، بينما أخذ يفكِّر أن الجنرال الأعلى تروخيّو قد أصيب بوابل من الرصاص، وأنه لن يعاود رؤيته ولا سماع صوته أبدًا. راح يفكِّر في الظلم الرهيب الذي ارتكبه رامفيس في حقه لمَّا ألقى عليه باللائمة في مقتل الزعيم، لأن أبيس غارسيا لم يتمكَّن من حمايته، وهو الذي لم يعِش السنوات العشر الأخيرة إلاَّ من أجل الزعيم، وفي خدمة الزعيم، وعكف على تحقيق جميع نزواته، ولطَّخ يدَيْه بالدماء من أجله، وخلَّصه من أعدائه في الداخل وفي الخارج، وجازف بالحياة والحرية من أجله. كان مصيره مُؤلِّفًا من ذلك الظلم.

راح في غفوة لم تستمرّ إلاَّ ساعات قليلة، تخلَّلَتها نوبات من الذعر. ثم قام وطلب الفطور قبل أن يحلق ذقنه. وبعد أن ارتدى ثيابه، استقلَّ سيارة الأجرة التي رتَّبها من أجله مدير فندق خاراغوا. وفي المطار، وجد زوبعة من الصحافيين ومُصوِّري الفوتوغرافيا والفيديو في انتظاره، غير أنه رفض الإدلاء بأي تصريح. ومن حسن الحظّ أنه اقتيد إلى قاعة السلطات، حيث انتظر لحين إقلاع الطائرة.

صبيحة ذلك اليوم، التُقِطت آخر صورة تظهر في سيرته ومقالات الصحافة وكتب التاريخ التي تطرَّقَت إليه (مع أنه ظلَّ على قيد الحياة أعوامًا، كثُرَت أو قلَّت)، بينما كان ماضيًا نحو درج الطائرة التي حملَته إلى كندا، أقل امتلاءً واكتنازًا بعض الشيء، بالقياس إلى صوره السابقة. نراه في الصورة بثياب مدنية: قبعة وربطة عنق داكنة وسترة ضيقة لها

ثلاثة أزرار ـ أغلق منها اثنين ـ وحقيبة يد منتفخة وجورب صارخ أبيض اللون (من شأنه التصديق على رأي الجنرال الأعلى تروخيّو الذي وجد أن رئيس مخابراته العسكرية يفتقر إلى أدنى قدر من الأناقة). يبدو أبيس في الصورة بوجه مُتجهِّم ترتسم عليه أمارات الضيق، ونظرة مراوغة يُطلُّ منها الغمّ، وكأنه يحدس بأنه لن يضع قدمًا على أرض هذا البلد مرة أخرى أبدًا. كان ذلك في العاشر من يونيو عام ١٩٦١، بعد اغتيال تروخيّو بأحد عشر يومًا.

استغرق في النوم بعد إقلاع الطائرة بقليل، ثم أفاق ذاهلًا حين لم يعُد أمامه إلاَّ ساعة وبعض ساعة حتى يصل إلى تورونتو. تحقَّق من تذكرة السفر إلى طوكيو، فوجد أن الطائرة المُتَّجهة من تورونتو إلى طوكيو لن تقلع قبل ست ساعات تقريبًا. أيسافر إلى اليابان مباشرة؟ بالطبع لا. بل إنه سوف يتَّصل بزوجته في المكسيك، وبصرَّافه في سويسرا، ثم يذهب شخصيًا ليتأكَّد أن حسابه في جنيف ما زال يعمل، بمأمن من كل خطر. أغمض عينَيْه وفكَّر في الحيرة التي خيَّمَت على حياته منذ اغتيال الزعيم. جعل يفكِّر بعطف وامتنان في تروخيّو: الذي وثق به، وعهد إليه بالمهمات الأشدّ حساسية، فنفَّذها على النحو المُراد. تضرَّجَت يداه بالدماء من أجل الزعيم، ولكنه فعل ما فعل بسرور، مدفوعًا بحبّه نحو ذلك الشخص الذي فاق مقدرة البشر، فكافأه تروخيّو بأكثر مما بذل من أجله. تذكَّر ذلك السخاء الذي ما كان يحدّه شيء. بل إن الفضل يرجع لتروخيّو في امتلاك أبيس غارسيا حساب الادخار في سويسرا، إذ صرَّح له الزعيم شخصيًا بفتح ذلك الحساب. هل اكتُشِف أمره؟ كلَّا، لم يعرف بوجود ذلك الحساب أحد سوى الزعيم، ولا حتى سيتا. وحده تروخيّو، الذي فارق الحياة. ومن المستحيل أن يعرف رامفيس بشأنه. كم كان يملك هناك على وجه التحديد؟ لم يذكر. أكثر من مليون دولار، على كل حال. وبذلك المبلغ يمكنه التحمّل طويلًا.

في تورونتو، ما كاد ينزل من الطائرة حتى ذهب إلى مكتب الخطوط الجوية باناميريكان، وبدَّل بتذكرة السفر إلى طوكيو أخرى تنطلق إلى تورونتو ثم جنيف ثم باريس وصولاً إلى طوكيو، فاضطُرّ إلى دفع ما يربو على الثلاثة آلاف دولار نقدًا. ولكن طائرته المُتَّجهة إلى جنيف لن تقلع قبل مضي ثلاث ساعات. عند ذاك اتَّصل بالمكسيك، فلم يكُن هو الذي فاجأ سيتا، بل إنها هي التي فاجأته حين أخبرَته بأن الصحف المكسيكية قد نشرَت صورة له صبيحة اليوم، ظهر فيها وهو يغادر مطار مدينة تروخيّو، ولكن أحدًا لم يعرف وجهته. «لقد طلبوا منا الذهاب إلى اليابان في مهمة دبلوماسية». «إلى اليابان؟»، اندهشَت. «وماذا نحن فاعلان هناك؟»، «لن نبقى هناك طويلاً. المهم أننا على قيد الحياة، وهذا شيء عظيم بالنظر إلى مجريات الأحداث في جمهورية الدومينيكان». لزمَت سيتا الصمت، كما هو دأبها في الظروف العصيبة: كانت تثق بزوجها وتطمئن إلى قدرته على حلّ جميع المشكلات. بينما قال هو في نفسه: «إنها امرأة طيبة». من المؤسف أنها تصرّ بشدة على الإنجاب.

بعد ذلك اتَّصل بصرَّافه في سويسرا. ومن حسن الحظّ أن الصرَّاف هو الذي تلقَّى الاتصال بنفسه. طلب منه أبيس غارسيا أن يحجز له في أحد فنادق جنيف، ثم اتَّفقا على أن يزور الصرَّافَ بعد يومَيْن في مكتبه. حين أنهى المكالمة، تنفَّس الصعداء: إذ أخبره الصرَّاف، الذي يتقن الإسبانية، بأن رصيده الآن قد بلغ مليونًا وثلاثمئة وسبعة وعشرين ألف دولار وستة وخمسين سنتًا. ما يعني أن أحدًا لم يتَّخذ أي إجراء لمصادرة أمواله التي قبعَت في هدوء، وتراكمَت فوائدها، في تلك القلعة السويسرية. ولأول مرة منذ اغتيال الزعيم، شعر بالسرور.

وصل إلى جنيف بعد مضي اثنتي عشرة ساعة، فنزل في الفندق الذي يقعَ بجوار البحيرة، حيث أقام منذ ثلاثة أعوام مضَت، عندما حضر لفتح الحساب الذي كان يحوِّل إليه النقود بانتظام. وهناك ملأ المغطس

وأضاف إليه الملح والرغوة ثم اغتسل طويلاً كما فعل بالأمس. وفي تلك الأثناء، أحسَّ براحة بدنية، وحاول أن يتخيَّل حياته في المستقبل. كان يعلم تمام العلم أن بقاءه في قنصلية الدومينيكان لدى اليابان لن يستمرّ طويلًا. إذ لن يتَّصل به أحد، مهما حدث في جمهورية الدومينيكان، طال الأمد أم قصر. ولسوف يظلّ هو «الشخص الأبغض إلى النفوس»، الذي تُنسَب إليه كل الجرائم، والاختفاءات القسرية، وصنوف التعذيب، والاعتقالات، ما وقع منها وما لم يقع، ما ارتَكَب منها وما لُفِّق ضده. ولذا فمن الملائم أن يرتِّب مستقبله في بلد غير البلد، ويُسلِّم بفكرة العيش منفيًا إلى الأبد. وإذا به يحسّ بالنشيج فجأة، وبالدموع تطفر من عينَيْه وتنساب على فمه، تاركةً على شفتيه رطوبة مُملَّحة. فيمَ بكاؤه؟ راح يبكي الزعيم. لن يتكرَّر تروخيّو في حياته، ذلك الرجل الجدير بالإعجاب، الذكي، الداهية، الذي كان مفعمًا بالطاقة إلى الحدّ الذي جعله يضاجع ألف امرأة في حياته، «من الأمام ومن الخلف»، حسبما أخبره ذات يوم. ذلك الرجل الذي لم تكسره العراقيل يومًا، الذي مضى على هدى العناية الإلهية. كانت معجزة أن يكتب له أبيس غارسيا تلك الرسالة التي طلب فيها منحةً دراسية حتى يذهب إلى المكسيك للمشاركة في تلك الدورات التدريبية البوليسية. وهكذا تحقَّق له من السلطة ما لم يحلم به قطّ. ألم تقُل الألسنة عنه إنه الرجل الأشدّ مهابة في جمهورية الدومينيكان، بعد الزعيم؟ كانت تلك لحظة فارقة في حياته، عندما استجمع شجاعته وطلب المساعدة من تروخيّو. ومهما يكُن من شيء، فمن حسن حظه أنه قد عمل من أجل الزعيم، ومع الزعيم، وفي خدمة الزعيم. يا لتعاسة بالاغير ورامفيس، هذين الخائنَيْن! يبيعان نفسَيْهما للأمريكان وجثمان الزعيم ما زال دافئًا!

شعر بالطمأنينة عقب حديثه إلى الصرَّاف. فما زال حسابه موجودًا، سريًا، خاضعًا للحماية على أكمل وجه. وعلى الرغم من ذلك، لم

يتمكَّن الصرَّاف من تحويل البيزو الدومينيكاني، الذي توقَّف التداول به على خلفية التقلّبات السياسية التي شهدّتها أسواق العملة. نصحه الصرَّاف بأن يحتفظ بها في خزانة البنك لحين تبدّل الأحوال. وقد فعل، ثم خرج من البنك برزمة من خمسين ألف دولار وعشرين ألف فرنك فرنسي، حتى ينفقها في باريس.

وفي العاصمة الفرنسية، نزل في جناح بفندق جورج الخامس، واستأجر سيارة، ثم طلب من سائقها أن يمضي به إلى ماخور في تلك الليلة. لم يسبق له أن التهم فرج عاهرة فرنسية قطّ، فأثارته تلك الفرصة. مضى به السائق إلى حانة صغيرة في حي بيغال، حيث يمكنه أن يتخيَّر امرأة ثم يصحبها إلى واحد من الفنادق الصغيرة المحيطة بالمكان، على نحو ما أوضح له. وقد فعل. فانتهى به الحال في الفراش مع امرأة جزائرية ترطن بقليل من الإسبانية، جعلَته يدفع ضعفَي المبلغ المُتَّفق عليه لأنها تتقاضي أجرها كي تداعب الزبائن بفمها، لا العكس، فذلك شيء لم تألفه، حسبما قالَت. ولكن الليلة انتهَت نهاية مؤسفة، لأنه لم يبلغ حدّ القذف، على الرغم من انتصابه السريع. كانت تلك أول مرة يتعرَّض فيها لمثل هذا الأمر، فحاول أن يهدِّئ من روعه، وفكَّر أن توتّر الأعصاب الذي استحوذ عليه منذ اغتيل الزعيم هو السبب في ذلك الفشل الذي مُنِي به، وليس العجز.

في اليوم التالي استقرّ على الذهاب إلى متحف اللوفر، إذ كانت تلك ثاني زيارة له إلى باريس، وهو لم يذهب إلى متحف واحد في الزيارة الأولى. عندما استقلَّ السيارة، سأل السائقَ عما إذا كان في باريس معبد أو دير لجماعة الصليب الوردي. رمقه الرجل حائرًا: «الصليب الوردي؟ الصليب الوردي؟». عند ذاك أمر السائقَ بأن يقلّه إلى المرسى المُطِلّ على نهر السين، حيث يمكن ركوب القوارب الصغيرة التي تقطع النهر جيئة وذهابًا، في جولة لمشاهدة جسور باريس وصروحها من النهر.

استطاع التشاغل حينًا، في أثناء الجولة التي استغرقَت ساعتَيْن. ثم طلب من السائق أن يمضي به إلى أفضل مطعم يعرفه لتناول الغداء. وفجأةً، لمح وجهًا أنثويًا بدا له مألوفًا، في واحدة من إشارات المرور بشارع ريفولي. كوتشا! كوتشيتا أنتيسانا! التي كانت عشيقته منذ ألف عام! طلب من السائق أن يذهب في جولة ثم يعود إلى الموضع نفسه. ترجَّل من السيارة وهرول في أثر تلك المرأة التي ذكَّرَته بعشيقة الشباب. والمُدهِش أنها كانت هي نفسها. تقدَّمَت في العمر خمسة عشر عامًا، ولكنها ما زالت هي نفسها. راحَت كوتشا تنظر إليه متفاجئة، حائرة، مندهشة. چوني! أنت؟ هنا في باريس؟ كانت كوتشا تعيش في هذه المدينة منذ ستة أشهر، وتتعلَّم الفرنسية لدى أليانس فرانسيز، في جادة راسپاي. ألديها مُتَّسع من الوقت لتناول الغداء؟ أجل. ذهبا إلى مطعم لا كوپول، في جادة مونتپارناس. المدهش أن چوني أبيس لم يعُد لرؤيتها منذ كانا عشيقَيْن، عندما كانت هي حديثة التخرّج من المدرسة، وكان هو يعمل صحافيًّا مُتخصِّصًا في تغطية أخبار الفروسية، وله برنامج صغير في الراديو يتقاضى عنه أجرًا هزيلاً.

رأته كوتشيتا يُخرِج منديله الأحمر فسألته إن كان لا يزال من معتنقي الصليب الوردي. «حسنًا، أجل، إلى حدٍّ ما»، أجابها مازحًا. «لعلَّكِ لا تعلمين أنتِ أيضًا إذا كان في باريس معبد لجماعة الصليب الوردي، حقًّا؟». لم تعاود الارتباط برجل غيره منذ انتهَت علاقتها بچوني. بعد وفاة والدَيْها، أمضَت عامًا في دراسة الإنجليزية بالولايات المُتَّحدة، مستعينةً بالميراث الذي تركاه لها. والآن، ستمضي عامًا آخر في فرنسا. ولكن ماذا عنه؟ ماذا هو فاعل الآن بعد اغتيال الجنرال الأعلى تروخيّو؟

ـ سأبقى خارج جمهورية الدومينيكان حينًا. ـ قال لها. ثم بدأ يسرح بخياله ـ: سوف أنذر نفسي للعمل في سبيل اتّحاد جميع الحكومات اليمينية بأمريكا اللاتينية، والتعاون في ما بينها، ومضافرة جهودها، لئلاَّ

يقع لها ما يقع الآن لبلدنا التعيس الذي سقط في فوضى الديمقراطية، وباع نفسه للولايات المتحدة، الشيء الذي لن يستفيد منه إلاَّ الشيوعيون، طال الأمد أم قصر. يعرفون أنهم يصيدون في المياه العكرة. ولسوف ينتهي الحال بالشيوعيين وقد فرضوا السيطرة على جمهورية الدومينيكان وجعلوا منها ديمقراطية شعبية، أي تابعًا سوفييتيًا.

وفيما راح يتكلَّم، أخذ يقتنع أكثر فأكثر بأن ما اختلقه قد يكون حقيقة. ولمَ لا؟ أليس حقًّا أن المصير الذي لقيه الزعيم يهدِّد جميع طغاة أمريكا اللاتينية؟ لا بد من توحيدهم، وإقناعهم بتبادل المعلومات، وتطوير الاستراتيجيات اللازمة لسحق جميع المؤامرات «الديمقراطية» التي لا تعدو أن تكون حصان طروادة الذي يتسلَّل الشيوعيون من خلاله. ومَن أقدر مِنه على أن يكون همزة الوصل القادرة على توحيد كل هذه الحكومات والذود عنها في مواجهة أعدائها، أي أولئك الذين يحكمون جمهورية الدومينيكان بموافقة واشنطن؟

ترك كوتشيتا في فندقها الصغير بالحيّ اللاتيني وقد اقتنع بأنه سوف يلعب الدور الذي سبق أن لعبه في نظام تروخيّو، ولكن بمعاونة جميع الحكومات اليمينية في الكاريبي وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية: دور الرجل القوي، المُلهِم، صلة التضامن، الحارس.

طوال البقية الباقية من المساء، وفيما راح يشتري الثياب والأحذية وربطات العنق من المتاجر الفاخرة في لامادلين والشانزليزيه، ظلَّ يتأمَّل مسيرة المستقبل التي أراد أن يفتن بها عشيقةَ المُراهَقة.

وفي الليل، عاد إلى تلك الحانة الصغيرة في بيغال، وبدلاً من الجزائرية التي رافقته عشية البارحة، مضى إلى الفندق بامرأة إفريقية، لم تُبدِ اعتراضًا على ما طلب منها. كان لها فرج محمَرّ ذو رائحة نفَّاذة، أثاره على الفور، وبينما هو يلتهمها بلسانه، تلذَّذ بالقذف على الفراش. من حسن الحظ... من حسن الحظ أن عصفوره ما زال يحلِّق.

بعد يومَيْن، وصل إلى طوكيو التي سبقَته إليها سيتا. وفي السفارة ـ الصغيرة ـ أبلغه القائم بالأعمال بأنهم لا يستطيعون أن يفردوا له مكتبًا، لعدم وجود مساحة كافية. ولقد أخطرَتهم الوزارة بأن منصبه يقتصر على «الشكليات». لم يسأله أبيس غارسيا عما يعنيه تحديدًا بـ«الشكليات»، فله أن يتخيَّل على أكمل وجه.

٣١

كان كريسپين كارّاسكيًا ابن موظف لدى هيئة السكك الحديدية، ولطالما راوده حلم الالتحاق بالعسكرية منذ نعومة أظفاره. فشجَّعه والده على تحقيق ذلك الحلم، بينما كانت أمه تفضِّل أن يعمل مهندسًا أو طبيبًا. وُلِد في قرية صغيرة في أوياأويتينانغو، سان پيدرو نيكتا، قرب حدود المكسيك. وأمضى جزءًا طويلاً من طفولته في التنقّل من مكان إلى آخر، فكثيرًا ما كانت هيئة السكك الحديدية تنقل أباه من وجهة إلى أخرى، حتى ثُبِّت أخيرًا في المحطة المركزية بمدينة غواتيمالا، حيث تمكَّن كريسپين من الالتحاق بمدرسة عمومية أفضل من تلك المدارس الصغيرة الإقليمية التي أمضى فيها المرحلة الابتدائية.

لم يكُن كثير الاجتهاد في الدراسة، وإن برع في الرياضة. ومنذ حداثة سنه، منذ الطفولة تقريبًا، أكثر من ممارسة السباحة، عملاً بما قيل له من أن تلك الرياضة تساعد على النمو. كان يخشى أن تقف قامته القصيرة عقبة في سبيل التحاقه بالمدرسة الفنية العسكرية، بالأخذ في الاعتبار أن الحد الأدنى للطول واحد من الشروط الواجب استيفاؤها لقبول المُتقدِّمين. شعر بقلق شديد حيال تلك المسألة، إذ كانت تنقصه أجزاء من السنتيمتر حتى يبلغ الحد الأدنى. ومن المُؤكَّد أن أسعد أيام حياته هو ذلك اليوم، يومَ علم بقبوله في المدرسة العسكرية. لم يكُن ضمن الأوائل، بَيْد أنه لم يكُن ضمن الأواخر أيضًا. وهكذا مرَّت أعوامه الثلاثة الأولى في المدرسة العسكرية: فلم يكُن أداؤه ممتازًا ولا سيئًا، بل إنه

كان طالبًا مُتوسِّطًا على الدوام، يؤدِّي المطلوب منه في الدراسة. وعلى الرغم من ذلك، فلقد أبدى شجاعة كبيرة في المناورات العسكرية والتمارين البدنية. كان فتى صالحًا، بسيطًا، على قدر من السذاجة، تسهُل صداقته، وتربطه صلة طيبة بالجميع، بزملائه ورؤسائه على حدٍّ سواء. لم يكُن طالبًا مُتمرِّدًا بأي حال، بل إنه كان خدومًا، لا يتبرَّم بصرامة الانضباط مُطلقًا، بل إن طاعة الأوامر قد استهوَته أكثر من إصدارها. ولقد شعر نحوه زملاؤه بقدر كبير من الاستلطاف، وإن لم يستحقّ من المهابة الكثير.

بَيْد أن تلك الشخصية المغمورة قليلاً تبدَّلَت في أواخر عهد خاكوبو أربينس، إبان الحرب، عندما ألقَت واحدة من طائرات «السلفات» قنبلة على باحة الشرف في المدرسة العسكرية (و«السلفات» هو الاسم الذي أطلقه الجيران في المدينة على طائرات جيش التحرير التابع لكاستيّو أرماس، لأن مُجرَّد حضورها كان يُليِّن أمعاء المواطنين العُزَّل من فرط الخوف، على حد قولهم). لم يسفر القصف عن قتلى، وإن ترك عددًا من الجرحى، بعضهم في حالة خطيرة، من بينهم كريستوبال فومينتو، الشهير بلقب «ديك الخلنج». كان كريسپين كارَّاسكيًا خارجًا من درس الفيزياء. وفي اضطراب، رأى القنبلة تنفجر على واحد من أسقف باحة الشرف وتتركه شظايا، وإذا بوابل من الأحجار والحطام يتطاير في كل اتجاه ويحطِّم الزجاج من حوله ويطيح بكريسپين الذي تدحرج الأرض. وفيما هو ينهض ويتحقَّق من سلامته، سمع صرخات الألم التي أطلقها الجرحى، ورأى طلابًا وضبَّاطًا وموظفي خدمة يركضون من حوله، وقد تناثر عليهم غبار كثيف، وأخذ بعضهم ينزف. وبعد دقائق، زال عنهم الارتباك والفوضى، واحتشدَت المدرسة بأسرها لنقل الجرحى ـ بمن معهم صديقه «ديك الخلنج» ـ إلى العيادة التي لم تتعرَّض لضرر كبير، من حسن الحظ.

حتى ذلك الوقت، لم يكُن كريسپين قد أبدى اهتمامًا بالسياسة قطّ. سبق أن سمع بثورة أكتوبر التي وضعَت حدًّا للديكتاتورية العسكرية، ديكتاتورية الجنرال خورخي أوبيكو كاستانييدا والمجلس العسكري الذي ترأسه فيدريكو پونسي بايديس، وإن لم يولِ الأمر أهمية كبيرة، لأنه كان طفلاً في المدرسة آنذاك. كما سمع بانتخاب خوان خوسيه أريبالو لمنصب الرئيس، ثم خليفته، الكولونيل خاكوبو أربينس، إبان الفترة التي التحق فيها بالمدرسة الفنية العسكرية. كان يرى كل ذلك على أنه شيء بعيد، مسألة لا تهمّه في شيء. وهكذا كان موقف سائر طلّاب المدرسة العسكرية من السياسة، على وجه التقريب. أضف إلى ذلك أنه لم ينحَز لطرف بعينه في المناقشات التي كانت تُثار من حوله أحيانًا، منذ أعلن الكولونيل كاستيّو أرماس تمرّده في هندوراس واتّهم حكومة أربينس بالشيوعية. غير أن تلك الحيادية ـ أو بالأحرى اللامبالاة ـ التي أبداها نحو السياسة قد تلاشَت منذ بدأت «السلفات» في التحليق فوق مدينة غواتيمالا وإلقاء منشورات «البروباغاندا» أو القنابل التي أسفرَت عن وقوع الخسائر والضحايا وبثَّت الذعر في النفوس، ولا سيما منذ اليوم الذي تعرَّضَت فيه المدرسة العسكرية لقصف «السلفات». ولقد تعرَّضَت مشاعر حبّ الذات والوطنية في نفس كريسپين لهزَّة قوية إثر الهجمات التي شنَّها الطيارون الغرينغو على مواطنين غواتيماليين، وحصون عسكرية مثل ماتاموروس أو سان خوسيه دي بوينا بيستا، أو حتى المدرسة الفنية العسكرية نفسها: وإذا كريسپين يغدو شخصًا آخر. بدا له ما حدث جريمةً في حق البلد، شيئًا لا يقبله أحد ما دام يحبّ غواتيمالا ويتحلَّى بقليل من الكرامة، وخصوصًا لو كان طالبًا في المدرسة العسكرية، يتأهَّل حتى يغدو ضابطًا من ضبَّاط المستقبل.

وابتداءً من ذلك الوقت، صار يشترك في جميع المناقشات السياسية التي كانت تُثار في المدرسة العسكرية، حتى إنه بات يثيرها بنفسه في

بعض الأحيان. لم يتَّفق الطلاَّب ولا الضبَّاط على موقف واحد، بل إنهم اختلفوا على حكومة أربينس وإصلاحاته، ولا سيما الزراعية منها. وعلى الرغم من ذلك، هاجم الضبَّاط والطلاَّب كاستيّو أرماس بشدة لأنه شقَّ صفوف القوات المسلحة وأغار على بلده بدعم وتمويل من الولايات المتحدة.

تأثَّر كريسبين بشدة لأن صديقه وزميله في الدفعة، كريستوبال فومينتو، كان واحدًا من الجرحى الذين سقطوا مُتأثّرين بالقنبلة التي ألقِيَت على باحة الشرف بالمدرسة العسكرية. اشتهر كريستوبال بلقب «ديك الخلنج» لأنه كان مولعًا بالحيوانات، ولطالما تحدَّث عن أنواع غريبة منها، مجهولة في غواتيمالا. ذات يوم، ظهر وهو يحمل مجلة تحوي صورًا لنوع من الديكة يُسمَّى في إسبانيا «ديك الخلنج». تحمَّس الفتى لتلك الصور إلى الحدّ الذي جعل باقي الطلاَّب يطلقون عليه اسم الديك منذ تلك الواقعة. ذهب كريسبين لزيارته في المستشفى العسكري، الذي نُقِل إليه من عيادة المدرسة، فوجد زميله حزينًا كالليل المدلهم. إذ عجز الأطباء عن إنقاذ إحدى عينَيْه. ومع أن الإصابة بالعور لا تُعَدّ فظيعة إلى هذا الحدّ، إلاَّ أنها لا تلائم العسكرية، ولذا بات لزامًا على «ديك الخلنج» أن يتخلَّى عن المدرسة ويبحث لنفسه عن مهنة أخرى. كان الحديث الطويل الذي دار بين الصديقَيْن أليمًا. وفي لحظة بعينها، لمح كريسبين الدموع تسيل على وجنة كريستوبال حين قال له إنه ربما اشتغل بالزراعة، إذ عرض عليه واحد من أخواله أن يعمل لديه في ألتا بيراپاس، حيث يمتلك الخال أرضًا ويزرع فيها القهوة.

منذ سقطَت تلك القنبلة على باحة الشرف بالمدرسة العسكرية، بدأ الطلاب يكثرون من الحديث في السياسة، ولم يقتصر ذلك على كريسبين، الذي حدث له أمر مفاجئ: فتبدَّلَت شخصيته وبات قائدًا يصغي له زملاء الفرقة في أوقات الراحة، أو في الليل، بعد حظر

التجوّل، تحت عتمة الأسِرَّة، بينما هم يتبادلون الأفكار. في ثورة عارمة، كان يهاجم «خونة الوطن»، أولئك الذين أعلنوا التمرّد على جيشهم بغرض الإطاحة بالرئيس أربينس، نزولاً عند أوامر الأمريكان، وكأن غواتيمالا لم تكُن بلدًا مستقلاً، بل مستعمرة. كانت أفكاره مُشوَّشة، بطبيعة الحال، طغَت فيها العواطف على الحجج، واختلط فيها حبُّه للأرض التي وُلِد عليها بحبّه لمواطنيه وجيشه، تلك المشاعر المُقدَّسة عند كريسپين، أضف إليها شعوره بالغضب والحقد نحو أولئك الذين كانوا على استعداد لمهاجمة بلدهم سعيًا وراء المصالح السياسية، مثلما فعل جيش التحرير المُؤلَّف من مرتزقة يكثر بينهم الأجانب، جيش التحرير الذي يقصف مدينة غواتيمالا الآن بطائرات يقودها الأمريكان، مثل طائرة «السلفات» التي ألقَت القنبلة على المدرسة العسكرية.

وفي مطلع يوليو من عام ١٩٥٤، أُخطِر الطلاَّب بضرورة حضور الجميع إلى مطار آورورا لاستقبال كاستيّو أرماس العائد من سالفادور برفقة السفير الأمريكي چون أ پيوريفوي والقادة العسكريين الذين وقَّعوا معاهدة سلام مع جيش التحرير، وانتخبوا مجلسًا عسكريًا ليحكم البلد، مجلسًا يضمّ الكولونيل كاستيّو أرماس شخصيًا، عند ذاك عرض كريسپين كارَّاسكيًا على رفاقه إعلان الإضراب.

في اليوم نفسه استدعاه مدير المدرسة العسكرية، الكولونيل إوفيميو ميندوسا:

ـ كان يجب عليَّ إرسالك إلى الحجز بدلاً من استدعائك إلى مكتبي. ـ قال له الكولونيل مُقطَّب الجبين، بصوت امتزجَت فيه المفاجأة بالغضب ـ أجُنِنت يا كارَّاسكيًا؟ إضراب في مُؤسَّسة عسكرية؟ ألا تدري أنه تمرّد؟ وأنك ربما فُصِلت من المدرسة وسُجِنت عقابًا لك على مثل هذه الفعلة الهمجية؟

لم يكُن الكولونيل إوفيميو ميندوسا بالشخص الخبيث. واظب إوفيميو

على ممارسة التمارين البدنية وحافظ على قامته الرياضية، بشاربه الرفيع الذي يحكّه طوال الوقت. كان يشعر بغضب عارم بسبب القصف الذي تعرَّضَت له المدرسة العسكرية، ويتفهَّم شعور الطلاب بالصدمة مما جرى. ولكن جيشًا بلا انضباط واحترام وتدرّج في الرُّتَب، لا وجود له. وهكذا راح المدير يُذكِّر الطالب كارّاسكيًا ـ الذي أنصت إليه في وضع الثبات، من دون أن يرفَّ له جفن ـ بأن الأوامر في الجيش تُطاع من دون تردّد ولا قيل ولا قال، وإلاّ فالمُؤسَّسة لن تؤدِّي وظيفتها ولن تكون في حالة تسمح لها بإنجاز مهمتها المُتمثِّلة في الدفاع عن السيادة القومية، أي سيادة الوطن.

طالت الوعظة، وفي النهاية رقَّ الكولونيل وقال إنه يتفهَّم الشعور بالألم والغضب الذي سرى بين طلاَّب العسكرية. فذلك أمر إنساني. ولكن أوامر الرؤساء في الجيش تُنفَّذ، سواء ألقيَت قبولاً لدى المرؤوسين أم لم تلقَ. والأوامر العليا جاءت في غاية الوضوح، ونصَّت على ضرورة حضور طلاَّب العسكرية المُتدرِّبين إلى مطار آورورا لاستقبال القادة العسكريين وكاستيّو أرماس وجنود جيش التحرير الذين وقَّعوا معاهدة السلام في سالفادور.

ـ حتى أنا لم أرضَ بذلك. ـ اعترف له الكولونيل ميندوسا فجأة، وقد خفض صوته كثيرًا حتى جاء همسًا، ملقيًا نظر متواطئة على الطالب ـ وعلى الرغم من ذلك، سأكون هناك، في مُقدِّمة فرقة المدرسة، تلبيةً للأوامر الصادرة إليّ. وستكون هناك أنت أيضًا، ضمن التشكيل، بزيّ التشريفات والبندقية النظيفة المُشحَّمة، لو أعربتَ عن ندمك فورًا على تلك الحماقة التي وقعتَ فيها حين اقترحتَ على طلاَّب العسكرية إعلان الإضراب عن تنفيذ أوامر عليا.

وأخيرًا، طلب كريسپين العفو، وأقرَّ للكولونيل ميندوسا بأنه على حق. لقد تصرَّف بطريقة تنطوي على استهتار بالمسؤولية، ولسوف ينتقد ذاته مساء اليوم أمام زملائه.

ذهب طلاّب العسكرية في معية أفواج أخرى كثيرة من الجيش إلى مطار آورورا لاستقبال كاستيّو أرماس وحاشيته. وفي ذلك الحشد الضخم الذي اجتمع احتفالاً بنهاية الحرب والانفلات الأمني والريب والخوف، أكثر منه احتفالاً بإبرام تلك المعاهدة بين الجيش وقوّات التحرير، لم يدرك سوى قلة قليلة أن الأمر برمّته كان مُعرّضًا للفشل بسبب الاشتباك الخطير الذي كاد يقع بين طلاّب المدرسة العسكرية وفصائل الميلشيات وجنود التحرير الذين حضروا بدورهم إلى ممر هبوط الطائرات لاستقبال المسافرين. وفي خضم ذلك الحشد الهائل من الناس، لم تنتبه الغالبية لتلك الواقعة. حتى الصحف والإذاعات، المُنبهِرة بكاستيّو أرماس، لم تذكر كلمةً واحدة عن تلك الحوادث التي لم تُعرَف إلاّ من خلال شهادات أولئك الذين عاشوها.

بجوار فرقة طلاّب المدرسة العسكرية، اصطفّت واحدةٌ من أولى فرق جنود التحرير التي وصلَت إلى العاصمة. وهناك اصطفَّ جنود التحرير بما لهم من ثياب قذرة مُمزّقة، وهيئة رثة... أولئك الأفراد الذين يفتقرون إلى الانضباط، ويتسلّحون كيفما اتّفق، بعضهم بالبنادق، وبعضهم بلا شيء سوى بنادق الرشّ، وبعضهم الآخر بالمُسدّسات، حاملين الرايات الصغيرة، معتمرين القبعات الواقية من الشمس أو القبعات الهزلية. وفوق ذلك، سوّلَت لهم نفوسهم السخرية من الطلاّب واستفزازهم، فأصغى إليهم الطلاّب في جمود، وقد اصطفّوا في مجموعات منضبطة، بالزي العسكري النظيف المكوي الذي لا تشوبه شائبة، منصتين إلى الاستهزاء والسباب الذي راحَت تطلقه تلك العصابة من الغواتيماليين وغيرهم من مواطني أمريكا الوسطى الذين لم ينضمّوا إليهم إلاّ سعيًا وراء المال. والأدهى من ذلك أنهم تجرّأوا على الاستهزاء بضبّاط المستقبل في جيش غواتيمالا، والتفوّه بأمور مسيئة لهم.

همّت فرق الطلاّب بالردّ على استفزازات قوات التحرير وشتائمهم،

فاحتواهم الملازمون والنقباء الذين تقدَّموا الصفوف، ولكن إلى حدٍّ معين، فما كادَت تنفتح أبواب الطائرة القادمة من سان سالفادور، ويظهر السفير چون إميل پيوريفوي على الدَّرَج، وفي أثره كاستيّو أرماس، حتى هاجَت الحشود وكسرَت الفواصل رغبةً في الاقتراب من الواصلين حديثًا. عمَّ الهرج والفوضى، واغتنم عدد من الطلّاب والضبّاط وضبّاط الصف تلك الفرصة لمواجهة جنود التحرير - الذين أساؤوا إليهم ونعتوهم بأنهم «أتباع أربينس» - فانقضّوا عليهم ركلًا ولكمًا وضربًا بالرؤوس، ومعهم كريسپين نفسه، الذي لم يُبدِ نزوعًا إلى الشجار بالأيدي في أي وقت مضى. أما الآن، وبشخصيته الجديدة، فما كادَت تندلع الفوضى حتى انطلق ضمن أوائل الطلّاب الذين اخترقوا الصفوف، وانطلق يلوِّح بأخمص البندقية، مُتأهِّبًا لضرب أقرب المرتزقة إليه، بينما أخذ يكيل لهم السباب.

الأمر برمّته ساهم في شحن التوتّر والعداوة بين المدرسة العسكرية وقوات التحرير. في تلك الليلة، التي أذنَت المدرسة للطلّاب بقضائها مع أسرهم، تعرَّض نفرٌ منهم لحادث آخر شديد العنف، وهم في سينما كاپيتول، بالجادة السادسة من المنطقة الأولى. كان الطلّاب في سبيلهم إلى الخروج، وإذا هم يلتقون بنصف دزينة من الغزاة الذين راحوا يترقَّبونهم بنية التعدِّي عليهم. أسفر الوضع عن شجار عنيف، ما أدَّى إلى إصابة اثنين من طلّاب الصف الأخير، فدعَت الضرورة إلى علاجهما في العيادة العمومية. لم يكُن كريسپين هناك، وإن بلغَته تفاصيل الواقعة التي لم يذُر الحديث عن شيء سواها في المدرسة العسكرية. وهكذا ظهرَت وسط الطلّاب فكرة الثأر من قوات التحرير المتمركزة في مستشفى روزفلت، الذي كان لا يزال في طور الإنشاء، وهي المبادرة التي طرحها عدد من الطلّاب في آن واحد. دار الحديث عن تلك المسألة بصوت خفيض، على نحو مبهم (أتُنفَّذ الفكرة بوصفها عملية عسكرية أم حرب

عصابات؟) وفي تلك الأثناء، وقع حادث أشدّ وأشدّ عنفًا، ألهب نفوس طلّاب العسكرية، ومعهم عدد من الضبّاط في تلك المرة.

وقع الحادث في ماخور بحيّ خيرونا، تديره السيدة ميريام ريتشر، تلك الأجنبية التي تصبغ شعرها بالأشقر اللامع، وتتظاهر بأنها من أصل فرنسي (وإن كانت من مواليد هافانا في واقع الأمر). كان ثلاثة من الطلّاب يحتسون كؤوس الشراب على البار، وإذا بجمع من قوات التحرير يطوّقهم، فاندلع بين الطرفَيْن شجار عنيف، انطلق خلاله السباب وتحطّمت القوارير والكؤوس. دافع الطلّاب عن أنفسهم بقوة. وعلى الرغم من ذلك، نجح خصومهم في طلب التعزيزات من مستشفى روزفلت. ولمّا بدا أن الهدوء قد خيّم على كل شيء، اقتحم الماخور ستة أفراد من قوات التحرير، مُسلَّحين بالمدافع الرشاشة. أشهر الواصلون سلاحهم في وجوه الطلّاب الثلاثة، وجرّعوهم مذلة بلا نهاية، إذ جرّدوهم من الثياب، وأرغموهم على الرقص عرايا، والغناء، والتظاهر بأنهم من المُخنَّثين، بينما انطلق الجنود يبصقون ويتبوّلون عليهم.

ولكن القطرة التي أفاضَت الكأس كانت هي الحادثة التي وقعَت في الثاني من أغسطس عام ١٩٥٤، خلال ما أُطلِق عليه «موكب النصر»، الذي صُمِّم باعتباره حفلاً عسكريًا يسير فيه جنود الجيش وكتائب التحرير جنبًا إلى جنب، برهانًا على وحدة القوتَيْن العسكريتَيْن. وعلى الرغم من ذلك، لم يحتفِ الرئيس كارلوس كاستيّو أرماس في خطابه إلاّ بالقوات المناهضة للشيوعية، واقتصرَت الأوسمة وآيات التكريم على المنتصرين في الحرب دون غيرهم. حتى السواد الأعظم من الحضور سوّلَت له نفسه الإساءة لفرق طلّاب العسكرية والصفير استهزاءً بهم خلال الموكب.

في الليلة نفسها، هجم طلّاب المدرسة العسكرية على مستشفى

روزفلت، مركز قيادة قوات التحرير، بدعم من عدة ضبَّاط في مقتبل العمر. بالإجماع، اتَّفقوا على امتناع طلَّاب السنة النهائية عن المشاركة في العملية، مع الأخذ في الحسبان أنهم على مشارف التخرّج، ومنعًا للإضرار بمسيرتهم العسكرية. ولكن اثنين منهم طالبوا بالانضمام إلى أفراد الحملة، فوافق الباقون. تقرَّر حبس المدير، الكولونيل إوفيميو ميندوسا، والضبَّاط الذين استقرّوا على الامتناع عن التدخّل، في قاعة الإدارة (بموافقة شخصية منهم)، بينما جهَّز الطلَّاب والضبَّاط المُتطوِّعون أسلحتهم واعتمروا خوذاتهم واستقلّوا الحافلات مُتَّجهين إلى مستشفى روزفلت، حيث كانت مجموعة من المستطلعين يتفحَّصون المكان ويتلصَّصون على تحرّكات قوات التحرير. كان كريسپين كارَّاسكيًّا قد اكتسب قدرة على القيادة لا تخطئها عين، وشُوهِد في تلك الليلة يقود التحرّكات، على نحو ما. حتى مجموعة الضبَّاط الصغيرة أصغَت إلى آرائه وناقشَتها ووافقَت عليها بوجه العموم. على سبيل المثال، كان هو صاحب فكرة سؤال طلَّاب السنوات الأولى واحدًا واحدًا عن رغبتهم في المشاركة بحرِّية في الهجوم. فأجمعوا على الموافقة.

في الرابعة وثلاثين دقيقة فجرًا، بدأت المعركة، فجاء عنصر المفاجأة في مصلحة المهاجمين. لم تكُن قوات التحرير تتوقَّعهم، فاستحوذ عليهم الارتباك لمَّا بدأت دفقات من رصاص البنادق ونيران البازوكا والمدافع تنهال عليهم بغتةً في ذلك الفجر المعتم الذي تخلَّله الرذاذ الخفيف. احتلَّ كريسپين موقعه في الطلائع، في الجناح الأيمن من أحد الرَّتلَيْن اللذين هجما على مستشفى روزفلت لتنفيذ مناورة المطرقة والسندان. وفي الوقت نفسه تقريبًا، بدأ الجرحى والقتلى يتساقطون حول كريسپين الذي وجد مشقة في إبلاغ صوته إلى أقرب الرفاق إليه، وقد أذهله وقع الرصاص والصراخ والأنين. وفي غمرة التعب والصخب ودويّ الرصاص الذي يصمّ الآذان، شعر بأنه قد حقَّق الشيء الذي طالما حلم به. حتى

إنه لم ينتبه إلى الرصاص الذي تلقّاه جسده وهو يقود الهجوم على بوابة مستشفى روزفلت الرئيسية.

أما قوات التحرير، التي أصيبَت بالمفاجأة وتكبَّدَت الخسائر تحت وطأة الهجوم الذي شنّه طلّاب العسكرية، فما لبثَت أن ردَّت الهجوم بمثله. على مدى جزء طويل من الصباح، كان تبادل إطلاق النار يسكت لحظات، ثم يعود أشدّ مما كان، بينما الفجر ينبلج، والرذاذ ينقطع، والشمس تشرق وتسطع على ذلك الركن الواقع في أقصى مدينة غواتيمالا، وعائلات الحي كلها تولّي هاربة من البيوت، وتحمل على عاتقها الأطفال والحقائب واللفائف التي حوَت ما لا غنى عنه من الأغراض، مذعورين من وقوع الاشتباك في ذلك الوقت على وجه التحديد، عندما خُيِّل إليهم أن السلام قد وصل إلى البلد أخيرًا.

عند منتصف النهار، تلقّى الطلّاب بطارية هاون مُرسلة من قاعدة آورورا العسكرية. ولكنهم، بعد وقت يسير، سمعوا هدير المُحرِّكات ورأوا إحدى طائرات «السلفات» الأمريكية الآتية من نيكاراغوا لمساعدة قوات التحرير. عُرِف لاحقًا أن قائد الطائرة كان هو المخبول چيري فرِد ديلارم، الذي لم يتمكّن من تكبيد الطلّاب خسائر فادحة، إذ اضطُرّ إلى الهبوط في مطار آورورا للتزوّد بالوقود. وهناك استوقفَته الحامية العسكرية، ومنعَته من التحليق بالطائرة مرة أخرى مُتذرِّعة بعدم صدور أوامر عليا بهذا الشأن. كانت التحرّكات العسكرية قد توقّفَت أخيرًا، بفضل الهدنة التي توصّل إليها الأطراف بوساطة رئيس الأساقفة روسيل إي أريّانو والسفير چون إميل پيوريفوي، اللذين جاهر كلاهما بعدائه للرئيس أربينس وأشاد بعصيان كاستيّو أرماس منذ الوهلة الأولى. لهذا السبب ارتاب في حيادهما الطلّاب، ولا سيما كريسپين. غير أن الضبّاط أصرّوا على قبول الوساطة. وفي الوقت نفسه، أكّد لهم رئيس الأساقفة أنه سوف يتحلّى بمطلق الحياد (بجسده شديد النحول، الذي يبدو

كالهيكل العظمي، ويدَيْه الطويلتَيْن اللتين ينثر بهما البركة من حوله، وأمارات التوبة والغبطة البادية في عينَيْه). قال إن مهمّته تقتصر على حقن الدماء وضمان تسوية كريمة بين الأطراف المتحاربة. وتعهَّد بالتوصّل إلى تسوية لا غالب فيها ولا مغلوب، كما أقسم بأمه القديسة التي تنصت إليه من السماوات.

وفي أثناء التفاوض على تلك الهدنة، اقترب الملازم راميرو يانوس من كريسپين، الذي رأى الضابط يتفحَّصه بعَيْنَيْن يطلّ منهما الهلع. عرض عليه الضابط أن يحمله إلى العيادة الميدانية التي أقيمَت في مخبز قريب من تلك الأنحاء.

ـ العيادة؟ ولمَ؟ ـ سأل كريسپين. وفي تلك اللحظة أدرك أنه مُضرَّج بالدماء. لم يحسّ بأي ألم طوال الساعات التي استغرقها تبادل إطلاق النيران. الآن وحسب، اكتشف الجروح التي أصيبَ بها في صدره وكتفه اليسرى.

أمسك الملازم يانوس بذراعَيْه مناديًا اثنَيْن من الطلّاب، فأدرك كريسپين أنه على وشك السقوط فاقد الوعي. لا بد أن الطالبَيْن كانا في الفرقة الأولى، إذ بدَت الخوذة كبيرة على وجهَيْهما المُلطَّخَيْن بالغبار والعرق. ساعداه على حمل كريسپين، الذي اكتشف أن البندقية لم تعُد بين يدَيْه، وبات يرى كل شيء عَبْر غلالة من الضباب. تبدّى له وجه أبيه ووجه أمه، اللذين كانا هناك، ينظران إليه بحنان وإعجاب وأسى. كان يودّ لو قال لهما قولاً جميلاً مفعمًا بالحنان، وإن لم تواتِه القوة الكافية. حين دلفوا إلى المخبز الذي اتُّخِذ منه مركزًا للإسعافات الأولية، لم يكُن كريسپين قادرًا على الرؤية، وإن ظلَّت تنساب عَبْر مسمعَيْه أصوات كاد لا يميِّزها، لأنها راحَت تنأى عنه رويدًا رويدًا، على نحو محتوم.

ولكن كريسپين لم يرَ المفاوضات ولم يعرف بأمرها، تلك

المفاوضات التي تمكَّن خلالها مونسِنيور ماريانو روسيل إي أريَّانو، رئيس أساقفة غواتيمالا الداهية، من اصطحاب وفد يمثِّل طلَّاب العسكرية إلى قصر الحكم، استقبله الرئيس كاستيّو أرماس شخصيًا. أوضح له الطلَّاب أنهم لا يقبلون الاستمرار في تحمّل إهانات كتلك التي أذاقهم إياها جنود التحرير في الأيام الأخيرة. كما طالبوا باعتراف جنود التحرير بالهزيمة، لأنهم قد خسروا المعركة، فضلاً عن تسليم أسلحتهم إلى السلطات، وخروجهم من مستشفى روزفلت بأذرع مرفوعة. وافق كاستيّو أرماس بوجه مُتجهِّم. لم يرَ كريسپين جنود التحرير وهم في سبيلهم إلى الخروج بأذرع مرفوعة من مستشفى روزفلت الذي لم يكتمل بناؤه بعد، ولم يرَهم وهم يسلِّمون البنادق والقربينات والمسدَّسات ومدافع الهاون لطلَّاب العسكرية.

وردَت في الاتفاق ثلاثة بنود لن تُستوفَى كما ينبغي: أن يُسلِّم المهزومون سلاحهم إلى الحكومة ومن ثم يرجعون إلى قراهم أو بلدانهم؛ ألاَّ يتعرَّض طلَّاب العسكرية المُتمرِّدون لأي عقاب على ما صدر منهم يومذاك من الأفعال التي لن يرد لها ذكر في سجلَّات الخدمة، مع السماح لهم بالعودة إلى المدرسة العسكرية لاستئناف دراستهم بصورة طبيعية تمامًا؛ وأن يستمرّ أولئك الذين دعموا الطلَّاب من الضبَّاط وضبَّاط الصفّ على قوة الجيش من دون أن يتعرَّضوا لأي عمل انتقامي، على ألاَّ يُدرَج شيء مما وقع في سجلَّاتهم العسكرية.

قضى كريسپين نحبه مساء ذلك اليوم، قبل أن يتمكَّن أحد من نقله إلى مستشفى، فلم يدرِ أن ذلك الاتفاق بات مُجرَّد حبر على ورق، ابتداءً من اليوم نفسه، مثلما كان يخشى هو وطلَّاب آخرون. وعلى الرغم من انتصار طلَّاب العسكرية على الأرض، كانت قوات التحرير هي المنتصرة بحق في ذلك النزاع الذي لن يرد له ذكر في المستقبل، على صفحات الجرائد أو كتب التاريخ، إلاَّ باعتباره حدث بلا أدنى أهمية.

سرعان ما أُقفِلَت أبواب المدرسة العسكرية، وظلَّت مُوصدَة بضعة أشهر، ريثما يُعاد تنظيم صفوفها. كما سُرِّح جميع الضبَّاط وضبَّاط الصف الذين دعموا المُتمرِّدين من الجيش، وحُرِموا من الحق في معاش التقاعد. أما الطلَّاب، فلم يُسمَح لغير ستة منهم باستئناف الدراسة في مدارس وأكاديميات عسكرية لدى بلدان صديقة، مثل نيكاراغوا سوموسا، أو فنزويلا پيريس خيمينيس، (مع الأخذ في الاعتبار أن لأولئك الستة أقرباء من ذوي النفوذ على قوة الجيش أو في حكومة كاستيّو أرماس). بينما فُصِل باقي الطلَّاب من المُؤسَّسة وحُرِموا من الحق في نيل شهادة التخرّج عندما فتحَت المدرسة الفنية العسكرية أبوابها مرة أخرى، تحت إشراف مدير جديد وطاقم جديد من الضبَّاط.

وبعد فترة غير طويلة، كرَّم الرئيس كاستيّو أرماس رئيسَ الأساقفة ماريانو روسيل إي أريَّانو بأرفع الأوسمة العامة، في حفل أقيم بالكاتدرائية. وفي خطاب كتبه ماريو إفراين ناخيرا فارفان أيضًا، وصفه الرئيس بأنه «مواطن جليل، وبطل، وقديس».

سعى والد كريسپين كارَّاسكيًا ووالدته إلى استعادة جثمان ابنهما، ولكن سدى. إذ أبلغَتهما قيادات الجيش العليا بأنه قد دُفِن في مقبرة جماعية مع غيره من الضحايا الذين أودى بحياتهم ذلك العمل الثوري، مع الحفاظ على موقع المقبرة طي الكتمان، لئلَّا تغدو وجهةً يحجّ إليها الشيوعيون في المستقبل.

مكتبة
t.me/t_pdf

٣٢

تفصَّد عرقه بغزارة، وإن لم يكُن القيظ هو السبب في ذلك ـ إذ رأى من مكانه على الفراشِ أذرعَ المروحة تدور فوق رأسه بسرعة، وأحسَّ على وجهه بالهواء الطفيف الآتي منها ـ بل إنه الخوف. لم يسبق له أن شعر بخوف كهذا من قبل، حسبما يذكر على الأقل، ولا حتى يومَ علم بمقتل الزعيم، ورجَّح أن ينقلب حظه ويُضطَرّ إلى العيش مُتخفِّيًا عن الأنظار بسبب مقتل الزعيم. وربما ولَّى هاربًا إلى الخارج. بَيْد أنه ما كان يشعر بالخوف آنذاك، وإنما بالحزن، والغضب، والعزلة. أما الآن، فالخوف هو الشعور الذي استحوذ عليه، الخوف الذي جعل عرقه يتفصَّد باردًا حتى أغرق قميصه وسرواله الداخلي، وجعل أسنانه تصطكّ في ما بينها. من آن إلى آخر، كانت تداهمه نوبات القشعريرة التي تشلّ بدنه، فيضطرّ إلى كبح جماح نفسه، باذلاً في سبيل ذلك جهدًا كبير، لئلّا يجهش بالبكاء صارخًا، مستغيثًا. ولكن، بمن يستغيث؟ بالرَّب؟ هل يؤمن بالرَّب؟ وإلاَّ، فهل يستغيث بالأخ كريستوبال؟

كان الفجر ينبلج، ولمح في الأفق ضياء خافتًا أزرق، سوف يسطع رويدًا رويدًا، ويكشف لعينَيْه بستان بيته في پيتيونڤيل، بما حوى من أشجار الفاكهة والچكرندا والنباتات المُتسلِّقة. لن تلبث أن تبدأ الدجاجات في القوقأة، والكلاب في النباح. وبطلوع النهار، وسطوع الضياء، سوف يتضاءل شعوره بالخوف، ويُضطَرّ إلى السيطرة عليه تمامًا

قبل الذهاب إلى سفارة الدومينيكان، حيث ضُرِب له موعد في الحادية عشرة صباحًا. أيتكرَّم السفير باستقباله، أم يقتصر الأمر على الحديث إلى ذلك القنصل ذو البدلة الضيقة والنظارة التي تشبه عينَي البومة والصوت الرفيع الذي يشبه نغمة الناي؟ أيتلقَّى من بالاغير ردًّا؟ شاعرًا بالخزي، فكَّر أنه ما كان يتخيَّل أن يلوذ يومًا بذلك الرجل اللعين مدفوعًا بالخوف، ما كان يتخيَّل أن يلوذ بالرئيس خواكين بالاغير حتى ينقذ حياته وحياة زوجته سيتا وابنتَيْه الصغيرتَيْن. أيجيبه بالاغير شخصيًّا؟ أتصدر عنه لفتة مرؤة، و«يغفر» له، ويردّه إلى الوطن مع أسرته؟ ربما كان بالاغير خائنًا، ولكنه مُثقَّف، ولديه حسٌّ تاريخي، ويرغب في تخليد اسمه. ربما شجَّعه ذلك على إنقاذ حياة «الشخص الأبغض إلى النفوس في جمهورية الدومينيكان»، حسبما أخبره بالاغير في آخر لقاء جمع بينهما في مدينة تروخيّو، يومَ أرغمه على مغادرة أرضه، واختلق قصة العمل في القنصلية لدى اليابان.

«أي قصة!»، دار في خلده. كانت أكذوبة خبيثة. تذكَّر تلك الأيام الرهيبة في طوكيو. لم يُسمَح له ولو بمكتب خاص. كما عاش مع سيتا في فندق باهظ التكلفة، فلم يتلقَّ يومًا بدل الإقامة الذي يستحقّه بوصفه دبلوماسيًّا حديث العهد، ولم يتلقَّ راتبه الأول في ذلك المنصب قطّ. بعد أسابيع قليلة، أخبره القائم بالأعمال نفسه أن قرار تعيينه قد أُلغِي «لأسباب مُتعلِّقة بالميزانية»، ولذا فالسلطات اليابانية تمهله وزوجته أسبوعَيْن وحسب لمغادرة البلد، حيث لم يعُد لديه ما يفعله. تعيَّن عليهما الرجوع إلى باريس، حيث عاشا عامًا واحدًا على وجه التقريب. هناك أنجبَت سيتا أولى الصغيرتَيْن، وهناك أنفقا جزءًا كبيرًا من رصيده المحفوظ في ذلك البنك السويسري، الذي كان يُقدَّر بالمليون وبعض المليون من الدولارات. بدا المبلغ ضخمًا عندما كان متروكًا بلا مساس، والفوائد تتراكم شيئًا فشيئًا، غير أنه بات يذوب كالزبد حين لم يعُد صاحبه يجني شيئًا على الإطلاق.

ماذا فعل أبيس غارسيا في تلك الأعوام التي عاشها في المنفى؟ التآمر... كتابة الرسائل، والاتصال بكل من يعرفه أو يحسبه صديقًا من رجال العسكرية والشرطة الدومينيكانيين، في محاولة منه لتوريطهم في مؤامرة ضد بالاغير. كانوا يجيبونه بالموافقة، ثم لا يحرِّكون ساكنًا. وإن أبدى الجميع رغبةً في الحصول على تذكرة سفر إلى أوروبا أو كندا للقائه. لم ينتج شيء واحد جاد عن كل المؤامرات التي حاكها. ذات يوم، أدرك أبيس غارسيا أن شيئًا لن يتحقَّق ما لم يشارك فيه رامفيس تروخيّو. عند ذاك تجرَّع مذلة الكتابة إليه. وفوجئ بأن رامفيس، الذي كان يعيش في إسبانيا آنذاك، قد أجابه بنفسه وسافر إلى باريس حتى يلتقي به. كان ودودًا، سلسًا. ولقد شعر نحو بالاغير بكراهية شديدة، تضاهي كراهية أبيس غارسيا له. أدرك رامفيس ـ أكبر أبناء تروخيّو شخصيًّا! ـ أنه قد تعرَّض لتلاعب بالاغير، ذلك الثعلب الماكر عديم الضمير. كان رامفيس جائعًا إلى السلطة، مُتعطِّشًا إلى فرض سيادته على ذلك البلد الصغير الذي أنكر جميل والده وأسرته، فنذر أبيس غارسيا نفسه على مدى شهور لوضع مؤامرة بدَت جادة في تلك المرة، الآن وقد شارك فيها نجل الزعيم. وعلى الرغم من ذلك، أخفقَت المؤامرة قبل أن تتشكَّل، إذ تراجع العسكريون المُتورِّطون في المؤامرة بدعوى أن الانقلاب لن ينجح ما لم تدعمه الولايات المتحدة. فما كان منهم إلاَّ أن تراجعوا في آخر الأمر. ومنذ ذلك الوقت، قرَّر أبيس غارسيا الاكتفاء بالتآمر في مخيلته. والسعي إلى ترشيد الإنفاق، لأن المليون وبعض المليون من الدولارات قد انخفض إلى النصف خلال مدة لا تزيد على سنتَيْن، أضف إلى ذلك علمه بأنه لن يعثر على عمل أبدًا، وهو الذي لا يفقه إلاَّ في التعذيب والقنابل والتجسّس والاغتيال. من يُوظِّفه لأداء تلك المهمات في أوروبا؟

عندما اتَّخذا قرارهما بالانتقال إلى كندا عام ١٩٦٤، كانت سيتا

حبلى في ابنتها الثانية. أراد أن يقنعها بالإجهاض، فأبَت وتمَّ لها ما أرادَت في النهاية. كان العيش في تورونتو أوفر منه في باريس، غير أن مدة تصاريح الإقامة التي حصلوا عليها لم تتعدَّ الستة أشهر، وحين طلب مدّ المهلة، رُفِض طلبه بدعوى أن المبلغ الذي في حوزته لا يكفي لضمان الإقامة نصف عام آخر.

وفيما هم على ذلك الحال، وبالطريقة الأبعد عن البال، تلقَّى أبيس غارسيا عرضًا بالانتقال إلى هايتي حتى يعمل مستشار الشؤون الأمنية لدى الرئيس فرانسوا دوڤالييه.

في بيت أصدقاء له في تورونتو، التقى برجل من هايتي يتحدَّث الإسبانية بطلاقة، إذ سبقَت له الإقامة في جمهورية الدومينيكان. ما لبث الرجل أن تعرَّف عليه: «أنت؟ هنا؟ وأي شيء قد يفعله السيد الكولونيل چوني أبيس غارسيا في تورونتو؟». «عمل»، أجاب محاولاً إزاحته عن طريقه. كان الرجل الآتي من هايتي يُدعَى فرانسوا ديلوني، ويشتغل بالصحافة، حسبما قيل له. وإن كان في واقع الأمر يعمل لحساب «بابا دوك»، مالك هايتي الذي لا يرقَى إليه خلاف منذ عام ١٩٥٧. طلب منه ديلوني رقم الهاتف. وبعد أيام قليلة، تلقَّى منه أبيس غارسيا اتصالاً دعاه فيه إلى الغداء. وفي مطعم الأسماك الذي مضى به إليه، قدَّم فرانسوا ديلوني عرضًا تركه حائرًا:

ـ لقد أجريتُ بشأنك تحريات كثيرة يا سيد أبيس غارسيا. وأعرف أن الرئيس بالاغير قد طردك من بلدك، وأنك تهيم في أنحاء العالَم منذ ذلك الحين، وقد صرتَ منبوذًا. هل أنت مهتم بعرض جادّ؟ هل أنت مهتم بالانتقال إلى پورتو پرينس والعمل لحساب حكومة هايتي؟

تملَّكَت أبيس غارسيا مفاجأة بلغَت من الشدة حدًّا جعله يستغرق ثوانٍ في الردّ.

ـ هل أنت جاد في ما تقول؟ ـ سأله أخيرًا ـ هل لي بسؤالك عما إذا كان هذا العرض مُقدَّمًا من الرئيس فرانسوا دوڤالييه؟

ـ منه شخصيًا. ـ أومأ ديلوني ـ هل أنت مهتم؟ سوف تشغل منصب مستشار الشؤون الأمنية لدى الرئيس.

قبل من فوره، وهو لا يدري حتى كم يتقاضى ولا ما ظروف العمل. «كنتُ أحمق»، دار في خلده. كان النهار قد طلع، وبدأت الدجاجات في القوقأة، والكلاب في النباح، والخادمات الثلاث في التحرّك وإحداث الجلبة في المطبخ.

بعد مضي أسبوع، كان هو وسيتا والصغيرتان في پورتو پرينس، حيث نزلوا في فندق ليزامباسادور. كانت تلك الأيام الأولى هي الأفضل، على ما يذكر أبيس غارسيا. فالقيظ، والشمس المشرقة، وعبق البحر، والخضرة الغنَّاء، وموسيقى الميرينغي، كلها أمور جعلَته يشعر بأنه في الكاريبي. تراءى له وكأنما الناس على وشك الحديث بالإسبانية الدومينيكانية العذبة. ولكن أولئك السود والخلاسيين يتحدَّثون الكريولية والفرنسية، فلم يفهم كلمة واحدة مما يقولون. بعد يومَيْن، مضوا به للقاء الرئيس دوڤالييه في مكتبه بقصر الحكم. كانت تلك هي المرة الأولى التي يراه فيها، والأخيرة أيضًا. كان الرئيس رجلاً غامضًا، مهنته الطب، وإن قيل إنه يمارس السحر أكثر من كل ما عداه. أعزى أهل هايتي قدرات الرئيس إلى الشعوذة التي كان يمارسها فيدهش بها شعبه كاملاً، ويروِّعه أيضًا. كان فارع القوام، نحيله، أنيقًا في ملبسه، يتعذَّر تحديد عمره. استقبله بقدر كبير من المودة، ببدلته الداكنة وحذائه اللامع، وحدَّثه بإسبانية طليقة. أعرب له الرئيس عن امتنانه لأنه جاء يمدّ يد العون لحكومته في الشؤون الأمنية، التي يعرف أنه «خبير» فيها، حسبما أخبره. أشاد بالجنرال الأعلى تروخيّو كثيرًا، وقال له إن علاقته بالرئيس بالاغير طيبة أيضًا، من حسن الحظ. وعند ذاك سمح لنفسه بإلقاء دعابة على قدر من الغموض أيضًا:

ـ والآن، متى علم أنك هنا، تمدّ يد العون لحكومتي، سوف يشعر الرئيس بالاغير بشيء من التوتّر، ألا تظنّ؟

مرَّت ابتسامة سريعة على وجهه، وللحظة تجلَّى في عينَيْه الغائرتَيْن بريق، خلف النظارة الغليظة. أوضح له أن وزير الداخلية سوف يتَّصل به للتطرّق إلى كل الجوانب العملية. ثم هبَّ واقفًا، ومدَّ له يده، ووداعًا.

لم يعاود أبيس غارسيا رؤيته على انفراد طوال العامَيْن اللذين أمضاهما في هايتي. لم يرَه إلاَّ من بعيد، في مناسبات رسمية. طلب الاجتماع به ما لا يقلّ عن اثنتي عشرة مرة، ولكن رأس الدولة في منتهى الانشغال، ولا يجد مُتَّسعًا من الوقت لاستقباله، طبقًا لما قال وزير الداخلية. ربما كان ذلك واحدًا من الأسباب التي دفعَت أبيس غارسيا إلى ارتكاب الحماقة المُتمثِّلة في التآمر هو والكولونيل ماكس دومينيك، زوج ماري دينيس، أو ديديه، ابنة الرئيس دوڤالييه، الشهير بلقب «بابا دوك». خطرَت ديديه على بال أبيس غارسيا، فأحسَّ في قضيبه بدغدغة خفيفة، كما أحسَّ في المرات القليلة التي وقع فيها بصره على تلك المرأة فارعة القوام، المكابرة، ذات الجسد البديع والنظرة الباردة القاسية التي يتجلَّى فيها مزاجها العكر الاستبدادي، الأشبه بمزاج والدها، طبقًا لما قيل عنها. كم يودّ أبيس غارسيا لو أنه التهم فرج تلك الإلهة بلسانه، إلهة الأبنوس والجليد. وإذا بذكرى الكولونيل ماكس دومينيك تُذكِّر أبيس غارسيا بوضعه. ومرة أخرى، داهمه رعب جليدي، فأخذ يرتعد من قمة رأسه حتى أخمص قدمَيْه.

تعرَّف بماكس دومينيك في أكاديمية بيتيونڤيل العسكرية، حيث كان يحاضر في الشؤون الأمنية. كانت حال الكولونيل مدعاة للغيرة، بالنظر إلى صلة القرابة التي جمعَته بالرئيس «بابا دوك». احتفى الكولونيل بالواصل حديثًا، ودعاه إلى العشاء في بيته ذات يوم. وهناك، تعرَّف أبيس غارسيا بتلك المرأة ذات الساقَيْن البديعتَيْن الممشوقتَيْن، ديديه،

سيدة البيت، التي أضرمَت النار في صدر مستشار الأمن إلى حدٍّ جعله يهرع إلى ماخور يُرثَى له، في وسط العاصمة، فور انتهاء العشاء، حتى يطفئ لوعته بين ساقَي العاهرة التي تفاهم وإياها بمُجرَّد الإشارة. هكذا بدأت تلك الصلة التي جمعَته بالكولونيل ماكس دومينيك. وشيئًا فشيئًا، تورَّط خلسةً ـ و«بحماقة»، كما فكَّر مُجدَّدًا ـ في مؤامرة ترأسها زوج ابنة الرئيس فرانسوا دوڤالييه نفسه، مؤامرة كانت ترمي إلى منع شقيق ديديه الأصغر ـ چون كلود، المعروف بلقب «بيبي دوك» ـ من تولِّي السلطة بعد موت «بابا دوك»، الذي جعله وريثًا له. كانت مؤامرة غريبة عبثية. وفي الاجتماعات العديدة التي حضرها أبيس غارسيا، كان يدور حديث هلامي عن المؤامرة بين رجال العسكرية المُتحلِّقين حول ماكس دومينيك، فلم تُرصَد تواريخ، ولم يُحدَّد أي شيء في ما يتعلَّق بالمواقع والأسلحة والتشعّبات السياسية، وكأن كل شيء لا يزال في حالة غازية تسبق الولادة. حتى بدأ ينتشر خبر مفاجئ، بفضل نميمة البشر، من دون أن يُكتَب عنه سطر واحد في الصحف اليومية، أو يرد له ذكر في نشرات الأخبار الإذاعية. وجاء في الخبر المذكور أن حكومة «بابا دوك» قد أعدمَت تسعة عشر ضابطًا في الجيش رميًا بالرصاص، جزاءً لهم على المشاركة في مؤامرة انقلابية.

ولمَّا هدأ أبيس غارسيا قليلاً، نهض واغتسل. أطال الوقوف تحت خيط الماء الذي لم يصل إلى حدّ البرودة، بل إنه انساب فاترًا. ثم غسل أسنانه وحلق ذقنه بعناية. في النهاية، انتقى أفضل بدلة يملكها وقميصًا بياقة وارتدى ثيابه. لو استقبله السفير الدومينيكاني، فمن اللائق أن يترك في نفسه أثرًا طيبًا. وفي أثناء الفطور ـ الذي اكتفى منه بفنجان القهوة وكسرة صغيرة من الخبز الأسود، في حين ترك صحن الفاكهة بلا مساس، وقال إنه لا يشعر برغبة في تناول البيض ـ جعل يفكِّر في سفارة الدومينيكان والرئيس بالاغير إلى حد الهوس. كاد لا يصيب من الطعام

شيئًا في تلك الأيام الأخيرة، حتى صار عليه أن يطلب من الخادمات فتح ثقوب جديدة في الحزام. لم تكُن الساعة قد تجاوزَت السابعة صباحًا، فشرع يتصفَّح الجرائد التي تركَتها إحدى الخادمات على المائدة.

لم تذكر الصحف كلمة واحدة عن المؤامرة التي أحبِطَت، دع عنك أن تذكر إعدام التسعة عشر عسكريًّا رميًا بالرصاص جزاء لهم على تورّطهم في المؤامرة، أو تشير إلى تنصيب الكولونيل ماكس دومينيك سفيرًا جديدًا لدى إسبانيا، أو سفر الكولونيل وزوجته ماري دينيس بالأمس إلى مدريد لتولِّي المنصب الجديد.

لماذا غفر الرئيس دوڤالييه لذلك الذي ترأس المؤامرة، وبعثه سفيرًا إلى إسبانيا، بدلاً من الأمر بإعدامه رميًا بالرصاص شأن ضبَّاط الجيش الذين تآمروا وإياه؟ لا شكّ أنه فعلها مدفوعًا بالحب الذي يشعر به نحو ابنته ماري دينيس. أيعرف «بابا دوك» أن ديديه هي التي غرسَت في رأس زوجها فكرة المؤامرة لتصفيته وحلّ محله؟ لا بد أنه يعرف، لأن فرانسوا دوڤالييه يعرف كل شيء، ولا يمكن أن يكون غافلاً عن مشاعر الحقد والألم التي استحوذَت على ديديه لأنه اختار شقيقها الأصغر خلفًا له في السلطة بدلاً منها (الأمر الذي يتكلَّم عنه الجميع في هايتي). وبرغم كل شيء، غفر الساحرُ لتلك الابنة الشرسة، وها هو الآن يرسلها وماكس سفيرَيْن إلى إسبانيا، بعدما أمر بإعدام العسكريين المُتورِّطين في المؤامرة رميًا بالرصاص ثم دفن جثامينهم في موضع سرّي.

لماذا لم يأمر دوڤالييه بإعدامه بعد؟ أيدَّخر له عقابًا خاصًا، ممزوجًا بصنوف التعذيب التي يُدرِّسها أبيس غارسيا لـ«الغيلان»[1] منذ عامَيْن في أكاديمية پيتيونڤيل العسكرية؟ ومرة أخرى، سرَّت رجفة عَبْر جسده، من

(١) «الغيلان» (أو «Tonton Macoutes» باللغة الكريولية): الاسم الذي عُرِفَت به وحدة الشرطة السرية التي روَّعَت مواطني هايتي في عهد فرانسوا دوڤالييه. (المترجم)

قدمَيْه حتى رأسه، بينما جعلَت أسنانه تصطكّ في ما بينها. تفصَّد عرقه مُجدَّدًا حتى بلَّل القميص النظيف والسروال. لا بدّ له من السيطرة على أعصابه، فليس من اللائق أن يراه سفير الدومينيكان في تلك الحالة، وإلاَّ أبلغ الرئيس بالاغير فورًا. ويا للسرور الذي سوف يغمر بالاغير متى علم أن أبيس غارسيًا يرتعد خوفًا من العقاب الذي يعدّه له دوڤالييه، لأنه ورَّط نفسه في التآمر هو وابنة الرئيس وزوجها!

في الثامنة صباحًا، دلف إلى الحجرة حيث تنام سيتا والصغيرتان. كانت زوجته قد أفاقت من نومها، وراحَت تتناول الفطور الذي جاءت به إحدى الخادمات، المُؤلَّف من فنجان قهوة وصحن من الأناناس والبابايا وبضع شرائح من التوست بالزبد والمربى. كم يبدو عليها السكون والهدوء! أتدرك الخطر الذي يحيق بهم؟ لا شك في ذلك، ولكنها تؤمن به إيمانًا أعمى، وتظنّه قادرًا على تدبير كل شيء. مسكينة!

ـ لماذا لم تقُم الصغيرتان من الفراش؟ ـ بادرها بسؤاله، بدلاً من تحية الصباح ـ ألن تذهبا إلى المدرسة؟

ـ أنت نفسك أمرتَ بألاَّ تذهبا إلى المدرسة. ـ ذكَّرَته سيتا ـ أما عدتَ تذكر؟ آمل ألاَّ تكون قد أصبتَ بتصلّب الشرايين.

ـ أجل، صحيح. ـ أقرَّ بصحة كلامها ـ الأفضل ألاَّ تخرج الصغيرتان من البيت ما لم تتَّضح الأمور أولاً. وأنتِ أيضًا.

أومأت برأسها. شعر نحوها بالغيرة: فها هي ذي تتناول الفاكهة وكأنه يوم كغيره من الأيام، مع أنهم قد يلقون ميتة بشعة في أي لحظة. شعر نحو زوجته بالشفقة. طوال كل الاجتماعات التي حضرها في بيت ديديه وماكس دومينيك، لم تشعر بالانشغال قطّ. وحين تناهى إليها أن فرانسوا دوڤالييه قد أمر بإعدام تسعة عشر ضابطًا رميًا بالرصاص عقابًا لهم على تورّطهم في المؤامرة، لزمَت الصمت، ولم تُدلِ بتعقيب واحد. أتخاله

رجلاً خارقًا قادرًا على الخروج بسعادة من تلك الورطة الجهنمية التي زُجّ فيها بهم. حتى الآن، كان ذلك صحيحًا، بطريقة أو بأخرى، فلطالما وجد مهربًا من المواقف الأشدّ وعورة. ولكن هاجسًا حدَّث أبيس غارسيا بأنه، في تلك المرة، لم يبقَ أمامه مخرج واحد للهرب من سوء الحظ. على نحو مبهم، تذكَّر الأخ كريستوبال، الذي كان هناك، في المكسيك، يسرد تاريخ أتباع الصليب الوردي، وشعر بحنين إلى السكينة والسلام اللذين كان يشعر بهما كلما أصغى إلى عظاته.

ـ أتذهب إلى السفارة؟ أتعتقد بأنهم قد يردّوننا إلى الوطن؟ ـ سألَته، وكأنها تعدّه أمرًا مفروغًا منه.

ـ طبعًا. ـ قال ـ آمل أن يتفهَّم بالاغير أنني قد تنازلتُ كثيرًا حين طلبتُ منه هذه الخدمة.

ـ وإن لم يكُن، فما العمل؟ ـ سألَته، وقد تبدَّل صوتها قليلاً.

ـ سنرى. ـ قال وهو يهزّ كتفَيْه ـ لا تتحرَّكي من هنا. سأعود من السفارة إلى البيت مباشرة حتى أخبرك بما جرى.

خرج فلم يجد السائق هناك، الأمر الذي يُعَدّ نذير شرّ. عشية البارحة، طلب من السائق أن يحضر في الصباح الباكر. تراه قد ولَّى هاربًا؟ أو تلقَّى أمرًا بعدم الحضور. أخذ مفاتيح الشاحنة وقادها بنفسه، ببطء، متفاديًا المارة الذين يعبرون الطرق جيئةً وذهابًا في وجه الشاحنة، بمنتهى الاستهتار بالمسؤولية، وكأن تفادي الحوادث واجب على الشاحنة، لا المارة. بعد مضي نصف ساعة، أوقف السيارة أمام مفوضية الدومينيكان، في وسط مدينة بورتو برينس. كانت تفصل بينه وبين الحادية عشرة بضع دقائق، فراح يترقَّب في السيارة، وقد شغَّل مُكيِّف الهواء. حين رأى عقارب ساعته تشير إلى الحادية عشرة، أطفأ المُحرِّك وترجَّل من السيارة ثم قرع باب المفوضية. فتحَت له الفتاة السمراء التي استقبلَته منذ ثلاثة أيام.

ـ السيد القنصل في انتظارك. ـ ابتسمَت له بمودة غامرة ـ تفضَّل، أرجوك.

إذن، فلن يستقبله السفير هذه المرة أيضًا. أرشدَته الفتاة إلى المكتب نفسه، كما في المرة السابقة. كان القنصل يرتدي البدلة الرمادية شديدة الضيق نفسها، تلك التي بدَت صغيرة، حتى وكأنها تخنق أنفاسه. ابتسم له الابتسامة المفتعلة نفسها، بعينَيْن يتطاير الشرر منهما، كان يذكرهما جيدًا جدًا.

ـ هل من أخبار يا سيدي القنصل؟ ـ دخل أبيس غارسيا إلى صلب الموضوع مباشرة.

ـ كلا يا سيدي الكولونيل، من دواعي أسفي. ـ أجابه القنصل وهو يشير إليه بيده حتى يتفضَّل بالجلوس ـ لم يصل الردّ بعد.

أحسَّ أبيس غارسيا بالعرق يبلِّل وجهه كاملًا، وبقلبه يخفق في صدره بقوة.

ـ كنتُ أودّ الحديث إلى السفير. ـ تلعثم، وصوته يشي بالتوسّل ـ لن آخذ من وقته إلاَّ عشر دقائق، أو خمس دقائق. أرجوك، سيدي القنصل. المسألة في غاية الجدية، من الضروري أن أوضحها له.

ـ السفير ليس هنا سيدي الكولونيل. ـ قال القنصل ـ أقصد أنه ليس في هايتي. لقد استُدعِي إلى سانتو دومينغو للمشورة.

عرف أبيس غارسيا أن القنصل يكذب. وأيقن أنه لو فتح باب المكتب ركلًا بقدمه لرأى السفير أمامه، مذعورًا، جالسًا خلف مكتبه، يتعلَّل بالحجج الكاذبة هو الآخر.

ـ أنت لا تفهم وضعي. ـ أردف، وهو يتكلَّم بمشقة ـ إن حياتي، وحياة زوجتي وابنتَيّ في خطر. لقد أوضحتُ ذلك في رسالتي إلى

الرئيس بالاغير. لو قُتِلنا لكانت فضيحة عالمية كبرى في حقّه، فضيحة قد تجرّ على حكومته عواقب سياسية وخيمة. ألا تفهم؟

ـ أفهم جيدًا جدًّا سيدي الكولونيل، أقسم لك. ـ أكّد القنصل وهو يهزّ رأسه ـ لقد أوضحنا المسألة لخارجية الدومينيكان بأدقّ التفاصيل. لا بد أن حالتك قيد الدراسة. سوف أنبّهك بنفسي حالما أتلقّى ردًّا.

ـ إما أنك لا تفهم وإما أنك تكذب. ـ قال أبيس غارسيا، عاجزًا عن السيطرة على نفسه ـ أتحسب أن لديَّ وقتًا لهذا؟ قد يقتلوننا مساء اليوم قبل غد. القوانين تحمينا. فنحن من الدومينيكان. ولدينا الحقّ في العودة إلى الوطن فورًا.

هبَّ القنصل واقفًا وترك مكانه خلف المكتب، ثم جلس إلى جوار أبيس غارسيا. بدا وكأنه يسعى جاهدًا حتى يفضي إليه بشيء، وإن لم تواتِه الجرأة اللازمة. بعينَيْن مذعورتَيْن، راح يتلفَّت يمنةً ويسرةً. وحين تكلَّم، خفض صوته إلى حدٍّ جعله يبدو كالهمس.

ـ اسمح لي بأن أسدي إليك نصيحة سيدي الكولونيل. لا تنتظر أطول مما انتظرت، تقدَّم بطلب اللجوء... لدى مفوضية المكسيك، على سبيل المثال. أقولها بصفتي صديقًا، لا قنصلاً. لن يأتي ردٌّ على الخطاب الذي أرسلتَه إلى الرئيس بالاغير. أعرف ما أقول. وأجازف بمنصبي إذ أخبرك بذلك سيدي الكولونيل. أفعل ما أفعل من باب الإحسان المسيحي، لأني أفهم وضعك ووضع أسرتك جيدًا جدًّا. لا تنتظر أطول مما انتظرت.

حاول أبيس غارسيا أن ينهض، ولكن الرجفة سرَت إليه مرة أخرى، فتهاوي على المقعد مُجدَّدًا. ألتلك النصيحة مغزى؟ ربما. ولكنه طُرِد من المكسيك منذ أعوام لأنه شخص غير مرغوب فيه. إذن، فلتكُن الأرجنتين. أو البرازيل. أو باراغواي. في المحاولة الثانية، تمكَّن من النهوض، على الرغم من الرجفة الشديدة التي سرَت إلى ساقَيْه. ومن

دون أن يودِّع القنصل، سار كالرجل الآلي، مُتَّجهًا صوب الباب المفضي إلى الشارع. حتى تحية الفتاة السمراء لم يردّ بمثلها. جلس في الشاحنة، ولم يدِر المُحرِّك حتى هدأت الرجفة. أجل، هو ذاك، سيحاول التقدّم بطلب اللجوء لدى إحدى سفارات أمريكا اللاتينية، على ألاَّ تكون سفارة المكسيك. إذن، فلتكُن البرازيل، أجل، البرازيل. أو باراغواي. ألتلك البلدان سفارات في بورتو برينس؟ سيرى في دليل الهاتف. تلقَّى بالاغير ابن العاهرة رسالته ولم يرغب في الردّ، حتى يخفي عنه مجريات الأحداث. يريد من «بابا دوك» أن يقتله، طبعًا. ربما طلب الرئيس دوڤالييه مشورته في أمر أبيس غارسيا. «ماذا أفعل به يا صاحب الفخامة؟». أما ذلك الثعلب، الذي لا يورِّط نفسه في شيء قطّ، فلعلَّه أجاب قائلًا: «أتركُ الأمر برمّته لحكمكم السديد يا صاحب الفخامة». لعلّه يرتعد خوفًا من رؤيته عائدًا إلى جمهورية الدومينيكان، حاشدًا أنصار الزعيم الذين ما زالوا أوفياء له، داخل الجيش وخارجه. يودّ بالاغير لو أنجز «بابا دوك» هذا العمل القذر، وقضى على أبيس غارسيا.

لدى مروره بأكاديمية بيتيونڤيل العسكرية، تذكَّر العمل الذي أنجزه هناك طوال العامَيْن الأخيرَيْن، والمحاضرات المدهشة التي كان يلقيها على الطلاَّب في الشؤون الأمنية، والحالات الخاصة التي كان يحكيها للضبَّاط وأفراد القوات المساعدة من خرّيجي السجون والمجرمين أرباب السوابق، أولئك الذين يُطلَق عليهم لقب «الغيلان». كان يتحدَّث ببطء، مستعينًا بالمُذكِّرات، فينقل المُترجِم الفوري حديثه إلى اللغة الكريولية. هل كان للأمر نفع يُرتجَى؟ على الأقل، كان الاهتمام يبدو على الضبَّاط وطلاَّب العسكرية وأفراد القوات المساعدة، الذين أمطروه بأسئلة كثيرة عن كيفية إرغام السجناء على الكلام. بالخوف، كما أوضح لهم ألف مرة. لا بدّ من زرع الخوف الشديد في نفوسهم. الخوف من إخصائهم. من حرقهم وهم على قيد الحياة. من فقئ عيونهم. من شقّ مُؤخِّراتهم

بالعصي أو بالقوارير. لا بد من إصابتهم بالهلع والرعب، كذلك الذي يشعر به الآن. حتى إنه حملهم على شراء كرسي كهربائي، يشبه ذلك الذي سبق أن نصَّبه في سجن كوارينتا بمدينة تروخيّو، كذلك الكرسي الذي يملكه الجنرال رامفيس في أكاديمية الطيران، مع فارق واحد: أن الكرسي الكهربائي الذي نُصِّب في أكاديمية پيتيونڤيل لم يعمل كما ينبغي قطّ. إذ تعذَّر التحكّم في شدة التيار الكهربائي، ولذا كان الكرسي يصعق السجناء فورًا، بدلاً من شيّهم رويدًا رويدًا لإرغامهم على الكلام. كلَّف كرسي الأكاديمية مبلغًا باهظًا. وعلى الرغم من ذلك، فهو ما إن يبدأ في العمل حتى يتفحَّم السجناء. ضحك على مضض، وتذكَّر كيف أضحك تلاميذه في تلك المرة عندما حكى لهم أنه، في مدينة تروخيّو، وبينما السجناء يصرخون أو يتوسَّلون إليه خلال التحقيقات، طالما شعر برغبة في تلاوة القصائد العاطفية للشاعر آمادو نيربو، أو الدندنة بأغاني المطرب أغوستين لارا.

كان تورّطه في التآمر هو والكولونيل ماكس دومينيك ضربًا من الجنون الأحمق، التعيس، الذي يُرجِّح أن يفضي به إلى الجلوس على الكرسي الكهربائي في أكاديمية پيتيونڤيل العسكرية، ذلك الكرسي الذي يصعق السجناء مع أول دفقة من التيار الكهربائي، بدلاً من نفضهم رويدًا رويدًا. كان الأمر برمّته خطأ فادحًا، بدءًا بقدومه إلى هايتي، ذلك البلد الهزلي، حيث ينتهي كل شيء نهاية مأساوية. لماذا لم يقتله «بابا دوك» حتى الآن مثلما أعدم الضبَّاط رميًا بالرصاص؟ ما صنوف التعذيب التي أعدّها من أجله؟ الأرجح أن «بابا دوك» فعل ما فعل بالاتفاق مع صديقه بالاغير.

دلف إلى بيته في پيتيونڤيل، وقد بلَّل العرق سرواله وقميصه وسترته وحتى ربطة عنقه. كانت سيتا جالسة مع الصغيرتَيْن في الصالة، حيث راحت تقرأ لهما قصة. رأته على تلك الحال، فامتقعَت، بينما هزّ أبيس غارسيا رأسه نافيًا.

ـ لم يستقبلني السفير، بل ذلك المُوظَّف التافه الذي استقبلني في المرة السابقة. ـ جاء صوته مرتجفًا، وإن خطر على باله أنه لو أجهش بالبكاء لاستحوذ الرعب على زوجته والصغيرتَيْن أيضًا. تمالك نفسه، باذلاً في سبيل ذلك جهدًا خارقًا. ثم أردف ببطء شديد، وقد خالجه شعور بأن صوته يشفّ عن مخاوفه ـ: لا ردّ من بالاغير على رسالتي. يجب علينا التقدّم بطلب اللجوء. سأتّصل بسفارة البرازيل الآن. أحضري دليل الهاتف، من فضلك.

وفيما ذهبَت سيتا تفتّش عن دليل الهاتف، ظلّت الصغيرتان جالستَيْن على الأريكة، في هدوء. كانت كلتاهما تشبه أمها، لا أباها. بدَت ثيابهما أنيقة، إذ ارتدَت كلٌّ منهما مئزرًا أزرق وانتعلَت حذاء أبيض. وفي جمود الصغيرتَيْن وجدّيتهما، تجلّى ما يشبه نذير الشؤم، علامةً على وقوع خطب جلل. من المُستحسَن عدم سؤال والدهما عما قد يحدث.

رأى أبيس غارسيا زوجته سيتا عائدة إلى الصالة، فلاحظ أنها لم تكُن ممسكة بدليل الهاتف. كاد ينتهرها، وإن استوقفه شحوب زوجته ونظرة الرعب البادية في عينَيْها. كانت فارعة القوام، قويته، غير أنها هزلَت كثيرًا في الأيام الأخيرة. رفعَت ذراعها وأشارت إلى النافذة. «ماذا يجري؟»، غمغم سائلاً وهو يخطو بضع خطوات نحو النافذة الكبيرة المُطِلَّة على البستان والشارع. كانت الشاحنات قد استقرَّت أمام الباب لتوّها. ثلاث شاحنات. والآن، اصطفَّت الرابعة بجوارها. أخذوا يترجّلون من مركباتهم قفزًا، وقد ارتدى كلٌّ منهم زيّ «الغيلان» المُكوَّن من الأوفرول والقميص والبيريه الأسود. أحصى ما لا يقلّ عن عشرين رجلاً، مُدجَّجين بالهراوات والسكاكين. كان على يقين من تسلّحهم بالمسدسات التي يعلّقونها من الأحزمة السود العريضة حول خصورهم، وإن لم يرَها بعينَيْه. اصطفّ الرجال أمام السياج، غير أنهم لم يدخلوا إلى البيت، بل راحوا يترقّبون الأوامر. «ها قد وصلوا»، دار في خلده. لم يدرِ ما العمل، ولا ما القول.

ـ ماذا تنتظر يا چوني؟ ـ صاحَت سيتا خلف ظهره. فالتفت ورأى زوجته تحتضن الصغيرتَيْن اللتين شرعتا في البكاء مُتشبِّثتَيْن بأمهما ـ افعل شيئًا، افعل شيئًا يا چوني.

«مسدسي!»، دار في خلده، وإذا به يهرول إلى حجرة النوم حتى يُخرِج المسدس من جارور الصوان المُقفَل بالمفتاح، هناك حيث كان يحتفظ به. سوف يقتل سيتا، والصغيرتَيْن، ثم يقتل نفسه.

وفي حجرة النوم، ألقى نظرة عَبْر النافذة، فوجد «الغيلان» ما زالوا هناك (كم منهم درس على يده في أكاديمية پيتيونڤيل العسكرية؟). اصطفّوا أمام السياج والباب المُؤدِّي إلى البستان. لماذا لا يقتحمون المكان مرة وإلى الأبد؟ أجل، ها هم يشرعون في الاقتحام الآن. كان واحد منهم قد أطاح بالباب الخشبي الصغير بركلة من قدمه، وإذا بالرجال يداهمون البستان باندفاع، ويمضون فصيلاً واحدًا صوب قنّ الدجاج، غير مبالين بنباح الكلبَيْن اللذين خرجا للقائهم. أما أبيس غارسيا، الذي أمسك بمسدسه، فبين مُصدِّق ومُكذِّب رأى «الغيلان» يجتاحون البستان ويدهسون الأزهار والأرض المزروعة بأقدامهم، ويصفّون الكلبَيْن ضربًا بالهراوات وطعنًا بالسكاكين، ويمثِّلون بالجثتَيْن ركلاً ودهسًا.

هرول مُتَّجهًا إلى الصالة. ولمَّا دلف إليها، رأى خادمات البيت الثلاث هناك أيضًا، متعانقات، مُحدِّقات إلى النافذة الكبيرة بعيون مُتَّسعة. أما سيتا، فلم تحاول تهدئة الصغيرتَيْن اللتين تشبَّثتا بها صارختَيْن، لأنها راحت تنظر إلى ما يجري في البستان كالمُنوَّمة بالإيحاء. وبعد أن صفَّى الغزاةُ الكلبَيْن، طفقوا يقتلون الدجاجات، فحلَّق الريش في الهواء، وتعالَت قوقأة الدجاجات وصيحات المهاجمين وصرخاتهم حتى صارت تصمّ الآذان.

ـ لقد قتلوا الكلبَيْن والدجاجات. ـ سمع سيتا تقول ـ والآن حان دورنا.

شرعَت الخادمات الثلاث يبتهلن وينتحبن في آن، وقد جثَت كلٌّ منهن على ركبتَيْها. بدَت المذبحة بلا نهاية، والصيحات أيضًا. عبثًا، أمر أبيس غارسيا الخادمات الثلاث بأن يوصدن الباب بالمفتاح، فلم يسمعن صوته، أو لم يعُد لديهن من القوة ما يكفي لطاعة أوامره.

رأى باب البيت يتداعَى، ورأى أولى الوجوه السود والعيون الزجاجية تطلّ عليهم. («إنهم واقعون تحت تأثير المُخدِّرات»، وجد الوقت الكافي حتى يقول لنفسه)، وعند ذاك أشهر مسدسه وأطلق النار. ولكن بدلاً من دويّ الرصاصة، سمع دقة مكتومة آتية من الإبرة التي قرعَت الخزانة الخاوية. نسي تعبئة المسدس بالرصاص، ولسوف يموت وهو لم يدافع حتى عن نفسه، ولم يقتل واحدًا من أولئك السود المُنفِّرين، الذين لم ينقضّوا على أبيس غارسيا ولا سيتا ولا الصغيرتَيْن، وإنما انهالوا على الخادمات ضربًا بالهراوات وطعنًا بالسكاكين، كمن ينفِّذ أوامر في غاية الدقة، وطفقوا يصرخون بكلمات عصية على الفهم، يُرجَّح أن تكون شتائم ولعنات. أما هو، فاحتضن سيتا والصغيرتَيْن اللتين دفنتا رأسَيْهما في صدره، وهما ترتجفان، في حين لم يعُد لديهما من القوة ما يكفي للبكاء.

طفق «الغيلان» يتقافزون فوق جثامين الخادمات الثلاث، أو ما تبقَّى منها، وكأنهم يرقصون. وجد أبيس غارسيا مُتَّسعًا من الوقت ليرى الدماء تُلطِّخ أيديهم، ووجوههم، وثيابهم، وهراواتهم، فبدا الأمر برمّته طقسًا، حفلاً همجيًا بدائيًا، أكثر من كونه مذبحة. لم يُخيَّل إليه قطّ، حتى في أبشع كوابيسه، أن تلك هي الميتة التي سوف يلقاها، ذبيحًا، بيد عصابة مخبولة من السود الذين آثروا استخدام الهراوات والسكاكين على الرغم من حيازتهم المسدسات، كما في الأزمنة الغابرة، أزمنة الكهوف والأدغال، في ما قبل التاريخ.

لم يرَ چوني أبيس غارسيا نهاية كل شيء، ولا رأته سيتا، ولا الصغيرتان. بل رأته شاهدة، هي جارتهم المُبشِّرة الإنجيلية دوروثي ساندرز، التي لم تجمعهم بها سوى إيماءات التحية، مع أنهم عاشوا في الشارع نفسه. في وقت لاحق، وبينما هي لا تزال مُستمِرّة في تناول مُهدِّئات الأعصاب، بعد أن استقرَّت على العودة إلى الولايات المتحدة بأسرع ما يمكن، والتخلِّي عن مهمتها التبشيرية، حكَت عن أولئك السود أنهم، بعد ارتكاب تلك المذبحة المُروِّعة، عمدوا إلى سكب عبوات الكيروسين في أرجاء البيت وإضرام النيران. رأت ذلك البيت يتلاشى وسط ركام الرماد، ورأت القتلة ومُشعِلي الحريق يستقلّون شاحناتهم ويرحلون، وقد اقتنعوا بأنهم نفَّذوا المهمة بمنتهى الإتقان، بكل تأكيد.

مكتبة
t.me/t_pdf

ما بعد

تعيش بين واشنطن العاصمة وفيرجينيا، في موقع لا يبعد كثيرًا عن لانغلي، حيث مقرّ السي آي إيه الرئيسي ـ الأمر الذي قد لا يعدو أن يكون مصادفة ـ في منطقة سكنية يُلزَم الداخل إليها بالكشف عن هويته أمام بوابة مُسيَّجة. الأشجار السامقة في كل مكان، والموقع يبدو واحة هدوء، ولا سيما في هذا اليوم الربيعي، بسمائه الرائقة وشمسه الناعمة التي تُذهِّب الأوراق وتلوِّن أزهار الحي. تُغرِّد الطيور الصغيرة الخفية في كل مكان. أما الطيور الضخمة التي تشقّ السماء الزرقاء بين الحين والآخر، فربما كانت نوارس آتية من الساحل. البيوت فسيحة، لها حدائق واسعة، ومواقف تشغلها سيارات فاخرة. وفي مزرعة ملحق بها عدد من الإصطبلات، شابةٌ أمازونية تمتطي صهوة حصان قزم، وخصلاتها الطليقة تتأرجح في الهواء. ولكن بيت مارتا بورّيرو پارًا صغير، زد على ذلك أنه أكثر البيوت التي رأيتُها في حياتي أصالةً وغرابة. من الخارج والداخل، يعكس البيتُ شخصيةَ المالكة وذائقتها كالمرآة. على مدى شهور، اضطُرّ اثنان من أصدقائي إلى خوض المناورات الجدلية بكل صنوفها لترتيب هذا اللقاء، وهما: سوليداد ألباريس، الصديقة الدومينيكانية القديمة والشاعرة البارعة؛ وتوني رافول، الشاعر والصحافي والمُؤرِّخ الدومينيكاني. نبَّهني كلاهما أنني سوف أتلقَّى أكثر من مفاجأة هذا المساء. سبق لتوني أن كان هنا، وهو الصديق المُقرَّب لمارتا،

الغواتيمالية المغتربة، لو أنها عرفَت صديقًا بحق في يوم من الأيام. من الخارج، كانت جوانب البيت الأربعة مُزيَّنة بكل صنوف النباتات والأعشاب والنباتات المُتسلِّقة، التي لا بد أنها كانت مصنوعة من البلاستيك أيضًا، شأنها في ذلك شأن الأزهار التي اكتظّ بها البيت من الداخل حتى صار غابةً لا يُسبَر لها غور. وسط النباتات الصناعية، استقرَّت حيوانات صغيرة من الورق المُقوَّى والخشب والقطيفة، تتسلَّق الجدران المطلية باللون القرمزي والسقف الذي تكسوه البلاطات اللامعة. أضف إلى ذلك عددًا كبيرًا من نباتات الجهنمية والخبازة وشجيرات الورود، التي بدَت حقيقية، على عكس باقي النباتات.

لا أكاد أدلف إلى البيت حتى أشعر بالحيرة من الصخب العارم الذي تحدثه الطيور في أقفاصها، تلك التي سوف تحيي بأصواتها حديثنا الذي استمرَّ ما لا يقلّ عن ساعتَيْن، وجمعني بـ«ميس غواتيمالا» القديمة (التي لم تكُن «ميس غواتيمالا» قطّ). أعترف بأن شيئًا من التوتّر يعتريني. أمضيتُ عامَيْن وأنا أتخيَّل هذه المرأة، وأبتكرها، وأنسب إليها المغامرات بكل صنوفها، وأطمس هويتها لئلاَّ يتعرَّف عليها أحد ـ ولا حتى هي نفسها ـ في القصة التي أضعها من نسج الخيال. توقَّعتُ أمورًا كثيرة، لم يكُن من بينها عشّ الطيور العملاق الصاخب هذا، بما حوى من الكناري الإفريقي وحمام الورشان والببغاوات والكوكاتو والمكاو وغيرها من أنواع الطيور الكثيرة التي لا أملك تمييزها. خيَّم على المكان ما يشبه «الخوف من الفراغ»[1]، فاكتظَّ المكان بالكامل، ولم يبقَ فيه موضع واحد شاغر. في بيت مارتا، لا يتحرَّك المرء إلاَّ وأطاح بأحد الأغراض التي تُقدَّر بالعشرات أو المئات، بما فيها أصص النباتات

(١) «الخوف من الفراغ»: مصطلح تاريخي يُستخدَم في وصف الأعمال الفنية والمعمارية التي تزدحم بالزينة والنقوش وتخلو من الفراغات. (المترجم)

الكبيرة والصغيرة المتراكمة في كل مكان، فضلاً عن التماثيل النصفية والتماثيل الدينية ـ التي تجسِّد بوذا والمسيح والعذراء والقديسين ـ تليها المومياوات والتوابيت المصرية والصور واللوحات وآيات تكريم الطغاة اللاتينيين من أمثال الجنرال الأعلى تروخيّو أو كارلوس كاستيّو أرماس، الذي كان هو «حبّ حياتها»، كما اعترفَت لي بعد لحظات، وأفردَت له جدارًا كاملاً، حيث علَّقَت صورته بحجم عملاق، وبجوارها مشكاة تُضاء في الليل والنهار تكريمًا له، لا بدّ أنها كانت من البلاستيك هي الأخرى، شأن ذلك الكم المهول من الأزهار ـ الورد والسوسن والقرنفل والميموزا والأوركيد والخزامى والغرنوقي ـ والألعاب وتذكارات الأمكنة التي سافرَت إليها مارتا بورّيرو پارا ذات مرة، ووضعَت قدمَيْها على أرضها. وبالحكم على ما أرى، فلا بدّ أنها سافرَت حول العالم عدة مرات.

أما الحديث الذي دار بيننا، فيشبه ذلك البيت المدهش بعض الشيء: ذلك أنه فوضوي، أصيل، مُحيِّر، مفاجئ. طبقًا لما ورد في جميع الشهادات التي اقتفيتُ أثرها في الكتب والصحف وسِيَر الأشخاص الذين عرفوها في مراحل شتّى من حياتها المفعمة بالمغامرات، كانت امرأة رائعة الجمال، لا يهدأ لها بال، بنظرات عينَيْها الخضراوَيْن المائلتَيْن إلى اللون الرمادي، التي يبدو وكأنها تنفذ من خلال مُحدِّثيها وتتركهم حائرين، مُشوَّشين. لا بد أن عمرها الآن يربو على الثمانين ـ غير أني لا أرتكب تلك الفعلة الطائشة المُتمثِّلة في سؤالها عن عمرها ـ ولا بد أن الزمن قد ترك جسدها منكمشًا محنيًّا بعض الشيء. ولكن، برغم سنين عمرها الطوال، ما زال فيها أمرٌ يشي بأمجادها الغابرة، والإغراء الذي مارسَته، والأساطير التي أثارتها، والرجال الذين عشقوها وعشقَتهم. تستقبلني وقد ارتدَت كيمونو أسود تكثر فيه الثنايا والمنحنيات، وتزيَّنَت بعناية بالغة، تستقبلني بقرطها وعقودها وأهدابها

الطويلة جدًّا وأظفار يدَيْها المطلية باللون الأخضر الخليق بالغابات. تنتعل صندلاً يلفت الأنظار، من القطيفة الخضراء كالليمون. لا بد أنها خضعَت لعدة عمليات تجميل، فلها وجه في غاية الصفاء. ما زال يتجلّى الاختيال والغموض في هاتين العينَيْن اللتين كان لهما شديد الأثر في نفوس من عرفوها في الماضي، ولا سيما الرجال منهم.

لا نكاد نجلس في رقعة جرداء من تلك الغابة المتشابكة حتى تقول إنها تعرف «الكراهية التي أشعر بها نحو بذور الفاكهة» (فأصابت عين الحقيقة بقولها) وتعرف أن أغنيتي الأثيرة منذ الطفولة هي «روح وقلب وحياة»، ذلك الفالس البيرواني الذي كان رائجًا لمَّا وصلتُ إلى پيورا عام ١٩٤٦، وأنا في العاشرة من العمر، وهناك استمعتُ إليه لأول مرة بصوت حارس مدني كان يعتني بمقرّ المحافظة حيث نزلنا (إذ كان جدّي يشغل منصب المحافظ). أسألها كيف تعرف تلك التفاصيل الشخصية الدقيقة جدًّا عن حياتي، فتبتسم وتجيبني باقتضاب قائلة: «أملك قدرات خاصة»، كما كانت ستقول سيمولا في روايتي. صوتها دافئ، مُتروٍّ، تلوح فيه نبرة أمريكا الوسطى، نبرة لم يتمكّن من طمسها الزمن ولا المنفى ولا الأسفار. ولكن أكثر ما يجذب انتباهي عينَيْها اللتين يتراوح لونهما بين الرمادي والأخضر، ونظرتها الحادة الجريئة الثاقبة.

ومن دون أن تبدِّل نبرتها تقريبًا، تقول إنها تزوَّجَت عشرة رجال، ودفنَتهم جميعًا. تتحدَّث بنعومة، وفي غير تبجّح، حديثًا يتخلَّله السكوت، والإيقاع، والموسيقى، بحثًا عن الكلمات الملائمة. تردف بقولها إن طبيبًا شيوعيًا من غواتيمالا قد اغتصبها وهي لا تزال طفلة، وإنها منذ ذلك الحين صارَت تعادي الشيوعية بحماسة وشغف. الأمر الذي أعرفه بالفعل. وعلى الرغم من ذلك، يفاجئني قولها إن حبّ حياتها هو الكولونيل الغواتيمالي، رئيس الجمهورية كارلوس كاستيّو أرماس، ذلك «الفارس النبيل المرهف» الذي سعى إلى الطلاق من زوجته،

أوديليا پالومو، حتى يتزوَّج منها هي، فلم يتهيَّأ له ذلك، «إذ اغتيل قبل أن يتمَّ له الأمر، ولعلّه اغتيل بهدف الحيلولة دون ذلك على وجه التحديد».

تتكلَّم ببطء، وتنطق بكل مقطع من كلماتها وهي لا تترقَّب جوابًا أو تعقيبًا على ما تقول. وفي بعض الأحيان، تترك لديَّ انطباعًا بأنها قد نسيت وجودي هناك.

تتحدَّث مارتيتا بحذر شديد ومراوغة عن علاقتها بالكولونيل الدومينيكاني چوني أبيس غارسيا، مدير الأمن في عهد الجنرال الأعلى تروخيّو، ذلك القاتل المُعذِّب المُكلَّف بتنفيذ عدد من الاغتيالات والجرائم في الخارج، من بينها محاولة اغتيال الرئيس رومولو بيتانكورت في كاراكاس، تلك المحاولة التي باءت بالفشل، واغتيال كاستيّو أرماس في غواتيمالا، الذي تكلَّل بنجاح مشهود، طبقًا لما رواه توني رافول. تقول عن أبيس غارسيا إنه «فارس نبيل آخر»، حسن الخلق، كان يبلغ من اللطف درجة تحدو به إلى المبادرة بتقطيع شرائح اللحم إلى قطع صغيرة من أجلها وهما يتناولان الطعام معًا. كان يحبّ أمه حب العبادة، ويحتفظ بصورتها في الحافظة. ذات ليلة، أصيبَت خلالها بالحمى، رأته مارتا جاثيًا على ركبتَيْه قرب الفراش، يُمسِّد قدمَيْها. لطالما كان من السمات المُحبَّبة في الإنسان أن يشعر الابن تجاه أمه بهذا الحب الجارف، أليس كذلك؟ كان مهووسًا بعدد من الأمور، مثله كمثل الجميع، أولها البحث عن أتباع الصليب الوردي في جميع أنحاء العالم، أولئك الذين كان سيجد منهم عددًا يكفي ويفيض هنا، لأنهم يكثرون في هذا البلد. كان أبيس غارسيا مُتيَّمًا بها، يغمرها بالعناية والهدايا في كل الأوقات، في غواتيمالا أولاً، حين تعرَّف أحدهما بالآخر، ثم في تلك المدينة التي كانت تُدعَى مدينة تروخيّو آنذاك، حيث أمضَت بضع سنوات من شبابها، واشتغلَت بالصحافة السياسية. وهناك، درج أبيس

غارسيا على اصطحابها إلى الكازينوهات. وفي واحدة من تلك المرات، أهداها ثلاثمئة دولار كي تراهن على الروليت، وتوسَّل إليها كي تحتفظ بالمكسب. غير أنها لم تلقِ إليه بالاً ولم تشاركه الفراش قطّ، حسبما أكَّدَت لي.

ولكني أذكِّرها بالشائعات الكثيرة الزاعمة بأنها قد أنجبَت من ذلك السفاح التابع لتروخيّو ابنًا، تعرَّف بعض الناس به شخصيًا، قبل أن يموت وهو في مقتبل العمر بجمهورية الدومينيكان، على نحو ما زعموا. عند ذاك تجيبني بلا أدنى اكتراث قائلةً: «خيالات مجنونة اختلقها الناس، ليس لها أدنى أساس من الصحة».

حتى في حديثها عن تلك الأمور المُوثَّقة باستفاضة في التقارير الصحافية وكتب التاريخ لا تتكلَّم بوضوح: كيف هرَّبها أبيس غارسيا من غواتيمالا ليلة اغتيال كاستيّو أرماس، في السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٧، بينما كان يلاحقها أصدقاء الرئيس ورفاقه من أنصار التحرير، ولا سيما المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا، الذي يُعَدّ واحدًا من أولئك الذين يُرجَّح ضلوعهم في عملية الاغتيال، والذين اتَّهموها بالتورّط في اغتيال الزعيم (في سعي منهم إلى صرف الأنظار عن المجرم)؟

ـ أشياء وقعَت وذرتها الريح والذاكرة... ـ تقول بلا تأثّر، وتهزّ كتفَيْها باسمةً، ثم تخلص إلى النتيجة الآتية متظاهرة باللامبالاة ـ: لماذا نبعثها من الموت؟

ترسم على وجهها واحدة من تلك الابتسامات الطويلة المفعمة بالغموض التي لا شكّ أنها كانت من أسلحتها الأشدّ فتكًا في عهد الشباب.

ـ هل حقًا أن رجل السلاح الكوبي الذي يُدعَى كارلوس غاسيل

كاسترو خرج بكِ من البلد ليلة اغتيال الرئيس، وأقلّكِ بالسيارة من مدينة غواتيمالا إلى سان سالفادور؟ ـ أسألها ـ وأن أبيس غارسيا حملكِ من سان سالفادور إلى جمهورية الدومينيكان على متن طائرة خاصة في اليوم التالي؟ جميع كتب التاريخ تُؤكِّد على ذلك. هل حقًّا ما ذكرتُ أم أنها خيالات مجنونها اختلقها الناس أيضًا؟

ـ هل بلغتُ من الشهرة حدّ الظهور في كتب التاريخ حقًّا؟ ـ تبتسم ساخرة. ثم تعاود هزّ كتفَيْها، برشاقة ودلال ـ من المُرجَّح أن كل هذا ينطوي على شيء من الحقيقة. لا تنسَ أنني عجوز، لا يسعني تذكّر كل ما عشت. إننا، نحن العجزة، نعاني فقدان الذاكرة وننسى الأشياء.

عند ذاك تطلق قهقهة صغيرة، تفنِّد ما تفوَّهَت به، وتضع يدها على فمها.

تبدو في كامل الصحة والحيوية على الرغم من سنوات عمرها. ومع ذلك، تتحرَّك بشيء من الصعوبة، مُتوكِّئة على العكاز. يتولَّد لديَّ انطباع بأن التخوم الفاصلة بين الواقع والخيال في رأسها تذوب في غير وعي منها حينًا، وبأنها تتعمَّد ذلك الخلط بحكمة حينًا. أضف إلى ذلك أنها تعرف أكثر كثيرًا مما تقول، ومما تهذي به ـ عن عمد ـ في بعض الأحيان. مثلما كان عندما أخبرَتني بأنها تؤمن بوجود الكائنات الفضائية وتؤكِّد حيازتها براهين على وجودها، وإن لم تُدلِ بالمزيد من التفاصيل الدقيقة لئلاَّ أحسبها مجنونة، طبقًا لما «يدَّعي الكثيرون في تلك الأنحاء»، كما أردفَت بابتسامة شقية تشفّ عن أسنان مثالية.

وأخيرًا، أتجرَّأ وأدخل إلى صلب الموضوع الرئيسي الذي جاء بي إلى هنا، ولم يزعم به سواها في التصريحات والمقالات الصحافية واللقاءات، وفي سيرتها الذاتية الفوضوية المتاحة على الإنترنت، تلك التي تحدِّثها كل يوم:

- تزعمين بعدم صحة الخبر القائل بأن أبيس غارسيا قد اغتيل في هايتي، مع سيتا، زوجته الثانية، وابنتَيْهما الصغيرتَيْن، على أيدي «غيلان» «بابا دوك»، الذين قتلوا الخادمات والكلبَيْن والدجاجات أيضًا، ثم أضرموا النيران في البيت. في حين أكَّد الرئيس بالاغير تلك الواقعة في سيرته الذاتية («مُذكِّرات رجل بلاط في عهد تروخيّو»)، كما أكَّدَته لرجال الشرطة مُبشِّرةٌ إنجيلية أمريكية، هي السيدة دوروثي ساندرز، التي كانت جارة آل أبيس غارسيا في پيتيونڤيل، وشهدَت تلك الواقعة.

الآن تنصت إليَّ مارتيتا في غاية الجدية. تفكِّر لحظة. وأخيرًا، تقول بتلك الطريقة المُتروِّية، وذلك الهدوء الذي لا يكدِّر صفوه شيء:

- إنها قصة اختلقَتها السي آي إيه لحماية چوني أبيس من الملاحقة وإحضاره إلى الولايات المُتَّحدة من دون الإفصاح عن هويته. لم أنطق بغير الحق. هنا عاش چوني أبيس باسم مستعار، بعد أن خضع لعملية تجميل بدَّلَت ملامح وجهه، وإن ظلَّ صوته كما هو. وما زال يعيش هنا حتى اليوم.

- لو كان أبيس غارسيا على قيد الحياة لتجاوز الثمانين. - أقاطعها - أو ربما صار على مشارف التسعين.

- أوه، فعلًا؟ - تفاجأ - ظننتُه أكبر عمرًا ببضعة أعوام.

- من أين جئتِ بمثل هذه القصة يا سيدة مارتا؟ - ألحُّ في السؤال - هل رأيتِ أبيس غارسيا شخصيًّا ذات مرة هنا، في الولايات المتحدة؟

عند ذاك أيضًا لا يبدو عليها الاكتراث. تتفحَّصني من فوق إلى تحت، وكأنها تتساءل عما إذا كانت محاولة إقناعي تستحقّ إهدار وقتها.. إقناعي بشيء لا يصدِّقه أحد ولكنه حقيقة جلية كالشمس، كما تعرف هي.

تتنهَّد، وبعد سكوت طويل، بدا خلاله وكأن تغريد الطيور وصخبها يتعالى، تستطرد:

ـ رأيتُه مرة واحدة، منذ أعوام غير قليلة. ولكننا كثيرًا ما نتحدَّث عَبْر الهاتف. هو الذي يتَّصل بي دائمًا، من الهواتف العمومية، طبعًا. أما أنا، فلا أعرف له رقم هاتف ولا محل سكن. نيويورك، كاليفورنيا، تكساس، من يدري! يحسن العناية بنفسه، طبعًا. عندما كان يشتغل بالسياسة، ناصبه العداء كثيرون، كما تعرف تمام المعرفة. أما الآن، فالصحافيون هم شرّ أعدائه، ولا سيما أولئك الذين يعملون لدى الصحف الصفراء، ويعيشون على الفضائح.

ذات ليلة من ليالي الشتاء، منذ أعوام طوال، سمعَت طرقًا على باب بيتها، البيت الذي نحن فيه الآن. بارتياب، ذهبَت لتفتح الباب، فوجدَت في الشارع رجلاً يتخفَّى بمعطف فضفاض ووشاح يتدلَّى حتى يبلغ قدمَيْه. ولكنها ما لبثَت أن تعرَّفت بصوته حين سمعَته يقول: «ألم تتعرَّفي بي يا مارتيتا؟». استحوذَت عليها الحيرة والمفاجأة، بطبيعة الحال، وبعد ذلك سمحَت له بالدخول إلى الصالة نفسها، حيث كان عدد الطيور أقلّ حينذاك. تجاذبا أطراف الحديث حتى مطلع الفجر، طوال ساعات تناولا خلالها فناجين الشاي واسترجعا مغامرات الماضي. اعترف لها بأنها الوحيدة التي أخبرها بأنه ما زال على قيد الحياة، دونًا عن معارفه القدامى.

تسكت عن الكلام طويلاً، ثم تتلو بيتًا من الشعر باللغة الإنجليزية، من قصيدة للشاعر ستيڤن سپندر: «ورحل عند الفجر، وحيدًا، كما يرحل الأبطال»، فتتملَّكني مفاجأة شديدة لسماع ذلك البيت من فمها (ما كنت أتصوَّر قطّ أنها تقرأ شعرًا جيدًا من هذا القبيل). قبل رحيله، طلب منها أن تصون السر. وقد فعلَت، على مدى أعوام طوال. أما الآن، فما عاد الأمر يستحقّ عناء كل هذا الحذر، لأن جميع الجرائم المحتملة التي تُنسَب إليه قد سقطَت بالتقادم، ومعظم أعدائه قد فارقوا الحياة ودُفِنَت جثامينهم. أما زال هناك من يذكر أبيس غارسيا؟ «يبدو أنك أنت الوحيد الذي يذكره يا سيد ماريو».

لم تعاود لقاءه، ولكنها مُتأكِّدة أنه ما زال على قيد الحياة، وأنه سوف يتَّصل بها مرة أخرى في أي لحظة. أو لعلّه يظهر ذات ليلة، فيقرع باب بيتها، كما في المرة السابقة. سوف تخبره مارتيتا بشأن الحديث الذي دار بيني وبينها، وتقول له إنني أكتب رواية حافلة بالأكاذيب والقصص المُختلَقة عن حياته وحياتها. تراني أزوِّجهما في الختام، كما يحدث في القصص الرومانسية؟ تضحك طويلاً، احتفاءً بدعابتها، في مزاج رائق جدًّا، وتنشب فيَّ نظراتها الخضراء المائلة إلى اللون الرمادي.

تعيش مارتا بورّيرو پارّا مع مُدبِّرة منزل بيروانية، من أوانكايو، امرأة ساكنة البال، كتوم، تقدِّم لنا المياه الغازية ثم تختفي عن الأنظار. لا تعاود الدخول إلى المكان سوى لتقدِّم بعض الأدوية وجرعة ماء إلى مارتا، أو عندما تستدعيها مالكة البيت كي تطلب منها شيئًا. لا تبدو موظفة منزلية في واقع الأمر، وإنما سكرتيرة، ورفيقة سفر، وصديقة مُقرَّبة.

سرعان ما تنسى مارتا أمر السياسة، بمظهر ينمّ عن الحنين، وتقول إنها تعيش الآن في غاية الهدوء، محاطة بتذكارات مغامراتها في العالم الرحيب (وترفرف بيدها مشيرةً إلى الأزهار والأغراض من حولها). أكتم السؤال الذي يتبادر إلى شفتَيْ: «أما زلتِ تعملين لصالح السي آي إيه؟».

على الرغم من «الرحلات القصيرة التي تقطعها بين الحين والآخر»، فهي ما عادَت تسافر إلاَّ في ما ندر، لأسباب جلية. ولكنها ما زالت تجوب العالم كل ليلة، ما لا يقلّ عن ساعة واحدة قبل أن تأوي إلى الفراش، بفضل التلفزيون وبرامج الرحلات. بعض هذه الأفلام الوثائقية مذهل. ليلة البارحة شاهدَت فيلمًا وثائقيًّا عن مملكة بوتان، تلك المملكة الخالية إلاَّ من الجبال، التي يحكمها ملكٌ بدين جامدٌ، في منزلة الطوطم الحيّ. كثيرًا ما تذكر غواتيمالا، مسقط رأسها، بما حوَت من الغابات

والبراكين، وثياب السكان الأصليين مُتعدِّدة الألوان، وأسواق القرى التي تُقام أيام السبت، مع أنها لم تطأ بقدمَيْها أرض هذا البلد منذ ما يربو على النصف قرن. وعلى الرغم من ذلك، تتحسَّر لأنها لم ترَ في حياتها الكيتسال حيًّا، مُحلِّقًا، ذلك الطائر الضئيل الذي يرمز إلى بلدها، في الرسوم والصور وحسب. في آخر زيارة لها إلى هناك، خلال إحدى الحملات الانتخابية، غمرها الحزن بسبب الحال التي آلَت إليها غواتيمالا المسكينة، التي أضرم فيها الشيوعيون النار، حيث تربَّصَت جماعات حرب العصابات في الجبال، وزرع الإرهابيون القنابل في المدن، وعاثوا في الشرفاء قتلاً وخطفًا. من حسن الحظ أن الجيش ما زال هناك، ثابتًا، يتصدَّى لهم. ماذا يكون من أمر أمريكا اللاتينية المسكينة لولا الجيوش! لهذا تُكرِّم الجيوش على مُدوَّنتها كل يوم. لولا أولئك الجنود الأشاوس الذين يتلقَّون رواتب هزيلة جدًّا، ويفتري عليهم الحُمْر أشدّ افتراء، لسارَت القارة بأسرها على خطى كوبا. «كلّما فكَّرتُ فيهم، طفرَت الدموع من عينَي»، تقول هامسة. وتمسح وجهها بالمنديل في لفتة مسرحية.

تجلس بجوار صورة ضخمة، تظهر فيها وهي تعانق ثلاثة من آل بوش، من ثلاثة أجيال، شغل الأول والثاني منصبَ رئيس الولايات المتحدة في ما مضى، وثالثهما حاكم فلوريدا السابق چيب. تقول لي إنها كانت عضوة ناشطة في الحزب الجمهوري، الذي انضمَّت إليه مثلما انضمَّت إلى حزب المغتربين الكوبيين الأرثوذكسي، وما زالت تعمل لحساب الجمهوريين في أوساط الناخبين اللاتينيين، كلما أقيمَت حملة انتخابية في الولايات المتحدة، وطنها الثاني، الذي تحبّه بقدر ما تحبّ غواتيمالا. وهي الآن في غاية السعادة، ليس لمُجرَّد أن دونالد ترامب في البيت الأبيض، يؤدِّي مهمته كما ينبغي، بل وكذلك لأن حكومة بكين قد اعترفَت أخيرًا بسندات مالية صينية تملكها ـ وإن لم أفهم بوضوح إن

كانت قد اشترَتها أم ورثَتها ـ ولذا فهي قريبًا تغدو مليونيرة، لو سار كل شيء على ما يُرام، الأمر الذي لن تستفيد به كثيرًا مع الأخذ في الاعتبار سنوات عمرها والأمراض التي أصابتها، غير أنها سوف توصي بتلك النقود لصندوق يخدم المنظمات المناهضة للشيوعية في جميع أنحاء العالَم.

لا شكّ أن الكثير مما قال توني رافول عنها حقيقة، وهو الذي عرفها جيدًا وتحرَّى عن ماضيها. ولا شكّ أنها، منذ حداثة السنّ، كانت امرأة يجدر بالمرء توخي الحذر منها، جريئة، شجاعة، مجازفة، قادرة على مواجهة أي شخص، وأي مكروه. إنها سيدة منحَتها الحياةُ قوةً، لا تخشى شيئًا، نجَت من أمور مُروِّعة. في الصفحات الأولى من الكتاب الذي وضعه بعنوان «أنشودة الجريمة. تروخيّو في مواجهة كاستيّو أرماس» (الصادر في سانتو دومينغو، عن دار غريخالبو، عام ٢٠١٧)، يحكي توني رافول كيف استدعاها إلى مكتبه رئيس جمهورية الدومينيكان الصوري آنذاك، إكتور بيينبينيدو تروخيّو (شقيق الجنرال الأعلى الذي اشتهر بلقب «النغيرو»)، في مدينة تروخيّو، التي لجأت إليها مارتا بفضل چوني أبيس، وكيف حاول رشوتها كي تشاركه الفراش، فقدَّم لها شيكًا مُذيَّلاً بتوقيعه وقال: «اكتبي المبلغ الذي تريدين»، فلم يُخيَّل إليه أن الغواتيمالية سوف تنقضّ عليه، في غضب عارم، وتصيح فيه بقولها: «أنا لستُ عاهرة!»، وتخدشه، وتكاد تنتزع أذنه عضًا، حتى جاء الحراس ليبعدوا عنه تلك النمرة المُتوحِّشة.

أسألها عما إذا كانت تلك القصة صحيحة. فتومئ برأسها جذلاً وكأنها تلميذة في المدرسة، ثم تهمس مستغرقة في الضحك:

ـ ما زال مذاق تلك الأذن التي عضضتُها مثل الكلب البولدوغ عالقًا في فمي. من المعجزات أنني لم أنتزعها من موضعها!

ومع ذلك، تتملَّص مني عند سؤالها عن الطريقة التي اتَّبعَتها السي آي إيه لإخراجها من مدينة تروخيّو قبل أن يقتلها «النغيرو» أو حتى رافاييل ليونيداس تروخيّو، شقيقه المُبجَّل:

ـ ما عدتُ أذكر كيف. كم مرَّ على تلك الأحداث!

تبدِّل دفة الحديث قائلةً إنها كانت «امرأة في غاية الجاذبية آنذاك. وإن لم تصدِّقني، فألقِ نظرة على هذه الجدران».

تشير إلى صور في غاية الضخامة، حيث تبدو شابة جميلة بحق، تعتمر عمائم استوائية الألوان، أو تخطر بشعر مُتموِّج ينساب على كتفَيْها العاريتَيْن.

لا أدري كيف يتطوَّر الحديث فجأة حتى يصل إلى خاكوبو أربينس، «ذلك الشخص الذي كرهتُه بكل ما أوتيتُ من قوة في شبابي»، حسبما تعترف لي. ولكنه بات يستحقّ الشفقة، «الآن وقد مات ودُفِن»، تردف مُتنهِّدة.

ـ لا بدّ أن سنوات المنفى كانت شاقة عليه وعلى أسرته. ـ تتنهَّد مُجدَّدًا ـ فهو أينما ذهب، لامه اليسار والشيوعيّون لأنه كان جبانًا، تنحَّى بدلاً من خوض المعركة، وسافر إلى الخارج. بل إن فيديل كاسترو تلذَّذ بإهانته شخصيًا في واحد من خطاباته، لأنه لم يقاوم كاستيّو أرماس، ولم يذهب إلى الجبل حتى يشكِّل جماعة من جماعات حرب العصابات. أي لأنه لم يضحِّي بحياته.

ـ إذن، هل فهمتِ الآن أن أربينس لم يكُن شيوعيًا قطّ؟ ـ أسألها ـ بل إنه كان ديمقراطيًا، على سذاجته المُحتملة. كان يودّ لو جعل من غواتيمالا بلدًا حديثًا، ديمقراطية رأسمالية. وبرغم انضمامه إلى الحزب العمالي الغواتيمالي في الغربة، لم يكُن شيوعيًا بحقّ في أي وقت.

ـ كان غريرًا، أجل، ولكن الحُمْر تلاعبوا به على هواهم. ـ تصوِّب

ما قلتُ لها ـ أشعر بالأسى له ولأسرته بسبب ما تعرَّضوا له على مدى أعوام الغربة وحسب، إذ راحوا يتنقَّلون من موضع إلى آخر، عاجزين عن مدّ جذور في أي مكان: المكسيك، تشيكوسلوفاكيا، روسيا، الصين، أوروغواي. تعرَّض للإساءة في كل مكان، بل ويبدو أنه تضوَّر جوعًا أيضًا. أضف إلى ذلك المآسي العائلية التي عاشها. فابنته أرابيلا، التي كانت رائعة الجمال بشهادة كل من عرفوها، وقعَت في غرام خايمي برابو، مصارع الثيران شديد الضحالة، الذي كان يخونها، فانتهَت بها الحال وقد أطلقَت على نفسها رصاصة في قاعة الحفلات حيث كان خايمي برفقة عشيقته. بل ويبدو أن زوجة أربينس نفسها، ماريا كريستينا بيلانوبا الشهيرة، مُدَّعية الثقافة والفنّ، كانت تخونه مع رجل كوبي، مُعلِّم لغة ألمانية. فعرف أربينس بأمر خيانتها واضطُرّ إلى تجرّع مذلَّة القِوادة في صمت. والأدهى من ذلك أن ابنته الأخرى، ليونورا، التي نزلَت في عدة مستشفيات للأمراض العقلية، انتحرَت هي الأخرى منذ أعوام قليلة. الأمر برمّته قضى عليه، وجعله يستسلم لمعاقرة الشراب. وفي واحدة من نوبات السكر، غرق داخل المغطس، هناك، في المكسيك. أو لعلّه قد انتحر. على كل حال، آمل أن يكون قد ندم على جرائمه قبل الموت، وأن يتغمَّده الرَّب برحمته.

ترسم على وجهها أمارات الحزن الجارف، ثم ترسم علامة الصليب، وتعاود التنهّد عميقًا، عدة مرات.

أسألها عما إذا كانت قد اعترفَت لخوان خوسيه أريبالو هو الآخر ببعض المزايا، على مرِّ السنين.

ـ لا أعترف له بمزية واحدة. ـ تؤكِّد على نحو قاطع، وقد تملَّكها الآن غضب عارم ـ لأنه، بصفته رئيسًا، قد مهَّد الطريق للمصائب التي جرَّتها حكومة أربينس على غواتيمالا. زد على ذلك أنه كان يريد الفوز بجميع النساء، على عكس أربينس، الذي كان زاهدًا بعيد في حياته

الشخصية إلى حدٍّ. ألا تذكر أنه قتل راقصتَيْن روسيتَيْن مسكينتَيْن، اصطحبهما أريبالو وصديق له إلى حفل ماجن؟ لا شكّ أنهما كانا تحت تأثير الشراب عندما وقع الحادث على الطريق وأسفر عن مصرع الفتاتَيْن. من المُؤكَّد أن أحدًا لم يحمِّلهما أي مسؤولية، لا أريبالو ولا الوقح الآخر الذي كان برفقته في السيارة.

تسكت طويلاً كي تتناول بعض الأدوية. وحين تخرج مُدبِّرة المنزل من الحجرة، أبادرها بالسؤال:

ـ هل لكِ أن تخبريني بشيء عن علاقتك بالسي آي إيه يا سيدة مارتا؟ يعتقد الكثير من أصدقاء كاستيّو أرماس أنكِ عملتِ لصالح تلك المنظمة حين قطعَت الولايات المتحدة دعمها المُقدَّم إلى الكولونيل، لأنها وجدَته عاجزًا عن قيادة الثورة المضادة بحقّ، وقرَّرَت أن تستبدل به شخصًا أوفر حظًّا من الحيوية والكاريزما، مثل الجنرال ميغيل إديغوراس فوينتيس.

ـ تلك مسألة حساسة، الأفضل ألاَّ نتطرَّق لها. ـ تقول لي بصرامة، من دون غضب، وهي تتحلَّى بالجدية. تنشب فيَّ عينَيْها وكأنها تريد أن تصلبني على المقعد.

على الرغم من ذلك، أصرُّ على الكلام، خشية الأسوأ:

ـ إن مُجرَّد وصولكِ إلى الولايات المتحدة بمثل هذه السرعة، حين اضطررتِ إلى الخروج من جمهورية الدومينيكان، وحصولك على الإقامة ثم الجنسية في الحال تقريبًا، حجةٌ يدفع بها أولئك الذين يرون أنكِ قدَّمتِ خدمات ثمينة جدًّا لوكالة السي آي إيه، يا سيدة مارتا.

ـ إذا واصلتَ التوغّل في هذا الطريق، سأُضطَرّ إلى طلب إنهاء المقابلة فورًا. ـ تغمغم.

لم ترفع صوتها، وإن تفوَّهَت بكل كلمة بجدية مميتة. ثم وقفَت مستعينة بالعكاز، باذلةً في سبيل ذلك جهدًا كبيرًا.

أعتذر، وأتعهَّد لها بألاّ أعاود ذكر المسألة التي ضاقَت بها كل هذا الضيق، وفي النهاية تجلس مرة أخرى. ولكن من الواضح أنني قد لمست مسألة في غاية الحساسية، تضيق بها وتنزعج منها. بدءًا من تلك اللحظة، يتبدَّل أسلوبها. تفقد عفويتها، وتتصلَّب، وتغدو نظراتها عدوانية، وإذا بشيء يبثّ في الجو برودة. لعلّها صارت تعتبرني عدوًا؟ أو ربما كانت تراني شيوعيًا مُتخفيًا؟ طوال البقية الباقية من الحديث، لا تبدو لي عفوية، ولا تستسلم للمزاح مرة أخرى. أرى الحديث وقد خمد، ولم تعُد أمامي طريقة واحدة لأحصل منها على شيء يستحقّ العناء، فلا أجد بديلاً عن شكرها لأنها قد استقبلَتني، ثم أودِّعها. في الختام، تقول وهي على أعتاب الباب الذي تصحبني إليه:

ـ لا تشغل نفسك بإرسال كتابك متى صدر يا سيد ماريو. فأنا لن أقرأه تحت أي ظروف. ولكني أحذِّرك بأن محاميي سوف يقرؤونه.

في الليلة نفسها، ألتقي بسوليداد ألباريس وتوني رافول للتعقيب على تلك التجربة في مطعم بواشنطن، مقهى ميلانو، الذي يقع في چورچتاون، ذلك المكان المفعم بالحيوية، الصاخب، الحافل بالناس دومًا، حيث تُقدَّم المكرونة الشهية وصنوف النبيذ الإيطالية الممتازة. حجزنا طاولة هنا، حيث يمكننا تجاذب أطراف الحديث في هدوء. أتَّفق وسوليداد على أن توني قد أحسن صنعًا بالامتناع عن إرسال نسخة من كتابه الأخير إلى مارتا، فمن المُؤكَّد أنها ما كانت لتسرّ بتلك القراءة. ومع أن توني يكتب عنها بمودة وامتنان، فهو يحكي الكثير من الأمور التي لا شكّ أنها تؤثر عدم التطرّق إليها، أو عدم التطرّق إليها بالصراحة التي تظهر بها في الكتاب.

اتَّفق ثلاثتنا على أن زيارتي إلى «ميس غواتيمالا» الأصلية تستحقّ العناء، وإن قدَّمَت لي من الأسئلة أكثر مما أعطَتني من الأجوبة. وبالاستناد إلى ما قالت وما لم تقُل، ولا سيما الطريقة التي كلَّمَتني بها

والضيق الذي استحوذ عليها في نهاية الحديث، خلصتُ إلى نتيجة مفادها أن مارتا قد عملَت لحساب السي آي إيه، بما لا يدع مجالاً للشك، وقدَّمَت خدمات مهمة لتلك المنظمة ذائعة الصيت. كلاهما يوافقني الرأي. وإن اختلفنا على تورّطها في اغتيال كاستيّو أرماس. هل كانت على اطلاع بالعملية قبل وقوعها وتدخَّلَت بوعي منها في التجهيزات التي جرَت استعدادًا لقتل الرئيس أم أنها وجدَت نفسها منجرفة إلى ذلك شيئًا فشيئًا، من دون أن تدرك ما يحدث، بسبب العلاقة التي جمعَتها بكلٍّ من أبيس غارسيا ورجل السي آي إيه في غواتيمالا؟ نخوض في الأمر حينًا، فلا نخلص إلى نتيجة واحدة. ومع ذلك، نتَّفق على أنها، عندما أدركَت سعي المُقدِّم إنريكي ترينيداد أوليبا إلى توريطها في اغتيال الرئيس، لم تجد أمامها بديلاً عن الهرب، وكأنها مذنبة مثل چوني أبيس والرجل الذي لا يُدعِى مايك. قد يكون ذلك الحبّ الذي تجاهر به نحو كاستيّو أرماس حقيقيًا، لا مُجرَّد وخزة ندم شعرَت بها في أعقاب موته بسبب تورّطها المُحتمَل في اغتياله رغمًا عنها. ومع ذلك، فربما كانت تلك مناورة أخرى تراوغ بها التحقيقات والخيوط والشكوك التي قد تفضي إليها.

يتَّفق ثلاثتنا على أن الإعداد لذلك الانقلاب العسكري ضد أربينس خرقٌ كبير من جانب الولايات المتحدة التي وضعَت الكولونيل كاستيّو أرماس في الواجهة، على رأس المؤامرة. كان النصر الذي تحقَّق لها عابرًا، بلا جدوى، بل ويؤدِّي عكس النتيجة المرجوة، إذ ألهب مشاعر العداء تجاه الولايات المتحدة في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية، وأدَّى إلى تقوية الأحزاب الماركسية والتروتسكية والفيديلية. كما أسبغ طابعًا راديكاليًا على حركة ٢٦ يوليو بقيادة فيديل كاسترو، ودفعها إلى الشيوعية، فاستخلص الأخير مما جرى في غواتيمالا نتائج هي الأكثر وضوحًا. ولا ننسَ أن تشي جيفارا، الرجل الثاني في الثورة الكوبية، كان

في غواتيمالا إبان الغزو، حيث عاش على بيع الموسوعات من بيت إلى بيت. وهناك تعرَّف بالمرأة البيروانية هيلدا غاديا، زوجته الأولى، وحاول الانضمام إلى الميليشيات الشعبية التي لم يتمكَّن أربينس من تشكيلها قطّ، في أثناء الغزو الذي شنّه كاستيّو أرماس. ثم اضطُرّ إلى اللجوء لدى سفارة الأرجنتين لئلاَّ يقع ضحية حملات المداهمة التي انطلقَت في غمرة هيستيريا معاداة الشيوعية التي خيَّمَت على البلد في تلك الأيام. ولكن، يُرجَّح أنه خرج من ذلك الوضع ببعض الاستنتاجات التي أدَّت إلى وضع مأساوي في كوبا، ومن بينها: أن الثورة الحقيقية لا بدّ لها من تصفية الجيش كي تعزِّز قوتها، الأمر الذي لا شكّ أنه يفسِّر إعدام العسكريين الجماعي رميًا بالرصاص في حصن لاكابانيا، تحت إشراف إرنستو جيفارا شخصيًّا. ومن هنا أيضًا ظهرَت تلك الفكرة المنادية بضرورة تحالف كوبا الثورية والاتحاد السوفييتي، وتبنِّي الشيوعية، إن شاءت جزيرة كوبا التحصّن من الضغوط التي تمارسها الولايات المتحدة والمقاطعة والاعتداءات المحتملة. ربما تغيَّر تاريخ كوبا لو وافقَت الولايات المتحدة على تحديث غواتيمالا وإقامة النظام الديمقراطي فيها، الأمر الذي سعى إليه كلٌّ من أريبالو وأربينس. ولقد أعلن فيديل كاسترو أن التحديث وإرساء النظام الديمقراطي هو ما يريده للمجتمع الكوبي حين وقع الاعتداء على ثكنة مونكادا في السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢، في سانتياغو دي كوبا. عند ذاك، كان بعيدًا عن الشطط الجماعي الديكتاتوري الذي من شأنه أن يُجمِّد كوبا حتى الآن في ديكتاتورية عفا عليها الزمن، محكمة الإغلاق، لا يُسمَح فيها بأدنى حد من الحرية. والدليل على ذلك خطابه «سوف يبرِّئني التاريخ» الذي ألقاه ماثلاً أمام المحكمة التي قاضَته على تلك المحاولة. ولكن الآثار المُترتِّبة على انتصار كاستيّو أرماس في باقي أنحاء أمريكا اللاتينية لم تكُن أقلّ خطورة، ولا سيما في غواتيمالا. فعلى مدى عقود، انتشر الإرهاب

وكثُرَت جماعات حرب العصابات والحكومات الديكتاتورية المُؤلَّفة من عسكريين يمارسون القتل والتعذيب وينهبون بلدانهم، ويؤخِّرون الحلّ الديمقراطي طوال نصف قرن. وفي المحصلة النهائية، أدَّى تدخّل الولايات المتحدة في غواتيمالا إلى تأخير إقامة الديمقراطية في القارة عشرات السنين، وأسفر عن سقوط آلاف القتلى، وساهم في نشر أسطورة الثورة المُسلَّحة والاشتراكية في أمريكا اللاتينية بأسرها. وطوال ما لا يقلّ عن ثلاثة أجيال، أقدم الشباب على القتل والتضحية بحياتهم في سبيل حلم آخر مستحيل، أشدّ راديكالية ومأساوية من حلم خاكوبو أربينس.

تمت

مكتبة
t.me/t_pdf

قائمة الشخصيات التاريخية

جدير بالذكر أن القائمة التالية لا تضمّ جميع الشخصيات التاريخية الوارد ذكرها في الرواية، وإنما تقتصر على عدد من الشخصيات المهمة في السياق التاريخي والسياسي، من أمثال الرؤساء والقادة اللاتينيين إبان الحقبة التي تقع فيها أحداث الرواية. كما لا تعدو كل نبذة أن تكون مفتاحًا يسترشد به القارئ الراغب في البحث والاستزادة. (المترجم)

- **أيزنهاور Eisenhower** (١٨٩٠ ـ ١٩٦٩): سياسي وعسكري شغل منصب رئيس الولايات المتحدة ما بين عامَي ١٩٥٣ و١٩٦١.
- **إدوارد ل بيرنيز Edward L. Bernays** (١٨٩١ ـ ١٩٩٥): نمساوي أمريكي، يُعتبَر هو رائد مجال العلاقات العامة و«البروباغاندا»، وابن شقيق سيغموند فرويد.
- **إسترادا كابريرا Estrada Cabrera** (١٨٥٧ ـ ١٩٢٤): عسكري تولّى رئاسة رئيس غواتيمالا من ١٨٩٨ إلى ١٩٢٠.
- **إكتور بيينبينيدو تروخيّو مولينا (الشهير بلقب «النيغرو») Héctor Bienvenido Trujillo Molina** (١٩٠٨ ـ ٢٠٠٢): تولّى رئاسة جمهورية الدومينيكان صوريًا، وهو شقيق رافاييل ليونيداس تروخيّو، الديكتاتور والحاكم الحقيقي.
- **إنريكي پيرالتا أسورديا Enrique Peralta Azurdia** (١٩٠٨ ـ ١٩٩٧): عسكري غواتيمالي تولّى منصب الرئاسة بعد الانقلاب الذي أطاح بميغيل إديغوراس فوينتيس.

ـ **ألن دالاس Allen Dulles** (١٨٩٣ ـ ١٩٦٩): محام أمريكي شغل منصب مدير وكالة الاستخبارات المركزية/السي آي إيه.

ـ **أناستاسيو سوموسا Anastasio Somoza** (١٩٢٥ ـ ١٩٨٠): عسكري فرض حكمًا ديكتاتوريًا في نيكاراغوا.

ـ **أوسكار أوسوريو Óscar Osorio** (١٩١٠ ـ ١٩٦٩): عضو في مجلس الحكومة الثوري في سالفادور، كما شغل منصب الرئيس ما بين عامي ١٩٥٠ و١٩٥٦.

ـ **بابا دوك Papa Doc**: انظر فرانسوا دوڤالييه.

ـ **بيكتور مانويل غوتييرّيس Víctor Manuel Gutiérrez** (١٩٢٢ ـ ١٩٦٦): مستشار الرئاسة في غواتيمالا، كما شغل منصب الأمين العام لاتحاد نقابات العمال والفلاحين.

ـ **پاس إستينسورو Paz Estenssoro** (١٩٠٧ ـ ٢٠٠١): سياسي ومحام شغل رئاسة بوليفيا.

ـ **پيريس خيمينيث Pérez Jiménez** (١٩١٤ ـ ٢٠٠١): سياسي وعسكري شغل منصب الرئاسة في فنزويلا.

ـ **چون إميل پيوريفوي John Emil Peurifoy** (١٩٠٧ ـ ١٩٥٥): دبلوماسي أمريكي تولّى منصب السفير لدى اليونان وغواتيمالا وتايلاندا.

ـ **چون فوستر دالاس John Foster Dulles** (١٨٨٨ ـ ١٩٥٩): سياسي أمريكي شغل منصب وزير الخارجية في عهد الرئيس أيزنهاور.

ـ **خوان پابلو دوارتي Juan Pablo Duarte** (١٨١٣ ـ ١٨٧٦): كاتب وناشط وعسكري يُعَدّ من آباء الوطن مُؤسّسي جمهورية الدومينيكان.

ـ **خوان خوسيه أريبالو Juan José Arévalo** (١٩٠٤ ـ ١٩٩٠): مُعلِّم وسياسي شغل منصب الرئاسة في غواتيمالا ما بين عامي ١٩٤٥ و١٩٥١.

ـ **خوان مانويل غالبيس Juan Manuel Gálvez** (١٨٨٧ ـ ١٩٧٢): محامٍ وسياسي شغل منصب الرئاسة في هندوراس بين عامَي ١٩٤٩ و١٩٥٤.

- **خورخي أوبيكو كاستانييدا Jorge Ubico Castañeda** (١٨٧٨ ـ ١٩٤٦): جنرال عسكري، حكم غواتيمالا ابتداءً من عام ١٩٣٣ حتى أطاح به الحراك المناهض للديكتاتورية عام ١٩٤٤.

- **خوسيه فيغيريس José Figueres** (١٩٠٦ ـ ١٩٩٠): رجل أعمال وسياسي شغل منصب الرئاسة في كوستا ريكا ثلاثة فترات: ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ و١٩٥٣ ـ ١٩٥٨ و١٩٧٠ ـ ١٩٧٤.

- **خوسيه مانويل فورتوني José Manuel Fortuny** (١٩١٦ ـ ٢٠٠٥): صحافي وسياسي تولّى رئاسة الحركة الديمقراطية اليسارية المعروفة باسم حزب العمل الثوري، وبعد ذلك ساهم في تأسيس الحزب العمالي الغواتيمالي الشيوعي.

- **رافاييل ليونيداس تروخيّو Rafael Leonidas Trujillo** (١٨٩١ ـ ١٩٦١): ديكتاتور فرض حكمه على جمهورية الدومينيكان منذ عام ١٩٣٠ وحتى مقتله عام ١٩٦١.

- **روخاس پينيّا Rojas Pinilla** (١٩٠٠ ـ ١٩٧٥): عسكري وصل إلى حكم كولومبيا بعد انقلاب عسكري، وشغل منصب الرئاسة ما بين عامي ١٩٥٣ و١٩٥٧.

- **فرانكلين د. روزفلت Franklin D. Roosevelt** (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥): سياسي ومحامٍ شغل منصب الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية ما بين عامَي ١٩٣٣ و١٩٤٥.

- **رومولو بيتانكورت Rómulo Betancourt** (١٩٠٨ ـ ١٩٨١): سياسي وصحافي شغل منصب الرئاسة في فنزويلا طوال الفترتَيْن ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ و ١٩٥٩ ـ ١٩٦٤.

- **ريتشارد نيكسون Richard Nixon** (١٩١٣ ـ ١٩٩٤): رئيس الولايات المتحدة ما بين عامَي ١٩٦٩ و١٩٧٤.

ـ **سام زيموراي Sam Zemurray** (١٨٧٧ ـ ١٩٦١): رجل أعمال أمريكي من أصل روسي، ومُؤسِّس شركة يونايتد فروت العملاقة.

ـ **فرانثيسكو فرانكو Francisco Franco**(١٨٩٢ ـ ١٩٧٥): ديكتاتور عسكري فرض حكمًا ديكتاتوريًا على إسبانيا بعد الحرب الأهلية.

ـ **فرانسوا دوڤاليه François Duvalier** (١٩٠٧ ـ ١٩٧١): طبيب وسياسي فرض حكمًا ديكتاتوريًا على هايتي حتى وفاته، واشتهر بلقب «بابا دوك».

ـ **فرانسيسكو خابيير أرانا Francisco Javier Arana** (١٩٠٥ ـ ١٩٤٩): عسكري غواتيمالي شارك في المجلس الثوري عام ١٩٤٤.

ـ **فرانك ويزنر Frank Wisner** (١٩٠٩ ـ ١٩٦٥): من مُؤسِّسي وكالة الاستخبارات المركزية / السي آي إيه.

ـ **فيدريكو پونسي بايديس Federico Ponce Vaides** (١٩٨٩ ـ ١٩٥٦): سياسي وعسكري غواتيمالي، شغل منصب الرئاسة من يوليو إلى أكتوبر من عام ١٩٤٤.

ـ **كارلوس إنريكي دياس Carlos Enrique Díaz**: قائد الجيش الغواتيمالي، شغل منصب الرئاسة بصفة مُؤقَّتة، من ٢٧ إلى ٢٩ يونيو من عام ١٩٥٤.

ـ **كارلوس كاستيو أرماس Carlos Castillo Armas** (١٩١٤ ـ ١٩٥٧): عسكري غواتيمالي، قاد الانقلاب العسكري الذي حمله إلى الرئاسة من عام ١٩٥٤ وحتى مقتله عام ١٩٥٧.

ـ **مانويل أودريا Manuel Odría** (١٨٩٦ ـ ١٩٧٤): عسكري وسياسي من بيرو، شغل منصب الرئاسة ما بين عامَي ١٩٤٨ و١٩٥٦.

ـ **مونيوس مارين Muñoz Marín** (١٨٩٨ ـ ١٩٨٠): صحافي وسياسي يُعَدّ هو أول حاكم منتخب لبورتو ريكو.

ـ **ميغيل إديغوراس فوينتيس Miguel Ydígoras Fuentes** (١٨٩٥ ـ ١٩٨٢): سياسي وعسكري غواتيمالي، شغل منصب الرئاسة بعد اغتيال كارلوس كاستيّو أرماس، ما بين عامَي ١٩٥٨ و١٩٦٣.

شكر وعرفان

أتقدَّم بالشكر للسيدة ماريا إوخينيو كورديّو، مديرة أرشيف الصحافة القومية في غواتيمالا، التي زوَّدَتني بالصحف اليومية والمجلات الصادرة في الحقبة التي جرَت خلالها حوادث هذه الرواية.

كما أشكر جامعة فرانسيسكو مارّوكين، في غواتيمالا، وأتقدَّم بشكر خاص جدًّا لنائب رئيس الجامعة آنذاك، خابيير فرنانديس لاسكيتّي، على المساعدة الكبيرة التي تلقَّيتُها إذ سُمِح لي بالعمل في مكتبة الجامعة الممتازة.

وأشكر صديقي بيرسي ستورمونت، واسع الاطّلاع على أرضه، لأنه صحبني في رحلة قطعنا خلالها الحدود الفاصلة بين هندوراس وغواتيمالا، وزرنا مواقع جرَت فيها التحرّكات العسكرية التي تخلَّلَت عصيان كاستيّو أرماس المُسلَّح، ولأنه كشف لي أسرار مدينة غواتيمالا.

وأشكر فرانسيسكو بيريس دي أنتون، ومايتي ريكو، وبرتراند دي لا غرانخي، وخورخي مانسانيًا، وكارلوس غرانيس، وغلوريا غوتييرّيس، وبيلار ريسيس، وألبارو بارغاس يوسا، على مساعدتهم السخية. وأتقدَّم بشكر خاص لأولئك الذين أهديهم هذه الرواية: توني رافول، وسوليداد ألباريس، وبِرناردو بيغا.

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة

هذا الكتاب

telegram @t_pdf

ذات ليلة من ليالي الشتاء، منذ أعوام طوال، سمعَت طرقًا على باب بيتها، البيت الذي نحن فيه الآن. بارتياب، ذهبَت لتفتح الباب، فوجدَت في الشارع رجلاً يتخفَّى بمعطف فضفاض ووشاح يتدلَّى حتى يبلغ قدمَيْه. ولكنها ما لبثَت أن تعرَّفت بصوته حين سمعَته يقول: «ألم تتعرَّفي بي يا مارتيتا؟». استحوذَت عليها الحيرة والمفاجأة، بطبيعة الحال، وبعد ذلك سمحَت له بالدخول إلى الصالة نفسها، حيث كان عدد الطيور أقلّ حينذاك. تجاذبا أطراف الحديث حتى مطلع الفجر، طوال ساعات تناولا خلالها فناجين الشاي واسترجعا مغامرات الماضي. اعترف لها بأنها الوحيدة التي أخبرها بأنه ما زال على قيد الحياة، دونًا عن معارفه القدامى.

الغلاف : سكينة صلوّن

ISBN 978-9922630182
9 789922 630182